

مكتبة الدراسات الأدبية

٨

الدكتور يوسف خليل

# الشعر الصعاليك في العصر الجاهلي



دار المعارف



## الفهرس

صفحة	
٩ - ٧	مقدمة الطبعة الثانية
١٧ - ١١	مقدمة الطبعة الأولى
	الباب الأول : الصعاليك
٦١ ~ ٢١	الفصل الأول : التعريف بالصعلكة
٢١	١ - في اللغة
٢٤	٢ - في الاستعمال الأدبي
٢٨	٣ - في المجتمع الجاهل
٨٨ - ٦٣	الفصل الثاني : التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة
٦٣	١ - أهمية العامل الجغرافي
٦٣	٢ - جزيرة العرب
٧٢	٣ - التضاد الجغرافي وأثره في نشأة حركة الصعاليك
٧٧	٤ - التضاد الجغرافي وأثره في توجيه حركات الصعاليك
١٢١ - ٨٩	الفصل الثالث : التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة
٨٩	١ - القبيلة
٩١	٢ - إيمان القبيلة بوحفتها
١٠٣	٣ - إيمان القبيلة بمجنسها
١١٦	٤ - الصعاليك والمجتمع القبلي
١٥١ - ١٢٣	الفصل الرابع : التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة
١٢٣	١ - العرب والتجارة
١٢٥	٢ - الطرق التجارية
١٢٨	٣ - الأسواق
١٣٤	٤ - الصراع الاقتصادي في المدن التجارية
١٣٨	٥ - الصراع الاقتصادي في البادية
	الباب الثاني : شعر الصعاليك
١٨١ - ١٥٣	الفصل الأول : ديوان الصعاليك
١٥٣	١ - مصادر
١٦٩	٢ - مادة
٢٥٨ - ١٨٢	الفصل الثاني : موضوعات شعر الصعاليك



١ - الشعر داخل دائرة الصعلكة	١
أحاديث المغامرات	١
شعر المراقب	٢
التوعد والتهديد	١
وصف الأسلحة	٤
الحديث عن الرقاق	٥
أحاديث الفرار	٦
سرعة العدو	٥
الغزوات على الخيل	٢٧
الآراء الاجتماعية والاقتصادية	٢٩
أحاديث التشرد	٤٠
٢ - الشعر خارج دائرة الصعلكة	٤٨
آثار القبلىة في شعرهم	٤٨
المجموعة الإسلامية في شعرهم	١٥٢
الفصل الثالث : الظواهر الفنية في شعر الصعاليك	٢٥٩ - ٢٦٩
١ - شعر مقطوعات	٢٥٩
٢ - الوحدة الموضوعية	٢٦٤
٣ - التخلص من المقدمات الطويلة	٢٦٨
٤ - عدم الحرص على التصريح	٢٧٤
٥ - التحلل من الشخصية القبلىة	٢٧٦
٦ - القصصية	٢٧٨
٧ - الواقعية	٢٨٢
٨ - السرعة الفنية	٢٩١
٩ - آثار من الصنعة المتأنية	٣٠٧
١٠ - الخصائص الفنية	٣١٢
١١ - ظواهر عروضية	٣١٦
الفصل الرابع : شخصيتان متميزتان	٣٢٠ - ٣٣٨
١ - تشابه وتميز	٣٢٠
٢ - صروة بن الورد	٣٢٢
٣ - الشنفرى	٣٣٠
الخاتمة	٣٣٩ - ٣٤٤
المصادر والمراجع	٣٤٥ - ٣٥٠

١٩٧٨/٣٤٤٠

رقم الإيداع

ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٣١٤-٣

الترقيم الدولي

٧٨/٨٠ ق

الشّعراء الضّعاليك  
في العصر الجاهلي



مكتبة الدراسات الأدبية

٨

# الشعر الصعاليك في العصر الجاهلي

تأليف

الدكتور يوسف خليف

الأستاذ المساعد في كلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة



دارالمغارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة (ج.م.ع.)



إلى ذكرى والديّ ، رحمهما الله ،  
الذين تعهداني بالتنشئة والتوجيه  
حتى وصلت إلى ما كنت أصبو إليه ،  
أتقدم بهذه الثمرة الأولى من غرمهما .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة الطبعة الثانية

لا تكاد هذه الطبعة الجديدة تختلف عن الطبعة السابقة في شيء أساسي ، فلم أدخل عليها إلا تعديلات يسيرة لبعض العبارات ، وإضافات قليلة لبعض الشروح . وعلى الرغم من أن صلتى بموضوع «الصعاليك» لم تنقطع طوال هذه السنين التي مضت على ظهور الكتاب ، فإن النتائج التي كنت قد انتهيت إليها في هذا البحث لم تتغير ، بل لقد زادتني هذه السنين إيماناً واقتناعاً بها . حتى المصادر التي أُتيحت لي الاطلاع عليها في هذه السنين ، ولم تكن الفرص قد أتاحت لي الاطلاع عليها من قبل ، لم تُقدّم لي جديداً يفيد البحث أو يُغيّر من نتائجه :

وقد كنت تمنيتُ - وأنا أُعيد هذا البحث - لو أُتيحت لي فرصة الاطلاع على ديوان تأبط شراً الذي جمعه ابنُ جنّي ، والذي يذكر بروكلمان أنه مخطوط في الإسكوريال . ثم أُتيحت لي في الأيام الأخيرة فرصة الاطلاع على هذا المخطوط ، فلم أجده ديواناً لتأبط شراً ولا شبهة ديوان ، وإنما هو مختارات قليلة اختارها ابنُ جنّي من ديوان تأبط شراً الذي كان موجوداً عنده كما يذكر صاحب الخزنة ، وهي مختارات لم أجده فيها جديداً أضيفه إلى البحث .

على أنني أريد هنا أن أؤكد - بصفة خاصة - فكرة كشر الجدل حولها في هذه السنين ، وهي فكرة «اشترائية الصعاليك» التي أدّرت حولها بحثي ، وفُسّرت في ضوءها هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المجتمع الجاهلي ، وخاصة عند عمرو بن الورد الذي تراءى لي داعية من دعاة

الاشتراكية في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإنسانية . فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنى تعسفت في تفسير الشر الجاهلي هنا التفسير الاقتصادي ، وأنى حملت النصوص والأخبار القديمة ما تشؤ به من مصطلحات حديثة ترتبط في أذهان الناس بمفاهيم خاصة لم يعرفها العصر الجاهلي ، ولم تدرك في حلد هؤلاء الشعراء القدماء .

وأنا لم أزعم أن ثورة الصعاليك في العصر الجاهلي كانت ثورة اشتراكية قائمة على أساس المذهب الاشتراكي كما تعرفه مجتمعاتنا المعاصرة ، فمثل هذا التفسير يبعد - بدون شك - تعسفاً لا يتفق مع المنهجية الجامعية ، فما من شك في أن هناك فروقاً جوهرية بين الاتجاهين سواء في الفلسفة النظرية أو في التطبيق العملي . وإنما الذي ذهب إليه هو أن في شر الصعاليك وأخبارهم ، وخاصة عروة بن الورد ، أفكاراً تتصل بمشكلة الفقر والغنى في المجتمع الجاهلي ، وتنادى بثورة المستضعفين من فقراء هذا المجتمع والمضطهدين فيه على طبقة المالة من الأغنياء المتخمين وخاصة البخلاء منهم ، وأن هذه الثورة كانت تستهدف تحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي في هذا المجتمع . وإذا كانت هذه الأفكار لم تأخذ شكل نظرية علمية دقيقة ، أو شكل فلسفة اقتصادية متكاملة ، وإذا كان التطبيق العملي لهذه الأفكار سلك أسلوباً فردياً أقرب إلى الفوضوية منه إلى أساليب التنفيذ العملي المنظم في الاشتراكية الحديثة ، فإن هذا كله لا يمنع من القول بأن هذه الأفكار كانت تنطوي على إحساس عميق بمشكلات المجتمع الاقتصادية ، ومحاولة جادة لحلها ، وأن هذا - بدون شك - كان يمثل صراعاً بين طبقة الفقراء ممثلة في هؤلاء الصعاليك العاملين ، وطبقة المالة ممثلة في هؤلاء الأغنياء البخلاء ، وهو صراع كان يضم في أعماقه براعم لم تفتح تماماً من النظرية الاشتراكية الحديثة .

وما من شك في أن الصعلكة عند عروة بالذات كانت - كما قلت في

هذا البحث - « نزعة إنسانية ذيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ،  
والغنى للفقير ، وفكرة اشتراكية تُشترك الفقراء في مال الأغنياء ، وتجعل لهم  
فيه نصيباً ، بل حقاً يقتصبونه إن لم يؤدّ لهم » .

وبعد ، فكل ما أطمع فيه أن أكون قد نجحت في إتصاف هؤلاء  
الصعاليك ، ووضعهم في مكانهم الطبيعي في تاريخنا العربي الخالد ،  
وأن أكون قد لفت أنظار الباحثين إلى أن في تراثنا القديم جوانب  
تحتاج إلى إعادة النظر فيها في أضواء جديدة .

والله نسأل أن يبيننا الخطأ ، ويعصمنا من الزلل .

يوسف خليف

القاهرة في مايو ١٩٦٦





## مقدمة الطبعة الأولى

### ١

ليست دراسة العصر الجاهلي بالمسألة اليسيرة القريبة المنال ، وإنما هي مسألة غامضة ومتشعبة وصعبة .

أما غموضها فيرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، فهو عصر يمتد القهقري من ظهور الإسلام إلى حيث لا ندرى ، أو هو تلك الفترة الغامضة من فترات التاريخ العربى التى يصح أن نطلق عليها « عصر ما قبل التاريخ العربى » ، على أساس أن التاريخ العربى فى صورته الدقيقة الثابتة إنما يبدأ منذ ظهور الإسلام الذى جعل من العرب أمة واحدة ذات كيان متميز متماسك ، تسلك سبيلها فى التاريخ ، سبيلاً واضحة المعالم . فهو عصر أكثر فتراته ضائعة مجهولة ، وأقلها مشكوك فيها ، وحسبنا أن نقول إننا لا نكاد نعرف عنه شيئاً منذ بدايته إلى ما قبل ظهور الإسلام بحوالى قرن ونصف قرن ، وإنما هى طائفة من الأساطير والأقاصيص ، إن تكن ذات قيمة لطائفة من العلماء فإنها عديمة القيمة تقريباً للباحثين فى الأدب العربى . وحين تبدأ معلومات هذا العصر تصل إلينا يقف دون وضوحها أو الاطمئنان إليها أمران : فهى — من ناحية — تتحدث عن مجتمع بدوى بَعْدَ العهد به ، وهى — من ناحية أخرى — معلومات لم تدوّن إلا فى عصور متأخرة ، وظلت شفاه الرواة تتناقلها حتى دوت ، بعد أن دخلها — بطبيعة الحال — شىء قليل أو كثير من التحريف والضياع والانتحال . ومن هنا نشأت فكرة الشك فيما وصل إلينا من أخبار ونصوص عن هذا العصر . ومن هنا أيضاً وُجدت فكرة الغموض : غموض العصر الذى لا نستطيع تمثله التمثيل الدقيق الواضح ، وغموض المعلومات التى لا نستطيع الاطمئنان إليها اطمئناناً تاماً .

وهي مسألة متشعبة، لأنها تتصل بمجتمع رَعَوِي - في مجموعه - لم يعرف الاستقرار . ومن هنا لم تتعرف ظواهره الاجتماعية الاستقرار الذي يسر على الباحث دراستها دراسة دقيقة كاملة . ثم هو - إلى جانب هذا - مجتمع يدين بالحرية الفردية إلى أبعد حد ، لم يعرف - إلا في بعض أجزائه - النظام السياسي الذي يهيئ للباحث تحديد جوانب دراسته : لأنه يقف أمام طائفة من الظواهر الفردية تتعدد بتعدد الأفراد أو الجماعات التي هي في حكم الأفراد ، فلم تكن الجماعات التي عرفها المجتمع الجاهلي سوى مجموعات من الأفراد تدين بالحرية الفردية ، وإن تكن حرية حاول أصحابها - تحقيقاً لصورة ما من صور الجماعة - أن يلونوها بلون اجتماعي .

ثم هي مسألة - بعد هذا وذاك - صعبة ، لأنها غامضة ومتشعبة . ولكني مع ذلك - ولا أدري لماذا ؟ - مفتون بهذا العصر الجاهلي فتنة ترجع إلى عهد بعيد ، وكل ما أتمناه أن تتحول هذه الفتنة إلى إيجابية فعالة تُحطِّم من هذه الصخرة العاتية ، صخرة هذا العصر .

## ٢

من هذه الزاوية من زوايا النظر لم أحاول - حين فكرت في دراسة العصر الجاهلي - أن أقف منه موقفاً عاماً شاملاً ، أو أن أنظر إليه من عكس نظرة مُشرِّفة واسعة الأفق ، وإنما حاولت أن أتخير - خطوة أولى لدراسته - جانباً من جوانبه أقف عنده وقفة عميقة ، وأنظر إليه نظرة معمقة فاحصة ، حتى لا تضل دراستي بين شعاب الصحراء الفسيحة المترامية الممتدة إلى ما وراء مطارح البصر .

وشغلتنى مهمة الاختيار هذه فترة من الزمن ، كنت في أثنائها أستعرض الجوانب المتعددة لهذا العصر ، وكلها يستحق الدرس والبحث . ثم قفز إلى ذهني موضوع « الصعاليك » ، وأنخذت أسهمه في الصعود .

قفز هذا الموضوع إلى ذهني لأنه موضوع لم يُعَنّ به الباحثون من قبل ، ولم يقفوا عنده ، ولم يشغلوا أنفسهم به ، وأخذت أسهمه في الصعود لما كنت أشعر به من أهميته ، وطرافته ، وتحديدته ، وتمثيله ظاهرة متميزة من ظواهر العصر الجاهلي .

ويقف موضوع الصعاليك في تاريخ الأدب العربي كذلك المراقب الشمّ الشاعنة التي أطال في الحديث عنها شعراؤهم ، والتي لم يكن أحد غيرهم يستطيع أو حتى يجرؤ على الصعود إليها ، يحوم حوله الباحثون ثم يتجنبون المغامرة باقتحامه ، أو ينظرون إليه نظرة خاطفة دون إقدام على الاقتراب منه ، مع اعترافهم بأنه موضوع في حاجة إلى البحث والدرس ، كأنه منطقة خطيرة من تلك المناطق التي كان الصعاليك يمارسون فيها نشاطهم الدامي الرهيب ، وكأنما كُتب على هؤلاء الصعاليك الذين لم يلقوا من مجتمعهم عناية أو اهتماماً في حياتهم أن تظل اللعنة تلاحقهم طوال تلك القرون المتعاقبة بعدهم ، وكأنما كتب على هؤلاء المشردين في آفاق الأرض أن يظلوا مشردين في أعماق الكتب والأسفار .

وفي أذهان الناس عن الصعاليك صورة غامضة غير مشرقة ، تكسوها ظلال قائمة تحجب كثيراً من معالمها وخطوطها ، وتغشّيها سحب دُكُن تخفي وراءها كثيراً من النور والضياء ، وينقصها كثيرٌ من الأضواء الكاشفة تعجلو عنها ظلالها القائمة ، وتبعد عنها سحبها الدكن ، حتى يبين ما يحتاج خلفها من معالم وخطوط وأضواء .

ومهمني في هذا البحث أن أحاول تجلية هذه الظلال ، وإزاحة هذه السحب ، حتى يستبين ما وراءها ، وتبدو الصورة على حقيقتها واضحة مشرقة .

وقد كان أساس المنهج لبحث هذا الموضوع أن أبدأ غير متأثر برأى أحد من الباحثين ، فأنرت في أول الأمر أن لا أقرأ شيئاً عنه لأحد من الباحثين ، ومضيت إلى أخبار الصعاليك وأشعارهم في مصادرها الأصلية الأولى في محاولة جاهلة لتكوين رأى لي ، وانقضت سنوات وأنا سعيد بصحبة هؤلاء «الفتيان» — كما كان يحلو لهم أن يسموا أنفسهم — أقرأ وأدون ، وأتأمل وأفكر ، وأحدد خطوط الصورة ، وأنقب عن معالمها ، حتى إذا ما كونت لنفسى رأياً في الموضوع ، وأخذت خطوط الصورة ومعالمها تتضح لي ، مضيت أبحث عن دراسات الباحثين فيه ، فراغني أني لم أجده أحداً قبلي قد عني بدراسته دراسة شاملة متخصصة ، وإنما كل ما عثرت عليه طائفة من المقالات تترجم للجماعة من الشعراء الصعاليك ، أو بعض الأبحاث السريعة في هذا الموضوع ترسم الخطوط العامة له ، حتى إن «دائرة المعارف الإسلامية» — على ضخامتها وسعتها ، وكثرة موادها ، وتعدد القائمين بها — لم تعرض لهذا الموضوع على الإطلاق ، وإنما كل ما فعلته أنها ترجمت لطائفة قليلة من شعرائه ، هم عروة والشنفرى وتأبط شراً .

ونظرت فإذا عليّ أن أدرس جانبين : حياة هؤلاء الصعاليك كما تمثل في أخبارهم وأشعارهم لأستخلص منها الجوانب المختلفة لظاهرة الصعلكة ، ثم شعرهم من حيث هو نتاجهم الفني المعبر عن آرائهم وأفكارهم لأستخلص منه هذه الآراء والأفكار ، ولأسجل في ضوءه الظواهر الفنية التي تميز قنهم . وهكذا انقسم البحث إلى قسمين أساسيين : دراسة للظاهرة ، ودراسة للشعر .

ثم نظرت فإذا القسم الأول مغمض في الغموض ، فما معنى الصعلكة ؟ وما تعريف الصعلوك ؟ وهل يتفق المفهوم اللغوي لها مع ما عرفه المجتمع الجاهلي عنهما ؟ فرأيت أن أفرد فصلاً للتعريف بهذه الظاهرة ، عرضت فيه للتعريف

اللغوى للمادة ، ثم عرضت هذا التعريف على النصوص الأدبية التي وردت فيها ، حتى أدرك إلى أى مدى ينطبق عليها ، وأدركت أن هذا التعريف اللغوى لا يكتفى لفهم هذه الظاهرة ، فكان لابد من المضى إلى المجتمع الجاهلى أتلسمس فى أخبار صعايلكه وأشعارهم جوانبها المختلفة ، ومعالمها المميزة لها .

ثم وقفت أمام هذه الظاهرة وتساءلت : ما السر فى نشأتها ؟ وما العوامل التى أدت إلى ظهورها ؟ ورأيت أن أمضى إلى علم النفس الاجتماعى أسأله تفسيراً لها ، فدرست المجتمع ، والتوافق الاجتماعى ، و « اللاتوافق » ، وعُقدَ النقص ، ودرست الفقر ، والمشكلات الاقتصادية ، والمذاهب المختلفة التى حاولت أن تجد لهذه المشكلات حلاً ، وانتفعت بكل هذه الدراسات فى تكوين فكرة عن هذه الظاهرة ، ، وانتهيت إلى أن هناك ثلاثة عوامل عملت فى نشأتها وتطورها : عامل جغرافى ، وعامل اجتماعى ، وعامل اقتصادى . فضيت إلى المجتمع الجاهلى أدرس فيه هذه الجوانب الثلاثة على هذا الأساس ، ورأيت أن أفرد فصلاً لكل منها ، ولم أفرد للتفسير النفسى فصلاً خاصاً لأنه عامل مشترك بين كل هذه العوامل . وهكذا كان الباب الأول فى أربعة فصول .

ثم مضيت إلى مجموعة شعر الصعايلك التى بذلت جهداً كبيراً فى جمعها من مصادر متعددة ، ورأيت لزماً على أن أعرض - قبل كل شئ - لتلك المصادر المتعددة التى اعتمدت عليها فى جمع ما يصح أن نسميه « ديوان الصعايلك » ، وتلك المصادر الأخرى التى لم تصل إلينا إلا أسماؤها ، إما لأنها فقدت ، وإما لأنها ليست بين أيدينا . كما رأيت من الضرورى أن أعرض لمدى صحة ما ترويه المجموعة الأول من المصادر من شعر الصعايلك ، حتى أنتهى إلى رأى فيما يثور حوله من شك فى بعض نصوصه ، وأفردت لهذه المقدمات الفنية الفصل الأول من الباب الثانى .

ثم نظرت فى مجموعة شعر الصعايلك ، ورأيت أن أفرد فصلاً لموضوعاته ، سواء ما كان منها « داخل دائرة الصعلكة » ، وما كان منها « خارج هذه

الدائرة » ، فكان الفصل الثاني من هذا الباب .

ثم مضيت إلى هذا الشعر أدرس ظواهره الفنية من حيث طبيعة العمل الفني وخصائصه ، ومن حيث لغته وأوزانه ، وأفردت لهذه الدراسة الفصل الثالث من هذا الباب .

ثم رأيت أن أقدم - أخيراً - دراسة مستقلة لشاعر من الصعاليك يكون نموذجاً لهم ، أطبق عليه ما وصلت إليه في أثناء البحث من نتائج ، ولكني رأيت أن أسمى شخصيتين متميزتين اجتماعياً وفنياً : شخصية الصعلوك الزعيم التي يمثلها عروة بن الورد ، وشخصية الصعلوك العامل التي اخترت الشنفرى مثلاً لها ، وقد اخترت الشنفرى بالذات لأن له ديواناً بين أيدينا مما يجعل التوازن قائماً بينه وبين عروة ، وله هو أيضاً ديوان بين أيدينا . وأفردت للدراسة هذين الشاعرين فصلاً مستقلاً هو الفصل الأخير من هذا البحث .

ومهما يكن من شأن هذه الدراسة فإنني حريص على أن أسجل أن كل ما وصلت إليه فيها من نتائج لا يمكن أن يكون الكلمة الأخيرة في الموضوع ، فالكلمة الأخيرة في العلم مستحيلة ، ولا يمكن أن ادعى أنني وصلت بها إلى درجة الكمال ، فالكمال لله وحده ، وإنما كل ما أستطيع أن أقوله هو أن نتائج هذه الدراسة ليست سوى نتائج لما وصل إليّ - أو وصلتُ إليه - من مادة لا أشك في أن وراءها مادة أخرى لم تصل إلي ، ومن الممكن أن تغير قليلاً أو كثيراً من هذه النتائج .



أما الفترة التي اخترتها للدراسة هذا الموضوع ، والتي حددتها بالعصر الجاهلي ، فإنني لا أقصد بها تلك الفترة المحددة التي سبقت ظهور الإسلام فحسب ، وإنما يمتد العصر الجاهلي عندي - وأعني به العصر الجاهلي الأدبي - حتى يشمل فترة المخضرمين ، فإن هؤلاء المخضرمين لا يمثلون عناصر جديدة في



الحياة الأدبية الإسلامية ، وإنما هم امتداد للحياة الأدبية الجاهلية التي اكتملت ملكاتهم الفنية في ظلها . أما العصر الأدبي الإسلامي فإنما يبدأ بأولئك الشعراء الذين لم يدركوا العصر الجاهلي ، وبدأ تَكُونُ ملكاتهم الفنية في ظل الإسلام . ومن هنا كنت أرى أن العصر الجاهلي الأدبي ليس محددًا بفترة زمنية ينتهي بانتهائها ليبدأ بعدها العصر الأدبي الإسلامي ، ولكنه محدد بحياة أولئك نفر من الشعراء المخضرمين ينتهي بالنسبة لكل منهم بانتهاء حياته . وليس معنى هذا أنني أنفي أن هؤلاء المخضرمين قد تأثرت حياتهم الأدبية بالإسلام ، فمن المؤكد أنها تأثرت به ، ولكن من المؤكد أيضاً أن هذا التأثير يمثل مرحلة من مراحل تطورهم الأدبي ، ولكنه لا يمثل مرحلة من مراحل تكوينهم الأدبي .

• • •

وبعد، فهذا هو الموضوع الذي أقدمت على دراسته ، وأنا أعرف أنها مغامرة كنتلك المغامرات التي كان يقدم عليها فتيان الصعاليك ، ولكني أنشد مع الشنفرى «ومن يَغْزُ يَغْنَمُ مرة وَيُشَمِتِ» ، فإن تكن الأولى فما توفيقى إلا بالله ، وإلا فحسبى إغذاراً لنفسي أنها مغامرة أقدمت عليها ، ولأنشد مع أبي الصعاليك عروة بن الورد «ومُبْلَغُ نفيس عُذْرَها مثل مُنْجِعٍ» . والله يهدينا سواء السبيل .



# البَابُ الْأَوَّلُ

## الصَّعَالِيكُ



## الفصل الأول

### التعريف بالصعلكة

١

في اللغة :

في لسان العرب (١) : « الصُّعْلُوكُ : الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك . قال حاتم الطائي :  
غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصْعَلِكِ والغنى فكلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسِيهِمَا الدَّهْرُ  
أَي عَشْنَا زَمَانًا .

وتَصَعَّلَكَتِ الْإِبِلُ : خرجت أوبارها ، وانجردت ، وطرحتها .

ورجل مصعلك الرأس : ملوره .

ورجل مصعلك الرأس : صغيره ، وأنشد :

يَخِيلُ فِي الْمَرْعى لَهْنٌ بِشَخْصِهِ مُصْعَلِكُ أَعْلَى قُلَّةِ الرَّأْسِ نِقْنَقُ  
وقال شمر : المصعلك من الأسنمة : الذي كأنما حَذَرَجَتْ أَعْلَاهُ حَذْرَجَةً ،  
كأنما صعلكت أسفله بيدك ، ثم مَطَلَتْهُ صُعْدًا أَي رَفَعَتْهُ عَلَى تِلْكَ الدَّمْلَكَةِ ،  
وتلك الاستدارة (٢) .

وقال الأصمعي في قول أبي دؤاد يصف خيلاً :

قَدْ تَصَعَّلَكُنْ فِي الرَّبِيعِ وَقَدْ رَعَّ جِلْدَ الْفَرَائِضِ الْأَقْدَامُ

قال : تصعلكن : دققن ، وطار عفاؤها عنها ، والفريضة : موضع قدم الفارس .

وقال شمر : تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن ، وصعلكها

البقل .

---

(١) مادة (صعلك) .

(٢) حذرج : قتل وأحكم . والدملكة : الاستدارة والملازمة والقتل .

وصعلك الثريدة : جعل لها رأساً ، وقيل : رفع رأسها .

والتصعلك : الفقر .

وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغم .

من هذا النص اللغوي الذي سجله ابن منظور في لسان العرب ، والذي سجل مثله غيره من علماء اللغة في معاجمهم ، نستطيع أن نتبين أصلاً عاماً للمادة تشترك فيه معانيها المختلفة ، وتدور حوله ، وهو - عندي - الضمور والانجراد<sup>(١)</sup> . ونستطيع في سهولة ويسر أن نرد كل معاني المادة إلى هذا الأصل العام :

فالإبل تصعلك إذا انجردت أوبارها وطرحها .

والخيل تصعلك إذا دقت وطار عفاؤها عنها .

والبقل يصعلك الإبل أى يسمنها ، وهذا السمن يجعلها تطرح أوبارها وتتجرد منها .

والمصعلك من الأسمعة الذي يبدو كأنما قتلت أعلاه وأضرته .

وهو يصعلك الثريدة أى يجعل لها رأساً ، أو يرفع رأسها ، كأنما أضر أعلاها .

وهو مُصَعِّلُكَ الرأس أى صغيره وضامره .

وهو يتصعلك أى يفتقر كأنما تجرد من ماله ، وبدا ضامراً بين الناس .

فالتصعلكة إذن - في مفهومها اللغوي - الفقر الذي يجرد الإنسان من

(١) نحن في هذا نخالف ابن دريد فيما ينحى إليه من أن « أصل الصعلكة الفقر » ( انظر جمهرة اللغة : باب ما جاء على « فعلول » ٢/٣٨٢ - وانظر أيضاً الاشتقاق / ١٧٠ ) ، ورى أن الفقر ليس أصلاً للمادة ، ولكنه الطور المعنوي في معناها التي يأتي بعد الطور الحسي . ويؤيدنا فيما ذهب إليه ما يراه ابن فارس من أن « الصاد والعين واللام أصيل يدل على صغر وانجراد » ( انظر مقاييس اللغة ٢/٢٨٦ ) ، وهذه الحروف الثلاثة هي أصل مادة « صعلك » ، وبين المادتين تشابه في معانيهما ، فالصعل : الصغير الرأس من الرجال والنعام ، وجمار سجل أى ذاهب الورد .



ماله ، ويظهره ضامراً هزلاً بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمتهم المال وسمهم .

ولكن يبدو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوي للكلمة تعبيراً دقيقاً كاملاً ، ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التي أضافها الأزهري إلى هذا المعنى اللغوي ، وهي قوله « ولا اعتماد » ، لئلا نرى ماذا يستفيد المعنى منها ؟ وإلى أي مدى تحدد هذا المعنى وتكمله ؟ والمعنى اللغوي لهذه العبارة واضح ، فاعتمد على الشيء : توكل أو اتكأ عليه ، واعتمد عليه في كذا : اتكل عليه <sup>(١)</sup> . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها ، ويعينه عليها ، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة ، ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة . أو هو — بعبارة أخرى — الفقير الذي يواجه الحياة وحيداً ، وقد جردته من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها . فالمسألة إذن ليست فقراً فحسب ، ولكنها فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه ، ويسد مسالكها أمامه .

هذا هو التعريف اللغوي للكلمة كما نراه في ضوء هذه المحاولة اللغوية لفهم المادة . ونريد — بعد هذا — أن نتبع هذه المادة في الاستعمال الأدبي القديم في العصر الذي ندرسه لئلا نرى كيف دارت فيه ؟ وإلى أي مدى يطابق هذا الاستعمال معناها اللغوي كما سجله علماء اللغة أو يختلف عنه ؟

### في الاستعمال الأدبي :

تردد هذه المادة في أخبار العصر الجاهلي وشعره بصورة واسعة ، وتقابلنا كثيراً على ألسنة شعرائه ورواة أخباره ، فتراها أحياناً تدور في هذه الدائرة اللغوية التي تحدثنا عنها ، على نحو ما نرى في بيت حاتم الطائي الذي يتخذ منه اللغويون موضوعاً للاستشهاد على المعنى اللغوي للكلمة ، فالمقابلة في هذا البيت بين التصعلك والغنى تدل في وضوح لا لبس فيه على أنه يستعمل التصعلك في معنى الفقر ، وهو استعمال يؤيده ذكر الفقر في البيت التالي مرادفاً للتصعلك :

فما زادنا بغياً على ذي قرابة      غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر  
ونراها أحياناً أخرى ترد في بعض المواضع ، ولكن مفهومها الذي يتفق مع السياق لا يتفق تماماً مع مفهومها اللغوي .  
فهذا عمرو بن برّاقة الهمداني يغير على إبله ونخيله رجل من مراد ، فيذهب بها ، فيأتي عمرو فيغير على المرادى فيستاق كل شيء له ، ويقول :

تقولُ سليمي : لا تعرّض لتلفّة      وليك عن ليل الصعاليك نائم  
وكيف ينامُ الليل من جُلّ ماله      حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمٌ  
ألمْ تعلمي أن الصعاليك نومهم      قليلٌ إذا نام الخليّ المسالم<sup>(١)</sup>  
فمن الواضح أن جو القصة وسياق الأبيات لا يدلان على أن الصعاليك هنا هم الفقراء ، وإلا فما معنى هذه النصيحة التي توجهها إلى الشاعر صاحبه بألا يعرض نفسه للتلف مع هؤلاء الصعاليك الذين ينام ليله عن ليلهم ؟ وما سر المقابلة بين قلة نومهم ونوم « الخليّ المسالم » ؟ وما دخل المسألة التي يتحدث عنها الشاعر في حديث عن الفقر والغنى ؟ من الواضح أن الصعاليك

(١) القالي : الأماك ١٢١/٢ - ١٢٣ ، والأغاني ١٧٥/٢١ .

هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم ، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم ، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الحليون المترفون المسلمون بالنوم والراحة والهدوء . فالكلمة إذن قد خرجت من الدائرة اللغوية ، دائرة الفقر ، إلى دائرة أخرى أوسع منها هي دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب .

وفي أخبار امرئ القيس أنه غزا بني أسد ثائراً بأبيه ، « وقد جمع جمعاً من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »<sup>(١)</sup> . ونهم أنفسهم بالسذاجة لو تصورنا امرأ القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك يجمع جمعاً من فقراء العرب المعدمين ، فما أهمية الفقر في معركة من معارك الثأر ؟ وما الذي يحمل امرأ القيس على أن يجمع حوله جمعاً من الفقراء ليغزو بهم بني أسد ؟ من الواضح أن هؤلاء الفقراء الذين استعان بهم امرؤ القيس في إدراك ثأره لا بد أن تكون حياتهم الاجتماعية قد تطورت تطوراً خاصاً جعلهم يصلحون للقيام بتلك المهمة الضخمة التي طلبهم إليها ، وهو تطور نحس شيئاً من سماته ومظاهره في هذا الربط بينهم وبين الذؤبان ، فلا بد أن هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب تشابه في أسلوب الحياة أو أسلوب العيش أو طبيعة الشخصية .

ويشبه هذا ما ورد في أخبار عدي بن زيد من أن النعمان بن المنذر حبسه حتى مات ، فأراد ابنه زيد أن يثأر له من النعمان ، فدبر مكيدة يوغر بها صدر كسرى عليه حتى يقتله . وتراعى خبر المكيدة إلى سمع النعمان ، ففر من كسرى وبلغاً إلى قبائل العرب ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إجارته ، فقال له سيد من بني شيبان في حديث طويل معه : « قامض إلى صاحبك ، فإمّا أن صفح عنك فعلت ملكاً عزيزاً ، وإمّا أن أصابك فالموت خير لك من أن يتلعب بك صعاليك العرب ، ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك »<sup>(٢)</sup> . فمن الواضح أن الصعاليك هنا ليسوا هم الفقراء ، ولكنهم طوائف من قطاع

(١) البغدادى : خزنة الأدب ٥٣٢/٢ .

(٢) الأغاني ١٢٦/٢ ، والبغدادى : خزنة الأدب ١٨٥/١ - ١٨٦ .

الطرق كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه في صحرائها الموحشة الرهيبة ، ويتلاعبون به ، ويتخطفونه ، ويأكلون ماله ، على حد ألفاظ ذلك السيد العربي الذي كان - ولا شك - يعرف جيداً طبيعة الدور الذي يقوم به هؤلاء الصعاليك على مسرح البادية العربية ، وهو دور تعبر عنه تعبيراً دقيقاً هذه الألفاظ .

ولمى جانب هذا نلاحظ أن بعض المصادر العربية تذكر طائفة من الأسماء على أنهم « صعاليك العرب »<sup>(١)</sup> ، أو تقص أخباراً عن صعاليك بعض القبائل<sup>(٢)</sup> ، أو تصف بعض الشعراء بأنهم من « صعاليك العرب »<sup>(٣)</sup> ، بل نلاحظ أن صاحب الأغاني يقول في تقديمه للسُّلَيْك بن السُّلَيْمَة : « وهو أحد صعاليك العرب . . . وأخبارهم تذكر على توأليها هاهنا ، إن شاء الله تعالى ، في أشعارهم يُغنى فيها ، لتصل أحاديثهم »<sup>(٤)</sup> ، مما يشعر بأن هؤلاء الصعاليك كانوا يكونون طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلي جعلت أبا الفرج يحرص على أن يذكر أخبارهم على توأليها حتى تصل أحاديثهم ، على حد تعبيره .

وأظن أننا نستطيع بعد هذه الجولة أن نقف لنسجل أن مادة « صعلك » تدور في دائرتين : إحداهما « الدائرة اللغوية » التي تدل فيها على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان في الحياة ، وضيق في أسباب العيش ، والأخرى نستطيع أن نطلق عليها « الدائرة الاجتماعية » ، وفيها نرى المادة تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد في مجتمعه ، وبالأسلوب

(١) انظر على سبيل المثال : رسائل الخوارزمي / ١٤١ ، ١٤٢ ، والدبلي : الفلاكة والمفلوكين / ١١٩ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأغاني ٢١٥/١٨ ، ٢٠/٢٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٤٠٥/٢ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الأغاني ٧٣/٢ ، ٤٩/١٢ (بولاقي) ، ٣٢/١٨ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٤) الأغاني ١٣٣/١٨ .

الذى يسلكه فى الحياة لتغير هذا الوضع . وهذه الصفات هى بعض ما نحاول تبينه فى هذا البحث .

ونتساءل بعد هذا : ألم يلتفت اللغويون إلى هذا المعنى الاجتماعى ؟ ونعود مرة أخرى إلى النصوص اللغوية نستفتيها ، وتلفت نظرنا تلك العبارة الغامضة التى يذكرها بعض اللغويين فى ختام تعريفاتهم ، وهى قولهم « وصعاليك العرب ذؤبانها » . ونسأل مرة أخرى : ماذا يعنى اللغويون بذؤبان العرب ؟ ونمضى إلى مادة « ذاب » نسأل اللغويين عن معنى « ذؤبان العرب » ، فإذا هم يحملونها مرة أخرى على « صعاليك العرب » . فى الصحاح « وذؤبان العرب أيضاً صعاليكها الذين يتلصصون » ، وفى القاموس المحيط « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » ، وفى أساس البلاغة « وهم من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشططارهم » ، وفى النهاية لابن الأثير « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

وهكذا كادت المسألة أن تكون دوراً — كما يقول المنطقة — لولا هذه الزيادات القليلة التى أضافها هؤلاء اللغويون إلى تعريفاتهم . ومن هذه الزيادات عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا « يتلصصون »<sup>(١)</sup> ، وأنهم كانوا « شطاراً »<sup>(٢)</sup> ، كما عرفنا أنهم سموا هكذا لأنهم كانوا كالذئاب . ومع ذلك فما زلنا نشعر بأن هذه الزيادات لم تتقدم بنا كثيراً فى داخل هذه « الدائرة الاجتماعية » ، وأن علماء اللغة يحومون حول هذه الدائرة دون أن ينفذوا إلى داخلها ، مع إحساسهم أن هناك شيئاً آخر غير الفقر فى مفهوم المادة ، وهو هذا الذى حاولوا أن

(١) فى تاج العروس (مادة لص) « وهو يتلصص — كما فى الصحاح وفى الأساس — إذا تكررت سرفته » .

(٢) فى لسان العرب (مادة شطر) « واطر عن أهله . . . تزح عنهم ، وتركهم مراغماً أو مخالفاً ، وأعيامهم خبيثاً ، والشاطر مأخوذ منه » . وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) « وفلان شاطر : خليج » . ومن الأشياء التى تلفت النظر أن الخليج من أسماء الذئب أيضاً (انظر لسان العرب : مادة خلع) ، وأن الذئب يشبه فى الشعر الجاهل أحياناً بالخليج ، وفى معلقة امرئ القيس « به الذئب يعوى كالخليج المعيل » ، وهو من شعر تأبط شراً بدون شك عندى .

يفسروه بذلك الربط بين الصعاليك والذؤبان .

ولكننا لا نريد أن تنهى من هذا البحث اللغوي دون أن نشير إلى أن أبا زيد القرشي ، صاحب جمهرة أشعار العرب ، قد تنبه إلى أن هناك جانبين لهذه المادة ، واستطاع أن يميز بينهما تمييزاً دقيقاً واضحاً حيث يقول (١) : « الصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات » ، وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعية بالتجرد للغارات يجعلنا نسجل لهذا العالم المتقدم على أصحاب المعاجم التي بين أيدينا أنه كان أدق من عرف معنى الصعلوك .

وهنا نقف لتساءل : ماذا فهمنا عن صعاليك العرب ؟

أغلب الظن أننا لم نصل إلى أشياء كثيرة ، وأتينا ما زلنا في بداية الطريق الطويل نتحسس خطواتنا في الظلام تحت أضواء النجوم الخافتة ، وأن شوطاً بعيداً ما يزال ينتظرنا حتى مطلع الفجر . ويبدو أنه لا بد لنا من أن نغضى إلى مصادر الأدب العربي نسألها : ما أخبار هؤلاء الصعاليك ؟ وأين شعر شعرائهم الذي صوروا فيه حياتهم ؟ لعلنا نجد فيها وفيه ما نستطيع به أن نرسم صورة أشد وضوحاً لهذه الطبقة من طبقات المجتمع الجاهلي .

### ٣

#### في المجتمع الجاهلي :

حين نرجع إلى أخبار هؤلاء الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثنى منهم أحداً ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » (٢) ، وأخوه وابن عمه يقولان له — حين عرض عليه أهل امرأته التي أصابها في بعض

(١) جمهرة أشعار العرب / ١١٥ .

(٢) التبريزي : شرح حملة أبي تمام ١/٢ .



غزواته أن يفتلوا - « والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفقر أبداً »<sup>(١)</sup> ، بل أكثر من هذا يذكر الرواة أنه جاء بامراته إلى بني النضير « ولا شيء معه إلا هي ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلقت »<sup>(٢)</sup> . وتكثر في شعره أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبد في سبيل الفنى من جهد وشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضاً :

ذريني للفنى أسمى ، فإن رأيت الناس شرهم الفقير<sup>(٣)</sup>  
فيسر في بلاد الله والتمس الفنى تعش ذا يسار أو نموت فتغذرا<sup>(٤)</sup>  
ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً من المال بطرح نفسه كل مطرح<sup>(٥)</sup>  
وهذا الفقر الذى استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابي : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدي إلى أمعاء ضيقة<sup>(٦)</sup> . وليس من شك في أن هذه العبارة الساذجة التي صور فيها هذا الأعرابي إحساسه إنما تشير إلى قصة الحياة الأمامية ، قصة الصراع بين الحياة والموت . وذلك لأن المسألة تتصل بحاجات الجسم الحيوية الأولى ، فالجوع - كما يقرر علماء الاجتماع - أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان<sup>(٧)</sup> . وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام<sup>(٨)</sup> ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلى

(١) الأغاني ٧٧/٣ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٨ - وغلقت الرهن في يد المرتين : استحلته ، وذلك إذا لم يقدر الرهن على افتكاكه في الوقت المشروط .

(٣) ديوانه / ١٩٨ .

(٤) ديوانه / ١٩١ .

(٥) ديوانه / ٩٩ .

(٦) البيهقي : المحاسن والمساوى . ٣٠١ .

(٧) Groves; Personality and Social Adjustment, p. 27.

(٨) ابن دريد : الاشتقاق / ٢٤٦ .

بين القبائل الجاهلية إنما يرجع - من بعض جوانبه - إلى الفقر والجوع<sup>(١)</sup> ، وما أكل ضباب الصحراء ويراييها وأورالها سوى مظهر من مظاهر هذا الجوع القاتل الذي كان يعاينه عرب البادية حين يجلبون وتتابع عليهم السنين ، وما كان قتل بعض العرب أولادهم خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر هذا الجوع القاتل<sup>(٢)</sup> .

ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففي أخبار عروة أن ناساً من بني عبس أجلبوا « في سنة أصابتهم ، فأهلك أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس » ، فأتوا عروة يستنجدون به ، فخرج « ليغزو بهم ويصيب معاشاً »<sup>(٣)</sup> . وتنتشر في شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم<sup>(٤)</sup> . ويذكر الرواة أن أبا خيراش الهنلي أقفر من الزاد أياماً<sup>(٥)</sup> . ويحدثنا السليك بن السلكة في بعض شعره كيف كان يغمى عليه من الجوع في شهور الصيف حتى يشرف على الموت والهلاك :

وما نلتها حتى تصعلكت حقية      وكدت لأسباب المنية أعرف  
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضربي      إذا قمت تغشاني ظلال فأشديف<sup>(٦)</sup>  
ويتحدث الأعمى الهنلي عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه :

وذكرتُ أهلي بالعرا      وحاجة الشعث التوالب

(١) انظر حديث الأصبغ في الأغاني ١٤ / ٣٩ .

(٢) في القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (سورة الإسراء - آية ٣١) - وانظر أيضاً سورة الأنعام - آية ١٥١ .

(٣) الأغاني ٨١/٣ ، ٨٢ .

(٤) انظر على سبيل المثال شرح ديوانه لابن السكيت / ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) الأغاني ٦٠/٢١ .

(٦) الأغاني ١٣٥/١٨ - وأسف الرجل : أظلمت عيناه من الجوع .

المُضْرَمِينَ من التَّلَا د اللامحين إلى الأقارب<sup>(١)</sup>  
 بل إن الجوع ليشتهد بعروة فيهتف بأصحابه الصعاليك هتفة من لا يطيق  
 عليه صبراً أن هلموا إلى الغزو ، فللموت خير من حياة الجوع والهزال :  
 أقيموا بني لبتى صُنُورَ ركابكم فإن منايا القوم خيرٌ من الهزل<sup>(٢)</sup>  
 وفي لامية العرب التي تُعد صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك في العصر  
 الجاهلي حتى على فرض انتحالها وعدم صحة نسبتها إلى الشنفرى ، يرسم الشاعر  
 صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الآبية  
 تأتي عليه أن يهينها من أجله ، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة :

أديمٌ مطالٌ الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فاذْهَلْ  
 وأستفُّ تُربَّ الأرض كي لا يرى له على من الطَّوْلُ امرؤٌ متطولٌ  
 ولولا اجتنابُ الدَّام لم يبقَ مشربٌ يعاش به إلا لَدَيَّ ومأكَلٌ  
 ولكنَّ نفساً حرة لا تُقيمُ بي على الضيم إلا ريثما أتحوَّلُ  
 وأطوى على الخمصِ الحوايا كما انطوت خيوطه ماريُّ تُغارُ ونفتلُ  
 وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزلُّ تهاداهُ التذائفُ أطحلُ<sup>(٣)</sup>  
 وإذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير فإن  
 هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع ، ولكنها سياط نفسية يصبها  
 الفقر على نفس الفقير .

والحديث عن هذه السياط النفسية حديث يطول ، لأنها تختلف باختلاف

(١) شرح أشعار الهذليين ٥٨/١ - والتوالب : الجعاش ، ويريد بهم أبناءه الصغار .  
 والمصرم : الفقير .

(٢) ديوانه / ١٠٦ .

(٣) القتال : التوادد / ٢٠٤ - والمطال : المأطلة . الطول : المن . الدام : الميب .  
 الخمص : ضمور البطن أو الجوع . الحوايا : الأمعاء . ماري : اسم رجل أو اسم لفاتل .  
 تغار : تحكم . الأزل : خفيف الوركين ، صفة للثقب . التذائف : جمع تنوفة ، وهي المفازة .  
 الأطحل : الذي لونه بين النبرة والبياض .

النفسيات ووقع الفقر عليها . وقد حاول صاحب « الفلاكة والمفلوكين »<sup>(١)</sup> أن يحصرها ، فعقد في كتابه فصلا طويلا « في الآفات التي تنشأ من الفلاكة ، وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها »<sup>(٢)</sup> ، وعد منها الآلام العقلية ، وهو تعبير يرادف ما نعبر عنه بالآثار النفسية ، وحصرها في ثلاثة أنواع ، وحاول أن يدلل على هذا التقسيم الثلاثي تدليلا عقليا منطقيا تكثرفيه الحدود والأقسام والمقدمات والنتائج . ولكن هذه المحاولة - من وجهة النظر العلمية الحديثة - غير دقيقة ، فإن هذه الآثار النفسية ليس من اليسير حصرها ، فليست المسألة مسألة منطقية تقبل القسمة العقلية ، ولكنها مسألة نفسية تتصل بالنفس البشرية ، تلك النفس الغامضة المعنة في الغموض ذات السرايب العميقة ، والأسرار الدفينة المكبوتة . ويحاول علماء النفس المحدثون دراسة هذه المسألة وأشباهاها على أساس ما يسمونه « بالعقد النفسية » ، ومن بين هذه العقد عقدة يسمونها « عقدة الفقر » ، وهي تلك التي تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيا<sup>(٣)</sup> . فهذه العقدة هي المحور الذي تدور حوله تلك الآثار النفسية التي يخلفها الفقر في نفس الفقير .

والتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر ، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون ، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرّمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل

(١) شهاب الدين البلي ، وقد عقد الفصل الأول من كتابه في تحقيق معنى المفلوك ، وقال فيه : « هذه اللفظة تلقيناها من أفاضل السيم ، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل الفقير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وقتره » (ص ٢) ، فهي تقرب من كلمة « الصملوك » في دائرتها القنوية .

(٢) انظر الفصل الرابع ، ص ١٤ وما بعدها .

(٣) Groves; Personality and Social Adjustment, p. 231. (٢)

المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم من توافرت لهم هذه الوسائل .  
فقيس بن الخدّ أدبته<sup>(١)</sup> يرى أنه لا يساوي عند قومه «عزّاً جرباء جند ماء»<sup>(٢)</sup>  
وفي أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلاً في خفرة بعض الفهميين ، «فرهنوهم  
الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ، ولم يقدمهم»<sup>(٣)</sup> ، وخبر تلك اللطمة التي  
لطمها الفتاة السّلاميّة للشنفرى ، والتي كانت السبب المباشر في تصعلكه ،  
لأنها أنكرت عليه أن يتسامى إلى مقامها الاجتماعي ، ويرفع الحواجز الاجتماعية  
التي تفصل بين طبقتيهما ، وينادىها بأخته ، خبر كبير الدلالة على ما كان  
يعانيه هؤلاء الصّعاليك من مجتمعهم<sup>(٤)</sup> .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحقرّون من مجتمعهم ، المنبوذون من  
إخوانهم في الإنسانية ، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقاً في زحمتها ، وقد جرّدوا  
من كل وسائلها المشروعة ، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا  
هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحبوها على هامش المجتمع ، في أطرافه البعيدة ،  
خلف أديار البيوت ، يخدمون الأغنياء ، أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو  
يستجدونهم في ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة  
أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي  
من حرمهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة  
أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

(١) اختلفوا في ضبط اسم أمه بين كسر الحاء وضمة : أما ابن دريد فهي عنده بالضم  
(الاشتقاق / ٢٧٧) ، وكذلك ابن عبد ربه (العقد الفريد ٢/ ٣٨٢) ، ولكنها عند السمعاني  
في الأنساب بالكسر ، أما المرزباني فإنه يذكر الضبطين فيقول «والخدّ أدبته أمه ،  
وهي من بني حدّاد من كنانة ، وقوم يحملونها من حدّاد محارب ، وحدّاد بالضم من كنانة ، وحدّاد  
بالكسر من محارب» (معجم الشعراء / ٣٢٥) . وهكذا يتضح أن الاختلاف في ضبط الاسم  
راجع إلى الاختلاف في القبيلة التي تنسب إليها أم الشاعر ، وهي عند ابن حبيب وأبي الفرج  
من محارب ، وعند ابن الأعرابي من كنانة ( من نسب إلى أمه من الشعراء / ٦ ، والأغاني  
٢/ ١٢ - بولاق) .

(٢) انظر الأغاني ٨/ ١٣ (بولاق) .

(٣) ابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤) انظر المصدر السابق / ١٩٥ ، ١٩٦ ، والأغاني ١٣٤/ ٢١ وما بعدها .

وقد سلك الصعاليك السيلين ، أو - بعبارة أدق - انقسموا مع هذين السيلين إلى طائفتين : طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعي الذليل ، رضي به لم ضعف في النفس أو ضعف في الجسد أو ضعف في النفس والجسد جميعاً ، وطائفة رفضت ذلك الوضع ، وأبت أن تعيش تلك الحياة الساقطة التافهة المهينة ، ووجدت في القوة ، قوة النفس وقوة الجسد ، وسيلة تشق بها طريقها في الحياة .

وفي شعر عروة موازنة طريقة بين هاتين الطائفتين ، يعقدها أبو الصعاليك في دقة وبراعة ، ويصور فيها اختلاف ما بينهما في الشخصية ، وأسلوب الحياة والغاية التي تنتهي إليها كل منهما<sup>(١)</sup> .

وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك في استهانتهم بالحياة في سبيل الوصول إلى الغاية التي يسعون إليها . إنهم يريدون أن يحققوا لهم مكانة في هذا المجتمع الذي يحترهم ويستهن بهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه ، وهم في سبيل هذا لا يبالون بشيء ، حتى بالحياة نفسها ، فهم جميعاً مؤمنون بفكرة الغناء في سبيل المبدأ ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محترماً ، منبوذاً من مجتمعه ، مجفواً من أقاربه ؟ إن الموت في هذه الحالة خير من الحياة :  
 إذا المرء لم يَبْعَثْ سَوَاماً ولم يَرْحُ عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه  
 فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربه<sup>(٢)</sup>  
 فقلت له : ألا اخي وأنت حر مستشيع في حياتك أو تموت<sup>(٣)</sup>  
 فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا<sup>(٤)</sup>

(١) انظر أبياته الرائية «الحياة مملوكاً» في ديوانه / ٧٣ - ٨٢ . وجبهة أشعار العرب / ١١٥ . والأصعيات / ٢٩ ، ٣٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) عروة أيضاً (انظر ديوانه / ١٥٠ ، ١٥١) - والبيتان يروهما أبو تمام في حاسته لأبي النشاش ، وهو لص من تميم إسلامي ، مع اختلاف في الألفاظ (انظر الحاشية / ١٦٦ ، ١٦٧) .

(٣) عروة : ديوانه / ١٦٦ .

(٤) عروة أيضاً : ديوانه / ١٩١ .

وفيم الخشية من الموت ؟ إن كل حي ملاقيه ، سواء مَنْ خاطر بنفسه ومن أحجم ، بل إن الموت قد يصيب المتخلف في أهله وينجو منه المغامر المخاطر :  
أرى أم حسان القسداً تلومني      تخوفني الأعداء ، والنفس أخوفُ  
لعسل الذي خوفتنا مِنْ أماننا      يصادف نفسه في أهله المتخلف<sup>(١)</sup>  
ومهما يمد الله في عمر الإنسان فالموت في انتظاره مُشْرَعَةٌ أسته :

وإلى ، وإن عُمُرْتُ ، أعلم أنني      سألقى منان الموت يبرق أضلعا<sup>(٢)</sup>  
فالموت نهاية كل حي ، لن ينجو منه أحد مهما يحط نفسه بأبواب قوية  
وحراس أشداء :

لو كنتُ في رِيْمَانٍ تحرُّسُ بابه      أراجيلُ أخبوشٍ وأغصَفُ آلفُ  
إذن لأتني حيثُ كنتُ منيتي      يخبُّ بها هاد بأمري قائفُ<sup>(٣)</sup>  
وهي ميتة واحدة يلقاها الإنسان ثم لا تتكرر :

دعيني ، وقولي بعدُ ما شئتَ ، إنني      سيُغْدَى بنعشي مرةً فأغيبُ<sup>(٤)</sup>  
ثم ما الذي يغري الصعلوك على التمسك بالحياة والحرم عليها ؟ إن أحداً  
لا يرغب في حياته ، وإن أحداً لن يبكي عليه بعد موته . إنه يعيش وحيداً ،  
ويموت وحيداً :

إذا ما أتتني ميتي لم أبالها      ولم تُذِرْ خالاتي الدموعَ وعمتي<sup>(٥)</sup>  
وصعاليك هذه الطائفة جميعاً ذوو عزيمة قوية صادقة ، لا يشبههم شيء

(١) عروة أيضاً : ديوانه / ٩١ .

(٢) تأبط شراً : الأغاني ٢١٧/١٨ .

(٣) أبو الطمحان القتيبي : الأغاني ١٣٢/١١ (بولاق) - ريمان : حصن باليمن . وأراجيل : جمع راجل . وأخبوش : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة . . والأغصَف : الكلب المسترخي الأذن . والآلف : المتأنس بمن يحرسهم ، من الإلف .

(٤) الشنفرى : الأغاني ٢١٦/١٨ - ديوانه / ٣٢ .

(٥) الشنفرى أيضاً : الأغاني ١٣٩/٢١ - والفضليات / ٣٠٦ .



عن هدفهم الذى يسعون إليه إلا الموت ، يقول تأبط شرّاً مصوراً صادق عزيمته وقوة نفسه :

وكنْتُ إذا ما هممتُ اعتزمتُ      وآخر إذا قلتُ أنْ أفعلاً<sup>(١)</sup>  
وإذا كانت الحياة قد قست عليهم فإنهم لن يستكينوا لها ، وإذا كانت  
تعمل على إخضاعهم وإذلالهم فإنهم سيقفون في وجهها ، ويتحدونها ، ويشنون  
عليها حرباً لا هوادة فيها ، وإذا كانت قد ألقت بهم في الرغام فإنهم سينهضون  
برغم كل شيء . ولعل هذا البيت الذى قاله أبو خراش الهذلى الصعلوك في رثاء  
أخ له يعبر تعبيراً دقيقاً عن تلك القوة النفسية التى كان يتمتع بها كل صعلوك  
من صعاليك هذه الطائفة :

ولكنه قد نازعته مجاوعٌ      على أنه ذو مرة صادق النهض<sup>(٢)</sup>  
هكذا كانت نفسية هؤلاء الصعاليك ، كل منهم « قد نازعته مجاوع » ،  
ولكن كلاً منهم « ذو مرة صادق النهض » .

ومن عناصر قوتهم النفسية أنفهم من القيام بتلك الأعمال التى يصح  
أن نطلق عليها « الأعمال الفرعية في المجتمع القبلى » ، وهى تلك التى كان  
يقوم بها العبيد وأشباههم ، ويأنف السادة من القيام بها ، كخدمة الإبل  
والقيام بأمرها<sup>(٣)</sup> . ويصرح تأبط شرّاً بترفعه على هذه الأعمال الفرعية وبأنه  
يأنف من القيام بها :

ولستُ بترعى طويل عشاوة      يؤنفها مستأنف النبت مُبْهَل<sup>(٤)</sup>

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٧ ، وحمامة ابن الشجرى / ٤٧ . ويذكر  
De Goeje ناشر « الشعر والشعراء » في تعليقه على هذا البيت أن في بعض المخطوطات « فعلت »  
مكان « اعتزمت » ، وهى عندي أدق في تأدية المعنى .

(٢) حمامة أبو تمام ١٤٥/٢ ، وديوان الهذليين ١٥٨/٢ ، وفيه « مخامص » مكان  
« مجاوع » .

(٣) « العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الخلاب والصر » (عنترة : الأغاني ٢٣٩/٨) ،  
وفي شعر السليك إشارة إلى قيام العبيد والإماء برعى الإبل (الأغاني ١٨/١٣٤) .

(٤) لسان العرب : مادة (رعى) - الرعى : الذى يجيد رعية الإبل ، أو من صناعته  
وصناعة آبائه الرعى . ويؤنفها : أى يتسج بها أنف المرعى أى التى لم ترع . وأبْهَل إبلة : تركها مهملة .



ويصرح مرة أخرى بأنه ينجل من الوقوف وسط قطعان الغنم ، وقد حمل في يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائي الطويل المنقار وقد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة :

ولست براعى ثلثة قام وسطها طويل العصا غرنيق ضحل مُرسِل<sup>(١)</sup>  
فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التي يقوم عليها المجتمع البدوي كالغزو والإغارة . يقول تأبط شراً :

متى تبغنى ما دمت حياً مسلماً تجلنى مع المُسترعِل المُتعبِل<sup>(٢)</sup>  
فكانهم الذى يطلبونه لأنفسهم ليس وراء الإبل أو بين قطعان الغنم ، ولكنه فى الطليعة المتقدمة بين القادة والأبطال .

ثم هم - برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم - كرماء ، حتى يضرب بهم المثل فى الكرم<sup>(٣)</sup> ، ويُنقَرَن عروة بحاتم الطائي الذى يعد فى نظر العرب المثل الأعلى للجود والسخاء ، وقد قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتمًا أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد<sup>(٤)</sup> ، وأبدى تعجبه من أن الناس ينسبون الجود والسخاء إلى حاتم ويظلمون عروة<sup>(٥)</sup> ، ووصفه الأصمعي بأنه « شاعر كريم »<sup>(٦)</sup> . والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى هذه الشهادات وأمثالها ، لأن أخبار عروة نفسها تفيض بأحاديث كرمه ، بل إن الرغبة فى الكرم التى كانت تملأ عليه نفسه كانت بعض اللواحق التى دفعته إلى تلك الثورة الاقتصادية التى أعلنها فى المجتمع الجاهلى :

(١) لسان العرب : مادة (رسل) - الثلثة : جماعة الغنم . والغرنيق : طائر مائي . ورجل مرسل : كثير الرسل أى اللبن .

(٢) لسان العرب : مادة (رعل) ، ومادة (عبل) - المسترعِل : الذى ينهض فى الرعي الأولى ، أو الخارج فى الرعي ، أو هو قائد الفرسان . والمتعبِل : المستنقح الذى لا يمسح .

(٣) « كل صعلوك جواد » (الميداني : مجمع الأمثال ٢/ ٩٠) .

(٤) الأغاني ٣/ ٧٤ .

(٥) انظر ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٩٠ .

(٦) الأصمعي : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٣ - والمرزبانى : الموشح / ٨٠ .

يُريح على الليل أضيافَ ماجد كريم ، ومالي صارحاً مالٌ مُقْتَرٍ<sup>(١)</sup>  
 أهلك معتمٌ وزيدٌ ولم أقم على فندب يوماً ولي نفسٌ مُخْطِرٍ<sup>(٢)</sup>  
 وهي تلك الثورة التي كانت تدفعه إلى مهاجمة الأغنياء البخلاء ليوزع  
 ما يغممه منهم على الفقراء الذين كانوا يلغون حوله ، ويلوذون به ، في سنى  
 الجذب والقحط والجفاف<sup>(٣)</sup> . وهو - قبل هذا كله - صاحب هذه الأبيات  
 الحميلة التي يصور فيها كرمه تصويراً رائعاً على حفظ كبير من الإنسانية ،  
 فبراه مشاركة الفقراء له في إنائه ، واكتفائه هو بالماء الخالص في أيام الشتاء  
 الباردة ليوفر لهم طعامهم ، بل يراه تقسماً لجسمه في أجسامهم حتى أصبح  
 هزيراً شاحباً :

إني امرؤٌ عافٍ إنائيَ شرقةً وأنتَ امرؤٌ عافٍ إنائك واحدٌ  
 أتزأ مني أن ممنتَ وقد ترى بجسمي مسَّ الحق ، والحقُّ جاهدٌ  
 أقسم جسمي في جُسوم كثيرة وأحسو قراحَ الماء ، والماء باردٌ<sup>(٤)</sup>  
 وتتشرب أحاديثَ هذا الكرم في شعره انتشاراً واسعاً<sup>(٥)</sup> ، حتى لتكاد كل  
 صفحة من ديوانه تنطق بهذه الأحاديث التي كان يراها :

أحاديث تبتى ، والفنى غيرُ خالك إذا هو أمسى هامة فوق صَبْرٍ<sup>(٦)</sup>  
 وهي أحاديث كان كل صعلوك يحرص على أن تبتى له بعد موته . وفي  
 قافية تأبط شراً المفضلية المشهورة دفاع قوى عن كرمه وإسرافه اللذين جرا عليه  
 كثيراً من اللوم والعذل والتأنيب :

- 
- (١) ديوانه / ٨٥ - والأصمعيات / ٣٠ .  
 (٢) ديوانه / ٨٣ - والأصمعيات / ٣٠ .  
 (٣) انظر الأغاني ٧٨/٣ - ٧٩ .  
 (٤) ديوانه / ١٣٨ - ١٤١ .  
 (٥) انظر على سبيل المثال ديوانه / ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٥ ،  
 ٩٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨١ .  
 (٦) ديوانه / ٦٤ - ولسان العرب : مادة (صبر) - والصبر : القبر .

بَلْ مِنْ لَعْدَالَةٍ خُذَالَةٍ آثِبٍ      حَرَقَ بِاللُّؤْمِ جُلْدِي أَيْ تَحْرَاقِ  
 يَقُولُ أَهْلَكَتَ مَا لَوْ قَنَعْتَ بِهِ      مِنْ ثَوْبِ صَدَقٍ وَمِنْ بَزٍّ وَأَعْلَاقٍ  
 عَاذَلْتِي إِنْ بَعْضَ اللُّؤْمِ مَعْنَفَةٌ      وَهَلْ مَتَاعٌ ، وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ ، بَاقٍ<sup>(١)</sup>

أما مادة هذا الكرم فهي - بطبيعة الحال - ما يغمونه من غزواتهم في أرجاء الجزيرة العربية ، وغاراتهم على القبائل أو على القوافل التجارية أو على طبقة الأغنياء البخلاء . فقد كانت هذه الغنائم تنبج لهم فرصة - مهما تكن قصيرة - لكي يتشبهوا بالسادة الأغنياء في البذل والعطاء واكتساب المحامد . وهكذا « كان الصعلوك ، فزع البرية ، يتقلب في أعقاب غزواته الناجحة سيذاً كريماً نبيلاً ، يَصُفُّ على المواعد الإبل التي نهبا ليظم منها البتاي والأراميل »<sup>(٢)</sup> . فالغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائل للفنى وجمع المال فحسب ، ولكنها أيضاً وسائل للبذل والعطاء ، واكتساب المحامد ، والتشبه بالسادة الأغنياء في الكرم والجود . وإذا كانت هاتان الغايتان تتنازعان نفوس الصعاليك ، وتتجاذبانها كلٌ إليها ، على نحو ما نرى عند تأبط شرّاً الذي يصرح في قافيته المفضلية بأن المال وسيلة للكرم ، ووسيلة « لتسديد الخلال » أيضاً<sup>(٣)</sup> ، فإن الغاية الأخيرة وحدها كانت هي الغاية الأساسية عند عروة الذي خلصت نفسه تماماً من هذا التنازع وهذه المجاذبة :

دَعَيْنِي أَطْرُفٌ فِي الْبِلَادِ لَعْنِي      أَفِيدَ غَنَى فِيهِ لَدَى الْحَقِّ مَحْمِلُ  
 أَلَيْسَ عَظِيماً أَنْ نَلْمُ مَلْعَةً      وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقِّ مَعُولُ  
 فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعاً بِحَادِثٍ      تَلَمْ بِهِ الْأَيَّامُ فَاَلْمُوتُ أَجْمَلُ<sup>(٤)</sup>

(١) المفضليات / ١٨ - عذالة وخذالة العبالقة . والآشب : الخلط عليه المتعرض . والأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) Laumens; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 190.

(٣) انظر المفضليات / ١٩ - الخلال : خصائص الفقر ، جمع غله .

(٤) ديوانه / ٢٠٦ .

فطلب الغنى عند عروة ليس هدفاً في ذاته ، ولكنه وسيلة للكرم وقضاء الحقوق والتشبه بالسادة .

وإلى جانب هذه القوة النفسية التي كان هؤلاء الصعاليك يمتازون بها كانوا يتمتعون أيضاً بحظ وافر من الشجاعة والجرأة وقوة الجسد .

وتفيض أخبارهم وأشعارهم بأحاديث هذه القوة ، كما تتردد هذه الأحاديث في أخبار معاصريهم وفي شعرهم أيضاً . يقول تأبط شراً مفتخراً بقوته : <sup>(١)</sup>

وما وَلَدَتْ أُمًى من القوم عاجزاً ولا كان ريشي من ذُنَائِي ولا لَغْبٍ <sup>(٢)</sup>  
ويصرح الشنفرى - في اعتداد بنفسه - بأنه يقدم في شجاعة وجرأة حيث يقف الجبان هلعاً جزوعاً :

إذا خَشَعَتْ نفس الجبان وخِيَمَتْ <sup>(٣)</sup> فلي حيث يخشى أن يجاوز مِخْشَفُ <sup>(٤)</sup>  
ويرسم عمرو بن معديكرب الفارس المشهور صورة للسليك بن السلكة يصفه فيها بأنه « كالليث يلحظ قائماً » ، وبأنه :

له هامة ما تَأْكُلُ البَيْضُ أُمَّهَا <sup>(٥)</sup> وأشباح عادي طويل الرواجب <sup>(٦)</sup>  
ويرسم أبو كبير الهذلي في أبيانه اللامية التي رواها أبو تمام في حماسه <sup>(٧)</sup>  
صورة قوية لتأبط شراً ، يصور فيها قوته وصلابته وخفته ، وسرعة عَدْوِهِ ، وجرأة قلبه ، وشدة مراسه ، ومضاء عزمته ، وكيف أعدته الطبيعة منذ طفولته المبكرة ، بل من قبل طفولته ، ليكون قوياً يستطيع أن ينهض بالعبء الذي

(١) لسان العرب ، مادة ( لغب ) - الفخابي . دُنب الطائر أو منبت الذنب . والغلب : الريش الفاسد .

(٢) الأغاني ١٤١/٢١ ، وفي ديوانه / ٣٩ « وآب إذا أجرى الجبان وظنه » ولا معنى له . نعيم : أقام حيث هو فلم يبرح ، أو جبن وتكص . والمخشف : الجريء على هول الليل ، وهو هنا صفة للقلب .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٦ ، ٢١٧ - أم كلثوم : أصله وعراده ، وأم الرأس : الدماغ أو الجلدة الرقيقة التي عليها . والبيضة : خوذة الحديد . وعادي : كأنه من قوم عاد . والرواجب : مفصل الأصابع .

(٤) انظر ج ١ ص ٨٢ - ٨٩ .

ستلقيه الحياة على عاتقه فيما بعد ، ذلك العبء الثقيل الذي لا يستطيع أن ينهض به إلا من أعدته الطبيعة له إعداداً خاصاً ، وهي صورة متكاملة الجوانب ، دقيقة الخطوط ، واضحة الألوان ، يرسمها الشاعر لتأبط شراً ، ولكنها تصلح أيضاً لكل صعلوك من أولئك الصعاليك الأقوياء الذين روّعوا الجزيرة العربية في عصرها الجاهلي ، وأثاروا في أرجائها الرعب والفرع .

وحتى لقد كان هؤلاء الصعاليك فرعاً رهيباً في هذا المجتمع الجاهلي ، حتى لنسمع أن فارساً من فرسانه الملعودين ، وهو عمرو بن معد يكرب ، يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة ، أحدهم السليك ابن السلكة<sup>(١)</sup> ، وأنه يستطيع وحده أن يحمي الظعينة ويحترق بها أعماق الصحراء ما لم يلقه واحد من هؤلاء الأربعة<sup>(٢)</sup> . وحسب السليك أن يُقرّن بعامر وعتيبة وعنزة ، وأن يخشى بأسه عمرو بن معد يكرب .

والواقع أن هذه الشجاعة الفائقة لم تكن مقصورة على صعلوك دون صعلوك ، وإنما كانت صفة يمتاز بها كل صعاليك هذه الطائفة ، حتى أصبح الصعلوك مثلاً يضرب في الشجاعة<sup>(٣)</sup> . أما أولئك الصعاليك الذين عرفوا بالفرار فإنهم كانوا يبعدونه لوناً من ألوان قوتهم الجسدية ، لأنه المجال الذي يظهرون فيه شدة

(١) « ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقى حراها وهجينها » يعني بالحرين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدن عنزة ، والسليك بن السلكة . (الأغاني ٢٤٦/٨) .

(٢) « لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها » ما لم يلقى حراها أو عيها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان أسود بن عيس (يعني عنزة) والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرّيع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنزة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك فبعمد الغارة كاليث الضاري » (الأغاني ٢٨/١٤) ، فشرح ابن الأنباري على المفضليات / ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، وانظر أيضاً أسامة بن منقذ : أعيان الأديب / ١٨١) .

(٣) « كان يقاتلهم بجندة مقاتلة الصعلوك » (من حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج قتاله الخوارج - انظر المسعودي : مروج الذهب ١٤٨/٢) .

عدوهم ، كما كانوا يرون فيه وسيلة للنجاة حتى يستأنفوا القتال في ظروف أشد ملائمة لهم . يقول أبو خراش الهذلي الصعلوك :

فإن تَزْعُمِي أَنِّي جِئْتُ فِإَتْنِي - أَفَرُّ وَأَرَى مَرَّةً كُلَّ ذَلِكَ  
أَقَاتِلُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأَنْجُو إِذَا مَا خَفْتُ بَعْضَ الْمَهَالِكِ<sup>(١)</sup>

فهو يدافع عن فراره ، ويرى أنه ليس دليلاً على جبنه ، وإنما هو « خطة موضوعة » يضطر إليها حين يصبح القتال « مغامرة انتحارية » لا أمل فيها ، حتى ينجو من هلاك محقق ، فيستأنف القتال حين يصبح القتال أمراً مضمون العاقبة .

ومن أشد ما يلفت النظر من مظاهر هذه القوة الجسدية سرعة العدو الخارقة للعادة التي اشتهرت بها هذه الطائفة من الصعاليك ، حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم « العدائين »<sup>(٢)</sup> ، أو « الرَجَلِيِّين » أو « الرُّجَيْلَاء »<sup>(٣)</sup> ، كأنما أصبحت سرعة العدو ظاهرة مميزة لهم ، وصفة ملازمة يعرفون بها . والمثل يضرب بجماعة منهم في سرعة العدو ، فيقال « أعدى من الشفري »<sup>(٤)</sup> ، و « أعدى من السليك »<sup>(٥)</sup> ، و « أمضى من مليك المقاب »<sup>(٦)</sup> . ونصفهم مصادر الأدب

- (١) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ - وحاشية الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٢٩٧ .  
(٢) انظر على سبيل المثال : الأغاني ١٢٣/١٨ ، ٢١٠ - والبغدادى : خزائن الأدب ١٧/٢ - والميداني : مجمع الأمثال ٤٣١/١ - والنيسابورى : لطائف المعارف (مصورة) لوحة رقم ٧٧ - وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شفري) .  
(٣) في تاج العروس (مادة رجيل) « والرجيلاء كضميحاء ، والرجليون محركة ، قوم كانوا يعدون » . وهما تسميتان ترددان كثيراً في مصادر الأدب العربي وفي كتب اللغة ، انظر على سبيل المثال ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ - والمرزباني : معجم الشعراء / ٤٦٨ - والآملى : المؤلف والمؤلف / ٦٧ - والمبرد : نسب عدنان وقحطان / ٩ - وابن حبيب : المحبر / ٤٣٣ - وابن دريد : جمهرة اللغة ١٤٠/١ - وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٤٧/٣ .  
(٤) الميداني : مجمع الأمثال ٤٣٠/١ - وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شفري) .  
(٥) المصدران السابقان : الميداني / ٤٣١ - وتاج : مادة (سلك) .  
(٦) الميداني : مجمع الأمثال ٢٣٣/٢ - والأغاني ١٣٧/١٨ - وابن عبد ربه : العقد الفريد ٧٠/٣ - وابن دريد : جمهرة اللغة ٣٢٣/١ .

العربي بأنهم «أشد الناس عدواً»<sup>(١)</sup> ، أو أنهم «لا يجارون عدواً»<sup>(٢)</sup> ،  
أو «لا يلتحقون»<sup>(٣)</sup> ، أو يعدون عدواً يسبقون به الخيل<sup>(٤)</sup> ، أو لا تعلق بهم  
الخيل<sup>(٥)</sup> ، أو لم تلحقهم الخيل<sup>(٦)</sup> ..

وتفيض هذه المصادر بأحاديث عدوهم وأخبار سرعته ، وتبالغ فيها مبالغة  
تبدو أحياناً غير مقبولة ، فتأبط شراً «كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين  
وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على  
نظره أسننها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه  
فياكله»<sup>(٧)</sup> . وفي أخبار حاجر الأزدي أن أباه قال له : «أخبرني يا بني بأشد  
عدوك» ، قال : نعم ، أفزعني خشم ، فزت نزوات ، واستفزني الخيل ،  
واصطف لي ظبيان ، فجعلت أنيهما بيدي عن الطريق لضيقه ، ومنعاني أن  
أتجاوزهما في العدو لضيق الطريق ، حتى اتسع واتسعت بنا فسبقتهما»<sup>(٨)</sup> . وفي أخبار  
السليك أن بني كنانة قالوا له حين كبر : «إن رأيت أن تربنا بعض ما بقي من  
إحضارك» ، فقال : اجمعوا لي أربعين شاباً ، وابغوني درعاً ثقيلاً . فأخذها  
فلبسها ، وخرج الشباب ، حتى إذا كان على رأس ميل أقبل يُحضر ، فلاث  
العدو لوثاً ، واهتبصوا في جنبته فلم يصحبه إلا قليلاً ، فجاء يحضر متبذراً حيث  
لا يرونه ، وجاءت الدرع تنفق في عنقه كأنها خرقة»<sup>(٩)</sup> . وفي أخبار  
أبي خراش أنه دخل مكة «ولوليد بن المغيرة المخزومي فرسان يريد أن يرسلهما  
في الحلب» ، فقال للوليد : ما تجعل لي إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فهما لك ،

(١) الأغاني ١٨/١٣٤ - والنيسابوري : لطائف المعارف ، لوحة ٧٧ .

(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ .

(٣) الأغاني ١٨/١٣٣ ، ٢٠/٢٠ .

(٤) الأغاني ١٢/٤٩ (بولاق) .

(٥) الأغاني ١٨/١٣٣ ، ١٣٤ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٦) البغدادى : خزنة الأدب ١٦/٢ .

(٧) الأغاني ١٨/٢١٠ .

(٨) الأغاني ١٢/٤٩ ، ٥٠ (بولاق) .

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ - احتبسوا : أسرعوا أو بالغوا في العدو .



فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما، فأخذهما<sup>(١)</sup>. ويذكر الرواة أن خطو الشنفرى ذرع ليلة قتل ، « فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة ، والثانية سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة »<sup>(٢)</sup>. ومن الطريف أن يصف تأبط شرّاً رفيقه في الصعلكة الشنفرى حين يعدو بأنه « قد طار »<sup>(٣)</sup>، أو يصف عدوّ عمرو بن برّاقة بأنه « مثل الريح »<sup>(٤)</sup> ، أو نسّمعه يقسم بقوله « والذي أعلو بطيره »<sup>(٥)</sup> ، وهو قسم يستمد طرافته من ذكر الطير فيه ، وعقد صلة بينها وبين عدوه ، كأنما أصبح الصعلوك يعدو بأجنحتها .

وفي كل مناسبة يردد هؤلاء الصعاليك في شعرهم أحاديث عدوهم وسرعنهم . وهم يتحدثون عنهما دائماً في اعتداد وفخر كبيرين ، إذ يرون فيهما ميزة تفردوا بها من بين صائر البشر ، ووسيلة تعينهم على الحياة ، وتيسر لهم سبل النجاة . يقول تأبط شرّاً مفتخراً بسرعته التي أنجته من أعدائه وما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغرّوا بي سرّاعهم	بالعينكتين لدى معدى ابن براق
كأنما حشحوا حصاً قوادمه	أو أم خشف بذى شت وطباق
لا شيء أسرع منى ، ليس ذا عذر	وذا جناح بجانب الرئد خفاق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى	بواله من قبض الشد غيداق <sup>(٦)</sup>

(١) الأغاني ٥٧/٢١ .

(٢) البغدادى : خزائن الأدب ١٨/٢ .

(٣) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ٦ .

(٤) الأغاني ٢١٠/١٨ .

(٥) المصدر السابق / ٢١١ .

(٦) المفضليات / ٧ - ١١ . العينكتان : اسم موضع . حشحوا : حركوا ، من الحث . القوادم : ما يل الرأس من ريش الجناحين ، والحص : التي تنأثر ريشها وتكسر ، وهذه دلالة على السرعة والخفة ، وقوله « حصا قوادمه » يعنى الظلم . الخشف : ولد الظبية . الشت والطباق : نبتان من نبت السراة . العذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه ، ويعنى بذى عذر فرسا . الرئد : حرف الجبل الذى يشرف على الهواء . الواله : الذاهب العقل فليس يستبقى من جهده فى عدوه شيئاً . القبيض : السريع . الشد : العدو . الغيداق : الكثير الواسع .



إنه سريع كالظلم أو الظبية ، بل إنه أسرع من كل شيء حتى الخيل  
الحياة والطير الخارجة فوق قمم الجبال . ويصرح أبو خراش بأن سرعة عدوه هي  
التي أنجته من موت محقق ، فلولاها لآمت امرأته ويثم ابنه :

تقول ابنتي لما رأتني عشيّة : مَلِمْتَ وما إن كدت بالأمس تسلم  
ولولا دِرَاكُ الشد قاطت حبلتي تخير من خطايا وهي أيم  
فتقعد أو ترضى مكاني خليفة وكاد خراش يوم ذلك ييتم<sup>(١)</sup>  
وفي لامية العرب صورة قوية لهذه السرعة نرى فيها الصعلوك يسبق القطا  
الظائمة وهي تسرع إلى الماء :

وتشرب أسارى القطا الكدر بعدما سرت قريبا أحشاؤها تتصلصل  
هممت وهمت ، وابتدرنا ، وأسدلت وشمر مني فارط . متمهل  
فوليت عنها وهي تكبو لعقره يباشره منها ذقون وحوصل<sup>(٢)</sup>  
إنها مباراة طريفة يقدمها لنا الشاعر بينه وبين القطا في الوصول إلى الماء ،  
تنهى بفوزه عليها ، وإدراكه الماء قبلها ، بل لقد شرب وارتوى قبل أن تصل  
هي ، فلما وصلت لم تجد إلا سؤرا تشربه من بعده .

ولعل أقوى صورة رسمها صعلوك هذه السرعة هي تلك الصورة التي رسمها  
تأبط شرا ، والتي نرى فيها الصعلوك يسبق الريح بسرعة الفائقة :

ويسبق وفد الريح من حيث يستحي بمنخرق من شدة المتدارك<sup>(٣)</sup>  
بل إن الأمر ليصل بحاجز الأزدي إلى أن يفدني رجله بأمه وخالته ،  
وماذا أفاد من أمه وخالته سوى تلك الحياة القاسية المحترقة التي جرتاها عليه  
بلونهما الأسود ؟ أما رجلاه فهما كل شيء في حياته ، ولولاها لفقد الحياة

(١) ديوان الهذليين ١٤٨/٢ . والأغاني ٥٦/٢١ ، ٥٧ . وحمامة الخالدين  
(مخطوطة) ورقة رقم ٢٥ - قاطت : أقامت .

(٢) القال : النواذر / ٢٠٥ - القرب : طلب الماء ليلا . الأحناء : الجوانب .  
تصلصل : تصوت . الفارط : المتقدم . المقر : مقام الساق من الخوض .

(٣) حمامة أبي تمام ٤٨/١ - المنخرق : السريع . المتدارك : المتلاحق .

نفسها ، وإذا كانت أمه ونخالته سبب ما يلاقيه في حياته فإن رجليه سبب إنقاذه مما يلاقيه فيها :

فدنى لكما رجلى أى ونخالى بسعيكما بين الصفا والأثائب<sup>(١)</sup>  
وعلى ما في أحاديث هذا العدو في أخبار الصعاليك وشعرهم من مبالغات يقف المرء عندها مسائلا : أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ فإنها - على كل حال - تصور ظاهرة لاشك في حقيقتها المجردة ، وهي أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمتازون بسرعة في العدو خارقة للعادة ، وهي سرعة لفتت أنظار الرواة فسجلوها بما فيها من مبالغات ، واستقرت في أذهان الناس فضربوا بها الأمثال ، ووجد فيها بعض الشعراء المتأخرين مادة يستغلونها في فهم ، ويستخدمونها في تشبيهاتهم وصورهم الفنية<sup>(٢)</sup> .

وينظر هؤلاء الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، فإذا هو مجتمع ظالم ، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال ، ولكنه - مع ذلك - لا يحسن توزيع المال بين أفرادهِ ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفرادهِ عدد ضخم من الإبل في حين لا يملك الآخر غير جبل يحوره لا يعبر فيه ، وما هذه الإبل التي يملكها هذا الفرد سوى إبل الله خلقها للناس جميعاً ، فهي ليست حقاً له وحده دون غيره من خلق الله في هذه الأرض<sup>(٣)</sup> .

والعجيب من أمر هذا المجتمع أن بين من يعطيهم بغير حساب بخلاء

(١) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاق) - وحاجز من أغربة العرب سرى إليه السواد من أمه (تاج المروس ، مادة « غرب ») والأثائب : شجر ينبت في بطون الأودية .

(٢) انظر على سبيل المثال : وصف جران المود للقوادة (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٥٢/ ) ، ووصف البحري للمفازة (ديوانه / ٧٣) ، ووصف ابن الرومي لشهر الصيام (ديوانه / ٧٧) .

(٣) وإني لأستحي نفسي أن أرى أمر بجبل ليس فيه بعر وأن أسأل العبد القيم بغيره وبعيران ربي في البسلاد كثير (الأحيمر السعدي في الشعر والشعراء / ٤٩٥) .

أشحاء لا ينتفع بهم أحد ، في حين يحرم فيمن يحرم كرماء لو أعطاهم لنفعوا بهم أفراد مجتمعهم الفقراء المحتاجين ، فهو يحرم هؤلاء الكرماء ما يكثره أولئك البخلاء ، ويحرمهم نتيجة لهذا فرصة التكافؤ الاجتماعي ومساواة إخوانهم في الإنسانية من الأغنياء الكرماء في شراء تلك الأحاديث الخالدة التي « تبقى والفتى غير خالدة إذا هو أمسى هامة فوق صبير » كما كان يقول عروة .

وقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم - بسبب ظروف البيئة والمجتمع والمزاج الشخصي - من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب ، « والخلة تدعو إلى السلة » - كما يقول المثل العربي<sup>(١)</sup> ، ففوضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبون ويسلبون ، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت في أذهانهم وضعاً ثانياً لا ثالث له : إما حياة كريمة ، وإما ميتة كريمة ، أما أنصاف الحلول فشئ لا يؤمنون به . لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن « الحق للقوة » ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضميم وهوان ، فرثوا لهم ، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفهم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضاً على ذلك المجتمع الذي أذل إخوانهم الضعفاء .

هكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأقرباء النفس والجسد خطتهم من أجل الحياة أولاً ، ثم من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم الذي لا يعترف بهم ، وتحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك ، وهي خطة تقوم على أساس « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وأحاديث « الغزو والإغارة للسلب والنهب » تنتشر في أخبار هؤلاء الصعاليك وشعرهم انتشاراً واسعاً ، بل لعلها أكثر ما يتشتر في أخبارهم وشعرهم

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة (خلل) .

من أحاديث ، حتى لتوشك أن تكون هي اللون البارز في لوحة حياتهم الاجتماعية والفنية .

ففي أخبار السليك أنه « أملق حتى لم يبق له شيء » ، فخرج على رجله رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله ، حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة . فاشتمل الصَّماء ، ثم نام . . . فبينما هو نائم إذ جثم رجل فقعد على جنبه فقال : استأمر ، وسأله السليك من يكون ، فقال له : « أنا رجل افتقرت ، فقلت لأخرجن<sup>١</sup> فلا أرجع إلى أهلي حتى أستغني ، فأتيتهم وأنا غني » ، فقال له السليك : انطلق معي ، « فانطلقا معاً ، فوجدنا رجلاً قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعاً ، حتى أتوا الجوف ، جوف مراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ قد ملا كل شيء من كثرته ، فهابوا أن يغيروا » ، ولكن السليك دبر لهم حيلة « فأطردوا الإبل ، فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصَّريحُ الحى حتى فاتوهم بالإبل »<sup>(١)</sup> .

إنها قصة تصور لنا تلك الهوة الواسعة بين الطبقات في المجتمع الجاهلي : بين أولئك الذين « أملقوا حتى لم يبق لهم شيء » ، وأولئك الذين أترفوا حتى « ملا نَعَمهم كل شيء من كثرته » ، وهي هوة كانت تدفع هؤلاء الصعاليك المعدمين للخروج إلى الصحراء من أجل اغتصاب رزقهم من أيدي أولئك المترفين ، وانتزاع لقمة العيش من بين أنيابهم ، أو — بعبارة أخرى — كانت تدفعهم إلى « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وفي أخبار تأبط شرًا أنه خرج في « عدة من فهم » يربسون الغارة على أحد أحياء بجيلة . وتمت الغارة بقتل نفر من بجيلة ، ونهب إبل لهم . وساق الصعاليك الإبل حتى إذا كانوا « على يوم وليلة من بلادهم » تصدت لهم خشم طامعة فيما معهم ، ودار قتال بين الفريقين : صعاليك فهم العائدين بغنيمتهم ، ورجال خشم الطامعين فيها . وثبت الصعاليك — على قلتهم وكثرة خشم — وانتهى

(١) الأغاني ١٨/١٣٤ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ - ٢١٥ مع اختلاف يسير في ألفاظ القصة .

الصراع بأنهم خشم وتفرقها ، وانطلاق الصعاليك بغنيمتهم<sup>(١)</sup> .  
 في هذه القصة نرى صورة من حياة الصعاليك في المجتمع الجاهلي ،  
 تلك الحياة التي كانت تقوم على « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، ومثلاً  
 قوياً لذلك الصراع الدامي الذي كان الصعاليك يخوضون غماره في سبيل  
 الحياة ، وهو صراع كانوا يخوضون غماره في شجاعة وقوة لأنهم كانوا يتمثلونه  
 صراعاً بين الحياة والموت .

وفي أخبار عروة أنه كان - إذا أصابت الناس سنة شديدة - يجمع المرضى  
 والضعفاء والمسنين من عشيرته ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكُنف ،  
 ويكسبهم . ومن قوى منهم إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب  
 قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً . حتى إذا  
 انخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من  
 غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى<sup>(٢)</sup> .

وفي أخباره أيضاً أنه « بلغه عن رجل من بني كنانة بن خزيمه أنه أبخل  
 الناس وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً فأتوه بخبره ، فشد على إبله فاستاقها ،  
 ثم قسمها في قومه<sup>(٣)</sup> .

على هذا النحو كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة  
 يدفعها القوى للضعيف ، والغني للفقير ، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال  
 الأغنياء ، وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يختصبونه إن لم يؤدّ لهم ، وتهدف إلى  
 تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع  
 المتباعتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء ، « فالغزو والإغارة للسلب والنهب »  
 لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعة الإنسانية  
 وفكرته الاشتراكية .

(١) الأغاني ٢١٥/١٨ - ٢١٦ .

(٢) الأغاني ٧٨/٣ - ٧٩ ، والتبريزي : شرح حسانة أبي تمام ٩/٢ .

(٣) ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٨١ .

وقد يحدث أن تتطور هذه الأهداف الاجتماعية والاقتصادية عند بعض الصعاليك إلى لون من التمرد الخالص الذي لا يميز بين الأهداف ، فإذا هم يتعرضون لكل من يسوقه حظه السيئ إلى مناطق تربصهم . يقول تأبط شراً معبراً عن هذا التمرد الخالص الذي أصبح عنده الوسيلة والغاية معاً :

ولست أبیتُ الدهرَ إلا على فتي أسلبه أو أذعرُ السربَ أجمعاً<sup>(١)</sup>  
أو يناصرون قبائل معينة الملاء ، يصبون عليها شرورهم ، ويوجهون إليها غاراتهم وغزواتهم ، كما كان يفعل تأبط شراً مع تلك المجموعة من القبائل التي يعددها في بعض أبياته<sup>(٢)</sup> ، وكما كان بين صعاليك هذيل وصعاليك قههم من عداوة مستحكمة لا يبدأ أوارها ، ظهرت آثارها في شعر الفريقين وأخبارهما<sup>(٣)</sup> .

وفي شعر الصعاليك صور كثيرة متعددة الألوان والأوضاع لهذه الغارات ، وأحاديث عنها لا تكاد تنهى حتى تبدأ ، وفي أكثر قصائد هذا الشعر ومقطوعاته يردد الصعاليك أقاصيص هذه الغارات في فخر وإعجاب ، واعتداد بأنفسهم وبطولتهم . وفي تائية الشنفرى المفضلية صورة رائعة قوية لغارة قام بها هو وأصحابه الصعاليك ، يصف فيها كيف أعدّ عصابتة للغزو ، ويصف الطريق الذي سلكوه ، ويتحدث عن الدوافع التي دفعته إلى هذه الغارة ، ثم يتحدث عن الأهداف التي حققها ، والغايات التي وصلت إليها . يقول :

وباضعةٍ حمر القسي بعثتها ومن يغزُ يغتم مرة ويُسَمَّت  
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا. هيهات أنشأت سُرْبتي  
أمشي على الأرض التي لن تضرنني لأنكى قوماً أو الاتي حُمّتي  
أمشي على أين الغزاة ويُعْلما يقربني منها رَواحي وغُدوتي  
ثم يقول :

قتلنا قتيلاً مُهْدياً يملِك جمارَ مني وسطَ الحجيج المصوت

(١) الأغاني ٢١٧/١٨ .

(٢) المصدر السابق / ٢١٨ .

(٣) انظر على سبيل المثال شرح أشعار المهذلين ١/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

جزينا سلامان بن مفرج قرضها بحس قدمت أيديهم وأزلت  
وهني بي قوم وما إن هناهم وأصبحت في قوم وليسوا بمنيتي  
شفينا بعبد الله بعض غليلنا وعوف لدى المعنى أوان استهلكت<sup>(١)</sup>  
وفي لامية العرب قصة غارة مفاجئة خاطفة قام بها الصعلوك في ليلة باردة  
ذات ظلام ومطر ، وقد استبد به الجوع والبرد والخوف ، ثم عاد إلى « قواعده »  
سلاماً ، بعد أن حقق أهدافه ، خلفاً وراءه القوم يتساءلون : ما هذا الذي طرق  
حيهم ليلاً ؟ وقد ذهبت آراؤهم فيه مذاهب شتى :

وليلة نحس يضطلي القوس ربها وأقطعته اللاني بها يتنبيل  
دعست على غطش وبفش ، وصحبتى سعار وإرزيز ووجر وأفكل  
فأيمت نسواناً ، وأيتممت إلهة وعدت كما أبدأت ، والليل أليل  
وأصبح غنى بالغيبضاء جالسا فريقان : مسئول وآخر يسأل  
فقالوا : لقد هرت بليل كلابنا فقلنا أذنب عس أم عس فرعل  
فلم تك إلا نبأة ثم هومت فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل  
فإن يك من جن لأبرح طارقاً وإن يك إنسا ما كها الإنس تفعل<sup>(٢)</sup>

(١) المفضليات / ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وانظر أيضاً الأغاني ١ / ١٢٩٢ - ١٤٠ . الباضعة : القاطعة ، ويريد بها أصحابه الصالحين . بعثها : أى غزوت بهم . حصر القسى : أى أنهم غزوا مرة بعد مرة فاحسرت قسهم للشمس والمطر . والقسى تعمر على القدم . السربة : الجماعة ، وقوله « أنشأت سربي » أى أظهرتهم من مكان بعيد ، يصف بعد مذهبه في الأرض طلباً للثغمة . وقوله « لن تضرب » أى لن أخاف بها أحداً . وقوله « لأنكى قوماً » من التكاية . الحمة : المنية . وقوله « على أين القزاة » أى على ما يصيرني من تعبها ، وأنا مع ذلك أمشي . الملبد : المحرم الذي يأخذ صنفاً فيلبد به شعره لتلايشت في مدة الإحرام . وقوله « جمار منى » أى عند الجمار . سلامان بن مفرج من قومه وهم الذين قتلوا أباه . وقوله « وهني بي قوم وما إن هناهم » أى هني بي قوم وما انتقموا بي . عبد الله وعوف من بني سلامان . وقوله « استهلكت » أى الحرب إذا ارتفعت الأصوات فيها .

(٢) أعجب العجب / ٥٩ - ٦٤ . والقتال : النوادر ٢٠٦ .

ليلة النعس : المراد بها هنا الليلة الباردة . والأقطع : جمع قطع وهو السهم . ويتنبيل أى -



وكان الصعاليك يخرجون لهذه الغارات الرهيبة فرادى أحياناً ، وفي عصابات أحياناً أخرى . وكان أكثرهم يغير على رجله ، وبعضهم يغير على الخيل .

في أخبار الشنفرى أنه كان « يغير على الأزدي على رجله فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك »<sup>(١)</sup> ، ومن أخباره أيضاً أنه خرج « في ثلاثين رجلاً ومعه تأبط شرّاً يريدون الغارة على بني سلامان »<sup>(٢)</sup> . وفي أخبار السليك أنه خرج « على رجله رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله » ، وأنه التقى برجلين قصتهما مثل قصته « فاصطحبوا جميعاً »<sup>(٣)</sup> . وفي أخبار تأبط شرّاً أنه خرج « في عدة من فهم »<sup>(٤)</sup> . وفي شعره حديث عن غزواته هو وصعاليكه على الخيل أحياناً ، وعلى الأرجل أحياناً أخرى :

فيوماً بغزائم ، ويوماً بسربة ويوماً بنخشخاش من الرّجل ميفضل<sup>(٥)</sup>  
وفي شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو . يقول متحدثاً عن امرأته التي تلومه على مخاطرته بنفسه في غاراته المتكررة تارة بأولئك الرّجلين الذين يعتمدون في غزوهم على أرجلهم ، وتارة بأولئك الفرسان الذين يغيرون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تارك ضبوة برّجل تارة وبمنسر<sup>(٦)</sup>

= يرى بها . والدعس : شدة الوطء . والنعلش : الظلمة . والبش : المطر الخفيف . والسعار : شدة الجوع . والإرزيق : البرد . والوجر : الخوف . والإفكل : الرعدة . والإلدة : الأولاد . والنميصاء : اسم موضع بنجد . والمس : الطواف بالليل . والفرعل : ولد الضبع . والنبأة : الصوت . وهومت : قامت . والأجدل : الصقر . وأبرح : من البرح وهو الشدة .

(١) الأغاني ١٣٥/٢١ .

(٢) ابن الأثير : شرح المفضليات / ١٩٥ .

(٣) الأغاني ١٣٤/١٨ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٥ .

(٥) لسان العرب : مادة ( غزا ) - السربة : جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين .

والنخشخاش : الجماعة في ملاح ودروع . واليفضل : الجماعة المتسلحة . والرجل : الرجالة .

(٦) ديوانه / ٦٨ ، والأصمعيات ٢٩/١ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام

٦١/١ - ضباً : اختبأ واستتر ليقتل . والمنسر كجلس ومنبر : جماعة الخيل .



ويقول متحدثاً عن اعتمادهِ على كلا الأسلوبين في بعض غاراته :

لعل انطلاقاً في البلاد ، ورحلتى      وشدى حيازيم المطية بالرجل  
سيدفعني يوماً إلى رب هجمة      يدافع عنها بالعقوق وبالبعث  
قليلٌ توالياً وطالب وترها      إذا صحت فيها بالقوارس والرجل<sup>(١)</sup>  
وقد وفر الصعاليك لهذه الغارات كل ما يحقق لها النجاح ، وبلوغ الغاية ،  
وإدراك الهدف . فإلى جانب ما وفروه لها من قوة الجسد ، وشجاعة القلب ،  
وصدق العزيمة ، وسرعة العدو ، وفروا لها صعة الحيلة ، وعمق الدهاء ، والقدرة  
على الخلاص من المآزق الضيقة ، والمواقف الحرجة . ففي أخبار الشنفرى أنه كان  
إذا سار في الليل نزع نعلا وليس نعلا ، وضرب برجله ، حتى يموء على الناس ،  
فيظنوه الضبع<sup>(٢)</sup> . وفي أخباره أيضاً أنه أقبل في ليلة على ماء لبنى سلامان ،  
فلما دنا من الماء قال : إني أراكم ، وليس يرى أحداً ، إنما يريد بذلك أن  
يخرج رصداً إن كان ثمة من يترصده له<sup>(٣)</sup> . وفي أخبار السليك أنه احتال على  
رجل في سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه ، تمهيداً للإغارة عليها<sup>(٤)</sup> .  
وخبر الحيلة التي لحا إليها تأبط شراً ، حين حاصرته لحيان وهو يشتر العسل من  
غار في بلادهم ، خبر ذائع مشهور<sup>(٥)</sup> . وقصة احتياله هو والشنفرى وابن بركة  
على بجيلة حين أسرته ، حتى نجا ونجا معه صاحباها ، وهى القصة التي أشار  
إليها في قافيته المفضلية ، قصة مشهورة أيضاً<sup>(٦)</sup> .

والى جانب هذا كله كان طبيعياً أن يوفر الصعاليك لغاراتهم السلاح الذي

(١) ديوانه / ١٠٨ - ١١١ . وشرح التبريزى على حاشية أبي تمام ٩/٢ .

(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٧ ، والأغاني ١٣٧/٢١ ، وابن حبيب :  
كتاب المتاملين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ .

(٣) الأغاني ١٤٣/٢١ .

(٤) الأغاني ١٣٥/١٨ - ١٣٦ .

(٥) انظر التبريزى : شرح ديوان الحماسة ٢٨/١ وما بعدها ، والأغاني ٢١٥/١٨ ،  
والبندادى : خزنة الأدب ٣٥٧/٣ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٦ - ١٩٨ .

(٦) انظر ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ٦ - ٧ ، والأغاني ٢١١/١٨ - ٢١٢ .

يعتمدون عليه في هجومهم ودفاعهم ، لأن الشجاعة أو القوة أو غيرها من الصفات التي كانوا يمتازون بها لا تكفي وحدها « في تلك البادية القوضوية التي لا يستطيع إنسان أن يعيش فيها ما لم يكن مزوداً بسيف أو قوس » (١) .  
والواقع أن الصعاليك أعدوا لغاراتهم كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية من سلاح ، سواء منه ما كان للهجوم وما كان للدفاع ، ووصفوا في شعرهم كل ما كانوا يستخدمونه منه ، وتحدثوا عن قيمته لم في غزواتهم ، بل في حياتهم كلها ، فقد كانوا يرون فيه أهم شيء في حياتهم ، وأعلى ما يملكون فيها ، وما يخلفونه بعدها ، فعمرو بن براقه يذكر أن سيفه هو « جُلُّ ماله » (٢) ، وعروة يذكر أنه لن يخلف بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد :  
وذى أمل يرجو ترائي ، وإن ما يصيرُ له منه غداً لقليلُ  
ومالٍ مالٌ غير درع ، ومغفر (٣)  
وأبيض من ماء الحديد صقيلُ  
وأسمرُ خطيُ القنساء مثقف وأجرُدُ عريانُ السراة طويل (٤)  
هذا كل ما يملكه أبو الصعاليك ، وكل ما سيخلفه من بعده لوارثيه ، وهذا كل ما يسجله في « وصيته » من « ثروته » . وقد بلغ من شدة حرص صخر الغنى الصعلوك على سلاحه أنه كان يراه ثياباً له لا يخلفها عن جسده (٥) ، ويذكر الرواة أن ثأبط شراً « كان لا يفارقه السيف » (٦) .

وقد استتبع هذه الحياة الواقفة في وجه المجتمع ، المتمردة عليه ، الخارجية على نظمه ، أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد أصحابها طمأنينتهم فيه ، فانقطعت الصلة بينهما ، وانفصلت تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط بين الفرد ومجتمعه ، وانحل ذلك العقد الاجتماعي الذي يجعل من الفرد عضواً

(١) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 173.

(٢) انظر أبياته الميمية في الأغاني ١٧٥/٢١ .

(٣) معطوف على محل « درع » ، لأن المعنى « ليس لي إلا درع ومغفر » .

(٤) ديوانه / ٢٠٧ .

(٥) انظر قصيدته للدالية في المكرى : شرح أشعار الهذليين ١٣/١ .

(٦) الجوهري : صحاح اللغة ، مادة (أبط) .

عاملاً لمجتمعهم ، متوافقاً معه ، دائراً في فلكه ، ورأى المجتمع في هؤلاء الصعاليك « شذاً اذاً » خارجين عليه ، غير متوافقين معه ، ، فتتكر لهم ، وتغلى عنهم ، وتركهم يواجهون الحياة دون أية حماية منه أو ضمان اجتماعي ، ورأوا هم في مجتمعهم مجتمعاً مختلفاً ، يسيطر عليه ظلم اجتماعي ، وتسوده أنانية اقتصادية جائرة ، وتنقصه عدالة اجتماعية تسوى بين جميع أفرادهم ، وتكافؤ في فرص العيش بيني لكل فرد فيه أن يأخذ بنصيبه من الحياة كما يأخذ سائر الأفراد .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله أن فرّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي ليقوموا لأنفسهم بأنفسهم « مجتمعاً » فوضوياً ، شريعته « القوة » ، ووسيلته « الغزو والإغارة » ، وهدفه « السلب والنهب » ، ووجدوا في الصحراء الفسيحة الواسعة التي لا تقيد لها قيود ، ولا تحد من حريتها حدود ، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها ، مجالا لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي ، ويقىمون « دولتهم » الفوضوية ، « دولة الصعاليك » ، حيث يحبون حياة حرة منمردة ، تسودها العدالة الاجتماعية ، وتتكاثر فيها فرص العيش أمام الجميع .

وأخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تحفل بأحاديث هذا التشرد في أنحاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الرهيبة ، حيث يحيا الوحش بعيداً عن البشر ، وحيث يكمن الموت في كل رجء من أرجائها .

ولعل أقوى ما صور به هذا التشرد في شعر الصعاليك هاتان الصورتان المتشابهتان اللتان نجد إحداهما عند تأبط شرّاً ، والأخرى في لامية العرب ، فكلا الصعلوكين مفارق مجتمعهم النظامي حيث يعيش البشر ، إلى أعماق الصحراء البعيدة حيث يعيش الوحش ، أما تأبط شرّاً فقد ألقته الوحش لطول ما عاش بينها مسلماً لها ، حتى أنست به ، واطمأنت إليه ، وأما صعلوك اللامية فقد وجد في ضواير الصحراء أهلاً له ، يستعير بها عن أهله من البشر ، ويجد بينها الأمن والطمأنينة . يقول تأبط شرّاً متحدثاً عن نفسه :

يببت بمغنى الوحش حتى ألفتُهُ      ويصبح لا يخفى لها الدهر مرتعاً

رأين فتى لا صيد وحش يهيمه فلو صافحت إنسا لصافحته معا<sup>(١)</sup>  
ويقول صاحب اللامية مخاطباً أهله :

ولي دونكم أهلون : سيد عملس وأرقط زهلول ، وعرفاء جبال  
هم الأهل ، لا مستودع السر ذائع لديهم ، ولا الجاني بما جر يخذل<sup>(٢)</sup>  
ومن الطبيعي أن هذا التشرّد جعل الصعاليك على صلة قريبة بحيوان  
الصحراء ، استطاعوا عن طريقها أن يعرفوا طباعه وعاداته ، وأن يتحدثوا عنه  
وعنها حديث الخبير المطلع . وفي شعرهم صور كثيرة لحوان الصحراء ووحشها  
وطيرها وحشراتنا وما ينخل للسارى فيها من أشباح ، كذلك الوصف الدقيق  
للضباع وحياتها وطباعها في شعر الأعلام الهذلي<sup>(٣)</sup> ، وكذلك الصورة الرائعة  
للذئاب الجائعة في لامية العرب<sup>(٤)</sup> ، وكذلك الصور المتعددة للغيلان وما يجرى  
للإنسان معها في شعر تأبط شرا<sup>(٥)</sup> .

وكان من نتيجة هذا التشرّد البعيد في أعماق الصحراء أن أصبح الصعاليك  
على علم واسع بأسرارها ، ومعرفة دقيقة بشعابها ودروبها ومسالكها ومياهها ،  
ومقدرة فائقة على الاهتداء في مجاهلها ، واختراق متاهاتها المضلة دون دليل .  
ورواة الأدب العربي يصفون السليك « البعيد الغارة » بأنه « كان أدل من  
قطاة »<sup>(٦)</sup> ، بل إنهم يصفون الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا »<sup>(٧)</sup> .

(١) الأغاني ٢١٧/١٨ - وقوله « ويصبح لا يحى لها الدهر مرتماً » معناه أنه لا يمنحها  
من الرعى فهي لا تخاف منه .

(٢) أصعب المعجب / ١٧ ، ١٨ - السيد : القذب . والعملس : القوى على السير  
السريع . والأرقط المراد به النمر . والزهلول : الأملس . والعرفاء : الضبع الطويلة العرف .  
وجبال : اسم الضبع ، معرقة بنون الألف واللام ، وهي في الأصل صفة ثم غلبت فخرجت مخرج  
الأسماء ، وهي لهذا متنوعة من الصرف العلمية والتأنيث .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٧٩/٢ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) انظر أعجب المعجب / ٣٧ - ٥٠ .

(٥) انظر الأغاني ٢٠٩/١٨ ، ٢١٠ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٦) الأغاني ١٣٤/١٨ .

(٧) المرزبانى : معجم الشعراء / ١٦٨ .

وفي شعر الصعاليك أحاديث كثيرة عن الصحراء ، وفخر عريض بمعرفة أسرارها ، والاهتداء في مجاهلها ، كما نرى في تلك الأبيات الرائية التي يرويها الأصمعي لتأبط شرا ، والتي يتحدث فيها عن اهتدائه إلى شيعب في أعماق الصحراء المجهولة بصعاليكه دون أن يهديه إليه دليل أو يصفه له خبير (١) ، وكما نرى في هذه الأبيات القوية من لامية العرب :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته      بعاملتين ، ظهره ليس يُعملُ  
والحقت أولاه بأخراه موفيا      على قنة أقعى مراراً وأمثلةً  
ترود الأراوى الصخم حول كأنها      عذارى عليهن الملاء المدليل  
ويركدن بالآصال حول كأننى      من العصم أدنى ينتحى الكبيح أعقل (٢)  
فالشاعر في هذه الأبيات يصف الصعلوك بأنه يخرق الصحراء النائية الخالية التي لا يطرقها أحد ، معتمداً في اختراقها على رجليه القويتين السريعتين : حتى يصل إلى منازل الوعول البعيدة التي لم تعد تنكره ، لكثرة ما خالطها ، حتى كأنه واحد منها .

والناظر في أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ في وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم : طائفة « الخلاء والشذاذ » الذين أنكرتهم قبائلهم ، وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحالت بهذا من العقد الاجتماعي الذي يربط بينها وبينهم ، والذي يصوره المثل العربي القديم « في الحرية تشرك العشيرة » (٣) ، فأصبحت لا نحتمل لهم جريرة ، ولا تطالب

(١) انظر الأصمعيات ٣٥/١ .

(٢) أعجب العجب / ٦٧ - ٦٩ - الخرق : الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح . والعاملتان : رجلاه . وظهره ليس يعمل أى ليس مما تعمل فيه الركاب . وموفياً أى مشرقاً . والقنة : أعلى الجبل . وأمثلة : أقنق وأقوم . والأراوى : إناث الوعول . والصخم : السود التي يضرب لونها إلى صفرة . ويركدن أى يثبن . والعصم : الوعول التي في أيديها بياض . والأدنى من الوعول : الذي طال قرنه طولا شديداً . والكبيح : عرض الجبل . والأعقل : الممتنع في الجبل العالي .

(٣) الميداني : مجمع الأمثال ١٧/٢ .

بحريّة يجرها أحد عليهم ، مثل ساجز الأزد<sup>(١)</sup> ، وقيس بن الخدّادية<sup>(٢)</sup> ، وأبي الطّمّحان الصّبي<sup>(٣)</sup> .

وطائفة « الأعرية » السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم آبائهم العرب ، ولم ينسبوا إليهم ، لأنّ دماءهم ليست عربية خالصة ، وإنّما خالطها دماء أجنبية سوداء لا تصل من درجة نقائها إلى درجة الدم العربي ، مثل تأبط شرا<sup>(٤)</sup> ، والشنفرى<sup>(٥)</sup> ، والسليك بن السليكة<sup>(٦)</sup> .

ثمّ طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعّلوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المحتلة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل .

من هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات الصعاليك ، وهي عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات ، وانطلقت إلى الصحراء ، كما تنطلق الذئاب الجائعة ، لتشق لنفسها طريقاً في الحياة ، وقد جمع بينها - على اختلاف قبائلها - الفقر ، والتشرد ، والتمرد ، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي خرجت عليه ، والإيمان بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع .

والظاهرة الواضحة في حياة هؤلاء الصعاليك - على اختلاف الدوافع التي دفعتهم إلى حياة التصعّل - هي أنّهم جميعاً فقدوا توافقهم الاجتماعي . وظاهرة « التوافق الاجتماعي »<sup>(٧)</sup> هي الظاهرة التي يقرر علماء الاجتماع أنّها الأساس

(١) انظر الأغاني ٤٩/١٢ (بولاق) .

(٢) انظر الأغاني ٢/١٢ (بولاق) .

(٣) انظر الأغاني ١٣٠/١١ (بولاق) .

(٤) انظر السيوطي : المزهر ٢/٢٦٩ .

(٥) انظر المصدر السابق / الصفحة نفسها .

(٦) انظر المصدر نفسه / الصفحة نفسها ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٧) Social Adjustment

الذى تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع ، بحيث يكون عمل الفرد من أجل صالح المجموع ، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد . وقدان هذا « التوافق الاجتماعى » ينتهى بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس « السلوك الصراعى »<sup>(١)</sup> ، وذلك لأن فى كل مجتمع تيارين متضادين : أحدهما يتصل بالفرد ، والآخر يتصل بالمجتمع ، ووجود هذين التيارين يستدعى وجود نوعين من الصلة بين الفرد والمجتمع ، فإما أن يكون بينهما « وفاق » ، وإما أن يكون بينهما « صراع » ، وهذان النوعان من الصلة بين الفرد والمجتمع هما ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميتهما « بالسلوك التعاونى »<sup>(٢)</sup> ، « والسلوك الصراعى »<sup>(٣)</sup> .

ومن الطبيعى أن تكون الأسباب التى جعلت هذه الطوائف المختلفة من الصعاليك تفقد توافقها الاجتماعى أسباباً مختلفة ، وذلك لاختلاف « المشكلة النفسية » التى تواجهها طائفة منها عن المشكلة التى تواجهها طائفة أخرى . ولكن هذه المشكلات — على اختلافها — كانت تنهى بطوائف الصعاليك جميعاً إلى هذا « اللاتوافق الاجتماعى » الذى كان يدفعها إلى أن يكون سلوكها الاجتماعى « سلوكاً صراعياً » .

• • •

والآن ، بعد هذه الجولة الواسعة خلف أخبار « صعاليك العرب » وأشعارهم ، فى كتب اللغة ، وفى مصادر الأدب العربى ، نقف لنسجل النتيجة التالية :

تدور كلمة « الصعلكة » فى دائرتين : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . ونبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هى الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ويظل فى نطاقها فقيراً ، يخدم الأغنياء

(١) Conflict

(٢) Co-operation

(٣) انظر فى تفصيل هذا :



أو يستجديهم فضل ما لهم ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء لتنتهي ، أو لتحاول أن تنتهي ، بعيداً عنها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذي فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية ، وأن يخرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه — من أجل هذه الغاية — لا يسلك السبيل التعاوني ، وإنما يدفعه « لا توافقه الاجتماعي » إلى سلوك السبيل الصراعي ، فيتخذ من « الغزو والإغارة للسلب والنهب » وسيلة يشق بها طريقه في الحياة ، فيصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية الفردية مظهراً من مظاهر التمرد . وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ، ويحرمه حمايته ، ويعيش الصعلوك خليعاً مشرداً ، أو طريداً متمرداً ، حتى يلقى مصرعه ، فأما أصدقاؤه فقد استراحوا من هذا الفرع الذي كانوا يترقبونه في كل حين ، كما يترقب غائباً مُتَنَظِّراً أهله — على حد تعبير عروة — وأما أصدقاؤه فقد سقط أحدهم في سبيل فكرته بعد أن أدى رسالته في هذه الحياة .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة عن طريق استعراض هذه الظاهرة في مصدرها الأول . وهو المجتمع الجاهلي ، فإن في صنيع اللغويين ما يؤيدنا فيما وصلنا إليه . حيث أشاروا إلى جانب خاص من المادة اللغوية عبروا عنه بصعاليك العرب ، ولنا إذن أن نقول : إن ما عبر عنه اللغويون « بصعاليك العرب » هو ما نعبر عنه « بصعاليك الدائرة الاجتماعية » .

وإذ نلاحظ أن المتصلين بمشكلة الفقر والغنى وتوزيع الثروة في المجتمع الجاهلي قد أشاروا على ألسنة شعرائهم إلى طائفتين من الصعاليك ، فمدحوا إحداهما « لله هي » ، وذموا الأخرى « لحاها الله »<sup>(١)</sup> ، نستطيع أن نقول في ضوء هذه النتيجة التي وصلنا إليها إن هناك نوعين من الصعاليك : الصعلوك العامل وهو الذي يمثل صعاليك الدائرة الاجتماعية . والصعلوك الحامل وهو الذي يمثل صعاليك الدائرة اللغوية .

(١) انظر رائية عروة في ديوانه / ٧٣ - ٨٢ ، وميمية حاتم الطائي في ديوانه / ٢٥ .



فالمسألة إذن ليست مسألة لغوية فحسب ، يُرجع فيها إلى كتب اللغة ، وإنما هي - إلى جانب هذا - ظاهرة اجتماعية يرجع فيها إلى المجتمع الجاهلي ، وما كان ينطوي عليه من عوامل عملت على ظهورها ، والاتجاه بها إلى تلك الاتجاهات التي اتجهت إليها .

ولكن ما هذه العوامل ؟ وما هذه الاتجاهات ؟  
هذا ما سنحاول دراسته في الفصول التالية من هذا الباب .

\* \* \*



## الفصل الثاني

### التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة

١

#### أهمية العامل الجغرافي :

حين نقف عند الجانب الجغرافي من ظاهرة الصعلكة ، فإنما نقف عند أول عامل من العوامل التي عملت في نشأتها وتوجيهها وطبعها بطابع خاص . في كل مشكلة من مشكلات التاريخ يعمل عاملان أساسيان : الإنسان ، والبيئة الجغرافية ، وترجع أهمية العامل الجغرافي إلى أنه يعمل في قوة وإلحاح ، فهو قوة ثابتة لا تكف عن العمل<sup>(١)</sup> ، والإنسان - على حد تعبير بعض الباحثين - غلة من غلات سطح الأرض<sup>(٢)</sup> .

والظاهرة التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها اتخذت من البادية العربية مسرحاً لها ، وكان ارتباطها بهذا « المسرح الجغرافي » وثيقاً ، تأثرت به في نشأتها ، وتكيفت معه في اتجاهاتها ، ولعل في دراسة هذا « المسرح الجغرافي » أولاً ما يعيننا على فهم الدور الذي قام به أبطال قصتنا « الصعاليك » .

٢

#### جزيرة العرب :

يميز الدارسون لتاريخ غربي آسيا بين حملة الحضارة سكان السهول والتلال المنخفضة ، وبين الشعوب المتأخرة سكان الجبال والصحارى<sup>(٣)</sup> ، ويلاحظون أن

---

Sample; Influences of Geographic Environment, p. 2. (١)

Ibid., p. 1. (٢)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3. (٣)

المدينة في هذا الجزء من العالم هي تلك التي تعرف باسم «حضارة وديان الأنهار» ، القائمة على الزراعة ، التي تصطنع وسائل صناعية للرى ، تغذيها أنهار ذات فيضان موسمي ، وهذه الحضارة تقف عند المستوى الذي يمكن رفع الماء إليه ، ومن هنا يصبح هذا المستوى الحد الفاصل بين الأقاليم المستقرة ومناطق القبائل الرعوية<sup>(١)</sup> .

وتمثل البادية العربية « تلك الرقعة من الجنوب الغربي لآسيا التي لم تدخل في نطاق حضارة وديان الأنهار ، والتي أبطأ سكانها — نتيجة لذلك — في مدارج التقدم الحضارى »<sup>(٢)</sup> ، شأنهم في ذلك شأن سكان الصحارى « أطفال العالم الخالدين »<sup>(٣)</sup> ، أولئك الذين لا تتغير حياتهم مع تغير الزمن .

والمنظر العام لهذا « المسرح الجغرافي » الذي دارت عليه قصة صعاليك العرب منظر « نجد تحيط به صحراء ، رملية في الجنوب والغرب والشرق ، وحجرية في الشمال ، وتطوق هذا النطاق الخارجى سلسلة من جبال ، أكثرها منخفض قاحل ، ولكنها في اليمن وعمان ذات ارتفاع كبير واتساع وخصب ، ومن وراء هذه الجبال حافة ساحلية ضيقة يحدها البحر »<sup>(٤)</sup> . وينحدر هذا المسرح الجغرافي « من الغرب إلى الشرق ، إذ أن معظم الجبال في الغرب ، وإن تكن طائفة من المرتفعات في الجنوب الشرقى ، في عمان ، تعد شذوذاً لهذه القاعدة »<sup>(٥)</sup> .

ومن أظهر ما عرفت به بلاد العرب منذ القدم الجذب والبحر ، إذ « تقع الجزيرة العربية كلها تقريباً داخل نطاق الحرارة القصوى الذي يطوق العالم في شهر يولييه »<sup>(٦)</sup> . ويرد الجغرافيون هذا إلى أن قسماً كبيراً منها يقع في منطقة

Ibid., pp. 3-4. (١)

Ibid., p. 5. (٢)

Seiple; Influences of Geographic Environment, p. 509. (٣)

Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 19. (٤)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6. (٥)

Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 20. (٦)

الرهو المدارية ذات الضغط العالي والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التي تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب . « ويزداد هذا الحر قسوة فوق المنطقة الساحلية بسبب الرطوبة التي تنشأ عن كمية البخار المائلة المتصاعدة من مستنقعات المياه المغلقة »<sup>(١)</sup> أما فوق المرتفعات فإن درجة الحرارة تنخفض حتى ليوجد الجليد أحياناً في ليالى الصيف فوق الجبال جنوبي مكة<sup>(٢)</sup> .

ومن عوامل الجذب قلة المطر ، وذلك لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تتعرض لها الجزيرة العربية صيفاً تصل إليها بعد أن تكون قد أسقطت أمطارها الغزيرة على الحبشة ، ولهذا فإن أمطارها في بلاد العرب لا تكاد تذكر بجانب ما يسقط منها في الحبشة .

وإلى جانب هذه القلة في كمية المطر نلاحظ أنه يسقط في فترات متباعدة جداً ، وغير منتظمة ، حتى إن بعض أجزاء الجزيرة العربية لا يسقط المطر فيها إلا كل ثلاث سنوات أو أربع .

وترتبط حياة أهل الصحراء بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سموه غيثاً وحياً ، ويصفه الله تعالى بأنه « رحمته »<sup>(٣)</sup> ، ومن صلوات الإسلام « صلاة الاستسقاء » التي يقيمها البدو حين تُخْلِفُ النجوم ، وتجمد الرياح ، ويحتبس المطر ، وتتوقف حياة البادية على تلك القطرات من الغيث ترسلها السماء إلى الأرض ، فتحيا بها بعد موتها . وليس من شك في أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، حتى ليصف الله تعالى تأثيره في نفوس أهلها بأنه « إذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون »<sup>(٤)</sup> ، وحتى ليقف الشعراء من السحاب والبرق والمطر تلك الوقفات الطويلة الجميلة التي سجلوها في شعرهم ، فيخلع امرؤ القيس

(١) Ibid., p. 20.

(٢) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 8.

(٣) النمل / ٦٣ ، والروم / ٤٦ - ٥٠ .

(٤) الروم / ٤٨ .

فرحته بالمطر على ما حوله من مظاهر الطبيعة فيجعل مكنا كسيّ الجواء غيباً المطر في نشوة غامرة كأنما «سقين سُلَاقاً من رحيق مفلقل» ، ويدعو الباكون لموتاهم بأن يسقى الغيث قبورهم ، ويسأل المحبون لديار أحبابهم أن يسقيها «صنوب الربيع وديمة تهى» .

ومن أشد ما تقاسمه البادية العربية احتباس المطر ، ففى احتبس أصبحت غير صالحة للسكنى ، فقد حل الجفاف «وما يتبعه من تفوق القطعان ، وهلاك الرعاء»<sup>(١)</sup> ، وأجذب البدو وضائق أمامهم سبل الحياة ، ولم يعد أمامهم إلا أن يرحلوا عن مواطنهم يتجمعون مواطن الكلاً والماء ، حتى لقد يدفعهم الجذب إلى مغادرة البادية العربية كلها إلى تلال اليمن والشام أو إلى سهول النيل والفراتين<sup>(٢)</sup> . وفى الأخبار القديمة أن بطوناً من خزاعة «خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجذبوا»<sup>(٣)</sup> ، وأن بنى شيان أصابهم «سنة» ذهبت بالأموال ، فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك يصبكن من خيره حتى أرجع إليكن ، وإلى أليّة لا يرجع حتى يكسبن خيراً أو يموت»<sup>(٤)</sup> ، وقد يرفض بعض هؤلاء المهاجرين العودة إلى ديارهم بعد سقوط المطر وعودة الحياة إلى البادية ، ضيقاً بهذه البيئة المتقلبة ، ورغبة في الاستقرار والحياة المطمئنة ، ففى أخبار تلك البطون من خزاعة أنهم مضوا في هجرتهم ، «حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوارق خلفهم ، وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته» ، فرجع فريق منهم إلى أوطانهم واستمرت قلة في هجرتها»<sup>(٥)</sup> . وفى رأى بعض الباحثين أن السبب الأول في هجرة القبائل اليمنية إلى الشمال يرجع إلى تغير مناخى<sup>(٦)</sup> . وأن

(١) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 105.

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489.

(٣) الأغاني ١٣ / ٦ (بولاى) .

(٤) الأغاني ١٦ / ٥٠ .

(٥) انظر القصة فى الأغاني ١٣ / ٥ - ٧ (بولاى) .

(٦) سليمان حزين فى مقاله الفرنىة المنشورة بمجلة كلية الآداب (المجلد الثالث =

تدهور الحضارات القديمة ، وتشتت القبائل ، وانبعثت الهجرات من تلك الجهات ، في العهد السابق للإسلام مباشرة ، مرتبط على ما يظهر ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ ، وذئبباته ، وعودته إلى الجفاف النسبي بعد الحالة الممطرة<sup>(١)</sup> .

ويلاحظ الدارسون أن هذه القدرة على هجرة الجماعات الرعوية ، إنسانها وحيوانها ، إلى مراعي جديدة ميزة هامة تمتاز بها هذه الجماعات ، ويلاحظون أن هذا يتم في سهولة ويسر ، ما لم تكن في الأرض الجديدة جماعة أكبر عدداً ، وأشد بأساً من الجماعة المهاجرة<sup>(٢)</sup> . ويرد بعضهم هذه السهولة وهذا اليسر إلى أن كمية المطر القليلة التي تسقط في الصحراء لا تساعد على نمو الغابات التي تقوم حاجزاً في طريق الهجرات<sup>(٣)</sup> .

وما يزيد من قسوة الحياة في أيام الجفاف اقترانها في الغالب بريح السموم ، تلك الريح المهلكة<sup>(٤)</sup> التي تشوى مها الصحراء كما يقول الشاعر القديم<sup>(٥)</sup> .

ويرجع السبب الأساسي في هذه الحالة القاسية التي تعانيها الصحراء إلى قلة الماء « فليس في البادية العربية أنهار دائمة الجريان ، وإنما هي أودية تمتلئ بالماء في مواسم المطر ، ويغضب ماؤها بعد ذلك »<sup>(٦)</sup> ، وموسم المطر في البادية

« الجزء الأول ، مايو ١٩٣٥ ) تحت عنوان :

Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud", p. 23.

(١) الباحث نفسه في تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦

المنشور بالعربية بمجلة كلية الآداب ( المجلد الرابع ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٣٦ ) ص ١٩٧ .

(٢) ميرز في مقالته عن « المناخ والجغرافيا وأثرهما في التاريخ » المنشورة في مجموعة

« تاريخ العالم » لسي. جون هامرتن ، الفصل التاسع / ٣٥٧ .

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483.

(٤) انظر القصة الواردة في الأغاني ٤٢/١١ ( دار الكتب ) .

(٥) البعيث الحنفى في حسانة أبي تمام بشرح التبريزي ١٥٠/٤ . . « وهجرة يشوى

مهاها سمومها » .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhamamad, p. 6.

العربية قصير<sup>(١)</sup> ، ومن هنا كان جفاف هذه الأودية طويلاً « فهي في العادة تظل جافة تسعة أشهر أو عشرة في العام »<sup>(٢)</sup> .

ولكن الحال في اليمن تختلف ، وذلك لأن « الغدران الساحلية تكثر فيها في أثناء فصل الأمطار ، وقد تمتلئ في بعض الأحيان فجأة إلى درجة الفيضان ، فتندفع جارية أمامها كل شيء » ، وتسمى في هذه الحالة سيولاً<sup>(٣)</sup> ، ويحدثنا امرؤ القيس في معلقته عن سيل من هذه السيول اقتلع الأشجار الضخمة ، وأنزل العصم من رؤوس الجبال ، وجرف النخل والأجم ، وأغرق السباع حتى بدت فيه كأنها « أنابيش عُصْفُور » ، بل إنه أعاط ببعض الجبال حتى بدت قممها كأنها « من السيل والغناء فلكة مغزل » وفي أغلب الظن أن هذا الوصف ليست فيه مبالغة كبيرة ، وأنه ليس خيال شاعر ، فأحد هذه السيول هو الذي جرف أمامه سد مأرب المشهور ، كما يحدثنا القرآن الكريم<sup>(٤)</sup> ، ولم يكن هذا السد بالبناء الهين الشأن ، وإنما كان سداً أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع ، وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً ، وعرضه مائة وخمسون ذراعاً<sup>(٥)</sup> .

وقد وقف مكان الجزيرة العربية من هذه المياه التي تتدفق بها الصحراء في مواسم المطر موقفين ، هما موقعا الحضارة والبداءة : أما أهل اليمن فقد استطاعوا استغلال هذه المياه المتدفقة ، فأقاموا السدود في عرض الأودية لحجز السيول ، والانتفاع بمياهها في إحياء موات الأرض ، ويصف القرآن الكريم مسكن سبأ بأنه « جتان عن يمين وشمال »<sup>(٦)</sup> ، وقد استغل اليمنيون هذه الظاهرة الطبيعية استغلالاً واسعاً « فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد »

(١) Laumens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 158.

(٢) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

(٣) Ibid., p. 21.

(٤) سبأ / ١٦ .

(٥) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ١ / ١٥٦ .

(٦) سبأ / ١٥ .



فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات<sup>(١)</sup> ، ويذكر الهمداني أن في أحد مخاليف اليمن ثمانين سداً أشار إليها بعض شعرائهم<sup>(٢)</sup> .

أما أهل البادية في الحجاز ونجد فقد تركوا السماء تمطر فتحي لهم ما تحيي من الأرض ، فإذا زادت مياهها عن الحاجة ذهبت بها رمال الصحراء ، حتى إذا ما انقضى فصل المطر عادت الطبيعة لجليها ، وعادت الحياة لخبافها ، وعاد القوم لظمئهم وقحطهم . ويبدو أن السبب في هذا يرجع إلى طبيعة الظاهرة الجغرافية نفسها ، فإن تلك السيول التي عرفتها أودية اليمن لم تعرفها البادية العربية في الحجاز ونجد - بحكم ظروفها الجغرافية - إلا نادراً ، هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز ونجد كانوا بدوياً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم في هذه السيول والانتفاع بها .

ومع ذلك فليست الجزيرة العربية كلها جدياً ، وإنما هناك مناطق خصبة ، وقد رأينا خصب اليمن التي يسميها الهمداني « اليمن الخضراء » لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها<sup>(٣)</sup> .

ويذكر الجغرافيون من هذه المناطق الخصبة هضبة نجد العالية<sup>(٤)</sup> ، التي ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم ، والتي تكسو أغلبها مراعي خصبة ، وتنتشر فيها الأشجار ، ومن هنا اشتهرت بتاج غنمها وإبلها ونخيلها<sup>(٥)</sup> ، ويرجع السبب في هذا الخصب إلى وفرة المياه التي « توجد في كل مكان ، في آبار لا يتجاوز عمقها خمسة عشر قدماً وقد يقل عنها »<sup>(٦)</sup> ، كما أن قسمها التي يتجاوز ارتفاعها خمسة آلاف قدم تساعد على تجميع المياه<sup>(٧)</sup> .

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ١/١٤١ .

(٢) صفة جزيرة العرب ١/١٠١ .

(٣) المصدر السابق / ٥١ .

(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501. (٤)

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, pp. 147-148. (٥)

Ibid., p. 147. (٦)

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501. (٧)

ولا تخلو سلسلة جبال السَّراة التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر ما بين أقصى اليمن والشام<sup>(١)</sup> من مناطق خصبة ، هي بعض تلك الأودية التي تقطع السراة إلى تهامة حتى تنتهي إلى البحر<sup>(٢)</sup> ، حتى لنجد أن اسم واحد منها « وادي الجحانات » وهو — كما يدل عليه اسمه — واد شديد الخصب<sup>(٣)</sup> ، وهناك من هذه الأودية الشديدة الخصب وادي نخلة<sup>(٤)</sup> ، وادي نحيان<sup>(٥)</sup> ، ويصف الهمداني سراة الحِجْر بالخصب الشديد<sup>(٦)</sup> .

ووفقاً لقانون جغرافي تعرفه البادية يجعل من مناطق الخصب والماء مناطق استقرار للقبائل ، نزلت القبائل في هذه الأودية الخصبة ، وأقاموا القرى ، ففي وادي باحان « القرى والزرع »<sup>(٧)</sup> ، وبالقرب من وادي الجحانات قرية النُبَيْرَة وهي « كثيرة الأعناب والفواكه والغيرل الحاملة »<sup>(٨)</sup> .

حتى الحجاز — ذلك الإقليم الجبلي الرمل — يشتمل على بقاع خصبة ، هي تلك الكثبان والربى الخصبة التي تتخلله ، والتي تخرج سفوحها حَباً ، وشيئاً من الفاكهة ، وكلاً للقطعان ، وينابيع من ماء دائم<sup>(٩)</sup> ، ووفقاً لقانون البادية الجغرافي السابق اتخذت القبائل من هذه الكثبان والربى الخصبة منازل لها ، ومن حولها قامت القرى<sup>(١٠)</sup> ، وحسبنا أن نذكر من هذه القرى الطائف « جنة مكة »<sup>(١١)</sup> « ومصيف المكيين المترفين »<sup>(١٢)</sup> حينما يشند بهم صيف مكة الذي

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ١/ ٦٧ .

(٢) انظر هذه الأودية في المصدر السابق / ٧١ - ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٧٦ .

(٤) المصدر نفسه / ٧٥ .

(٥) المصدر نفسه / ١٢٢ .

(٦) المصدر نفسه / ١٢٣ .

(٧) المصدر نفسه / ١٢١ .

(٨) المصدر نفسه / ٧٧ .

(٩) Sédillot; Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12. (١٠)

Ibid., p. 12. (١١)

Ibid., p. 12. (١٢)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (١٣)

لا يطاق ، وذلك لأنها لا تبعد عنها أكثر من سبعين ميلاً<sup>(١)</sup> ، ولم تكن الطائف مصيف أهل مكة وحدهم ، وإنما كانت مصيفاً لغيرهم من القبائل ، حتى البعيدة عنها ، فقد كانت بعض القبائل تقبل إليها من نجد ، كما كان يفعل بنو عامر بن صعصعة الذين كانوا يتصيفون بها « لطيبها وثمارها » ، ويتشتون بلادهم من أرض نجد<sup>(٢)</sup> ، وتقوم الطائف قريباً من ربة من تلك الوبي الحصب<sup>(٣)</sup> فوق تلال غزوان<sup>(٤)</sup> ، وتلتف بها الجحانات والكروم<sup>(٥)</sup> ، وشهرة كروم الطائف وأعنائها شهرة قديمة عرفت بها<sup>(٦)</sup> . ومن مصادر خصب الطائف الأساسية وفرة المياه فيها « فالأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى ستة ، وعندما تنقطع تكثر الآبار التي تصلح لسق حداثتها »<sup>(٧)</sup> ، هذا إلى طبيعة جوها الذي يساعد على نمو كل الفاكهة التي يعرفها جنوبي أوروبا<sup>(٨)</sup> ، فالحرارة في أوقات الظهيرة ليست ثقيلة ، والليالي ذوات جو منعش<sup>(٩)</sup> .

ومن مناطق الخصب في الجزيرة العربية أيضاً يثرب والوديان التي حولها ، فقد اشتهرت الوديان الواقعة في هذه المنطقة البركانية ، منطقة الحرّات ، بخصبها الشديد بالنسبة إلى ما حولها<sup>(١٠)</sup> . ويرد خصب هذه المنطقة إلى أمرين : طبيعة الأرض ، فإن تفكك الصخور البركانية فيها يحفظ على الأرض خصبها ، ثم وفرة المياه ، فهناك وادي إضم ، والآبار، والصخور البركانية التي تجمع

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٢) البكري : معجم ما استمع ٧٧/١ .

(٣) Sédillet; Hist. Générale des Arabes, Tome I., p. 12.

(٤) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٦) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368, & Latomus; Le Berceau de l'Islam,

vol. I, p. 90.

(٧) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٨) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٩) Doughty; Travels in Arabia Deserta, Vol. II, p. 525.

(١٠) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

المياه ، وهي كلها مصادر غنية بمياهها<sup>(١)</sup> .  
وتشتهر هذه المنطقة بصفة خاصة منذ أقدم العصور بزراعة النخل<sup>(٢)</sup> ،  
ويطلق عليها عروة بن الورد في شعره « منبت النخل »<sup>(٣)</sup> ، وفي شعر حسان  
ابن ثابت وصف جميل لهذه البيئة الحصبة<sup>(٤)</sup> .  
وفي شمال يثرب تقع حرة خيبر ، أكبر الحرات في الجزيرة العربية<sup>(٥)</sup> ،  
التي تدين بوجودها إلى غزارة مياهها ، وإلى تحلل صخورها البركانية ، والتي  
تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ونخلها<sup>(٦)</sup> .  
وفي جنوبي يثرب وادي العقيق ذو العيون والنخيل<sup>(٧)</sup> بمصايفه ومنتزهاته  
المحجبة في خضرته<sup>(٨)</sup> .

### ٣

#### التضاد الجغرافي وأثره في نشأة حركة الصعاليك :

هذه هي الصورة العامة « للمسرح الجغرافي » الذي دارت عليه قصة  
صعاليك العرب ، كما نراها من الزوايا التي تفسر لنا مشاهدتها ، وهي صورة  
خلاصة ما يقال فيها أنها تجمع لونا من « التضاد الجغرافي » يلفت النظر ،  
ويجدر بنا أن نقف عنده لأن فيه مفتاحاً من مفاتيح هذه القصة ، ولأنه  
يكشف لنا جانباً من الستار عنها .

والخطوط الأساسية لهذه الصورة هي أنها منطقة صحراوية جبلية ، عرفت

(١) Dermenghem; The life of Mahomet, pp. 11, 12.

(٢) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٣) ديوانه / ١٠٦ .

(٤) انظر ديوانه / ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 23.

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٣/ ٤٩٥ .

(٧) المصدر السابق ١/ ١٩٩ .

(٨) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 98.

الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة ، والجبال العالية ذات القيم الثلجية ، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجاهل والمخاوف . ثم هي منطقة عرفت الجذب الذي تتعذر معه الحياة ، حتى يضطر أهلها إلى الهجرة ، والخصب الذي يغري الناس على الاستقرار وإقامة القرى ، وعرفت المطر يجتنب حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن ، والسيول تتدفق حتى تجرف أمامها كل شيء ، وعرفت البرد الذي يعقد ذنب الكلب ، والحر الذي يذيب دماغ الضب ، ويطبخ الإبل ويشويها .

وكان لهذا « التضاد الجغرافي » أثره في نفوس سكان الجزيرة العربية ، فقد أوجد في شخصياتهم لوناً من « التضاد النفسي » اضطبغت عناصره بما في البيئة الجغرافية من لوني المبالغة وعدم الاستقرار . وظهر هذان اللونان الصارخان في نفوس البدو في كلا الجانبين الأخلاقيين : جانب الخير وجانب الشر ، فالبدوي لا يعرف القصد لا في الخير ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه .

والبدوي — إلى جانب هذا — يأنف من حياة الاستقرار ، ويرى الدارسون أن « كل جانب من جوانب الحياة البشرية في الصحاري يحمل طابع الحركة »<sup>(١)</sup> ، وأن « القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلبة »<sup>(٢)</sup> . ومن هنا احتقر البدو الزراعة<sup>(٣)</sup> ، ويذكر ابن خلدون أنها « من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو »<sup>(٤)</sup> ، واحتقروا الصناعة<sup>(٥)</sup> ، وعند ابن خلدون أن « العرب أبعد

( ١ ) Semple; Influences of Geographic Environment, pp. 487, 488.

( ٢ ) Ibid., p. 490

( ٣ ) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375; & Semple; Influences of Geographic

Environment, p. 500.

( ٤ ) انظر الفصل الثامن من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٣٩١ .

( ٥ ) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375.

الناس عن الصنائع»<sup>(١)</sup> . وآمنوا بأن الرعى والتجارة والصيد والنهب هي وحدها الأعمال التي تليق بالرجال<sup>(٢)</sup> ، وهي كلها أعمال بعيدة عن الاستقرار .  
ونستطيع بعد هذه النظرة العامة أن نركز الضوء على أبطال قصتنا ،  
صعاليك العرب ، حيث يتحركون على هذا المسرح الجغرافي الذي رسمنا خطوطه  
الأساسية ، لتبين كيف تأثرت حركتهم به ، وكيف تكيفت معه .  
وأول ما نلاحظه أن هذه البيئة الجغرافية كانت عاملاً أساسياً في وجود  
الفقر من ناحية ، وفي الإحساس به من ناحية أخرى .  
فهذه البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد ، والموارد الطبيعية المحدودة ،  
التي تعتمد على المطر تجود به السماء في فترات متباعدة غير منتظمة ، والتي  
يسيطر عليها الجفاف والجذب أكثر شهور السنة ، والتي تقع تحت وطأة  
الطبيعة مباشرة ، فلا يجد أهلها إذا ما اشتدت عليهم إلا الهجرة ، عامل فعال  
في وجود الفقر .

ويلاحظ الدارسون أن البدوي والعوز صاحبان ألف كل منهما صاحبه<sup>(٣)</sup> ،  
وأن «الفقر مكان الشظف والسغب» . وأن «نكد العيش وشظف الأحوال  
وسوء المواطن» التي اختص بها أهل البادية أمور «حملتهم عليها الضرورة  
التي عينت لهم تلك القسمة»<sup>(٤)</sup> ، وأن الظروف الاجتماعية التي تسود البيئة  
الصحراوية توصل أبواب الرزق في وجوه أبنائها ، وتجعل من العمل في سبيله  
مهمة شاقة غير مشرة ، فهي حياة تعرف الكدح الكثير ، ولكنها تضيع  
ثمرته<sup>(٥)</sup> . «فهذه السهول القاحلة تحول دون نمو الثروة الإنتاجية ، فيما عدا  
قطعان الغنم والماشية ، بل إنها تحد من نمو هذه القطعان نفسها ، نظراً لقلة  
ما تقدمه لها مراعيها الهزيلة المتفرقة من غذاء ، وهو غذاء لا يتجاوز تلك

(١) انظر الفصل الحادي والعشرين من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٤٠٤ .

(٢) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 490

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل التاسع من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٢٩ .

(٥) Semple; Influences of Geographic Environment, p. I.

الحشائش والأعشاب وما يشبهها من أنواع النبات التي تحتل جفاف صيف طويل ، والتي تحتاج إلى وقت قصير لنموها»<sup>(١)</sup> . وهكذا انحصرت حياة البدو دون تدخل منهم في الرعى ، ما دامت الموارد الطبيعية التي لديهم قد حصرت ثروتهم في هذه القطعان . ومع ذلك فإن هذه الثروة النسبية التي يملكها البدوي ليست بالثروة المضمونة البقاء فإن «وباء ينتشر بين قطعانه ، أو جدياً في المرعى ، أو جفافاً في الآبار ، يضعه وجهاً لوجه أمام المجاعة ، ويدفعه دفعاً إلى السرقة والنهب»<sup>(٢)</sup> .

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملاً في وجود الفقر كانت عاملاً في إحساس الفقراء إحساساً قوياً به ، حين أوجدت في جوار المناطق المجذبة مناطق خصبة ، مما أشعر أبناء المناطق المجذبة بأن الحياة لم تحرم الناس جميعاً كما حرمتهم ، وإنما أغلقت على طائفة من الناس ماءً لا ينضب ، وكلاً لا يجف ، وثروة لا تهددها الطبيعة في كل لحظة بالفناء ، بقدر ما سلطت عليهم من سياط الحرمان جفافاً وجدياً وفقراً . والنتيجة النفسية لهذا - كما يقرر علماء النفس - نشأة « عقدة الفقر » في نفوسهم . ولو أن الطبيعة سوت بين أهل البادية جميعاً في الفقر لما أحس أحد هذه الفوارق الطبقة التي تثير في نفوس الطبقة الفقيرة الثورة والتمرد ، وهذا معنى قولنا إن ظاهرة «التضاد الجغرافي» تحمل مفتاحاً من مفاتيح قصة صعاليك العرب .

ثم إن هذه البيئة الجغرافية خلقت من أبنائها رجالاً أقوياء . فالصحراء - كما يقرر الدارمون - تربي في نفوس أبنائها «صفات الشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار»<sup>(٣)</sup> ، «وحياة الصحراء بما فيها من مخاطرة ، واعتماد على النفس ، تجعل من العربي أشجع الجنس البشري»<sup>(٤)</sup> ،

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489.

(٢) Ibid., p. 490.

(٣) Ibid., p. 510.

(٤) Ibid., p. 493.



« وأهل البلد » - كما يذكر ابن خلدون<sup>(١)</sup> - « أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر ... قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية » ، ومرد هذا عنده إلى حياتهم التي يحيونها في البيداء ، والإنسان « ابن عوائده ومألوفه » .

وقد رأينا أن هؤلاء الرجال الأقوياء من أبناء الصحراء يرفضون الاعتماد في حياتهم على الزراعة أو الصناعة ، ولا يحملون سيلاً للعيش إلا في الرعي أو التجارة أو الصيد أو النهب ، ورأينا في الفصل السابق كيف كان صعاليك العرب يرفضون الرعي ، لأنهم يرون فيه عملاً من أعمال العبيد الأذلاء ، أما التجارة فلم يكن للصعاليك مجال فيها ، إذ هي تعتمد قبل كل شيء على رأس مال يستغل فيها ، وأننى هؤلاء الفقراء رأس المال الذي يصلح للاستغلال التجاري ؟ وإذن لم يبق أمامهم سوى الصيد والنهب ، وقد اعتمدوا عليهما جميعاً ، وهما - كما نرى - سيلاً للعيش متشابهان ، أو هما فرعان لأصل واحد هو الاغتصاب . هكذا خلقت الصحراء هؤلاء الرجال الأقوياء ، ووضعتهم في بيئتها الفقيرة ، وضيق عليهم موارد العيش ، وأوجدت في جوارهم بيئات خصبة تفيض بالمال والثراء ، فلم يكن هناك مفر من النتيجة التي تنتج من تفاعل هذه العوامل معاً ، وهي « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وانتشر صعاليك العرب في البادية يقطعون طرقها ، وينهبون ويسلبون ، ويشيرون في أرجائها الرعب والفرع ، ويغيرون على المناطق الحصينة ، ويهددون أهلها في ثروتهم وحياتهم ، ويعترضون القوافل التجارية ، حتى تضطر إلى أن تخرج مسلحة في حرس شديد ، أو تحتاج إلى من يحجزها على المناطق الخطرة<sup>(٢)</sup> ، وحتى لتكبح القبائل العربية في اختيار منازلها مقانب العرب في سراياهم<sup>(٣)</sup> ، ويحذر بعضهم بعضاً من أن يتلعب به صعاليك العرب ، وتتخطفه ذئابها ، وتأكل ماله<sup>(٤)</sup> .

(١) المقدمة الفصل الخامس من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٢٥ .

(٢) انظر قصة البراض الكثناني وعروة لرحال مع لطيفة النعمان في الأغاني ٧٥/١٩ ،

وانظر في قصص الخفارة الحبر لابن حبيب / ٢٦٣-٢٦٧ .

(٣) البكري : معجم ما استعجم ٥٣/١ .

(٤) الأغاني ١٢٦/٢ ، والبغدادى : غزاة الأدب ١٨٥/١ - ١٨٦ .



### التضاد الجغرافي وأثره في توجيه حركات الصعاليك :

وتتدخل ظاهرة « التضاد الجغرافي » مرة أخرى لترسم لهؤلاء الصعاليك المغامرين طريقهم ، وتحدد لهم مناطق نشاطهم ، فتكون هي تلك المناطق الحصبة التي تعرفها الجزيرة العربية .

ويلاحظ الدارسون أن هذا الصراع هو الصلة الجغرافية الطبيعية بين الصحارى المقفرة والوديان الحصبة ، بين أرض الفقر وأرض الثراء<sup>(١)</sup> ، فند أقدم العصور ، وهذا النطاق الصحراوي الذي يطوق الدنيا القديمة ، يرسل على الوديان الحصبة المجاورة موجات متلاحقة من القبائل المغيرة الباحثة عن الخصب في تلك الأرض الطيبة ، عندما تقل لديها موارد الرزق ، ويمرّق جفاف الصيف المراعى ، ويجفّف موارد المياه<sup>(٢)</sup> . وليس من الممكن أن يعيش بنو الصحارى وحضر السهول الزراعية في أى مكان متجاورين في سلام وإنما هي الغارات والاعتداءات والثارات<sup>(٣)</sup> ، حتى ليعد هذا النطاق الصحراوي منطقة تقدّم لكل أعداء النظام الحماية والأرض الصالحة للتجنيد<sup>(٤)</sup> .

هكذا اتخذ صعاليك العرب من مناطق الخصب في الجزيرة العربية أهدافاً لهم يتجهون إليها ، ومناطق نشاط يعملون فيها ، حتى إننا لو رسمنا مصوراً جغرافياً لحركات الصعاليك في الجزيرة العربية ، ووضعنا عليه السهام التي تبين الاتجاهات - كما يفعل أصحاب الخطط الحربية - لوجدنا هذه السهام تخرج من مناطق الجذب ، وتتجه رموسها إلى مناطق الخصب . ويذكر تأبط شراً أن أهدافه هي تلك المزارع الحصبة حيث الماء والزرع والماشية :

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) Ibid., p. 7.

(٣) Ibid., p. 492.

(٤) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

فيوماً على أهل المواشي ، وتارة لأهل رَكِيب ذى ثَمِيل وسَنِيل<sup>(١)</sup>  
ويصرح أبو خراش بمثل هذه الأهداف :

لستُ لمرةٍ إنْ لم أوفِ مَرْقَبَةً يبدولى الحرفُ منها والمقاضيِبُ<sup>(٢)</sup>  
وفي أخبار السليك أنه خرج في بعض غزواته يتبع الأرياف<sup>(٣)</sup> .

وقد لاحظنا أن أهم مناطق الحصب في الجزيرة العربية هي اليمن ، ونجد ،  
وبعض مناطق السراة ، ويثرب والوديان المحيطة بها . ونستطيع أن نقول - ونحن  
مطمئنون - إن كل هذه المناطق ، بدون استثناء ، تعرضت لغزوات الصعاليك .

وقد توزع نشاط الصعاليك بين هذه المناطق ، حتى ليوشك أن تكون  
لكل جماعة من جماعاتهم مناطق اختصاص يتركز فيها نشاطهم :

أما عروة بن الورد وصعاليكه ، أو « فتياه » كما كانوا يسمون أحياناً<sup>(٤)</sup> ،  
فقد تركز نشاطهم الأساسي في منطقة يثرب وما يجاورها من شمالي الجزيرة  
العربية . وفي شعره وأخباره أحاديث كثيرة عن غزواته لهذه المنطقة . فهو يعلن  
صعاليكه مرةً بأنهم لن يحققوا كل آماله ، ولن يبلغوا أقصى همة ، حتى  
يصلوا إلى يثرب منبت النخل فيغيروا عليها :

فلأنكم لن تبلغوا كل همتي ولا أربي حتى تروا منبت النخل<sup>(٥)</sup>  
وفي أبيات أخرى يتوعد الأوس ، ويعلمهم بأنه سيعرصد لهم بأحد الأودية  
حول يثرب :

(١) لسان العرب : مادة ( ركب ) ، ومادة ( ثمل ) - الركب : المزوعة . والجميل : الحب .

(٢) ديوان المذليين ١٥٩/٢ . ويرى في لسان العرب : مادة ( قضب ) لعروة بن الورد

( انظر أيضاً ديوانه / ١٩٣ ) . والواضح أنه لأي خراش فإن مرة هو أبوه سَأَفِي : أشرف .

والحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، ولعلها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل

« المقاضيِب » بعدها ، وهي الأرض تنبت النبات للربط ، جمع مقضية أو مقضاب .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين ( مصورة ) لوحة رقم ٩٠ . وانظر أيضاً شرح التبريزي

على حسانة أبي تمام ١٩٢/٢ .

(٤) انظر شرح التبريزي على حسانة أبي تمام ٨/٢ .

(٥) المصدر السابق ٨/٢ ٩٠ .

فإلّا أنلّ أوساً فإني حسيها      بمبتطح الأدغال من ذى السلائل<sup>(١)</sup>  
 وفي أخباره أنه أغار على مزينة<sup>(٢)</sup> ، ومنازل مزينة « جبال رَضْوَى  
 وقُدُس وآرة وما والاها وصاقبها من أرض الحجاز »<sup>(٣)</sup> « بين حرة بنى سُلَيْم وبين  
 المدينة »<sup>(٤)</sup> ، بل إننا لسنا في حاجة إلى هذا التحديد ، فإن قصة الغارة صريحة  
 في أن مزينة كانوا يخالطون بنى النضير<sup>(٥)</sup> ، وعروة نفسه يذكر في شعره أنهم  
 كانوا يتزلون « فويق بنى النضير »<sup>(٦)</sup> ، وبنو النضير كانوا بنواحي يثرب<sup>(٧)</sup> .  
 وهذه المنطقة التي أغار عليها منطقة خصبة « فيها العيون والنخل والزيتون والبان  
 والباسمين والعسل وضروب من الأشجار والنبات »<sup>(٨)</sup> . وفي أخباره أيضاً أنه  
 كان يتزل بصعاليكه في ماوان ، ويجعل منها « نقطة ارتكاز » لغزواته في  
 تلك المنطقة<sup>(٩)</sup> ، وماوان واد فيه ماء بين النقرة والربذة في منطقة يثرب<sup>(١٠)</sup> ،  
 وهو يتحدث في بعض شعره عما كان يحدث له مع صعاليكه في هذه المنطقة<sup>(١١)</sup> ،  
 وفي أخباره أيضاً أنه خرج بصعاليكه « متيامناً عن المدينة يريد أرض قضاة ،  
 وقصد بَلْقَيْن »<sup>(١٢)</sup> ، وأنه في مرة أخرى خرج بهم غازياً « ومضى حتى انتهى

- 
- (١) الأغاني ٧٥/٣ . وذو السلائل : واد بين الفرع والمدينة (ياقوت : معجم البلدان  
 ١٠٥/٥) ، والفرع قرية غناء كبيرة بها فخل ومياه كثيرة (المصدر السابق ٣٦٣/٦) .  
 (٢) الأغاني ٧٥/٣ .  
 (٣) البكري : معجم ما استمع ٨٨/١ .  
 (٤) المصدر السابق / ٩١ .  
 (٥) الأغاني ٧٦/٣ .  
 (٦) ديوانه / ٤٥ .  
 (٧) تاريخ ابن خلدون ٨٢/٢ .  
 (٨) البكري : معجم ما استمع ٣٧/١ .  
 (٩) الأغاني ٧٩/٣ ، ٨٥ ، وديوانه / ٩٧ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام  
 ٩/٢ - سطر ١٨ .  
 (١٠) ياقوت : معجم البلدان ٣٧٠/٧ .  
 (١١) شرح ابن السكيت على ديوانه / ٩٧ وما بعدها . وشرح التبريزي على حماسة  
 أبي تمام ٧/٢ ، ٩ .  
 (١٢) شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٨/٢ سطر ١٢ ، ١٣ . وانظر أيضاً شرح  
 ابن السكيت على ديوانه / ٩٦ .

إلى بلاد بني القين فأغار عليها<sup>(١)</sup> ، ومنازل بني القين في أرض التيه<sup>(٢)</sup> في الشمال الغربي من جزيرة العرب<sup>(٣)</sup> ، وهو يعلن صغاليكه بأنه لن يستقر بهم حتى يروا « منبت الأثل »<sup>(٤)</sup> ، ومنبت الأثل بلاد بني القين<sup>(٥)</sup> .

ومع ذلك فقد كان عروة يغير أحياناً على مناطق أخرى غير مناطق اختصاصه، وهو يصرح في شعره بأنه يغير أحياناً على نجد، وأحياناً على تهامة :  
فيوماً على نجد وغارات أهلها      ويوماً بأرض ذات شث وعزعر<sup>(٦)</sup>  
وفي أخباره أنه أغار مرة على منازل هذيل<sup>(٧)</sup> ، ومنازل هذيل في جبال السراة<sup>(٨)</sup> جنوبي مكة<sup>(٩)</sup> ، ولكن يبدو أن هذا كان نادراً ، ولعله لم يكن يحدث إلا في حالات خاصة ، فقصة غارته هذه لم تكن إلا لوناً من التسلية أراد به أن يظهر براعته وسعة حيلته ، وأن يبين للهذلي الذي أغار عليه مقدار غفلته ، حتى ليرد عليه ما غنمه منه ، لولا أن يأتي الهذلي ذلك إعجاباً به<sup>(١٠)</sup> .

أما منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف ، وأول الطريق الصاعد إلى اليمن ، فلعلها المنطقة التي شهدت أكبر عدد من صغاليك العرب ، ويذكر الأصمعي أن بالحجاز والسراة من هؤلاء العدائين الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون أكثر من ثلاثين<sup>(١١)</sup> ، وأن بهذيل وحدها منهم أربعين<sup>(١٢)</sup> ، ومرد

(١) الأغاني ٨٢/٣ .

(٢) شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ٨/٢ مطر ١٨ ، ١٩ .

(٣) Ency. of Islam; art. 'Urwa b. Al-Ward. (٣)

(٤) شرح ابن السكيت على ديوانه / ١٠٦ .

(٥) شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ٩/٢ - السطر الأول .

(٦) ديوانه / ٨٤ .

(٧) الأغاني ٨٣/٣ .

(٨) البكري : معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٩) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (٩)

(١٠) انظر القصة في الأغاني ٨٣/٢ - ٨٥ .

(١١) الأصمعي : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

(١٢) المصدر السابق ، ورقة رقم ٢٢ .

ذلك عندى إلى أربعة عوامل :

فهذه المنطقة ، أولاً ، منطقة يظهر فيها « التضاد الجغرافى » ظهوراً شديداً ، حتى ليعدها الجغرافيون من المناطق التى يختلط فيها الرعى بالزراعة<sup>(١)</sup> . ففيها من المناطق ما يصفه القرآن الكريم بأنه « واد غير ذى زرع »<sup>(٢)</sup> ، ويذكر بعض الدارسين أن ليس فيها يحيط بمكة من أرض ما يكفى لحياة سكانها<sup>(٣)</sup> ، وليس فى جميع جبال مكة — كما يذكر الجغرافيون — نبات إلا شىء يسير من الضهياء يكون فى الجبل الشامخ ، وليس فى شىء منها ماء<sup>(٤)</sup> ، ولكن فى هذه المنطقة إلى جانب هذا مناطق شديدة الخصب ، وقد رأينا منها الطائف ، وتعد منطقة السراة جنوبى مكة أشد مناطق الحجاز خصباً<sup>(٥)</sup> ، تنمو بها أشجار الصمغ والصنوبر والسرو<sup>(٦)</sup> ، وقد قلنا إن ظاهرة التضاد الجغرافى تثير فى نفوس الفقراء إحساساً قوياً بالفقر يدفعهم إلى التمرد .

وهذه المنطقة ، ثانياً ، منطقة جبلية . وسكان المناطق الجبلية — فى العادة — أشداء مغامرون متكبرون ، أخذوا من الصخر شدته ، ومن التواء الدروب حب المغامرة ، ومن شموخ الجبال الكبرياء العنيدة التى ترفض الخضوع . ويقرر الدارسون للبيئات الجغرافية « أن سكان الجبال الذين لم

(١) انظر المصور الجغرافى فى كتاب :

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) إبراهيم / ٣٧ .

(٣) Sédillot, Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12.

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٤٠ — والضهياء : شجر كثير الشوك .

(٥) Ency. of Islam, art. Arabia, p. 368.

(٦) Laumens, Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 92.

وليس صحيحاً ما ذكره لامانس من أن جبالها تنبت الجوز بكثرة ، امتناداً إلى أنها تسمى جبال الجوز ، كما أنه ليس صحيحاً ما ذكره من أن كل منطقة الحجاز تنبت الجوز امتناداً إلى السبب نفسه . . . (Ibid, pp. 92, 93)

فالجوز هنا ليس المراد به تلك الثمرة المعروفة ، وإنما معناه الوسط ، فهى جبال الجوز لأنها تتوسط بين نجد وهامة ، وكذلك القول فى الحجاز ، وليس هناك أى دليل على أن هذه المنطقة تنبت الجوز (انظر تاج العروس ، مادة جوز) .

يأخذوا بقسط وافر من الحضارة ، والذين لم تيسرهم أمزجتهم أو ظروفهم الاقتصادية الضيقة للهجرة ، يحلون مشكلة نقص موارد الطعام بالإغارة على حقول جيرانهم الأغنياء ومخازنهم ، حتى تملأ غارات النهب تاريخ سكان الجبال الفطريين<sup>(١)</sup> ، ويذكرون أن سكان الجبال القدماء في الألب وشمال أسبانيا والبلقان وإيطاليا والمرتفعات المحيطة بالفراطين ، كلهم قطاع طرق ، يعيشون على النهب والسلب ، نظراً لجذب يبتهم الطبيعة وما تسببه لهم من قلة موارد العيش وما يتبع ذلك من فقر وجوع<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لم تكن القبائل العربية التي نزلت في المناطق الجبلية من سلسلة جبال السراة بدعاً في تاريخ العالم .

ثم إن هذه المنطقة ، ثالثاً ، بحكم طبيعتها الجبلية تيسر وسائل الهرب والاختفاء والنجاة لهؤلاء الصعاليك ، فما أبسر ما يحملون في دروبها الملتوية ، وشعابها المتعرجة ، وطرقها الصاعدة الهابطة ، فرصاً طيبة تساعد على الهرب ، وما أكثر ما يحملون في كهوفها المتعددة ، وثناياها الغامضة المحجبة ، وصخورها العالية المتناثرة ، أماكن صالحة للاختفاء .

ففي أخبار تأبط شراً أنه أغار معه ابن بركة على بجيلة ، فلما خرجت في آثارها « مضيا هارين في جبال السراة ، وركبا الخزن »<sup>(٣)</sup> ، وفي أخبار « مرة بن خليف »<sup>(٤)</sup> أنه غزا الأزدي ، « فأسند في جبل لم منكر ، ليجد فرصة فيغير »<sup>(٥)</sup> . ثم إن هذه المنطقة ، رابعاً ، تعرضت لظروف اقتصادية خاصة ، ستعرض لها عند تفسيرنا الاقتصادي لظاهرة الصعلكة .

وأشهر الصعاليك الذين انتشروا في هذه المنطقة الجبلية صعاليك فهم وصعاليك هذيل ، ومن انضم إلى أولئك وهؤلاء من خلعاء القبائل وشذاذها .

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 586.

(٢) انظر تفصيل هذا في المصدر السابق : الموضع نفسه .

(٣) الأغاني ٢١١/١٨ .

(٤) ينص الأغاني على أنه من صعاليك فهم (٢١٥/١٨) .

(٥) ابن حبيب : الخبر / ١٩٨ .

وقد قدمنا أن قبيلة هذيل كانت تنزل من تلك المنطقة الجبال جنوبى مكة ، وكان لهم صدور أوديتها وشعابها الغربية<sup>(١)</sup> التى تلى الرملة من تهامة<sup>(٢)</sup> ، وكانت تجاورهم فى جبالهم فهم<sup>(٣)</sup> ، وكانت سراة فهم تجاور سراة ثقيف<sup>(٤)</sup> التى تقع إلى جانب الطائف<sup>(٥)</sup> .

وقد اتجهت أكثر غزوات صعاليك هذه المنطقة إلى ديار بجيلة ، وهى إحدى القبائل التى عرفت بالضعف<sup>(٦)</sup> . ويبدو أن من أسباب هذا نزول بجيلة « فى حضرة الطائف »<sup>(٧)</sup> هذا الإقليم الشديد الخصب ، وجاورتها سراة فهم نتيجة لذلك . ولهذا نلاحظ أن تأبط شرا الفهمى ، ورفاقه من صعاليك فهم ، ومن شذاذ القبائل الذين كانوا يصحبونه ، كانوا مفتونين بالإغارة على هذه المنطقة ، فى أخباره أنه خرج فى عدة من فهم « حتى بيتوا العوص ، وهم حى من بجيلة ، فقتلوا منهم نفراً ، وأخذوا لهم إبلًا »<sup>(٨)</sup> ، وأنه أغار « ومعه ابن براق الفهمى على بجيلة فأطردا لم نعماً »<sup>(٩)</sup> ، وأنه خرج ومعه صاحبان له « يريدون الغارة على بجيلة »<sup>(١٠)</sup> ، و « أنه خرج غازياً يريد بجيلة هو ورجل معه » ، أو « هو وصاحبان له حتى أغاروا على العوص من بجيلة فأخلوا نعماً لهم »<sup>(١١)</sup> ، وفى أخبار صعاليك هذيل أنهم كانوا يغزون بجيلة أيضاً<sup>(١٢)</sup> .

وقد اتجهت غزوات صعاليك هذيل إلى منطقة مكة أيضاً ، بحكم قربهم

(١) البكرى : معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٢) السيوطى : المزهر ٣٠٠/٢ .

(٣) البكرى : معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٤) المصدر السابق ١٥/١ .

(٥) المصدر نفسه ٦٧/١ .

(٦) W. Robertson Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 170. (F.N.)

(٧) البكرى : معجم ما استعجم ٩٠/١ .

(٨) الأغاني ٢١٥/١٨ .

(٩) المصدر السابق ٢١١/١ .

(١٠) المصدر نفسه ٢١٧/١ .

(١١) المصدر نفسه ٢١٢/١ .

(١٢) البكرى : شرح أشعار الهذليين ٢٣٢/١ ، ٢٣٤ .



منها ، ففي أخبار الأعلام الهذلي أنه خرج « هو وأخوه صخر وصُخَيْر حتى أصبحوا تحت جبل يقال له السطّاع »<sup>(١)</sup> ، وهو جبل بين مكة ومرحلة ونصف من جهة اليمن<sup>(٢)</sup> ، وفي أخبار بعض الصعاليك الهذليين أنهم كانوا يغيرون على خزاعة<sup>(٣)</sup> ، وكانت خزاعة تقيم بمكة<sup>(٤)</sup> ، ولكن يبدو أن للمسألة جانباً آخر اقتصادياً سنحاول استجلاءه في تفسيرنا الاقتصادي لظاهرة الصعلكة. وقد كانت بين هذيل وفهم ثارات<sup>(٥)</sup> ، فكان صعاليك كل من القيلتين يغيرون على الأخرى ، فيربص بهم صعاليكها ، وهكذا . ويبدو أن سر المسألة يرجع إلى الصراع بين الطائفتين على أهداف واحدة ، وقد رأينا أن صعاليك هذيل كانوا يغيرون على بيجلة ، هدف صعاليك فهم الأول ، ويبدو أن كلا من الطائفتين كانت تريد أن تكون لها وحدها السيطرة المطلقة على هذه المنطقة الخصبة .

أما منطقة اليمن فقد عرفت أجزاءها القريبة من الحجاز ، وبخاصة ديار خثعم ، صعاليك من فهم وصعاليك من الأزدي ، ففي أخبار تأبط شرّاً أنه « أغار على خثعم »<sup>(٦)</sup> ، وفي أخبار حاجز الأزدي أنه جمع « ناساً من فهم وعدوان ، فلحم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا »<sup>(٧)</sup> ، وكانت خثعم تنزل تربة ويثية وظهر تبالة على محجة اليمن من مكة إليها<sup>(٨)</sup> ، وهي منطقة خصبة « بها من النخل والفسيل شيء كثير »<sup>(٩)</sup> ، وبعض أوديتها ،

(١) الأغاني ٢٠/٢٠ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٨١/٥ .

(٣) السكري : شرح أشعار الهذليين ١٦١/١ ، وديوان الهذليين ١٤٢/٢ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧١/٢ .

(٥) انظر أمثلة على هذه المناوآت في السكري : شرح أشعار الهذليين ١٦٢/١ ، ٢٤٣ ،

٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

(٦) الأغاني ٢١٦/١٨ ، ٢١٧ .

(٧) الأغاني ٥١/١٢ (بولاقي) .

(٨) البكري : معجم ما استعجم ٩٠/١ وأيضاً / ٦٣ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان ٣٣٤/٢ .



وبخاصة وادي ييشة ، يتعمى إلى أطيب مناطق بلاد العرب ، وأكثرها خصباً<sup>(١)</sup> ، ويصف ياقوت ييشة بأنها « قرية غناء في واد كثير الأهل من بلاد اليمن »<sup>(٢)</sup> . وكذلك تعرضت سراة الأزد لبعض الغزوات ، فقد كان الشنفرى يغير من ديار فهم على الأزد فيمن معه من فهم أحياناً ، ووحده أكثر الأحيان<sup>(٣)</sup> ، وفي أخبار مرة بن خليف « أنه غزا الأزد »<sup>(٤)</sup> . ويبدو أن من أسباب ذلك أن سراة الأزد كانت تجاور سراة فهم ، فسراة الأزد تتلو سراة فهم من ناحية اليمن<sup>(٥)</sup> ، وإن تكن بينهما طائفة من السروات تنزلها قبائل أخرى<sup>(٦)</sup> ، ولكن الأزد كانوا ينزلون منطقة خصبة ، فقد كانت منازلهم « أودية مستقبلة مطلع الشمس بثليث وتربة وييشة »<sup>(٧)</sup> وهي المنطقة التي كانت تنزل فيها خثعم ، فقد كانت خثعم تنزل أوساط هذه الأودية<sup>(٨)</sup> .

أما مناطق اليمن البعيدة فقد تخصص في الإغارة عليها السليك ، وقد مر بنا أن عمرو بن معد يكرب وصفه بأنه بعيد الغارة ، وفي أخباره أنه كان « يتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم »<sup>(٩)</sup> ، وفيها أنه كان « يغير على اليمن »<sup>(١٠)</sup> ، وفيها أنه انطلق مع رجلين ليغيروا « فأتوا جوف مراد »<sup>(١١)</sup> ، وجوف مراد في أرض سبأ<sup>(١٢)</sup> .

ومع ذلك فقد كان تأبط شرا يتعدى على اختصاص السليك فيغير على

(١) Ency. of Islam; Art. 'Azir, p. 487.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٣٤ .

(٣) الأغاني ٢١/١٣٥ .

(٤) ابن حبيب : المحبر ١٩٨ .

(٥) الحمداق : صفة جزيرة العرب ١/١٢١ .

(٦) المصدر السابق ١١٩ .

(٧) البكري : معجم ما استعجم ١/٩٠ .

(٨) المصدر السابق ٩٠ .

(٩) الأغاني ١٨/١٣٧ ، ١٣٨ .

(١٠) المصدر السابق ١٣٤ .

(١١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢١٥ .

(١٢) ياقوت : معجم البلدان ٣/١٧٥ .

هذه المنطقة أحياناً ، ففي أخباره أنه خرج يوماً « يريد الغارة فلقى سرناً لمрад فأطرده ، ونظرت به مراد ، فخرجوا في طلبه فسبقهم إلى قومه » (١) .

وكان السليك يعد العدة لتلك الغارات البعيدة التي يضطر معها إلى اختراق المقازة المهلكة التي توصل إلى اليمن ، فكان ، أولاً ، لا يغير إلا في الصيف حينما تنقطع إغارة الخيل (٢) ، فيضمن بهذا علم تعرضه لمطاردات الخيل البعيدة المدى ، وهو لا يملك إلا قلعته يعدو بهما ، ثم كان ، ثانياً ، يدبر « موارد تمويته » في طريق غزواته الجلب ، فكان « في الربيع يعتمد إلى بيض النعام ، فيملؤه من الماء ، ويدفنه في طريق اليمن في المقاوز ، فإذا غزا في الصيف مر به فاستأثره » (٣) ، وكان يعتمد في هذا على خبرته الواسعة بمجاهل الصحراء ، فقد كان — كما يصفه الرواة — « أدل من قطاة ، يجر حتى يقف على البيضة » (٤) .

والشيء الذي يلتفت النظر في صعاليك هاتين المنطقتين الأخيرتين : منطقة السراة الممتدة من مكة حتى أول الطريق الصاعد إلى اليمن ، ومنطقة السراة الممتدة بعد ذلك حتى اليمن ، هو أن أكثرهم — إن لم يكونوا جميعاً — من العدائين الرّجّليين الذين يعدون على أرجلهم ، فيسبقون الخيل ، وقد رأينا أن المثل في سرعة العدو يضرب باثنين منهم هما السليك والشنفرى ، وأن الأصمعى يذكر أن في هذيل وحدها أربعين من هؤلاء العدائين ، ويذكر السكري « أن هذيل ليسوا بأصحاب دواب ، وإنما هم رجالة » (٥) ، وديوان الهذليين ناطق بكثرة عدد هؤلاء العدائين الذين كانوا يعتمدون على العدو في غاراتهم وفي فرارهم ، وتشهد بهذا أيضاً حماسة البحترى (٦) .

(١) الأغاني ٢١٦/١٨ .

(٢) المصدر السابق ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ١٣٤ .

(٥) ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

(٦) انظر الباب الخامس والعشرين « فيا قيل في الفرار على الأرجل » ٦٣ - ٦٩ .

ومرد ذلك ، عندى ، إلى أمرين :

أولهما : طبيعة المنطقة الجغرافية ، فهى منطقة جبلية تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، « مقبلة من قُعرَة اليمن حتى تبلغ أطراف بواى الشام »<sup>(١)</sup> « فى عرض أربعة أيام فى جميع طول السراة ، يزيد كسرَ يوم فى بعض هذه المواضع ، وقد ينقص مثله فى بعضها »<sup>(٢)</sup> ، وترتفع بعض ذراها إلى خمسمائة وألفين من الأمتار<sup>(٣)</sup> . وفى الجبال تشتد عضلات الأرجل إلى درجة غير عادية نتيجة لطبيعة الأرض ، وما تستلزمه من صعود وهبوط دائمين ، ويقرر الدارسون « أن الطبيعة تمنع سكان الجبال عضلات فى سيقانهم من حديد لينسلقوا بها المرتفعات »<sup>(٤)</sup> .

والآخر : أن هذه المنطقة الجبلية المجذبة ليست بالمنطقة الصالحة لتربية الخيل ، لأن الخيل لا تُربى إلا فى البقاع الخصبة<sup>(٥)</sup> ، ومن هنا اعتمد هؤلاء الصعاليك على أقدامهم فى كل تحركاتهم .

ولهذا السبب أيضاً نلاحظ أن عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة نجد وشمالى الجزيرة العربية لم يذكر عنهم أنهم كانوا من العدائين أو الرحليين ، وإنما كانوا يستخدمون الخيل أحياناً<sup>(٦)</sup> ، وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الخيل ، وهم يذكرون أن « فى نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها »<sup>(٧)</sup> .

والواقع أن هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العلو الخارقة للعادة ليست بالأمر المستحيل الذى يأباه واقع الحياة ، فإننا نجد فى حياتنا الواقعية التى تحيط بنا

(١) الهدائق : صفة جزيرة العرب ٤٨/١ .

(٢) المصدر السابق ٦٧/١ .

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ٥١ .

(٤) Simple; Influences of Geographic Environment, p. ١. (٤)

(٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ٥٥ .

(٦) انظر ديوان عروة / ٦٨ ، ٦٩ ، ١١١ .

(٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ٥٥ .

ما يؤيد ما حملته إلينا مصادر الأدب العربي القديم من أخبار تلك النشرة  
التي عرف بها صمالك السراة .  
ومرد المسألة في جميع هذه الحالات إلى تكيف الإنسان عضوياً مع البيئة  
الطبيعية التي يعيش فيها ، والحياة التي يحياها بينها .

## الفصل الثالث

### التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة

١

#### القبيلة :

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلي في صورته العامة نرى أنه مجتمع قبل ، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة ، عرفت كل منها باسم القبيلة . وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية في بقعة من الجزيرة العربية يتوافر فيها الماء والكلأ ، واتخذت منها موطناً لها ، فإذا ما ساءت ظروفها الجغرافية ، فأحالت موطنها إلى بقعة جرداء غير صالحة للحياة ، انتقلت منها إلى بقعة أخرى . أما إذا كان الموطن الأول أرضاً ذات خصب دائم — نظراً لظروف جغرافية مواتية — فإن القبيلة تستقر فيه استقراراً دائماً ، وتنشئ فيه قرية . وقد نزلت بعض القبائل العربية في المدن القليلة المبعثرة في أرجاء الجزيرة ، واتخذت منها مواطن لها ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية ، فقد ظلت لكل منها « منازلها الخاصة » ، ومعاقليها الصغيرة ، وساداتها ، وشؤونها الخاصة <sup>(١)</sup> . ومرد ذلك إلى أن « رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة ، حتى لقد تؤدي الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها » <sup>(٢)</sup> . ولكن هذه القبائل — مع ذلك — كانت أكثر استقراراً من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 2.

(٢) Ibid., p. 2.

(٢) ولعل من خير الأمثلة على هذا ما كان بين الأوس والخزرج في يثرب ، وما كان بين عبد شمس وهاشم في مكة .

الظروف الجغرافية مباشرة ، وإنما هي وسائل صناعية تخضع إلى حد بعيد لسيطرة الإنسان .

وهكذا نستطيع أن نقول إن القبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه .

وأساس تكوين القبيلة الأسرة ، ذلك أن المثل الأعلى للعربي أن ينجب أكبر عدد من الأبناء الأشداء حتى تصبح أسرته بين أقاربه ذات شأن يجعلهم يعدونه شيخهم الأكبر ، ويدعون أنفسهم أبناءه<sup>(١)</sup> ، ومن هنا يصح أن يقال إن القبيلة ليست سوى أسرة أكبر حجماً<sup>(٢)</sup> . «ويعمضي الزمن تنقسم القبيلة إلى قبيلتين أو أكثر ، تضم كل منها سلالة أحد أبناء الجد الأكبر متسمية باسمه ، ثم تنقسم هذه القبائل مرة أخرى على أساس القاعدة نفسها ، وهكذا يستمر الانقسام»<sup>(٣)</sup> .

وقد أثار بعض الباحثين المحدثين جدلاً حول تسلسل القبيلة عن طريق الأب ، أو ما يصح أن نطلق عليه «الانقسام الذكوري في القبيلة العربية» ، وحاولوا أن يتلمسوا آثار الأمومة في أنساب القبائل العربية ، ليثبتوا أن تسلسل القبيلة كان يحدث أحياناً عن طريق الأم<sup>(٤)</sup> ، ولكن الشيء الثابت عند النسابين العرب هو أن كل القبائل العربية «قبائل أبوية تكونت بانقسام جماعة أصلية انقساماً يعتمد على القرابة من ناحية الأصول الذكورية»<sup>(٥)</sup> ، والذي يعنينا هنا هو أن أفراد كل قبيلة كانوا يؤمنون بأنهم أبناء لأب واحد ، فهم يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها ،

(١) Ency. of Islam,; art. Arabia, p. 373.

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

(٣) Ibid.; p. 4.

(٤) انظر في هذا المصدر السابق ، وانظر أيضاً كتاب «الأمومة عند العرب» للمستشرق الهولندي G.A. Wilken الذي ترجمه من الفرنسية الأستاذ ينسلي صليبيا الجوزي . وانظر في مناقشة هذه الآراء البحث الذي نشره الأستاذ عبد الوهاب حمودة في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٤ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ تحت عنوان «نظرية الأنساب في الميزان» .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

متآلفة لا شئوذ بين أعضائها ، يعمل الجميع في سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها .

وقد نشأ عن هذا الإيمان « بالأسرية » إيمان بوحدة اجتماعية تغفل في نفوس أبناء القبيلة ، نشأ عنه أن كان إحساسهم بالشئوذ في هذه الوحدة إحساساً قوياً أصيلاً . ومن هنا كان حرصهم على أن تظل هذه الوحدة قائمة كما هي ، نقية كما آمنوا بها ، يخرجون منها ما يرونه شوائب فيها ، ولا يبقون إلا ما هو صالح للمحافظة عليها ، ولا يسمحون لغريب بأن يخل في مجموعها إلا بشروط خاصة ، ووفقاً لتقاليد معينة ، وداخل نطاق محدد ، وسرى أن هذه المسألة تحمل أول المفاتيح الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

## ٢

### إيمان القبيلة بوحدةها :

عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمراً مقدساً ، وترتبت عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة « دستور » ينظم سياستها ، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق .

والأساس الذي تقوم عليه نصوص هذا الدستور « العصبية » ، والمقصود بها « النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة »<sup>(١)</sup> ، أو هي إحساس الفرد برابطته القبلية ، وواجب تأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة<sup>(٢)</sup> .

وينص هذا الدستور فيما يتصل « بالسياسة الداخلية للقبيلة » على أن أفراد القبيلة جميعاً متضامنون فيما يجنيه أحدهم ، أو — كما يقول المثل العربى القديم — « فى الحرية تشرك العشيرة »<sup>(٣)</sup> ، وعلى أن هذا « العقد الاجتماعى » بين الفرد

(١) مقدمة ابن خلدون / ١٢٨ .

(٢) Ency. of Islam, Art. Arabia, p. 376.

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ١٧/٢ .

وقييلته قائم على أساس عاطفي بحث ، ولا مجال للتفكير فيه <sup>(١)</sup> ، وإنما هي النجدة التي تجيب دون أن تسأل <sup>(٢)</sup> ، وهي نجدة عملية سريعة لا تحتل انتظاراً ، إجابتها تنفيذها <sup>(٣)</sup> ، وتنص « مواد » هذا اللكتور على أن نجدة أبناء القبيلة لأنحيم واجبة سواء أكان جارماً أم مجروحاً عليه ، فبدوهم الذي يسرون عليه « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » <sup>(٤)</sup> ، فجناية كل فرد منهم جناية المجموع ، يعصبونها برأس سيد العشيرة <sup>(٥)</sup> ، ولم عليه أن يتحمل تبعاتها ، وله عليهم أن يطعموه فيما يأمرهم به .

وفي مقابل هذا الحق الذي كان للفرد على القبيلة ، كان عليه واجب لها ، عليه أن يحترم رأيها الجماعي ، فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها ، ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطيق <sup>(٦)</sup> ، ومن هنا « فرضت وحدة القبيلة » وتحمل المجموع لتبعات الفرد ، على سادتها أن يمارسوا نوعاً من الإدارة البوليسية ، فإذا ارتكب فرد جرماً رفضت القبيلة أن تتحمل نتائجه ، وإذا أخطأ في حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها <sup>(٧)</sup> . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى

(١) لا يسألون أخام حين يندبهم في الذائبات على ما قال برهانا

(قريط بن أنيف في حجة أبي تمام ٩/١) .

(٢) إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

(وداك بن عميل المائذ في حجة أبي تمام ٦٤/١) .

(٣) ونجيب داعية الصباح بثالب عجل الركوب لدعوة المستنجد

(مضرم بن دهمي في المصدر السابق ١٠٢/٣) .

(٤) الميداني : مجمع الأشكال ٢٤٢/٢ . ولم يعرف العرب في الجاهلية التأويل الإسلامى لهذا المثل من رد الظالم عن ظلمه وكفه عنه .

(٥) « والعرب تقول : سيد معمم يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه » (ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٢٦/١) .

(٦) يقول أبو سفيان « لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ما فعلت فعلت » (الواقدي : كتاب المغازي / ٢٠٠) .

(٧) Ency. of Islam; art. Arabia, pp. 375, 376. (٦)



الطريد وخليعاً<sup>(١)</sup> .

ويحدث الخلع لأسباب متعددة ، تدور كلها حول هذا الأساس ، فقد يحدث أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها ، وهنا تجد القبيلة نفسها في موقف حرج ، فالقاتل والمقتول كلاهما من أبنائها ، ولكل منهما حق الحماية والنصرة . وهنا يضطر سادة القبيلة إلى أن يقوموا بدور الوسيط بين الفريقين ، حتى لا يؤدي الأمر إلى انقسام القبيلة على نفسها ، « فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكملة ، ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوى قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن نأخذ سهماً فترى به نحو السماء ، فإن رجع إلينا مضرجاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها » ، ونتيجة هذا « الإجراء التمثيلي » معروفة طبعاً ، فما رجع ذلك السهم قط إلا نقيماً ، وهنا يسمح القوم لحامهم علامة للصليح ، ويصالحون على الدية<sup>(٢)</sup> ، وهكذا تحل المشكلة هذا الحل السلمى الذى يحفظ على القبيلة وحدتها . ولكن المشكلة تظل قائمة إذا رفض أولياء الدم الدية ، وأصرروا على الثأر ، وهنا تحل المشكلة على أحد وجهين : إما أن يقتل القاتل بأيدي قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته<sup>(٣)</sup> ، حتى تترك لأولياء الدم حرية التصرف

(١) في لسان العرب : مادة ( خلع ) . والخليع : الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه ، فيشبهون منه ومن جنائيه ، ويقولون إذا خلعتنا فلاناً فلا تأخذ أحد بجناية نجى عليه ، ولا تؤاخذ بجناياته التى يجنبها . « وفي النهاية لابن الأثير ( المادة نفسها ) » كانت العرب يتماهدون ويتماقدون على النصر والإعانة ، وأن يؤخذ كل منهم بالآخر ، فإذا أرادوا أن يتبرموا من إنسان قد حالفوه أظهروا ذلك إلى الناس ، وسبوا ذلك الفعل خلماً ، والمتبرأ منه خليعاً أى مخلوعاً ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم ، فكأنهم قد خلعوا الذين كانوا قد لبسوها معه ، وسموه خلماً وخليعاً مجازاً واتساعاً . وفي أساس البلاغة ( المادة نفسها ) « وكان الرجل في الجاهلية إذا غلبه ابنه ، أو من هو منه بسبيل ، جاء به إلى الموسم ، ثم نادى : يا أيها الناس هذا ابنى فلان ، وقد خلعت ، فإن جر لم آمن ، وإن جر عليه لم أطلب ، يريد قد تبرأت منه » .

(٢) البغدادى : خزنة الأدب ١٣٧/٢ . ويسمى هذا المسم سهم الاعتذار ، كما يسمى أيضاً المقيقة .

(٣) Smith: Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 25. (٢)

بلون أن تعرض وحدتها للتنازع ، أو يتخلع هو نفسه ، فيفر من قبيلته نجاةً بحياته . وعلى كلا الوجهين تكون القبيلة قد تصرفت في حدود « دستورها » الذي ينص على أنه « يجب على أهل القاتل ألا يحموه إذا قتل أحداً من دمه » (١) ، وذلك لأن رابطة القبيلة أقوى من رابطة الأسرة (٢) .

وقد يحدث أن تتعدد جرائم أسطأفراد القبيلة حتى تجد نفسها عاجزة عن نصرته ، لأن في هذا تكليفاً لها لا تطيقه ، وعبئاً ثقيلاً عليها تنوء به ، وتهديداً دائماً لسلامتها ، وإراقة لدماء أبنائها بلون مبرر ، فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد ، مفضلة أن تضحي بفرد واحد على أن تضحي بجماعة من أفرادها ، ملقية عليه تبعات جرائمه ، يتحملها هو وحده ، فتخلعه (٣) .

وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية ، حتى يصبح وجوده بينها وصمة في جبينها ، وسبة في مجدها وشرفها ، وخطأ من قدرها بين القبائل ، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه ، ضرره أكثر من نفعه ، فتتبرأ من نسبته إليها ، حرصاً على سمعتها ، وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسىء إليها فرد ، فتخلعه (٤) .

هذه أهم الجرائم التي كانت القبيلة تحكم على من يرتكبها من أفرادها بالتخلع ، وهي كلها تدور حول محور واحد ، هو خروج الفرد على وحدة

(١) Ibid., p. 43.

(٢) Ibid., p. 4.

(٣) في أخبار امرئ القيس أنه لما خرج مطالباً بدم أبيه نزل بعامر بن جوين « وعامر يوشد أحد الخلفاء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائمه » (الأغاني ٩/٩٥ ، والبيدائي : خزائن الأدب ١/٢٤) . وفي أخبار عبد الله بن جلعان أنه كان « شريفاً فاككا ، لا يزال يجني الجنايات ، فيعقل عنه أبوه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ألا يؤويه أبداً ، لما أثقله به من القرم ، وحمله من الديات » (السهيل : الروض الأتق ١/٩٢) .

(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 49.

وفي أخبار البراء بن قيس الكنانى أنه « كان سكيراً فاسقاً ، خلعه قومه ، وتبره وأمنه » (الأغاني ١٩/٧٥) . وفي ملحقة طرفة حديث عن هالكه على الحمر واللذات واستهتاره بكل شيء حتى تعامت المشيرة كلها ، وأقود أفراد البعير المعبد .

القبيلة، وتصرفه تصرفاً فردياً بلون رضاها أو الرجوع إليها ، فتجد القبيلة نفسها أمام فرد « شاذ » خرج على إجماعها ، ورفض السير في ركابها ، وترى أنه بتصرفه هذا قد ترك لها حرية التصرف ، وأنها أصبحت في حل من ذلك العقد الاجتماعي الذي يربطها به ، فلم تعد مسئولة عما يفعل ، فتتبرأ منه ، وتطرده من حماها ، وتسحب منه « الجنسية القبلية » ، وتعلن أنها قد خلعت ، وأن صلته بها قد انقطعت ، وحمايتها له قد انتهت ، وتضامنها معه قد انحلت عقده .

وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلان رسمي يذاع على الناس في المواسم والأسواق ، ليكون في ذلك إظهار لم عليه <sup>(١)</sup> ، وقد يبعثون منادياً بذلك <sup>(٢)</sup> ، وقد يكتبون به كتاباً <sup>(٣)</sup> ، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته « فلا تحمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجزها أحد عليه » <sup>(٤)</sup> .

وهنا يجد الخلع نفسه أمام مشكلة خطيرة ، هي مشكلة الحياة أو الموت . لقد سحبت منه « الجنسية القبلية » ، ورفعت القبيلة عنه حمايتها ، وطردته من حماها ، ولم يعد أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يفر إلى الصحراء ليلاقي مصيره في البادية القاسية فقيراً مفرداً ، لا اعتماد له على أحد ، ولا على شيء ، وإما أن يلجأ إلى من يحميه ويعيش في جواره ، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي ، وهو « قانون الجوار » <sup>(٥)</sup> .

وقد قدس المجتمع الجاهلي هذا القانون تقديساً كبيراً ، وكان مما يفخر به

(١) انظر الزنجشري : أساس البلاغة ، مادة (خلع) . وقد خلعت خزاعة قيس بن الحداية « بسوق عكاظ » ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه « (الأغاني ٢/١٣ بولاق) » .

(٢) خلع بنو ميم في الجاهلية عمرو بن العاص ، كما خلع بنو مخزوم عمارة بن الوليد ، إذ هما في الحبشة ، خشية أن يعتدي أحدهما على الآخر فتؤخذ عشيرته به ، « وتبرأ كل قوم من صاحبهم وما جر عليهم » ، فبعثوا متادياً يتادى بمكة بذلك « (الأغاني ٥٧/٩) » .

(٣) انظر جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١٩/٤ ، وانظر أيضاً :

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 146 = 242.

(٤) الأغاني ٢/١٣ (بولاق) . وانظر أيضاً ابن حبيب : المحبر ١٩٥/ .

(٥) في القاموس المحيط (مادة الجور) : الجوار أن تعطي الرجل فدية فيكون بها جارك فتجيره ، والجوار أيضاً الخليف .

العربي أن يكون ملاذاً لكل خائف ، وملجأ لكل طريد ، لأن في ذلك اعترافاً بقوته ومروءته وكرمه ، وهي فضائل يعتر كل عربي بأن تُنسب إليه ، حتى لقد اشتهر بعض أشراف العرب بإجارة الخلفاء وحمايتهم<sup>(١)</sup> .

وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف - بطبيعة الحال - وفقاً للظروف ، فكانت أحياناً مؤقتة ، وكانت أحياناً أخرى دائمة ، بل وراثية ، وفي بعض الحالات كان المجير يتعهد بأن ينصر جاره على علو معين فقط ، وفي حالات أخرى كان يتعهد بإجارته من كل الأعداء ، بل من الموت نفسه ، وكان هذا يعني أن يدفع المجير إذا مات جاره ، وهو في جواره ، دية لأسرته<sup>(٢)</sup> ، « وأقوى هذه الحالات على الإطلاق هي تلك التي يتعهد المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم »<sup>(٣)</sup> .

ومن هنا كان العرب يسمون جارهم هَدْيَتَهُمْ أو هَدْيَتَهُمْ « يحرم عليهم منه ما يحرم من الهدى »<sup>(٤)</sup> ، وهي تسمية تشعرنا بتلك القداسة التي كانت للجوار في نفوس العرب ، فهو عندهم شيء مقدس ، كأنه قربان يتقدبون به إلى الآلهة. وبما يلتقي ضوءاً على هذه الفكرة أن بعض المكين كانوا يُتَقَسِّمون على حمايتهم لجارهم في الكعبة ، وكان هذا القسم يتخذ صورة إعلان عام ،

(١) كان الزبير بن عبد المطلب في مكة « ينزل عليه الخلفاء » (ابن قتيبة: الشعر والشعراء / ٢٢٩) وقد لجأ مطرود بن كعب الخزاعي « إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بالحنابة كانت منه ، فعما وأحسن إليه » (المزرياني: معجم الشعراء / ٣٧٥) ، ونزل البراء بن العباس الكندي بعد خلع « على حرب بن أمية فحالفه ، فأحسن حرب جواره » (الأغانى / ١٩ / ٧٥) ، وكان حاجز الأزدي حليفاً لبني مخزوم (الأغانى / ١٢ / ٤٩ بولاق) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 50.

وانظر في الإجارة من الموت قصة الأعشى مع عامر بن الطفيل في الأغانى / ٩ / ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.

وفي أخبار أوفى بن مطر المازني أن رجلاً جاوزه « ومعه امرأة له ، فأعجبت قيساً أخاه ، فبطل لا يصل إليها مع زوجها ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك أوفى ، فقتل قيساً أخاه بجواره » (ابن حبيب: المحبر / ٣٤٨) .

(٤) لسان العرب : مادة (هدى) : ولهدى : القربان .

ولا يستطيعون التحلل منه إلا في الكعبة أيضاً<sup>(١)</sup> .

وفي مقابل هذه الحقوق التي كانت للجار ، كانت عليه واجبات لمن أجاروه . وتتلخص هذه الواجبات في أن يحترم الجوار ، ولا يسىء إلى من أجاروه ، لا في أشخاصهم ولا في سمعتهم ، لا في حياتهم المادية ولا في حياتهم المعنوية . فإذا ما رأت القبيلة ما يسيئها من جارها كان لها الحق في أن تخلعه ، وتحلل من التزاماتها له . ومن هنا كانت تتعدد استجارة الخليع بالقبائل في بعض الأحيان<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فلم تكن حياة هؤلاء الخلعاء في جوار من استجاروا بهم طيبة دائماً ، فقد كان يحدث أحياناً أن يسىء المخير معاملة جاره ، ويستغل تلك الظروف المخرجة التي يمر بها فيغدر به<sup>(٣)</sup> ، وكان يحدث أحياناً أخرى أن يعجز المخير عن رد العدوان عن جاره ، إما لضعفه وإما لعدم اهتمامه به<sup>(٤)</sup> . وعلى كل حال فحسب هؤلاء المستجيرين هواناً لنفوسهم أن ديّهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح<sup>(٥)</sup> .

وحين نقف لتأمل حياة هؤلاء المستجيرين نجد أننا أمام طائفتين : طائفة استقر بها المقام في القبيلة التي أجارتها ، فاندججت في مجتمعتها ، وطابت لها

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.

(٢) في أخبار البراض أنه بعد أن غلمه قومه لجأ إلى بني الدليل ، فشرّب فيهم « فخلموه » ، فأتى مكة وأتى قريشاً فنزل على حرب بن أمية فمالفه ، فاحسن حرب جواره ، وشرّب بمكة حتى تم حرب أن يخلمه « (الأغاني ٧٥/١٩) » .

(٣) كان أبو جندب الهذلي جاراً لبني ثقاتة « جاودهم حينئذ من الدهر » ، ثم إنهم ذكروا أن يندروا به « (السكري : شرح أشعار الهذليين ٩٣/١) » .

(٤) استجار أبو الطمحان القيني بعبد الله بن جندعان التيمي « ومنه مال له من الإبل » ، فعدا عليه قوم من بني سهم ، فانتحروا ثلاثة من إبله « ، ثم عاودوا عليها الكرة » ، فاستاقوها كلها ، « أتى عبد الله بن جندعان يستصرخ ، فلم يكن فيه ولا في قومه قوة يبيئ سهم ، فامسك عنهم ولم ينصره » (الأغاني ٦٩/١٦) . واستجار عكرز بن المكعب القصبى ببني عدي من تميم « فاغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها » ، فطلب إليهم أن يسعوا له ، فوعدوه أن يفعلوا « ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى بعض بني مازن » (شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ١٥/٤) .

(٥) الأغاني ١٩/٣ سطر ١٨ ، ص ٢٦ سطر ٤ ، ٥ .

الحياة الجديدة ، وشاركت في ضروب نشاطها ، وسلكت سبل العيش معها في هدوء واستقرار ، وطائفة أخرى لم تزل في نفوسها بقية من تمرد ، رفضت هذا الفناء الجديد في شخصية القبيلة التي أجارتها ، فكانت حياتها فيها امتداداً لحياتها القديمة في القبيلة التي خلعتها .

ويخرج هؤلاء « الشذاذ »<sup>(١)</sup> على حياتهم الجديدة ، ليجلوا في الصحراء متسعين لنشاطهم التمرد الذي لا يحتمله مجال القبيلة الضيق ، وليشقوا طريقهم في الحياة بأسلوبهم الذي اعتادوا عليه ، دون أن يعتمدوا على أحد سوى قوتهم ، وأغرامهم على هذا أنهم كانوا واثقين من أنهم « إذا أخفقوا فلن يعدموا أن يجلبوا سيلاً أو حياً يستقبلهم ويضمن لهم ملجأ »<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن هؤلاء الشذاذ المتمردين كانوا ينظرون إلى القبائل التي يستجيرون بها على أنها « نقط ارتكاز » لنشاطهم ، وإلى حياتهم فيها على أنها فترات راحة في حياتهم العنيفة .

وحين نعود إلى أخبار صعاليك العرب لننظر فيها على ضوء هذا « المصباح الاجتماعي » نجد أن طائفة كبيرة منهم من الخلماء والشذاذ .

فقد كان قيس بن الحداية « صعلوكاً خليعاً »<sup>(٣)</sup> خلعتة قبيلته خزاعة لأنه اشترك مع جماعة من أسرته في قتل أحد أفراد قبيلتهم ، وعجزوا عن دفع الدية ، ففروا هاربين ، « فترلوا في فراس بن غنم » ، ثم لم يلبثوا أن أصابوا أيضاً منهم رجلاً ، فهربوا ، فترلوا في بجيلة على أسد بن كرز فأواهم ، وأحسن إلى قيس ، وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس<sup>(٤)</sup> ، وفي خبر آخر أنه بعد خلعه « نزل عند بطن من خزاعة يقال لهم بنو عدى بن عمرو بن خالد ،

(١) في لسان العرب ( مادة شذ ) : « وقوم شذاذ إذا لم يكونوا في منازلهم ولا حيم . . . وشذاذ الناس الذين يكونون في القوم ليسوا في قبائلهم ولا منازلهم » .  
وفي أساس البلاغة ( المادة نفسها ) « شذ عن الجماعة شذواً انقرد عنهم ، وهو من شذاذ القوم : من الذين هم فيهم وليسوا منهم » .

(٢) Lammen; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 194.

(٣) الأغاني ٢/١٣ ( يولاق ) .

(٤) المصدر السابق / ٤ : ٥ .

فأوروه وأحسنوا إليه»<sup>(١)</sup> . والظاهر أن هذا كان قبل استجارته بيني فراس .  
 وألف قيس بعد خلعه عصاية من صعاليك العرب جمع فيها «شذاذاً  
 من العرب وفتاكاً من قومه»<sup>(٢)</sup> ، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفتاك هم أولئك  
 الذين اشتركوا معه في حادثة القتل التي كانت سبباً في خلعه . وكان أول  
 ما فعلته هذه العصاية أن حاولوا الانتقام لأنفسهم من أولئك الذين كانوا  
 سبباً في خلعه ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم رجلاً واستاقوا أموالهم<sup>(٣)</sup> ، وهكذا  
 أثبت لقومه الذين خلعه أنه قادر على أن يقف في وجههم برغم أنه «خلع  
 مطرد» ، على حد تعبيره في بعض أبياته<sup>(٤)</sup> ، وأنه لا يتورع عن قتل أى  
 فرد من قومه وقف في طريقه ، وأنه قادر على أن يسلبهم تلك الأموال التي كان  
 حرمانه منها سبباً في عجزه عن دفع الدية ثم في خلعه نتيجة لذلك . ومع ذلك  
 فقد كان قيس نبيلاً في موقفه من أولئك الذين لم يكن لهم ضلع في خلعه ، فقد  
 لحقه بعد هذه الغارة «رجل من قومه كان سيداً ، وكان ضلعه مع قيس فيما جرى  
 عليه من الخلع يقال له ابن محرق» ، فأقسم عليه أن يرد ما استاقه ، فقال :  
 أما ما كان لي ولقومي فقد أبررت قسمك فيه ، وأما ما اعتورته أيدي هذه  
 الصعاليك فلا حيلة لي فيه ، فرد سهمه وسهم عشيرته»<sup>(٥)</sup> . وهكذا كان قيس  
 الصعلوك «سيداً» في موقفه ، فرق بين أولئك الذين كانوا سبباً في خلعه وبين  
 سائر عشيرته ممن لم يكن لهم يد في هذا الخلع ، وقرر بين مركزه زعيماً لعصاية  
 لأفرادها حق في الغنيمة لا يجوز حرمانهم منه ، وبين مركزه طالباً للانتقام من  
 جماعة معينة .

وظل هذا الصعلوك المتمرد يجمع الخلعاء والشذاذ ويغير بهم ، حتى قتل

(١) المصدر السابق / ٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٢ .

(٣) المصدر نفسه / ٢ .

(٤) المصدر نفسه / ٥ .

(٥) المصدر نفسه / ٢ - والضلح - بفتح الضاد - الميل . واعتوروا الشيء : تداولوه .



وهو خليع قتيلاً كان فيها شجاعاً حتى النهاية<sup>(١)</sup> ، وقبل أن يوشك سراج حياته على الانطفاء تذكر تلك الحادثة التي كانت سبباً في تلك الحياة القاسية التي عاشها طريداً مشرداً ، حادثة خلعه ، فأخذ ينشد وهو يقاتل نشيداً فيه حسرة ، وفيه شجاعة واعتداد بالنفس<sup>(٢)</sup> ، حسرة على حياته التي ذهبت مع الريح ، بعد أيام شباب جميلة قضاهما في حِمَى القبيلة ، في اللهو تارة ، وفي الجدل تارة أخرى<sup>(٣)</sup> ، عضواً عاملاً في مجتمع القبيلة ، ينافع عنها ، ويشيد بمفاخرها ، ويهجو أعداءها<sup>(٤)</sup> ، بل يقودها أحياناً في شجاعة إلى مواقع النصر<sup>(٥)</sup> .

وكذلك كان أبو الطمّحان القيني من هذه الطائفة من الخلق الشاذ ، ولم تحدثنا أخباره عن سبب خلعه ، ولكني أرجح أنه خلع لسوء أخلاقه . ويصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقاً »<sup>(٦)</sup> ، ويقدمه صاحب الأغاني بأنه « أدرك الجاهلية والإسلام فكان خبيث الدين فيهما »<sup>(٧)</sup> ، ويصفه بعض رواة الأغاني بأنه « كان فاسقاً خارباً »<sup>(٨)</sup> ، وقد سئل عن « أدنى ذنوبه » كأنه كان معروفاً بكبائره ، فاندفع يقص في استهتار قصة ليلة ارتكب فيها أربع موبقات<sup>(٩)</sup> ، فإذا كانت هذه أدنى ذنوبه فليس من شك في أنه كان مستهتراً استهتاراً فاضحاً .

وقد تقلبت الأيام بأبي الطمّحان قلباً عنيفاً ، فقضى حياة مضطربة ،

(١) الأغاني ٨/١٣ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق ٨ ، وانظر أيضاً كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب

ص ٦ .

(٣) فيومئذ يوم في الحديد مسريلاً ويوم مع البيض الأوانس لاهياً

(الأغاني ٨/١٣ بولاق) .

(٤) انظر أخبار ذلك في المصدر السابق ٣/ ٤ ، ٤ ، ٥ .

(٥) انظر ذلك في المصدر نفسه ص ٣ .

(٦) الشعر والشعراء ٢٢٩ .

(٧) الأغاني ١١/١٣٠ (بولاق) .

(٨) المصدر السابق ١٣٢ .

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٢٩ ، والأغاني ١١/١٣٢ (بولاق) .



لم تكد تعرف طعم الاستقرار إلا في قرأت متقطعة ، منتقلا بين أحياء العرب ، مستجيراً بها ، لا يكاد يستقر في جوار حتى يحدث ما يعيده إلى حياة الاضطراب مرة أخرى . وهو يشكو في شعره مر الشكوى من غدر من يستجير بهم :

أَجْدُ بنى الشرقِ أولعَ أننى متى أستعجزُ جارا وإنَّ عَزَّ يغدير  
إذا قلت أَوْفى أدركته دَرُوكُهُ فبا موزِعَ الجيرانِ بالغى أقصر<sup>(١)</sup>

ويبدو أن شاعرنا الصعلوك كان سيء الحظ مع جيرانه ، فقد كان مجاوراً في بطن من طيء يقال لهم بنو جديلة ، « فنطع نيس له غلاماً منهم فقتله » فتعلقوا أبا الطمحان وأسروه حتى يؤدي دية مائة من الإبل ، فاستنجد بنزيه ، مصوراً في أبيات له ذل موقفه ، وحسرتة على بعده عن قومه<sup>(٢)</sup>

ويشاء سوء حظه مرة أخرى أن تقتل طيء فيا بينها ، وتتحرب حزبين ، وينهزم حزب جديلة الذي كان مجاوراً فيهم ، ويؤسر أبو الطمحان في هذا القتال « أسره رجلان من طيء واشتركا فيه » ، فاشتراه منهما أحد أفراد القبيلة ، بعد ما بلغت أبيات له يمدح فيها قومه ، فلدحه أبو الطمحان بقصيدة ، فجز الطائي ناصيته وأعتقه<sup>(٣)</sup> ، وهكذا أنقذه شعره من سوء حظه مرتين .

وحدث أنه استجار مرة بعبد الله بن جدعان التيمي ، فعدا عليه قوم من بنى سهم ونهبوا إبله كلها ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخه ، ولكنه لم يستطع أن ينصره ، لأنه لم يكن فيه ولا في قومه قوة بينى سهم ، فأنشد أبو الطمحان أياتاً يحن فيها إلى وطنه وأهله وأيامه بينهم ، ويندب سوء حظه ، ثم ارتحل عنهم<sup>(٤)</sup> .

(١) الأغاني ١٥١/١١ (دار الكتب) ، ٦٩/١٦ . ورواية البيهقي في هذا الموضع الأخير تختلف بعض الاختلاف اللفظي عن روايتهما في الموضع الأول ؛ ولكنه اختلاف لا يغير المعنى أى تغيير .

(٢) الأغاني ١٣٣/١١ (بلاق) .

(٣) المصدر السابق/١٣٢ و ١٣٣ ، وانظر بيتاً له في ملح نبي لأم في الشعر والشعراء/ ٢٣٠

(٤) الأغاني ٦٩/١٦ .

ويبدو أن سوء حظه مع جيرانه قد فارقته بعد ذلك ، فقد نزل على الزبير  
ابن عبد المطلب بن هاشم بمكة ، فطال مقامه لديه ، ولكنه كان كثير الشوق  
إلى أهله ، شديد الحنين إليهم ، فاستأذن الزبير في الرجوع إليهم ، « وشك  
إليه شوقاً لم فلم يأذن له ، وسأله المقام ، فأقام عنده مدة » ، ثم عاوده الحنين  
مرة أخرى ، فأتاه وأنشده أبياتاً يصور فيها هذا الحنين الجارف ، فلما  
أنشده إياها أذن له فأنصرف <sup>(١)</sup> .

ولكن يظهر أن تمرد أبي الطمحان لم يفارقه بعد ذلك ، فقد جنى جناية  
وهرب من بلاده ، « وبلغاً إلى بني فزارة ، فنزل على رجل منهم يقال له مالك  
ابن سعد أحد بني شمس ، فأواه وأجاره ، وضرب عليه بيتاً ، وخلطه بنفسه ،  
فأقام مدة ، ثم نشق يوماً إلى أهله وقد شرب شرباً ثمل منه ، فقال لمالك :  
لولا أن يدي تقصر عن دية جنايتي لعدت إلى أهلي ، فقال له : هذه إيلي  
فخذ منها دية جنايتك ، وازدد ما شئت ، فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره  
مفارقة موضعه ، ولم يأمن على نفسه » ، فأتى مالكا وأنشده أبياتاً يمدحه فيها  
مدحاً قوياً ، هو من غير شك صادر من أعماق نفسه ، يصور تقديره لذلك  
السيد النبيل ، ويصرح له فيها بأنه قرر البقاء في جواره ، فقد أصبح كأنه  
واحد منهم :

وقد عَرَفْتُ كلابكم ثيابي كَأَنِّي مِنْكُمْ وَنَسِيتُ أَهْلِي

« فقال مالك : مرحباً فإنك حبيب ازداد حبباً ، إنما اشتقت إلى أهلك ،  
وذكرت أنه يجيبك عنهم ما تطالب به من عقل أو دية ، فبذلت لك ما بذلت  
وهو لك على كل حال ، فأقم في الرحب والسعة ، فلم يزل مقيماً عندهم حتى  
هلك في دارهم <sup>(٢)</sup> » بعد أن امتدت به الحياة حتى بلغ أوّل العمر <sup>(٣)</sup> .

(١) الأغاني ١١/١٣٤ (بولاقي) ، والشعر والشعراء ٢٢٩ .

(٢) الأغاني ١١/١٣٢ (بولاقي) .

(٣) يذكر أبو حاتم السجستاني أنه عاش مائتي سنة (كتاب المعربين / ٦٢) .

وهكذا قضى هذا الصعلوك السيئ الحظ حياته الطويلة مشرداً حتى تداركته يد هذا السيد النيل في أخريات أيامه ، ولكن أمنيته الكبرى — مع ذلك — لم تتحقق ، فقد قُضِيَ عليه أن يموت بعيداً عن أهله الذين طالما استبد به الحنين إليهم .

هذه هي الصرة التي استطعت أن أكونها عن هذا الجانب من حياة أبي الطمحان من مجموعة أخباره القليلة المتناثرة التي لم تحاول مصادرهما أن ترتبها ترتيباً يعطينا صورة كاملة متصلة لحياته الطويلة المضطربة ، وهي صورة شخص « بوهيمي » قلق ، مفرط الحساسية ، قوى العاطفة ، سيئ الحظ ، لولا أن تداركته العناية الإلهية في أخريات أيامه ، فأدرك الإسلام ، وأسلم ، وإن لم ير النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> ، ولكنه ظل نحيب الدين في إسلامه ، كما كان نحيب الدين في جاهليته .

## ٣

## إيمان القبيلة بجنسها :

كما آمنت القبيلة بوحشتها هذا الإيمان العميق الذي ترتب عليه ظهور هذه الطائفة من التقاليد الاجتماعية التي تحدثنا عنها ، آمنت بجنسها ، وذلك لأن من الأسس التي قامت عليها القبيلة العربية لإيمان أبنائها « برابطة الدم » ، أي أنهم جميعاً من دم واحد .

وقد أثار بعض المستشرقين تشكيكاً في « رابطة الدم » هذه : أهى رابطة حقيقية أم رابطة مُدَّعَاة<sup>(٢)</sup> ؟ وليس يعنينا هنا هذا التشكيك ، لأن

(١) يقول ابن حجر عنه إنه « أدرك الإسلام » (الإصابة في تمييز الصحابة ٦٦/٢) ، ويضعه في القسم الثالث من كتابه فيمن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره (ص ٥٣ من الجزء نفسه ، وانظر مقدمة الكتاب ٤/١) .

(٢) انظر : Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 1, 62; &

Zwerner; Arabia, the Cradle of Islam, p. 159.

مناقشته والانتهاه إلى رأى فيه إنما تكون في مجال دراسة أصول القبائل العربية وأنسابها ، وليس هنا مجال هذه الدراسة ، وإنما الذى يعيننا هنا هو أن كل الأفراد الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كانوا يعدون أنفسهم من دم واحد<sup>(١)</sup> ، وأنهم جنس واحد ، متشابه العناصر والمقومات ، لا يختلف أفرادها إلا بمقدار ما يختلف أبناء الأسرة الواحدة ، بل إن بعض الباحثين المحدثين يرى أن أفراد الحى الواحد من القبيلة كانوا لا يعدون أنفسهم من « دم واحد » فحسب ، ولكن من « لحم واحد » أيضاً ، ومن ملاحظاته التى يؤيد بها رأيه ما تستعمله اللغة العربية من لفظة « اللُّحمة » فى التعبير عن معنى القرابة<sup>(٢)</sup> ، ولعل فيما عبر به العرب عن بعض أشكال جماعاتهم بالبطن والفخذ ما يصور ذلك الإحساس الذى كان يحسه العرب بتلك الصلة « الجسدية » التى تربطه بجماعته .

وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس فى نفوس أبناء القبيلة إيمان بامتيازهم ، فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز لا تفضلهم قبيلة أخرى<sup>(٣)</sup> ، وهم يفضلون كل القبائل<sup>(٤)</sup> ، آباؤهم أشرف آباء<sup>(٥)</sup> ، وأمهاتهم أكرم أمهات<sup>(٦)</sup> ، وهم أجدر الناس بأن يكونوا خير الناس<sup>(٧)</sup> ، ولعل فى هذا الإيمان بامتياز الجنس ما يفسر

(١) Smith; Kinship & Marriage in Early Arabia, p. 25.

(٢) Ibid.; p. 175.

(٣) حبسنا الناس كلهم جميعاً مقارعة بينهم من بيننا (مروى بن كلثوم فى معلقته) . ويقول التبريزى : « قالوا معنى حديثنا الناس كما تقول واحد الناس » وقيل معناه نحن أشرف الناس . (شرح الفصائل العشر / ٢٢٢) .

(٤) إني لمن قوم بنى الله مجمم على كل بلاد فى الأنام وحاضر (المرزبانى : معجم الشعراء / ٢٢٧) .

(٥) إنسا بنى نهل لا نطلى لأب عته ولا هو بالأبتاه يشرينا (سماة أبى تمام ٥١/١) .

(٦) وأمانتنا أكرم بين عجاثرنا ورفق العلا عن كابر بعد كابر (المرزبانى : معجم الشعراء / ٢٢٧) .

(٧) ونحن بنو مساء الساء فلا نرى لأقنسنا من دوق مملكة قصرا (سماة أبى تمام ١٣٠/١) .

تلك المنافرات التي امتلأت بها أخبار العصر الجاهلي ، وذلك الفخر الذي تلوَّى أصداؤه في قصائد شعرائه . وما شجع على هذا الإيمان بامتياز الجنس في نفوس أبناء القبيلة صلات العداوة بين القبائل المختلفة التي كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، فقد كانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكل القبائل الأخرى ،<sup>(١)</sup> .

وقد نشأ عن هذا « الإيمان بوحدة الجنس وامتيازه » طائفة من التقاليد تنظم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية في القبيلة .  
والناظر في تكوين القبيلة الاجتماعية يستطيع أن يميز ثلاث طبقات اجتماعية :  
الصرحاء ، والعبيد ، والموالي .

أما الصرحاء فهم في عرف القبيلة أبناؤها ذوو الدم التي الذي لا تشوبه شائبة ، الذين يتمتعون جميعاً إلى أب واحد ، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها . ومنهم تتكون الطبقة « الأرستقراطية » في القبيلة ، وفيهم رياستها ، وبيوتات الشرف فيها . وتعتمد هذه « الأرستقراطية » أول ما تعتمد على النسب<sup>(٢)</sup> ، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقياً ، وعلى أن تجمع الشرف من « كلا طرفيه » : الآباء والأمهات ، فلا يكون في أحد طرفي الشرف ما يشينه<sup>(٣)</sup> .

وأما طبقة العبيد فقد كانت تتألف من عنصرين : عنصر عربي ، وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها مع القبائل الأخرى ، وعنصر غير عربي ، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية .

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159.

(٢) انظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الحادي عشر والثاني والثالث عشر من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٣١ - ١٣٥ .

(٣) الأغاني ٨٦/١١ ( يولاق ) . ويقول معقل بن خويلد :

بنو فالج قوى وهم ولدوا أبي      وخالي ثمال الضيف من آل فاتك

( المكري : شرح أشعار الهذليين ١/ ١٢١ ) .

وقد قلنا إن الصلات بين القبائل العربية كانت صلات خصام ، ومن هنا كانت الحرب دائماً قائمة بينها ، وكان سبي الرجال والنساء على السواء أمراً أساسياً في كل غارة<sup>(١)</sup> ، ومن الطبيعي أن يكون تعرض النساء للسبي أكثر من تعرض الرجال<sup>(٢)</sup> ، فإن ضعف المرأة في هذه الحالة من الصراع المستمر في الجزيرة العربية يجعلها دائماً في مركز الضحية<sup>(٣)</sup> . وبقدر ما كان العربي يأنف من قتل صبيته لما فيه من تزول بمروءته ، كان حرصه على سبي أكبر عدد ممكن من النساء لأن في هذا إهانة لأعدائه . وقد كان يحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحى ، وهم خلوف ، فيؤخذن سبايا<sup>(٤)</sup> . ومن هنا كانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فهم الحرب<sup>(٥)</sup> ، ومن هنا أيضاً كانت المقدرة على حماية الطعنة ، عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية جعلهم يطلقون على بعض أبطالهم لقب « حامي الطعنة » أو « فارس الطعنة »<sup>(٦)</sup> .

وقد كان يحدث أحياناً أن تتبع القبيلة أساراها ، فقد اشتعلت حرب بين لحيان وحناعة فكان بعضهم لا يزال يغزو بعضاً ، فإذا أصابت بنو لحيان من حناعة أحداً باعوه<sup>(٧)</sup> ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضاة « أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89.

وقد وفد سميع بن ناكور الكلاعي على عمر بن الخطاب « وله أربعة آلاف أهل بيت فن من العرب مالك أسرم في الجاهلية » (نقائض جرير والفرزدق ١٦/١) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

وأخبار سبي النساء في العصر الجاهلي كثيرة . (انظر : الأغاني ٧٥/٢ - ٧٨ ، ١٧٢/١١ ، بولاق ، ١٥٨/١٩ ، ونقائض جرير والفرزدق ١٣/١ ، وديوان عروة ١٦٩/١ ، ١٧٠) .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 280.

(٤) انظر نقائض جرير والفرزدق ١٤٥/١ ، والأغاني ٦٣/٢١ ، ٦٤ .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

(٦) القالي : الأمالي ٢٧١/٢ .

(٧) السكري : شرح أشعار الخليلين ١٠٠/١ .

بنى معن ، فأغار عليهم خيل بنى القين بن جسر فأخذوا زيدا ، فقدموا به  
سوق عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل اشتراه  
من سوق حياشة<sup>(١)</sup> ، وكانت أم عمرو بن العاص « من بنى عترة أصابتها  
رياح العرب فيبعت بعكاظ »<sup>(٢)</sup> ، وفي أخبار خناعة أنهم أسروا مبيداً من  
سادة العرب « فباعوه بمكة »<sup>(٣)</sup> .

ومن هذا نرى أن بيع القبائل العربية لأسارها كان منتشراً في أسواق مكة  
بالذات ، ويرينا ديوان الهذليين أنه كانت بمكة تجارة منتظمة في الرقيق تروّجها  
الحروب التي كانت لا تنقطع بين القبائل المجاورة<sup>(٤)</sup> . وكان يحدث أحياناً أن  
يرد إلى أسواق مكة رقيق من أسرى العرب من المناطق البعيدة عنها ، فقد كان  
أبو صهيب ، سنان بن مالك ، يتزل بأرض الموصل عاملاً لكسرى على الأبله ،  
« فأغار الروم على تلك الناحية فسبوا صهيباً ، وهو غلام صغير ، فنشأ  
بالروم ، فابتاعته كلب منهم ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله  
بن جدعان »<sup>(٥)</sup> .

أما العنصر الآخر الذي شارك في تكوين طبقة العبيد في القبيلة العربية ،  
وهو العنصر غير العربي ، فقد كان مصدره البلاد المجاورة لجزيرة العرب  
كالحبشة وما حوالها من الأمم ، فكان تجار الرقيق يحملون العبيد والإماء من هذه  
البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم في أسواقها بالمواسم<sup>(٦)</sup> ، ولم يكن ينظر  
إلى المسألة من جانبها الإنساني ، وإنما هي تجارة كسائر التجارات تتخذ منها  
القبائل وسيلة للربح ، فقد « كانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر

(٧) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق ١/١١٦ .

(٣) السكري : شرح أسماء الهذليين ١/١١٦ .

(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89 .

(٥) ابن قتيبة : المعارف ١/١١٤ .

(٦) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٢٠ .



السلع»<sup>(١)</sup> وكانت هذه التجارة منتشرة بالذات في بني تميم<sup>(٢)</sup> ، وكان عبد الله ابن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار من أشهر تجار الرقيق في الجاهلية<sup>(٣)</sup> .

وكان هؤلاء الأرقاء المجلوبون كثيرين في المجتمع الجاهلي ، وكان كل شريف من أشراف العرب يحرص على ألا يتخلو منزله منهم ، فقد كان لعبد الله بن أبي ربيعة مثلاً عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كبيراً ، حتى لقد عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعين بهم في غزوة بنين<sup>(٤)</sup> .

وأما الطبقة الثالثة في المجتمع القبلي ، وهي طبقة الموالى ، فقد كانت تتألف من العتقاء ، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى ، وعاشوا في حمايتها ، أو حماية رئيسها أو بعض ذوي النفوذ فيها<sup>(٥)</sup> . أى أن طبقة الموالى في القبيلة العربية كانت ترجع إلى أصليين : أحرار ، وعبيد ، أما الأحرار فهم أولئك اللاجئون إلى القبيلة ، أو إلى أحد أفرادها ، من خلعاء القبائل ، طالين الحماية والنصرة ، وكانوا يسمون أحياناً « الحلفاء » ، وأما العبيد فهم أولئك الذين أعنتهم سادتهم من نير الرق فظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء<sup>(٦)</sup> .

وهذه الطبقة كانت تؤلف طبقة مكانتها الاجتماعية بين الطبقتين السابقتين ،

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢٠/٤ .

(٢) Laumens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 167 = 269.

(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢١/٤ .

(٤) الأغاني ٦٥/١ . وقد اتخذ بعض الشعراء من عبيد آل أبي ربيعة مادة لفنهم ( انظر البيت

الوارد في المصدر نفسه ٦٤/١ لأن ذؤيب اللؤلؤ الذي يشبه فيه حمار الوحش بعبد منهم ) .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 47, 48.

(٦) في لسان العرب ( مادة ول ) : « والمول الخليف وهو من انضم إليك فمز بهزك وامتنع

بمنعتك . . . والمول المعتق انتسب بنسبك » ، وهكذا يشير هذا المعنى القوي لطبقتين الاجتماعيتين من طبقة الموالى .



فالمولى عند العرب وسط بين العبد والحر<sup>(١)</sup> «أسقط منزلة من الحر وأرفع من العبد»<sup>(٢)</sup> .

آمنت القبيلة العربية بهذه الطبقات الاجتماعية ، وعرفت لكل طبقة منزلتها ، وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وتعارفت على الصلات التي تكون بين أفراد كل طبقة وأفراد الطبقتين الآخرين .

وما أظن أننا في حاجة إلى القول بأن طبقة العبيد كانت في حالة اجتماعية سيئة في هذا المجتمع الأرستقراطي<sup>(٣)</sup> الذي يؤمن بوحده وبجنسه إيماناً عميقاً ، والذي يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معاني الطغيان والجبروت والاستبداد أقوى تمثيل ، حتى لتجد أن هذه الطبقة كانت من أسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام الذي ضمن لهم حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بساداتهم تنظيمياً إنسانياً عادلاً ، والذي أتاح لهم فرصاً كثيرة للعتق والتحرر . وليس من شك في أن حياة هذه الطبقة كانت سلسلة من الذل ، تبدأ منذ أن يشتري السيد عبده ، ويقوده إلى منزله ليتصرف فيه كيف شاء . ولم يكن يعهد للعبيد إلا بتلك الأعمال التي يأنف السادة من القيام بها ، وهي تلك التي سميناها «الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي» ، فإذا مات السيد ورث ورثته عبيده كما يرثون سائر متاعه إلا إذا كان قد أوصى لهم بحريتهم بعد موته<sup>(٤)</sup> .

ومع ذلك ، ومع حرص العربي على الشرف في كلا طرفيه ، كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربي من أمة ، ولكن المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجاً غير متكافئ ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسماً خاصاً ، فسمى ابن العربي من الأمة «هجيناً»<sup>(٥)</sup> ، ومن الطبيعي ألا ينظر إلى هذه الصلة

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢١/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٤/ .

(٣) Lammen; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 198, p. 277.

(٤) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢٠/٤ .

(٥) في القاموس المحيط (مادة هجن) . «والهجين : القتم ، وعربي ولد من أمة أو من أبوه خير من أمه» ، ويقول المبرد «والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وأمّه وضيعة ، والأصل في ذلك أن تكون أمة» (الكامل ٣٠٢) .

نظرة احترام ، فقد كانت كل أمة عندهم تدعى فرقتى أو توتى <sup>(١)</sup> ، وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماماء أو ممن أعتق منهم <sup>(٢)</sup> ، ولم يكن العرب يعرف هؤلاء الإماماء « مساواة في الحقوق ولا مساواة في المعاملة » <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن المسألة لم تكن أكثر من نزوة جنسية ، فقد كان أبيض ما يفضيه العربي أن تلد أمته منه <sup>(٤)</sup> ، ومن هنا كانوا يستعملون أولاد إمامهم <sup>(٥)</sup> ، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممتازة ، فإنهم حينئذ يلحقونهم بنسبهم <sup>(٦)</sup> .

وكان أسوأ هؤلاء المهجناء حظاً ، وأوضعهم منزلة اجتماعية ، أولاد الإمام السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانوا مبة يعير بهم آبائهم <sup>(٧)</sup> . ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يفضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كل شيء مملوح عندهم مادياً كان أو معنوياً بالبياض <sup>(٨)</sup> ، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض <sup>(٩)</sup> ،

(٢) نقائض جرير والفرزدق ٤١/١ و ٦٣ و ٦٤ ، وشرح السكري على أشعار الهذليين ٤٦/١ و ٢٣٥ . ومن معاني هاتين الكلمتين « البنى ، والمرأة الزانية » (انظر مادتي « تون » و « فرتن » في المصباح المنوي) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 168-169.

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 277.

(٤) « إذا قوم نبض أن تلد فينا الإمام » (الأغاني ١٦٥/٢٠) .

(٥) انظر : الأغاني ٨/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والبغدادى : محزاة الأدب ٦٢/١ .

(٦) الأغاني ٨/٢٣٧ ، وانظر المثل على هذا في إلحاق عنترة بابيه في المصدر نفسه / ٢٣٧ ، ٢٣٩ وفي الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) كان لعمر بن شاس « امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار فكانت تعبده إياه » (شرح التبريزي على سحابة أبي تمام ١٤٩/١) .

(٨) « إذا قالت العرب فلان أبيض ، وفلانة بيضاء ، فالمرءى فقاء العرض من الدنس والعيوب ، وإذا قالوا فلان أبيض الوجه ، وفلانة بيضاء الوجه ، أرادوا فقاء اللون من الكلف والسواد الشائن » (لسان العرب : مادة « بيض ») .

(٩) « بيض الوجوه على العدو يقال » (الفرزدق في نقائض جرير والفرزدق ٢٨٧/١) ، « من كل أبيض يستضاء وجهه » (جرير في نقائض جرير والفرزدق ٣٠١/١) ، « بيض الوجوه مصانع لسن » (قيس بن عاصم المنقري في شرح التبريزي على سحابة أبي تمام ٦٨/٤) .

ومن سمات جمال المرأة أن تكون بيضاء<sup>(١)</sup> ، وهو أيضاً دليل على شرفها ، فقد كان مما يُمَدح به الرجل أنه ابن بيضاء<sup>(٢)</sup> ، بل إنهم كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض<sup>(٣)</sup> . ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر إخوانهم المحبّاء ، فسموهم «الأغربة» تشبيهاً لهم بذلك الطائر البغيض المشؤم في لونه الأسود<sup>(٤)</sup> ، ونسبهم في أكثر الحالات إلى أمهاتهم<sup>(٥)</sup> . ويخرج هؤلاء «الأغربة» إلى الحياة ، وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغيضه مجتمعهم ، والذي لا يد لهم فيه ، ولا خروج لهم منه ، فإذا هو يحول منه البدء دون أن يعترف بهم آبائهم ، ثم إذا هو بعد ذلك يقف صخرة تتحطم عليها آمالهم في أن يشاركوا في الحياة الاجتماعية كما يشارك غيرهم ، ولا يهيئ لهم إلا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محقرة يخدمون فيها ساداتهم ، ويقومون لهم بتلك الأعمال الفرعية التي يأنفون هم من القيام بها ، أما الأعمال الأساسية فلا يقوم بها إلا أبناء الحرات<sup>(٦)</sup> ، فما يحسن هؤلاء الأغربة أولاد الإماء السود غير «الحلاب والصر» كما يقول أحدهم

(١) « مهففة بيضاء غير مفاضة » ( امرؤ القيس في مملكته ) ، « ومن كل بيضاء رعبوبة » ( لمبرد : الكامل / ٣٠٥ ) .

(٢) « هو ابن لبيضاء الجين نجبية » ( المجير السلوك في الأغاني ١١ / ١٥٤ بولاق ) .

(٣) رحلتنا من الأجيال أجيال طي نسوق النساء هؤلاء وعشارها

تري كل بيضاء العوارض طفلة تقري إذا شال السالك صدارها

( عروة بن الورد في ديوانه / ١٧١ ) .

(٤) في لسان العرب ( مادة غرب ) « وأغربة العرب سودانهم ، شبهوا بالأغربة في لونهم » ، وفي ثاج الروس ( المادة نفسها ) « وكلهم سرى إليهم السود من أمهاتهم » ويقول أبو عبيدة : « ولما سمو أغربة لأن أمهاتهم كن سودا » ( كتاب الشعراء ، مخطوط ، فصل من غلب اسم أمه على اسم أبيه ، ورقة رقم ٢١ ) .

(٥) انظر كتاب « من نسب إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب ، وانظر فصل « من غلب اسم أمه على اسم أبيه » في كتاب الشعراء ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، والأغاني ٨ / ٢٤٠ .

(٦) لا يكشف النماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها ( شهادة أبي تمام ١ / ٢٥ ) ، ويقول التبريزي : « يعني أن أبناء الحرات هم الصابرون على المكابرة في ابتغاء المجد واكتساب الشرف » .

— عنزة بن زيبية الأمة السوداء — في سخرية لاذعة من تلك الأوضاع الاجتماعية التي وضعها السادة البيض وآمنوا بها<sup>(١)</sup> .

ومع ذلك فقد يبدى أحد هؤلاء الأغربة امتيازاً في ناحية من النواحي ، فتشعر القبيلة أنها أمام فرد تستطيع أن تتفجع به ، فيمحو هذا الامتياز عنه معنوياً سواد لونه ، فيعترف به أبوه ، وتعمل القبيلة على تقريبه من مركز الدائرة ، ليقوم بدوره في أعمال القبيلة الأساسية ، كما حدث لعنزة الذي أصبح بعد اعتراف أبيه به ، لشجاعته الفائقة في دفاعه عن قبيلته ، عنزة بن شداد العبسي<sup>(٢)</sup> .

ولكن لم تكن الفرصة التي أتاحت لعنزة بالتى تتاح لكل أولئك الأغربة الذين كان يغص بهم المجتمع الجاهل<sup>(٣)</sup> ، كما أن منهم من كان يرفض تلك الحياة « الهامشية » ، ويتمرد على ذلك الوضع الاجتماعي الدليل المحقر الذي فرض عليه ، لأن لديه من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله ، ومن القوة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان في وجه هؤلاء السادة<sup>(٤)</sup> . وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الدليلة التي فرضتها عليهم ، وخرجوا من حماها ، ليشقوا طريقهم في الحياة بالأسلوب الذي يضمن لهم حياة كريمة حرة تعتمد على القوة في سبيل الحصول على الحق . ومن هؤلاء

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والأغانى / ٢٣٩ .

(٢) المصدران السابقان : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ ، والأغانى / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٣) يحاول بعض رواة الأدب العربي أن يحددوا عدد أغربة العرب ، فبينما يحدد بعضهم بثلاثة ( ابن قتيبة في الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن الكلبي في الأغانى / ٢٤٠ ، وأبو عبيدة في كتاب الشعراء — مخطوطة — ورقة رقم ٢١ ) ، يحدد آخرون بأربعة ( النيسابورى في لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة ٨٧ ) ، ويحدد غيرهم بسبعة ( ابن الأعرابي في المزمر ٢ / ٢٦٩ ) ، ويحدد آخرون بأكثر من ذلك ( ابن حبيب في الخبر ٣٠٧ وما بعدها ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة غرب ) ، وعندى أن هذه الإحصائيات لا قيمة لها ، فإن هذا شيء أكثر من أن يحصى ، ويبدو أن المقصود بها هو تسجيل أسماء المشهورين منهم .

(٤) يصفهم النيسابورى بأنهم « سودان شجعان » ( لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة

الأغربة المتمردين تألفت جماعات من صعاليك العرب .

وحين نعود إلى شعرائنا الصعاليك لنتظر إليهم في ضوء هذا « المصباح الاجتماعي » نجد أن طائفة منهم تألفت من هؤلاء الأغربة .

فالسليك بن السليكة<sup>(١)</sup> السعدي يصفه ابن قتيبة بأنه « أحد أغربة العرب وهجئاتهم وصعاليكهم »<sup>(٢)</sup> ، ويصفه المبرد بأنه « كان من غربان العرب »<sup>(٣)</sup> ، ويصفه النيسابوري بأنه كان أسود<sup>(٤)</sup> ، ويقدمه ابن قتيبة في أول ترجمته بأنه « منسوب إلى أمه »<sup>(٥)</sup> ، ويترجم له ابن حبيب في كتابه « من نسب إلى أمه من الشعراء »<sup>(٦)</sup> ، ويصفها ابن قتيبة بأنها « كانت سوداء »<sup>(٧)</sup> ، ويصفها المفضل بأنها « كانت أمة سوداء »<sup>(٨)</sup> ، وكذلك يصفها النيسابوري<sup>(٩)</sup> ، ويذكر عنها المبرد أنها « كانت سوداء حبشية »<sup>(١٠)</sup> ، ويضعه ابن حبيب بين « أبناء الحبشيات »<sup>(١١)</sup> .

وتأبط شرًا من هذه الطائفة أيضاً يضعه صاحب لسان العرب نقلاً عن ابن سيده عن ابن الأعرابي بين أغربة العرب ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلاً عن التهذيب والمحكم ولسان العرب<sup>(١٢)</sup> ، ويضعه ابن الأعرابي في

(١) هي أمه ( تاج العروس مادة ملك ، والأغاني ١٨ / ١٢٢ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن حبيب : كتاب المقتالين - مخطوطة - ورقة رقم ٨٦ ، والمجرب / ٣٠٨ ، والمبرد : الكامل / ٢٩٨ ، والآمدي : المؤلف والمختلف / ١٣٧ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢ / ١٧ ، والنيسابوري : لطائف المعارف - مخطوطة - ورقة رقم ٧٦ ، والسيوطي : المزهر ٢ / ٢٦٩ ) .

(٢) الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٣) الكامل / ٢٩٨ .

(٤) لطائف المعارف ( مخطوطة ) ورقة رقم ٧٧ .

(٥) الشعر والشعراء / ٢١٣ .

(٦) ص ٦ .

(٧) الشعر والشعراء / ٢١٣ .

(٨) الميداني : مجمع الأمثال ١ / ٢٩٩ .

(٩) لطائف المعارف ( مخطوطة ) ورقة رقم ٧٦ ورقم ٧٧ .

(١٠) الكامل / ٢٩٨ .

(١١) المجرب / ٣٠٧ و ٣٠٨ .

(١٢) مادة ( غرب ) . وخط ما ذكرناه من أنه من الإسلاميين ، فكل المصادر التي بين -

نواده بين أغربة الجاهلية<sup>(١)</sup> ، ويذكر Fresnel أنه ابن أمة<sup>(٢)</sup> ، ويذكر صاحب الأغاني أن اسمها أمينة<sup>(٣)</sup> ، ولكنه يقول « يقال إنها من بني القين بطن من فهم »<sup>(٤)</sup> ، ولعل في هذا التشكيك الذي يثيره صاحب الأغاني حول نسبتها إلى بني القين ما يقلل من أهمية هذا الخبر . ومن الحق أن المصادر التي تعرضت لتأبط شرا ، ما عدا تلك المصادر التي ذكرته بين أغربة العرب ، لم تذكر شيئاً صريحاً عن أصل أمه ، على كثرة ما تعرضت لها ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه المصادر صورتها في صورة امرأة غير محترمة ، تؤخذ بول ابنها إذا غزا<sup>(٥)</sup> ، وتسعى في قتله ليخلو لها الجو مع زوج تروجها بعد أبيه<sup>(٦)</sup> ، وتحدث هي نفسها بأنها حملت به في ليلة ظلماء وإن نطقها لمشهود<sup>(٧)</sup> ، وتحدثنا أخبارها بأن أولادها الخمسة كانوا يحملون ألقاباً عجيبة تعطينا فكرة عن هوان المترلة الاجتماعية لهذه الأسرة<sup>(٨)</sup> .

ومن الطبيعي أن تكون صلة هؤلاء الأغربة بأمهاتهم أقوى من صلتهم بأبائهم ، وقد رأينا أن أكثرهم قد نسبوا إليهن ، وهي ظاهرة يصح أن نطلق عليها « العصبية النسائية في حياة أغربة العرب » . ومرد هذا من غير شك إلى إنكار آبائهم لهم منذ أول حياتهم ، وإهمالهم شأنهم بعد ذلك ، فنشأوا في رعاية أمهاتهم ، أو في إهمالهن ، لا يرون لهم أحداً سواهن ، فتعصبوا لهن وتعصبن لهم ، ويصرح

= أيدينا - ما عداها - مجمعة على أنه جاهل ، وكل أخباره تؤيد هذا .

(١) السيوطي : المزهري ٢/٢٦٩ .

(٢) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme (Première Lettre, p. 108).

(٣) الأغاني ١٨/٢٠٩ ، وأخطأ الأستاذ Brau في The Ency. of Islam حين ذكر أن اسمها أمينة ، ولم ينتبه لهذا الخطأ مترجمو الدائرة إلى اللغة العربية .

(٤) الأغاني ١٨/٢٠٩ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٥ .

(٦) التبريزي : شرح سيرة أبي تمام ١/٤٥ .

(٧) المصدر السابق / ٤٣ .

(٨) الأغاني ١٨/٢٠٩ ، وانظر أيضاً المرزباني : معجم الشعراء / ٢٢٦ ، والسيوطي

المزهري ٢/٢٧٥ ، وانظر لسان العرب وتاج المروس مادة ( لقب ) .

السليك بأن رأسه قد شاب مما تقاسيه خالاته من ضيم وهوان ومذلة يعجز لفقره عن إنقاذهن منها<sup>(١)</sup> ، وهو يذكر هذا في مجال دفاعه عن تصعلكه وفخره به ، مما يشعر بأن هذه « المعصية النسائية » كانت من الأسباب الفعالة في هذا التصعلك . وتحدث أم تأبط شراً عن ابنها حديث المعجبة به ، فقد حكى عنها أنها قالت فيه : « إنه والله شيطان ، ما رأيته قط مُسْتَشْقِلاً ولا ضحكاً ، ولا همٌ بشيء مذ كان صبيّاً إلا فعله »<sup>(٢)</sup> ، وتحدث عنه مرة أخرى حديثاً تبيين فيه كيف حملت به ، وكيف وضعت ، ومدى اهتمامها بتنشئته منذ طفولته الأولى تنشئة قوية<sup>(٣)</sup> .

ومن هنا أيضاً كثر رثاء قريبات هؤلاء الأغربة لهم ، وحديثهن عن حزنهن عليهم ، فقد رثت السُّلَيْكَةُ ابنها السليك بأبيات رائعة تفيض حزناً وتنفججاً ، تصور فيها مصابها الشديد فيه ، وحسرتها البالغة عليه<sup>(٤)</sup> ، ورثت أم تأبط شراً ابنها بقطعتين مسجعتين لعلهما تمثلان مرحلة من مراحل أولية الشعر العربي ، لم تنس فيهما أن تصور بطولته وشجاعته<sup>(٥)</sup> ، وكذلك فعلت أخته ربيعة

(١) المبرد : الكامل / ٢٩٩ ، والبغدادى : غزاة الأدب ١٢٨/٣ ، ويقول المبرد « وإنما توجب لحالاته لأنهن كن إماء » ( ٢٩٩/٢ ) ، وانظر الأبيات كلها وشرحها في الكامل ٢٩٨/٢ وما بعدها .

(٢) التبريزى : شرح حسانة أبي تمام ٤٣/١ .

(٣) المبرد : الكامل / ٧٩ ، والملاحظ : الحيوان ٢٨٦/١ ، ولسان العرب ، ورجاء المروس ، مادة ( وضع ) ، مع بعض الخلاف اللفظي ، وزيادات في العبارات في بعض المصادر ، لعلها من صنع الرواة ، رغبة منهم في إطالة هذه السجعات ، ولعل أصبح هذه الروايات رواية الكامل ورواية الحيوان .

(٤) التبريزى : شرح حسانة أبي تمام ١٩١/٢ ، ١٩٢ ، وأسامة بن منقذ : لباب الآداب / ١٨٣ ، ويقال إنها لأم تأبط شراً ( المعرى : شرح حسانة أبي تمام - مخطوطة بدار الكتب - ورقة رقم ٥ ، وانظر أيضاً شرح التبريزى ١٨٦/٤ و ١٨٧ ) ، ولكن التبريزى يرجع أنها لأم السليك ( ص ١٩٢ ) ، وتروى في العقد القريد ( ٢٦١/٣ ، ٤٢٧ ) لأعرابي مجهول في قصة واحدة في الموضعين ، ولكن يلاحظ أن القصة لا تتفق مع الأبيات ، وبخاصة البيت الثالث ( ص ٢٦١ ) فليس هناك محل لهذا التنازل في البيت ما دامت القصة تذكر أن أفعى لدغت ابن هذا الأعرابي فمات . ( ٥ ) لسان العرب ، المواد ( قرب - هوف - هيف ) .



فقد رثته برجز تحدثت فيه عن مكارم أخلاقه<sup>(١)</sup> ، وكذلك فعلت أخت حاجز الأزدي ، فقد رثته بيتين تصور فيها حسرتها على فقدته ، وحيرتها لاختفائه<sup>(٢)</sup> ، ورثت عمرأً ذا الكلب<sup>(٣)</sup> أخته جثوب بمجموعة من القصائد الممتازة<sup>(٤)</sup> .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلاء والشذاذ ، ليشاركوا جميعاً في العمل ضد هذا المجتمع الذي فقلوا توافقهم الاجتماعي معه ، إما لأنه تخلى عن رعايتهم كما في حالة الأغربة ، وإما لأنه تخلى عن حمايتهم كما في حالة الخلاء والشذاذ .

#### ٤

#### الصعاليك والمجتمع القبلي :

الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة صعاليك العرب الاجتماعية هي فقد الإحساس بالعصية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي ، وتطورها في نفوسهم إلى « عصية مذهبية » . وهي ظاهرة من السهل تحليلها بعد ما فهمنا الظروف الاجتماعية التي وجد فيها هؤلاء الصعاليك ، فأما الخلاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم ، وصحبت منهم « الجنسية القبلية » ، فكان من الطبيعي أن يفقلوا إيمانهم بكل معاني القبلية ، وأن يكفروا بتلك العصية القبلية التي

(١) ابن حبيب : كتاب المختارين (مصورة بدار الكتب) لوحة رقم ٨٣ ورقم ٨٤ ، ولسان العرب مادة (رجم) ، وينسب هذا الرجز إلى أمه (ياقوت : معجم البلدان ٤/ ٢٤٢ مادة رجمان) .  
(٢) الأغاني ١٢/ ٥٢ (بولاقي) .

(٣) ينص صاحب الفلاكة والمفلوكين نقلاً عن بعض مصادره على أنه من صعاليك العرب / ١١٩ .  
(٤) السكري : شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٤١ - ٢٤٦ ، وانظر أيضاً الأغاني ١٩/ ٢٣ ، وسهامة ابن الشجرى / ٨٢ ، ٨٣ مع بعض الاختلاف في الألفاظ وترتيب الأبيات وعددها ، وتنسب بعض هذه الأبيات إلى أخت عمرو « ربيعة » (الأغاني ١٩/ ٢٣) وإلى أخته « عمرة » (شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٤٤) . ولكن هذا الاختلاف في كل هذه المواضع لا يغير من الفكرة التي نقررها شيئاً .



لم يعلها قيمة في حياتهم ، بل قد يتقلبون انقلاباً تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة  
عداوة ، فيوجهون غزواتهم إليها ، كما فعل قيس بن الخدادي لما خلعت  
قبيلته ، فجمع لهم « شذاذاً من العرب ، وقتاكاً من قومه ، وأغار عليهم  
بهم »<sup>(١)</sup> ، فنحن هنا أمام حالة شاذة في المجتمع الجاهلي ، يغير فيها بعض  
القبيلة على بعضها . وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعرف بهم ،  
بل تكاد تنكر صلتها بهم ، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك  
العصبة القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة .

وحين ننظر في أخبار صعاليك العرب نلاحظ هذه الظاهرة واضحة تماماً ،  
وقد رأينا في غارة قيس بن الخدادي على قومه أنه ألف جماعته من شذاذ من  
العرب وقتاك من قومه . وفي أخبار حجاز الأزدي أنه جمع « ناساً من فهم  
وعلوان فلم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاعوا »<sup>(٢)</sup> ، فهو أزدي  
وهم من فهم وعلوان . وكان الشنفرى الأزدي يغير أحياناً على الأزدي فيمن معه  
من فهم<sup>(٣)</sup> ، فهو أزدي يترعم جماعة من فهم ، دون أن يجد الفهميون في  
ذلك غضاضة ، وهو يترعمهم ليغير بهم على قبيلته ، دون أن يجد هو في ذلك  
عاراً . وفي أخبار امرئ القيس أنه بعد أن طرده أبوه « كان يسير في أحياء  
العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر »<sup>(٤)</sup> ، فنحن هنا  
أمام جماعة من الصعاليك تألفت من ثلاث قبائل مختلفة .

ولعل السليك هو الشنوذ الوحيد لهذا الشنوذ ، فقد « كان لا يغير على  
مضر ، وإنما يغير على اليمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة »<sup>(٥)</sup> ، بل إن  
المسألة عنده لم تقف عند هذا الجانب السلبي ، بل كانت أحياناً تتعداه إلى  
جانب إيجابي يستخدم فيه مواهبه صعلوكاً في سبيل قبيلته ، ففي بعض أخباره

(١) الأغاني ٢/١٣ (بولاقي) .

(٢) الأغاني ٥١/١٢ (بولاقي) .

(٣) الأغاني ١٣٥/٢١ .

(٤) الأغاني ٨٧/٩ .

(٥) الأغاني ١٣٤/١٨ .

أنه رأى طلائع جيش ليكر بن وائل جاءوا ليغيروا على تميم ، فاستغل سرعة عدوه لينذر قومه حتى لا يؤخذوا على غرة<sup>(١)</sup> .

ولكن من المهم أن نلاحظ أن العصبية القبلية قد تطورت في نفس السليك من عصبية ضيقة الأفق إلى عصبية ذات أفق واسع ، ترتفع عن العصبية القريبة التي كان تؤمن بها القبيلة في حدودها الضيقة إلى عصبية واسعة تشمل الجنس كله الذي تنتمي إليه القبيلة ، فهي عصبية من نوع آخر غير العصبية القبلية التي كانت تؤمن بها كل قبيلة ، ويصح أن نطلق عليها « عصبية جنسية » .

ويجب ألا نفهم من هذا أن السليك كان مرتبطاً بقيمته كسائر أفرادها ، فقد كان يحيا حياته الخاصة ، حياة التصعلك ، خارج قبيلته ، دون أن يرتبط بها في شيء ، أو يعتمد عليها في شيء .

وقد نشأ عن كفر صعلاليك العرب بالعصبية القبلية ، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » أنهم كثيراً ما كانوا يقومون في المجتمع الجاهلي بدور يشبه دور « الجنود المرتزقة » عند الأمم الأخرى ، ولما دام هؤلاء الصعلاليك لا يعرفون العيش إلا في ظلال سيوفهم ، وما داموا لا ينتظرون في حياتهم أي سلام أو أمن ، فقد كانوا يقاتلون أحياناً كما يقاتل الأبطال الشجعان ، ومن هنا كان الأشراف الذين يرغبون في أن يوجهوا إلى خصومهم ضربة قاصمة يلجئون إلى بسالتهم مفضلين إياهم على رجال قبائلهم<sup>(٢)</sup> .

وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شذاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك ، وكانوا

(١) المصدر السابق / ١٣٦ ، والمبرد : الكامل / ٣٥٠ ، ٢٥١ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٥ ، ٢١٦ ، والبغدادى : خزنة الأدب ١٧ / ٢ ، والميداني : مجمع الأمثال ١ / ٤٣١ . ومع أن المبرد يسوق القصة في باب يتحدث فيه تكاذيب الأعراب فإن التكذيب ينصب ، كما هو واضح من القصة ، على سرعة العدو والخاوة العامة ، وهي مسألة لا صلة لها بما تقرره هنا ، وقد ناقشنا مسألة العدو في الفصل السابق .

(٢) Laumens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 193. (٢)

يسمونه « الصنائع »<sup>(١)</sup> . وفي أخبار امرئ القيس أنه لما خرج ليثأر لأبيه  
 « جمع جمعاً من بني بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب ، وخرج  
 يريد بني أسد »<sup>(٢)</sup> ، وفي مرة أخرى غزاهم « وقد جمع جمعاً من حمير وغيرهم  
 من ذؤبان العرب وصعاليكها »<sup>(٣)</sup> ، وأنه لما استنصر مرثد الخير الحميري أمدّه  
 بخمسمائة رجل من حمير خرج بهم ، وتبعه شذاذ من العرب<sup>(٤)</sup> ، وفي أخبار  
 زيد الخيل الطائي أنه « جمع طيئاً وأخلاطاً لهم ، وجمعاً من شذاذ العرب ،  
 فغزا بهم بني عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس »<sup>(٥)</sup> ، وفي أخبار  
 زهير بن جناب أنه جمع بني كلب « ومن تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » ،  
 فغزا بهم بكراً وتغلب<sup>(٦)</sup> ، وفي أخبار أبي جندب الهذلي أنه خرج ليثأر لأخيه  
 « فقدم مكة فواعد كل خليع وفاتك في الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا فيصيب  
 بهم قومه »<sup>(٧)</sup> ، وفي أخباره أيضاً أن بني لحيان قتلوا جارين له ، فقدم مكة  
 ولا قضى نسكه « خرج في الحلاء من بكر وخزاعة ، فاستجاشهم على  
 بني لحيان ، فخرجوا معه ، حتى صَبَّح بهم بني لحيان »<sup>(٨)</sup> ، وفي شعر  
 نخفاف بن ندبة إشارة إلى اشتراك الصعاليك في بعض الغزوات<sup>(٩)</sup> .

ولعل من أسباب هذا كثرة الصعاليك وانتشارهم في أرجاء الجزيرة العربية  
 في العصر الجاهلي بصورة واسعة ، وقد مر بنا في الفصل الأول أن النعمان بن  
 المنذر لما طلبه كسرى ، وهرب مستنجداً بقبائل العرب ، نصحه بعضهم بالعودة  
 إلى كسرى ، فإن صفح عنه عاد ملكاً عزيزاً ، وإلا قالموت خير من أن

(١) الأغاني ٨١/٩ .

(٢) العباسي : معاهد التنصيص ٥/١ .

(٣) البغدادي : خزنة الأدب ٥٣٢/٣ .

(٤) الأغاني ٩٢/٩ .

(٥) الأغاني ٥٢/١٦ .

(٦) الأغاني ٩٦/٢١ .

(٧) المصدر السابق ٦٢/٢ .

(٨) السكري : شرح أشعار الهذليين ٨٣/١ ، ٨٤ ، والأغاني ٦٧/٢١ ، ٦٨ .

(٩) الأغاني ٣٢٩/٢ ، والبغدادي : خزنة الأدب ٤٧١/٢ .

يتلعب به صعاليك العرب ويتخطفه ذئابها فتأكل ما له ، وفي أخبار  
معبد بن زرارة « أن قيساً أسرته يوم رَحْرَحان فساروا به إلى الحجاز ، فأتى  
لقبطاً (أخوه) في بعض الأشهر الحرم ، ليفديه فطلبوا منه ألف بعير ، فقال  
لقبط : إن أبانا أمرنا ألا نزيد على المائتين فتطمع فينا ذؤبان العرب »<sup>(١)</sup> .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنلاحظ أن هذا الأسلوب من أساليب العيش الذي  
سلكه صعاليك العرب لم يكن إلا صورة من الحياة الاجتماعية التي كان يعرفها  
المجتمع الجاهلي ، ذلك المجتمع الذي كان يؤمن بأن « الغزو أمرٌ للقاح ، وأحدُ  
للسلاح »<sup>(٢)</sup> . وليس من شك في أن المجتمع الجاهلي كان يؤمن بالقوة إيماناً يجعلها  
من مقومات حياته ، وجعل الغزو أساساً من الأسس التي يقوم عليها بناؤه<sup>(٣)</sup> ،  
« فبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة ، كان التخاصم بين القبائل في سبيل  
الشرف والرياسة أو المال والعيش ، لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء  
مصبوغة بالدم »<sup>(٤)</sup> يتسابق أفرادها إلى الجهل ، بل يحرص كل منهم على أن  
يجعل « فوق جهل الجاهليتنا »<sup>(٥)</sup> ، مؤمنين بالظلم وبأن « من لا يظلم الناس  
يظلم »<sup>(٦)</sup> ، وبأن في الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان<sup>(٧)</sup> ، وبأن « الشهرة  
بالشر خير من ألا أعرف بخير ولا شر »<sup>(٨)</sup> .

ولعل عمل الصعاليك « كان استثناساً بعمل القبائل معاً ، إذ كانت  
حياتها قائمة إلى حد ما على الغزو والسلب ، والفرق بين الصورتين أن عمل  
القبائل جماعي منظم ، وعمل الصعاليك فردي لا نظام له »<sup>(٩)</sup> .

(١) المبرد : الكامل / ٢٧٦ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١ / ٢٤٤ .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I. p. 247.

(٤) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي / ٢٧ .

(٥) عمرو بن كلثوم في معلقته (التبريزي : شرح القصائد العشر / ٢٤٩) .

(٦) زمير بن أبي ملى في معلقته (المصدر السابق / ١٢٧) .

(٧) الفند الزماني (التبريزي : شرح حكمة أبي تمام ١ / ١٤) .

(٨) الجاحظ : الحيوان ٢ / ٩٠ .

(٩) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي / ٣٥ .

وخلاصة القول أن إيمان القبيلة بوحدة أوجد في المجتمع الجاهلي طائفة  
 الخلقاء والشذاذ ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفة الأغربة ، وأن المتمردين  
 من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك  
 العرب ، كافرين بالعصية القبلية ، مؤمنين بعصية مذهبية قوامها « الغزو  
 والإغارة للسلب والنهب » ، معتمدين على قوتهم في مسيل العيش ، شأنهم في  
 ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه ، وإن يكن عملهم فردياً فلم يعترف به .



## الفصل الرابع

### التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلة

§

#### العرب والتجارة :

عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها النشاط التجاري على صورة واسعة . وقد يماً ذكر سترابو « أن كل عربي تاجر »<sup>(١)</sup> ، وهي عبارة — على الرغم مما فيها من إطلاق وتعميم — تسجل الصدى الذي استقر في نفس ذلك الرحالة القديم عن بلاد العرب في أثناء زيارته لها . ويذكر شبرنجر في جغرافيته القديمة للجزيرة العربية أن تاريخ التجارة الأولى هو تاريخ البخور ، وأرض البخور هي بلاد العرب<sup>(٢)</sup> . وأول تجار ورد ذكرهم في التوراة هم العرب<sup>(٣)</sup> ، ويذكر الباحثون أن العرب كانوا « الواسطة بين قدماء الأوربيين والشرق الأقصى »<sup>(٤)</sup> ، « وأن البيزنطيين كانوا يعتمدون في شئونهم التجارية على قوافل البدو التي كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة ، والخلود والمعادن والمواد الغريبة والحرير من الصين ، لأجل ثياب أباطرتهم وحظاياهم وكهنتهم ، والعطور من بلاد الحبش ، والبخور من اليمن ، والصمغ من إفريقية ، لأجل كنائسهم وقصورهم »<sup>(٥)</sup> . وقد كان لمخازن العرب من

---

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 27 = 123; & Dermeghem; (١)

The Life of Mahomet, p. 20 & p. 24.

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159. (٢)

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 28 = 124; & Dermeghem; (٣)

The Life of Mahomet, p. 24.

وفي سفر حزقيال (الإصحاح ٢٧) حديث عن تجارة العرب .

(٤) جوستاف لويون : حضارة العرب / ١٠٦ .

Dermeghem; The Life of Mahomet, pp. 25, 26. (٥)

الأهمية ما كان لمخازن البندقية إبان عظمها<sup>(١)</sup> ، ومنذ عصور سحيقة والقوافل التجارية النشطة تعمل بين مناطق الإنتاج في بلاد العرب السعيدة وبين مدن العراق والشام ومصر<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن هذه الحركة التجارية النشطة التي صالت بقوافلها وديان الصحراء العربية ، سعى جعلت من العرب كما يقول بعض المؤرخين « حملة العالم بين الشرق والغرب »<sup>(٣)</sup> ، ترجع إلى تلك الظروف التي كانت تسود العالم القديم في ذلك الوقت ، فقد كان الطريق البحري بين الشرق والغرب محفوفاً بالأخطار ، فإلى جانب « القراصنة » الذين كانوا يهددون أمنه ، ويقطعون طرقه ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، كانت الملاحة نفسها متأخرة ، ولهذا « انحصرت التجارة — بدون استثناء تقريباً — في البر ، وكانت تلك القارة التي هي الآن أكبر عقبة في سبيل الحركة التجارية وسيلتها الأساسية الميسرة ، وكانت براري آسيا الوسطى وجزيرة العرب بحاراً القدماء ، وكانت قوافل الإبل سفنهم »<sup>(٤)</sup> .

وكانت التجارة في أول الأمر في أيدي اليمنيين ، « فعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ، وواردات الهند ، إلى الشام ومصر »<sup>(٥)</sup> ، « وكانت كثرة التجارة مع بلاد العرب الجنوبية تنقل إلى الشام ومصر عن طريق الحجاز »<sup>(٦)</sup> .

وليس من شك في أن هذه الحركة التجارية النشطة التي كان يسيطر عليها الجنوبيون ، والتي كانت تتخذ من بلاد الشماليين طريقاً لها ، أوجدت في نفوس الشماليين رغبة في الأخذ بهذا الأسلوب من أساليب العيش ، الذي يروونه يدرّ على أصحابه رزقاً وافراً وثراء عريضاً ، وغرست في نفوسهم النواة الأولى لحب

(١) جوثاف لوبون : حضارة العرب / ١٠٦ .

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 506.

(٣) Muir; The Life of Mohammad, pp. IXXXIX, XC.

(٤) Ibid., p. XC.

(٥) أحمد أمين : فجر الإسلام / ١٥ .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 180, 181.



التجارة التي لم تلبث أن خرجت شجرتها إلى الوجود عندما ضعفت الدولة اليمنية وأخذت في الانحلال . لما كادت القوة الحميرية يلب فيها الوهن في أثناء القرن الخامس حتى منحت الفرصة لعرب الحجاز للقبض على زمام الحركة التجارية ، ويبدو أن هذه التطورات كانت شديدة التدرج ، ولكن الأمر الذي لا ريب فيه هو أنه من قبل أن يبدأ القرن السابع كان طريق الحجاز كله في أيدي العرب الذين يتزلون فيه ، والذين جعلوا من مكة مركزاً إدارياً لهم ، يستقبلون فيه البضائع من أيدي اليمنيين ، ثم يحملونها شمالاً على حسابهم الخاص إلى أسواق سورية ومصر ، وربما أيضاً إلى فارس ، وإن يكن من المعروف أن جزءاً من التجارة الفارسية كان في أيدي عرب الحيرة<sup>(١)</sup> .

## ٢

## الطرق التجارية :

ولم يكن طريق الحجاز الطريق التجاري الوحيد للقوافل التجارية ، وإنما كانت هناك طرق أخرى . ويقرر الدارسون أن «طرق القوافل ليست مسألة اختيار مطلق»<sup>(٢)</sup> ، وإنما هي مسألة «تعتمد على طبيعة الصحارى والجبال وموارد المياه»<sup>(٣)</sup> ، ويلاحظون أن «طرق القوافل في الجزيرة العربية تتبع عادة مجارى الوديان»<sup>(٤)</sup> ، وهذا طبيعي لأنها تتجنب به عجايل الصحراء ، ووعورة الجبال ، وتضمن طرقاً واضحة المعالم ، محددة المسالك ، تكثر فيها نسيباً فرص وجود الماء .

وقد عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 181.

(٢) Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 103.

(٤) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

التجارية بين طرفيها الشمالي والجنوبي<sup>(١)</sup>. ويبدأ الطريقان من ظَفَّار التي كانت المركز الأساسي لتجارة البخور التي يعتمد عليها الشطر الأكبر من التجارة العربية، ويمجى الطريقان إلى الشرق والغرب منها، ليتجنبنا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة الآن بالربع الخالي.

أما الطريق الشرقي فيمضي متاخماً لقوس عُمان الساحلي، متجهاً إلى القطيف على الخليج الفارسي، التي كانت مرفأً تُحمل إليه بضائع الهند، ومن القطيف عن طريق تدُمُر إلى فلسطين وصور بسورية. وليس من شك في أن هذا الطريق كان الطريق الأساسي الذي تنقل فيه بضائع الهند إلى صنعاء باليمن، ومنها إلى ثغور البحر الأحمر أو إلى الحجاز.

وأما الطريق الغربي فيبدأ من ظفار أيضاً، ثم يسلك وادي حضرموت إلى شبوة في أقصى طرفه الغربي، حيث يلتقي بطريق فرعي يتصل بعدن، ثم يستمر إلى مأرب، ومنها إلى صنعاء حيث يلتقي مرة أخرى بطريق فرعي يتصل بعدن أيضاً، ومن صنعاء يصعد شمالاً محاذياً البحر الأحمر، متجنباً في الشرق الصحراء المحرقة اللافحة، وفي الغرب المرتفعات الساحلية الوعرة، حتى يدخل الحجاز بين سلسلي الجبال المتوازيين التي تقع مكة والطائف بينهما، ويمضي شمالاً عن طريق وادي القرى إلى العلا، الثغر الأمامي لديار الأنباط، حيث كان يجري تبادل البضائع بين العرب الجنوبيين والأنباط، ثم إلى تيماء حيث تتشعب الطرق، فبعضها يتجه شمالاً إلى بَصْرَى وتدمر ودمشق في سورية، وبعضها إلى مصر عن طريق أيلة وغازة والعريش والطرف الشمالي لشبه جزيرة سيناء، وبعضها إلى بابل عن طريق حائل الذي ينحني انحناءة واسعة ليتجنب صحراء النفود القاسية.

وإلى جانب هذين الطريقين الأساسيين اللذين يدوران حول صحارى الجزيرة العربية، يوجد طريق ثالث يخترق قلب الجزيرة العربية من مكة في

(١) انظر في هذين الطريقين :

O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 103-105; & Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

انحناءة حول الحُد الشمالي للربع الخالي عن طريق الرياض إلى القطيف على الخليج العربي<sup>(١)</sup> .

ويبدو أنه كانت هناك طرق أخرى مهمة ، ففي الأخبار القديمة أن النعمان كان يبعث بلطيمة كل عام للتجارة إلى عكاظ<sup>(٢)</sup> ، وأن عروة الرحّال من بني كلاب أجارها في بعض الأعوام ، حتى إذا وصل « إلى أهله دُوَيْنَ الحَرِيبِ بماء يقال له أواره » وثب عليه البراض فقتله ، ثم مضى هارباً حتى أتى خيبر<sup>(٣)</sup> . وهنا نتساءل : أي الطرق كانت تسلكها لطائم النعمان في قلوبها من الحيرة إلى عكاظ ؟

يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال تفسرها ظاهرة جغرافية ، فهناك وادٍ عظيم يمتد من حرة خيبر التي ترتفع ستة آلاف قدم ، مخترقاً غرباً التقسيم بين أبا نسيْن حتى يقارب البصرة ، وهو وادي الرّمة الذي يرجحون أنه كان يجري نهر في عصور ما قبل التاريخ<sup>(٤)</sup> . وقد قلنا إن طرق القوافل في الجزيرة العربية تتبع مجارى الوديان ، ومن هنا نستطيع أن نرجح أن وادي الرمة هو الطريق الذي كانت تسلكه لطائم النعمان ، ويؤيد هذا أن المواضع التي ورد ذكرها في قصة عروة الرّحّال والبراض تقع في هذا الوادي ، فالحريب وادٍ عظيم لبني كلاب يصب في الرمة من أرض نجد<sup>(٥)</sup> ، ومنازل كلاب حيث قتل عروة تقع في وسط الرمة أو في أعاليها<sup>(٦)</sup> ، وخيبر التي فر إليها البراض تقع كما رأينا عند بداية الرمة . وبهذا نستطيع أن نحدد ذلك الطريق التّجاري الذي كان يمتد شمالاً إلى الجزيرة العربية ، فهو يبدأ من منطقة الحيرة ثم يمضي مع وادي الرمة

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 105.

(٢) انظر في قصة هذه الطيمة : الأغاني ١٩/٧٥ ، وابن حبيب : المجر ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) ابن حبيب : المجر ١٩٦ .

(٤) The Ency. of Islam; Art. Arabia, p. 371.

وانظر أيضاً معجم البلدان لياقوت ، مادة ( الرمة ) ٢٩٠/٤ ، ٢٩١ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، مادة ( الحريب ) ٩١/٣ .

(٦) المصدر السابق ، مادة ( الرمة ) ٢٩٠/٤ ، ٢٩١ .

حتى يصل إلى خير ، ومنها عن طريق وادي القري إلى يثرب ، ثم إلى مكة في الطريق الذي يصل بين شمالي الجزيرة العربية وجنوبها ، ومن مكة إلى عكاظ . وقد أشار زويمر نقلاً عن بعض مصادره إلى طريق كان « في أيدي العرب الإسماعيليين يخترق وادي الرمة وبلاد نجد إلى حاضرة الحميريين القديمة مأرب »<sup>(١)</sup> ، ولكنه لم يذكر شيئاً عنه أكثر من هذه الإشارة الموجزة ، ولعله الطريق الذي حددناه .

## ٣

## الأسواق :

ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية ، حيث يوجد الماء ، مجموعة من الأسواق تتزل فيها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق التي تجاورها بسلعهم ، ويقوم بين الفريقين تبادل تجاري ، ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم . وقد ذكر اليعقوبي من هذه الأسواق عشرة<sup>(٢)</sup> ، بدأ بها من أقصى الشمال حيث تقام سوق دومة الجندل ، ثم تتبعها على طول الخليج العربي حيث تقام سوق المشقر بهجر ، وسوق صُحار ، وسوق دَبِي<sup>(٣)</sup> ، ثم على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية حيث تقام سوق الشَّحْر بشحر مهرة ، وسوق عدن ، وسوق الراية بحضرموت ، وسوق صنعاء ، ثم مضى على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى انتهى إلى سوق عكاظ وسوق ذي الحجاز بالقرب من مكة ، وقد ذكر ابن حبيب هذه الأسواق أيضاً<sup>(٤)</sup> ، وأضاف إليها سوقين آخرين :

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 260.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٣) في المصدر السابق « ريا » ، وهو تحريف ، صوابه ما ذكرناه هنا . ( انظر القاموس المحيط ، مادة « دَبِي » - ومعجم البلدان لياقوت ، مادة « دبا » - ٤ ص ٢٠ - والحجر لابن حبيب / ٢٦٥ ) .

(٤) الحجر / ٢٦٣ - ٢٦٧ .

سوق حَجَرٍ التي كانت تقام بالجمامة ، وسوق نَطْلَاة التي كانت تقام بنخير<sup>(١)</sup> .  
ومن الطبيعي أن هذه الأسواق ليست كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية  
في جاهليتها ، وقد ذكر ابن حبيب أن هذه الأسواق هي « أسواق العرب  
المشهورة في الجاهلية »<sup>(٢)</sup> ، ومع ذلك فقد عرف العرب الجاهليون أسواقاً  
أخرى مشهورة ، فقد عرفت منطقة مكة مع سوق عكاظ وذى الحجاز سوق  
مجنة<sup>(٣)</sup> ، وعرفت منطقة تهامة سوق حباشة التي أرسلت السيدة خديجة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها<sup>(٤)</sup> ، وفي أخبار الشنفرى أن أعداءه تربصوا  
له وهو عائد منها<sup>(٥)</sup> ، وكذلك كانت بدر « موسماً من مواسم العرب تجتمع  
لهم بها سوق كل عام »<sup>(٦)</sup> ، وقد عرفت عُمان سوقاً أخرى مشهورة هي سوق  
« دما » يذكر عنها ياقوت أنها « كانت من أسواق العرب المشهورة »<sup>(٧)</sup> ،  
وكذلك كان اليهود يقيمون أسواقاً حيث كانوا يتزلون ، فقد كان لبني قينقاع  
سوق في يثرب ، « وكانت سوقاً عظيمة » ، وقد زارها النابغة الذبياني مرة ،  
فلما أشرف عليها سمع بها ضجة حاصت به ناقته منها<sup>(٨)</sup> ، ويذكر المؤرخون  
أن أهل مكة كانوا يقصرون إلى خير ليجلبوا منها حلى آل أبي الحقيق التي  
كانت نساؤهم يتحلين بها<sup>(٩)</sup> . ومن الطبيعي أن تقوم بنخير ويثرب أسواق ،  
نظراً لتزول اليهود أصحاب الأموال والتجارة والصناعة فيهما ، وقد « كانت  
التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار

(١) المصدر السابق / ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٦٣ .

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت مادة ( مجنة ) ٢٩٠ / ٧ ، ومادة ( عكاظ ) ٢٠٢ / ٦ .

(٤) انظر المصدر السابق مادة ( حباشة ) ٢٠٦ / ٢ .

(٥) الأغاني ١٣٧ / ٢١ .

(٦) تاريخ الطبري ٢٧٦ / ٢ والمغازي للواقدي / ٣٧ .

(٧) معجم البلدان ٢٩ / ٤ ( مادة دما ) .

(٨) الأغاني ٩٢ / ٢١ .

(٩) الواقدي : المغازي / ٢٧٧ .

لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد<sup>(١)</sup> ، وكذلك من الطبيعي أن تقوم بمنطقة مكة تلك المجموعة من الأسواق التي ذكرناها نظراً لأنها كانت أكبر مراكز التجارة في الجزيرة العربية ، ونظراً لكثرة وفود العرب التي كانت تهوى إليها في مواسم الحج ، وقد كان النعمان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ بلطيمة «تباع» ، وتشتري له بثمنها الأدم والحريير والوكاء والحذاء والبرود من العصب والوشى والمُسْتَبَر والعَدَنِي<sup>(٢)</sup> .

ونستطيع أن نقرر ، ونحن مطمئنون ، أنه على طول الطرق التجارية كانت تقوم الأسواق ، وأن هذه الأسواق كانت تكثر حول مراكز التجارة الأساسية .

ونستطيع أن نقسم هذه الأسواق إلى مجموعتين : فهناك أسواق تقع في بلاد فيها هيئة حاكمة ذات قوة تنفيذية ، ترد الظالم عن ظلمه ، وتأخذ لصاحب الحق حقه من غاصبه ، أو — كما كان يسميها القدماء — «أرض مملكة وأمر محكم» ، وهذه لم يكن التجار فيها يحتاجون إلى خفارة ، لأن القوة التنفيذية فيها كانت تقوم بهذه المهمة ، نظير عشور يحصلونها من التجار ، كسوق عدن<sup>(٣)</sup> ، وهناك أسواق تقع في مناطق بدوية لا حكم فيها إلا للقوة الفوضوية ، أو — كما كان يقول القدماء — «من عز فيها بَزْ» ، وهذه كان التجار يحتاجون فيها إلى خفارة ، كسوق الراية بمحرموت<sup>(٤)</sup> . وكان سادة بعض هذه المناطق ينصبون أنفسهم حكاماً على أسوانها ، «ويسرون فيها بسيرة الملوك» ، فيأخذون من التجار فيها العشور ، كما كان يفعل بعض بني تميم في سوق المشقر بهجر ، وكما كان يفعل الجلتندي وآل بلكنددي في سوق صُحَار وفي سوق دَنِي<sup>(٥)</sup> .

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب / ١٨ .

(٢) الأغاني ٧٥/١٩ .

(٣) ابن حبيب : الحِجْر / ٢٦٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٣١٤/١ .

(٤) المصدران السابقان : ابن حبيب / ٢٦٧ ، واليعقوبي ٣١٤/١ .

(٥) المصدران السابقان : ابن حبيب / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، واليعقوبي ٣١٤/١ .

ومع ذلك فقد كان التجار في هذه الأسواق عادة آمنين على دماثهم وأموالهم<sup>(١)</sup> ، فبالرغم من أنه كان في العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، وكانوا يسمون المحليين ، كان فهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، وكانوا يسمون الذادة المحرمين<sup>(٢)</sup> ، وكان هؤلاء الذادة المحرمون « يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم »<sup>(٣)</sup> ، كما أن بعض هذه الأسواق كانت تقوم بحمايتها القبائل التي كانت تقام في أراضيها ، ويسمون بذلك جيرانها ، فقد كانت كلب وجديلة طي جيراناً لسوق دومة الجندل<sup>(٤)</sup> ، وكانت عبد القيس وتميم جيراناً لسوق المشقر<sup>(٥)</sup> ، وكان حلف الفضول يجير في أسواق مكة<sup>(٦)</sup> ، وقد وصلت هذه الإجارة في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من القوة تستطيع بها أن ترد على المظلوم حقه ، بعد أن تنتزعه من غاصبه ، كما كان يفعل الفضول في مكة<sup>(٧)</sup> .

والغاية التي نريد أن نصل إليها من هذا هي أن الفرصة التي كان من المنتظر أن تكون سانحة أمام صعاليك العرب في هذه الأسواق للغزو والإغارة للسلب والنهب قد أفلتت من أيديهم ، نظراً لتلك الحماية التي كان الذادة المحرمون يأخذون بها أنفسهم ، وهذه الإجارة التي كانت بعض القبائل أو الأحلاف تقوم بها ، ونظراً - من ناحية أخرى - إلى ازدحام هذه الأسواق بالناس من مختلف الطبقات ازدحاماً يفسد على الصعاليك « خططهم الحربية » التي تعتمد قبل كل شيء على التربص الخنر ، ثم المفاجأة الخاطفة ، فالفرار

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٣١٣ .

(٢) المصدر السابق / ٣١٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٣١٥ .

(٤) ابن حبيب : المجير / ٢٦٣ .

(٥) المصدر السابق / ٢٦٥ .

(٦) السهيلي : الروض الأنف ١/ ٩٠ ، ٩١ .

(٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه .



السريع من أجل النجاة والسلامة .

ولكنهم — مع ذلك — لم يدعوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم إفلاناً تاماً ،  
فما لا يترك كلة لا يترك كلة ، فقد رأوا أن هذه الأسواق مواسم يلتقى فيها  
ضروب من الناس من شتى القبائل ، مما يتيح لهم فرصة طيبة للاتصال بهم ،  
وانتقاء ضحاياهم من بينهم ، ليضعوا على أماس ذلك خططهم المقبلة التي  
يعتزمون تنفيذها بعد ذلك ، ففى أخبار السليك أنه خرج فى الشهر الحرام حتى  
أتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضلاً مترجلاً ، فجعل  
يطوف بين الناس ويقول : من يصف لي منازل قومه وأصف له منازل  
قوى ؟ فلقبه قيس بن مكشوح المرادى ، فقال : أنا أصف لك منازل قوى ،  
وصف لي منازل قومك ، فتوافقا وتعاهدا ألا يتكاذبا ، ووصف كل منهما  
للآخر منازل قومه ، فانطلق قيس إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فقال أبوه المكشوح :  
ثكلتك أمك ! هل تدرى من لقيت ؟ قال : لقيت رجلاً فضلاً كأنما خرج  
من أهله ، فقال : هو والله سليك بن سعد ، ثم لم يلبث السليك أن وضع  
خطته موضع التنفيذ ، فأغار فى أصحاب له على مراد وختم ، وأسر قيس بن  
المكشوح ، وأصاب من نعمهم ، وسبى سبية من ختم ، ثم انصرف مسرعاً<sup>(١)</sup> ،  
ويبدو من معرفة المكشوح للسليك بمجرد حديث قيس عنه أن هذا اللون من  
الاحتيال من « السوايق » التى عرفها « صحيفة » السليك ، والتى يعرفها عنه  
أصحاب الخبرة ، كما يعرف رجال الشرطة فى العصر الحديث أرباب السوايق  
من المحتالين بمجرد ذكر حوادث احتيالهم .

وإذا كانت الفرصة قد أفلتت من صعاليك العرب فى داخل هذه الأسواق ،  
— ما عدا أمثال هذا الاحتيال — فإن فى الطرق الموصلة إليها ، وفى المناطق  
المحيطة بها ، متسعاً لحركاتهم ، فوقفوا يترصدون التجار فى مقدمتهم إليها ،  
وفى منصرفهم عنها ، يقطعون عليهم الطرق ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم  
من تجارتهم .

(١) الأغاني ١٨/١٣٥ ، ١٣٦ .



وهنا نقف لنذكر أننا قلنا عند تعليلنا لانتشار حركات الصعاليك في منطقة السراة المحيطة بمكة وفي قبيلة هذيل أن للمسألة جانباً اقتصادياً ، وأظن أننا نستطيع الآن أن نقول إن من أسباب انتشار الصعاليك في هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجاري الذي يصل بين اليمن والشام مما جعلها ممراً للقوافل التجارية ، هذا إلى أن قربها من مكة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة : عكاظ ومجنة وذو الحجاز<sup>(١)</sup> جعل منها ميداناً نشطاً لحركات التجار في غدوهم ورواحهم ، مما أتاح للمتربدين من صعاليك هذه المنطقة الفرصة المواتية للغارة والغزو للسلب والنهب . ولهذا السبب اضطرت التجار في مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفروا بالقبائل القوية التي تترها<sup>(٢)</sup> .

وكان لهذه الأسواق - من ناحية أخرى - أثر في حياة صعاليك العرب ، ففيها ، أو في بعضها على الأقل ، كانت تجرى تجارة رائجة ، هي تجارة الرقيق الذي كان يجلب من إفريقية ، وقد رأينا في الفصل السابق صورة من تلك التجارة في أسواق مكة ، وفي سوق حباشة كانت تجرى هذه التجارة أيضاً<sup>(٣)</sup> ، وقد رأينا في الفصل السابق أن هذه التجارة كانت سبباً في نشأة طبقة الأغربة في المجتمع الجاهلي ، وأن هذه الطبقة قد أمدت حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب . وإلى جانب هذا اللون من التجارة ، عرفت هذه الأسواق - أو بتعبير أدق - الأسواق الأساسية لونا من النشاط الاجتماعي كان له أثر في حركة الصعلكة ، وهي ظاهرة الخلع ، وقد قلنا في الفصل السابق إن هذا الخلع كان يتخذ صورة إعلان رسمي يذاع على الناس في المواسم والأسواق ، ورأينا أن هؤلاء الخلعاء كانوا يملكون حركة الصعلكة أيضاً بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ، عكاظ ٢٠٣/٦ ، ومجنة ٢٩٠/٧ ، والحجاز ٣٨٥/٧ .

(٢) انظر الحجز ٢٦٤/ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي ٣١٤/١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (حباشة) ٢٠٦/٣ . وابن الأثير : أسد الغابة

ومعنى هذا أن هذه الأسواق شهدت السطور الأولى من قصة هاتين الطائفتين من صعاليك العرب : طائفة الأغربة ، وطائفة الخلعاء .



### الصراع الاقتصادى فى المدن التجارية :

من الطبيعى أن يشارك فى هذه الحركة التجارية النشطة التى عرفتها الجزيرة العربية سكانها ، كلٌ بحسب طاقته المالية، وحسب ظروفه الاجتماعية ، وحسب قربه أو بعده عن مراكز النشاط التجارى ، ومن الطبيعى أيضاً أن يختلف موقف العرب من هذه الحركة التجارية عن موقف البدو .

أما أولئك العرب الذين تقع مدنهم على الطرق التجارية فقد فرض عليهم موقعهم أن يشاركوا فى هذه الحياة التجارية بكل ما تحتمله رهوس أموالهم .

وقد نشطت الحركة التجارية فى مكة بالذات نشاطاً واسع النطاق ، جعل منها كما يحلو للامانس أن يقول عنها « جمهورية تجارية »<sup>(١)</sup> ، أو كما يسميها درمنجم « جمهورية بلونقراطية »<sup>(٢)</sup> ، تعتمد فى سيادتها على طبقة الأثرياء ، أو كما يقول بندلى جوزى « مدينة تجارية محضة لا يفكر أهلها إلا فى التجارة ، ولا يهمهم إلا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة والغير المحللة »<sup>(٣)</sup> .

ويؤرخون أهمية مكة الحقيقية فى هذا النشاط التجارى بذلك الوقت الذى أصبح فيه عرب الحجاز أصحاب التجارة ، وجعلوا من مكة « مركزاً إدارياً » لأعمالهم ، أما قبل ذلك ، حينما كانت التجارة فى أيدي اليمنيين ، فإن مكة لم تعد أن تكون محطة على طريق القوافل ، كما يذكر سترابو<sup>(٤)</sup> . فقد كانت

(١) انظر كتابه : *La Mecque à la veille de l'Hégire* ،

وانظر أيضاً مقاله عن Mecca فى : *The Ency. of Islam*, p. 498 .

(٢) *The Life of Mahomet*, p. 26 .

(٣) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ١٤ ، ١٥ .

(٤) *O'Leary; Arabia before Muhammad*, p. 182 .

مكة قبل القرن الخامس الميلادي « محطة للقوافل التي كانت تمر بها وهي راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن إلى سوريا وفلسطين ومصر ، فأصبحت في أواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمتد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والأجنبية أكثر مكان الحجاز وأسواقه »<sup>(١)</sup> .

وقد سيطر على أهل مكة رُوحٌ تجارى نشط « فاشتعلت في نفس كل منهم حمى تدفعه للعمل والمال والمضاربات التجارية ، من التاجر ذى الأريكة الخشبية في الهواء الطلق ، إلى صاحب الدكان الصغير ، إلى رجل الأعمال الكبير صاحب الكتبة الكثيرين ، الذى تزدان دفاتر حساباته الجارية بالأختام والكتابات الحاذقة »<sup>(٢)</sup> ، وبلغ من سيطرة هذا الروح التجارى أن كان من ألقاب الشرف في مكة لقب « تاجر » ، ذلك اللقب الذى كان يخول لصاحبه أن يشارك في السلطان السياسى<sup>(٣)</sup> .

وقد أحدث هذا النشاط التجارى نوعاً من الاختلال في التوازن الاقتصادى ، نشأت عنه طبقة من الصعاليك المعوزين ممن تخلفوا عن القافلة ، ونحاهم التيار التجارى الجارف جانباً ، حيث يركد الماء ، ويتراكم الغناء . ويرى بعض الباحثين أن عدد أفراد هذه الطبقة في مكة كان كبيراً جداً بالنسبة إلى عدد أصحاب الثروة فيها ، وأنهم كانوا في حالة سيئة « لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، لأن حق التشريع كان محصوراً في أيدي الطبقة العليا ، فكان أصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصالحهم ، ولما لم يكن لأصحاب هذه الطبقة زاجر من أنفسهم ، ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار أتعاب الصعاليك وامتهانهم ، ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للأخطار ، وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ، ولا شريعة ترق لحالمهم ، وتحاول أن تتشلهم من هاوية الموت الاجتماعى والرق

(١) بندل جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٣ ، ١٤ .

(٢) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 29.

(٣) Lammens; La Mecque à la Veille de l'Hégire, p. 165 = 261.

الأبدى ، فكانوا يعيشون في شعاب البلدة وأطرافها البعيدة ، وفي بيوت صغيرة قلقة ، وعيشة ضئيلة ، وجوع مستمر ، بينما كان الذين أثروا من أتعابهم يقيمون في وسط المدينة ، في قصورهم الفخمة ، بالقرب من الكعبة والنادى ، أو دار الندوة ، مصلين ثروتهم وسلطتهم<sup>(١)</sup> .

وكانت العلاقات بين هاتين الطبقتين : طبقة للمالة وطبقة الصعاليك من سوء إلى حد بعيد ، فقد كانت الطبقة الأولى مهيمنة على كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وقد رأينا أن حق التشريع كان في أيديهم . وإلى جانب هذا كانوا هم المسيطرين على الحياة الاقتصادية ، فكانوا يعملون أحياناً إلى التلاعب بالأسواق ، أو المضاربة بالدرهم والدنانير والتبر والنقود الأجنبية ، فكانوا تارة يزدنون في وزنها أو قيمتها ، وطوراً يخفضون ، تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم الممهد<sup>(٢)</sup> ، مما كان يؤدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى اختلالاً كبيراً ، يكون من نتائجه أن تصبح طبقة الصعاليك تحت رحمتهم ، فيضطر أفرادها إلى الاستدانة لإبقاء على حياتهم . وهنا يعتمد المتمولون إلى استغلال هذه الفرصة ، فيقرضونهم ما يطلبون نظير فائدة فاحشة كانت تتراوح بين أربعين في المائة ومائة في المائة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن عدد المرابين في مكة والمدينة كان كبيراً جداً ، ومعروف أن القرآن الكريم في سورة المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين<sup>(٤)</sup> . وإلى جانب هذا الربا الذى كانوا يأكلونه «أضعافاً مضاعفة» كما يقول القرآن الكريم<sup>(٥)</sup> كانوا يتلاعبون بالديون بأن يذخروا آجالها ، أو يقدّموها .

(١) بنهل جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ٢٠ ، ٢١ .

(٢) المصدر السابق / ١٩ .

(٣) المصدر السابق / ١٨ ، وفي خزانة الأدب للبغدادى ( ١ / ٢٤٥ مطر ١١ ) « اقترض

ثمانية آلاف درهم بائق عشر ألف » ، وفي كتاب المنازى للواقلى ( ص ٢١ ) « مال مع قوم قراض على النصف » .

(٤) البقرة / ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ وهي مدنية ، وآل عمران / ١٣٠ وهي

مدنية أيضاً ، والنساء / ١٦١ وهي مدنية أيضاً ، والروم / ٣٩ وهي مكية .

(٥) آل عمران / ١٣٠ .

أو يضيفوا إليها ، إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت تؤدي دائماً إلى خراب المستدين واستعباده<sup>(١)</sup> . وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك إذ وقف من هذا التلاعب بالديون موقفاً راتعاً صريحاً نظم فيه الصلة بين الدائن والمدين تنظيمياً واضحاً دقيقاً ، ووضع الشروط التي تضمن لكلا الطرفين حقه ، في آيتين طويلتين من سورة البقرة<sup>(٢)</sup> ، وكانت هذه الديون تزداد يوماً بعد يوم بما كان يضاف إليها من الربا الفاحش ، مما كان يجعل محاولة سدادهما أمراً ميثوساً منه ، ولهذا لم يكن وقتئذ أمل في التخلص من أولئك الظلمة بالطرق السلمية إلا فيما ندر ، أما أكثر المدينين فإنهم كانوا مضطرين إما إلى الهرب إلى الصحراء ، والاتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق ، وإما أن يدخلوا في طبقة الأرقاء ، ويقيموا فيها إلى ما شاء الله<sup>(٣)</sup> .

ويرجع هذا إلى أن مكة كانت في الجاهلية - كما هي في الإسلام - حرماً مقدساً لا ظلم ولا بغى فيها<sup>(٤)</sup> ، نظراً لوجود الكعبة فيها ، هذا إلى جانب أنها مدينة لها نظامها الاجتماعي ، ويقيم سكانها في منازل ، فهي لهذا ليست بالميلدان الصالح لحركات الصعاليك المتشردين . ومن هنا لم يجدوا مفرّاً من الخروج منها إلى البادية الواسعة حيث الحياة فوضى ، وبجال العمل المتشرد متسع ، وحيث طوائف المتشردين وقطاع الطرق وذويان الصحراء منتشرة ، فإذا ما ضاقت بهم حياة التصعلك والتشرد ، أو ضاقوا بها ، أو رغبوا في الراحة منها إلى حين ، فإن طريق العودة إلى مكة ميسر ، فأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ أو خائف أو طريد ، ومن دخله كان آمناً ، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله<sup>(٥)</sup> . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في كثرة عدد الخلعاء من شتى القبائل فيها ، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون

(١) بتدلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٩ .

(٢) ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٣) بتدلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٩ ، ٢٠ .

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ١٩٨ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ( مكة ) ٨ / ١٣٦ .

فيه آمنين على حياتهم من الطلب ، حتى إذا ما حانت ساعة العمل خرجوا منها إلى ميدان كفاحهم ، وقد رأينا في الفصل السابق صورة لأولئك الخلعاء والفتاك الذين كانوا يجتمعون في مكة ، حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها ، وواعدهم في الحرم ، ثم خرج بهم جنوداً مرتزقة .

## ٥

### الصراع الاقتصادي في البادية :

إذا ما تركنا هذه المدن التجارية بطبقاتها الاقتصادية ، وما يلور بينها من صراع ، ومضينا إلى البادية لتبين موقف أهلها من هذا النشاط التجاري ، فلنأنا نجد أن موقفهم قد اختلف تبعاً لمواقع قبائلهم ، من حيث قربها من مراكز النشاط التجاري وطرق القوافل أو بعدها عنها .

ومن الطبيعي أن تشارك القبائل التي كانت تنزل على طول الطرق التجارية أو قريباً منها في هذا النشاط التجاري ، فقد كان مرور القوافل التجارية بهم فرصة تسنح لهم من حين إلى حين ، يستغلونها في إنعاش حياتهم الاقتصادية ولو لفترة محدودة من الزمن ، فكان بعض الأفراد من الطبقات الفقيرة في هذه القبائل يعملون لهذه القوافل نظير أجر يتقاضونه ، يعينهم على تكاليف الحياة ، ويساعدتهم على موازنة حياتهم الاقتصادية ، وسداد ما عليهم من ديون اضطروا إليها في أوقات الأزمات التي كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، ويحدثنا الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما كان يستعد لغزوة بدر بعث برجلين إلى ماء بدر ليتحسسا له أخبار قريش ، فسمعا جارييتين « تتلازمان على الماء ، والملازمة تقول لصاحبتها : إنما تأتي العيرُ غداً أو بعد غد فأعمل لهم حتى أقضيك الذي لك »<sup>(١)</sup> .

وليس من شك في أن هذه القوافل الضخمة في رحلاتها الطويلة في مجاهل

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٥ - والملازمة : المطالبة بالحق .

الصحراء كانت تحتاج إلى أشياء كثيرة حتى تصل إلى غايتها البعيدة بسلام .  
ولعل أول ما كانت تحتاج إليه « الأدلاء » الذين يهتدون الطريق في  
دروب للصحراء الملتوية الغامضة ، بما لهم من خبرة ودراية بها ، حتى لا تفصل  
أو تضيع بين مجاهلها ، وتحدثنا الأخبار عن دليان كانت تستخدمهما  
القوافل المكية في أيام النبي صلى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن  
امرئ القيس<sup>(١)</sup> .

وليس من شك في أن هؤلاء الأدلاء كانوا كثيرين ، نظراً لطبيعة البيئة  
الصحراوية التي تفرض على سالكيها أن يكون على علم دقيق بطرقها ، ومواقع  
مياهاها ، ومنازل الرعى التي تحتاج إليها الإبل في طريقها ، ومواطن الأمن  
والخوف فيها ، إلى غير ذلك مما جعل العربي يفخر بمقدرته على هداية الركب  
« في ديمومة فيها الدليل يتعصُّ بالخمسة »<sup>(٢)</sup> ، ومكابדתه الحرق الذي :

ينسى الدليلُ به هدايته من هول ما يلقي من الرعب<sup>(٣)</sup>

ولم يكن هذا العلم الواسع ليتياً إلا لأولئك البدو الذين يعيشون في قاب  
الصحراء ، ويضطرون تحت الظروف الجغرافية إلى التنقل من منزل إلى منزل ،  
أما أبناء المدن من العرب المستقرين فلم يكن يتاح لهم — أولاً أكثرهم على الأقل —  
شيء من هذا ، فلم يكن هناك بدءاً من استعانهم بهؤلاء الأدلاء « جوازي  
الصحراء الذين لا يتعبون » كما يصفهم لامانس<sup>(٤)</sup> ، والذين لم تعد الصحراء  
أمامهم سرّاً مغلّقاً ، وإلا كان إقدامهم على اختراقها مغامرة جنونية

(١) الواقدي : كتاب المغازي / ١٩٦ ، ٣٦ . وقد ورد ذكرهما في شعر حسان بن ثابت  
( انظر ديوانه ط السعادة بالقاهرة / ٢٣٧ قصيدته الكافية ) ، وقد وصف المكيون فرات بن حيان  
بأنه دليل بطرق الصحراء يسلّكها وهو مخض العن قد دوغها وملكها (المغازي / ١٩٦) ، وقد طلبوا  
إليه في أثناء الحصار الذي ضربه المسلمون على طريقهم التجاري إلى الشام أن يسلّك بهم طريقاً إلى  
أسواق الشام دون أن يمروا بمنطقة المدينة (المصدر السابق / ١٩٦) .

(٢) الأغاني ١٦ / ٩٧ ، والتبريزي : شرح حجة أبي تمام ١٥٥ / ٤ .

(٣) الأصمعيات / ١٠ البيت ١٤ .

(٤) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 182 = 278. (٤)



لا تؤمن عواقبها ، ويحدثنا ابن حبيب عن طائفة من « أدلاء العرب الذين انتهت إليهم الدلالة »<sup>(١)</sup> . ويذكر منهم واحداً « بلغ وبار ولم يبلغها غيره »<sup>(٢)</sup> . وإلى جانب هؤلاء الأدلاء كانت القوافل التجارية تحتاج إلى « خفراء » أو « حماة » يؤمنون سبلها ، وينودون عنها وحوش الصحراء<sup>(٣)</sup> ، ويدفعون عنها « ذؤبان العرب ، وصعاليك الأحياء ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل » كما يعددhem الجاحظ في بعض رسائله<sup>(٤)</sup> ، وذلك لأن طرق القوافل كانت دائماً معرضة لغزو القبائل ، وسطو شذاذ الطرق وقطاعها ، الذين كانوا يعيشون في الصحراء فساداً ، ويعيشون من السلب والنهب<sup>(٥)</sup> ، وبخاصة في تلك المناطق التي يصفها المؤرخون بأنها « لم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز »<sup>(٦)</sup> ، أي تلك المناطق التي لم تكن فيها حكومة منظمة تضرب على أيدي العابثين ، وإنما كانت تدين بشريعة القوة ، ويسيطر عليها مذهب « الحق للقوة » ، ولهذا كان أصحاب القوافل مضطرين إلى استخدام جماعات كبيرة من الناس لحفارة بضائعهم والحفاظ على عابها في الطريق<sup>(٧)</sup> ، وكانوا يسارعون إلى تقوية هذا الحرس عند اقترابهم من المسالك الخطرة ، بالقرب من تلك المفاوز المعرضة لغزوات الصعاليك ، أو عند ما يضطرون إلى اختراق المناطق التي تنزلها قبائل معادية أو مشبهة فيها<sup>(٨)</sup> ، كقبيلة هذيل التي كانت قبيلة نخشاها القوافل التجارية<sup>(٩)</sup> ، وكقبيلة فهم التي كانت

(١) الحبر / ١٨٩ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق / ١٨٩ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185.

(٤) رسالة فضل هاشم على عبد شمس / ٧١ .

(٥) بندل جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٦ .

(٦) تاريخ اليعقوبي ١ / ٣١٤ ، والحبر / ٢٦٧ .

(٧) بندل جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٧ .

(٨) Lantieri; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 185 = 281.

وانظر أيضاً مقالته عن "Mecca" في : Ency. of Islam; p. 449.

(٩) Lantieri, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 52 = 148.



برغم صغرها مشهورة بلصوصها<sup>(١)</sup> ، وكان هؤلاء الخفراء يقومون بهذا العمل نظير جعل يسمى « الخفارة »<sup>(٢)</sup> ، وسواء أكان هدايا أم نقداً<sup>(٣)</sup> فقد كان في العادة جعلاً كبيراً يتكافأ مع خطر العمل ، وكثرة تبعاته ، وكان هؤلاء الخفراء « يعيدون في أكثر الأحيان هذا الجعل إذا ما عرض عارضٌ يحول دون أن تزني خفارتهم ثمرتها »<sup>(٤)</sup> ، ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء الخفراء من القبائل التي تمر بها القوافل لأن في هذا ضماناً من تعرض هذه القبائل لهم ، أو قطعها الطريق عليهم ، وإرضاءً لكبرياء البلوى التي تجعله دائماً يتوقع « أن يطلب ليتقدم الطريق أمام أي قافلة تخترق إقليمه الذي يعده ملكاً خاصاً لقبيلته »<sup>(٥)</sup> ، كما أن أفراد هذه القبائل أعرف — بطبيعة الحال — بمواطن الخطر في مناطقهم ، وأدري سبل النجاة منها ، ويحدثنا الرواة أن كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز في طريقه إلى سوق دومة الجندل كان يتخفر بقريش ما دام في بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليفٌ لمضري ، فإذا أخذ طريق العراق تخفر بيني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فتجيز ذلك له ربيعة كلها ، أما إذا مضى إلى مهرة ، وهي ليست بأرض مملكة ، فإنه كان يتخفر فيها بيني محارب من مهرة ، فإذا مضى إلى حضرموت حيث تقام سوق الرابية التي « لم يكن يصل إليها أحدٌ إلا بحفارة » ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز صاحبه ، فإن قريشاً كانت تتخفر بيني آكل المزار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة<sup>(٦)</sup> ، ومن هنا كان أصحاب القوافل يلجئون في أكثر الأحيان إلى رؤساء القبائل ، أو إلى سيد

(١) Krenkow; Ency. of Islam, art. "Al-Shanfara".

(٢) Ency. of Islam; art, Arabia, p. 325.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 179.

(٤) Ibid; pp. 179, 186.

(٥) Ibid; p. 185.

(٦) ابن حبيب : المجير / ٢٦٤ - ٢٦٧ .

فيهم مطاع ، ليجبروا لهم قوافلهم ، كما كان يفعل النعمان مع لطائمه التي كان يبعث بها كل عام إلى سوق عكاظ ، فقد كان يجبرها له سيد مضر<sup>(١)</sup> ، ومن هنا أطلقوا على هذه الخفارة أيضاً الجوار<sup>(٢)</sup> ، وكان هذا الجوار عملاً مربحاً يسعى وراءه سادة الصحراء سعياً شديداً<sup>(٣)</sup> ، فقد كان أصحاب القوافل يشركونهم في عملياتهم التجارية ، أو يقاسمونهم الأرباح ، أو يفتحون لهم حسابات جارية في نوافذ مصارفهم ، على حد تعبير لامانس<sup>(٤)</sup> . ولم يكن يعدلُ سعى هؤلاء السادة وراء هذا الجوار إلا حرص أصحاب القوافل عليه ، حتى لقد كانوا يستميلونهم أحياناً بالمصاهرة<sup>(٥)</sup> ، ولعل أشهر قصص هذا الجوار قصة «إيلاف قريش» التي أشار إليها القرآن الكريم<sup>(٦)</sup> ، ويحدثنا العتبي ومحمد بن سلام عن قصة هذا الإيلاف حديثاً طويلاً يرويه لنا القالي في نوادره<sup>(٧)</sup> ، وكذلك يحدثنا الجاحظ في بعض رسائله<sup>(٨)</sup> عن هذا الإيلاف حديثين آخرين ، وكيفما كان هذا الإيلاف فيبدو لي أن المسألة - في أبسط صورها - ترجع إلى أن القرشيين قاموا بمفاوضات مع جيرانهم الذين تمر قوافلهم بديارهم ، من أجل تأمين سلامة هذه القوافل ، والإذن لها بالمرور ، وحصلوا على ترخيص من ملوك البلاد التي كانت لهم «متاجر» أو «وجوها» - كما

(١) الأغاني ١٩/٧٤ .

(٢) الأغاني ١٦/٩٩ سطر ١٢ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185 .

(٤) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274 .

(٥) بندلي جوي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٧ .

(٦) سورة قريش ٢٧٤ ، والإيلاف : العهد والناسم (لسان العرب ، مادة ألف) وهو «عهد بينهم وبين الملوك» (الألوسي : روح المعاني ٣٠/٢٢٨) ويفسر الأزهري بأنه «شبه الإجارة بالخفارة» (المصدر السابق / ٢٤٠) ، وقد أجمع الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف (رسالة فضل هاشم على عبد شمس من رسائل الجاحظ / ٧٠) ، وفي حديث ابن عباس «وقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف هاشم» (لسان العرب مادة ألف) .

(٧) ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٨) رسالة فضل هاشم على عبد شمس / ٧٠ ، ٧١ .

كانوا يسمونها<sup>(١)</sup> - ليدخلوا بتجاراتهم أسواق هذه البلاد ، ويذكر الجاحظ في تفسير قوله تعالى « وآمنهم من خوف » في قصة هذا الإيلاف أنه « خوفٌ مَنْ كان هؤلاء الإخوة (يعنى هاشما وإخوته) يَمرون به من القبائل والأعداء وهم مغربون ومعهم الأموال »<sup>(٢)</sup> .

وإلى جانب هذه الحفارة كان بدو القبائل يقومون أحياناً بدور الرسل أو « البريد » بين القوافل في أثناء الطريق وبين المراكز التجارية التي خرجت منها أو التي تقصدها ، فإذا جد ما يستدعي اتصال القافلة بأحد هذه المراكز استأجر أصحابها بعض البدو من القبيلة التي يمرون بها ، وبعثوا به إلى حيث يريدون . ويحدثنا رواة السيرة أن أبا سفيان عندما تعرضت قافلة قريش لخطر مهاجمة المسلمين لها عند بدر « استأجر ضَمَضَمَ بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضَمَضَم بن عمرو سريعاً إلى مكة »<sup>(٣)</sup> ، وكان هذا نظير عشرين مثقالاً استأجره بها<sup>(٤)</sup> .

ولكن إلى جانب هذه العناصر الكادحة من بدو القبائل ، وجدت عناصر متمردة رأوا في هذه القوافل الضخمة التي تتقل بين أطراف الجزيرة محملة بثرواتها وكنوزها ، مخترة البادية ، أرضَ الجوع والجذب والضيق ، صورةً من صور اختلال التوازن الاقتصادي ، ومثلاً من أمثلة سوء توزيع الثروة ، فرفضوا أن يشاركوا في هذه الأوضاع الاقتصادية المختلفة ، ورأوا أن يقفوا منها موقفاً معادياً يعتمد على القوة في كسب الرزق ، ففي مرور هذه القوافل في مناطق الصحراء المقفرة الموحشة فرصةً صالحة للغارة والغزو ، وصيد مَوَاتٍ للسلب والنهب ، ورزقٌ ساقه الله إليهم يجدر بهم أن يعتمدوا على قوتهم في اغتصابه ، فاجتمعوا في عصابات ، وانضم إليهم خلعاء القبائل ،

(١) انظر الأغاني ٥٦/٩ ، والمجبر ١٦٢/١٦٣ .

(٢) رسالة فضل هاشم على عبد شمس ٧١ .

(٣) تاريخ الطبري ٢/٢٧٠ .

(٤) الواقعي : كتاب المغازي ٢٢ .

وشذاذ الأحياء ، وصعاليك القبائل التي تتزل بعيداً عن طرق القوافل ، ووقفوا يتربصون بها في مواسم مرورها ، ويقطعون عليها الطرق ، وينتهبون ما يقدرون على انتهابه ، ليتفاسموه فيما بينهم ، ويشركوا فيه أحياناً أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الخاصة دون المشاركة في الغزو والغارة .

ومن الطبيعي أن يتربص هؤلاء المتمردون من الصعاليك بالقوافل الصغيرة ، لأنها غنيمة أبسر مثالا ، وأضمن عاقبة ، ويحدثنا ابن قتيبة عن فاتكين التقي « فسارا حتى لقيا رجلا من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك » فتربصا به ، حتى قتلاه واقتسما ماله <sup>(١)</sup> . ولذا كان أصحاب القوافل يحرصون — إلى جانب ما كانوا يتخذونه من وسائل لسلامة قوافلهم — على أن تكون هذه القوافل كبيرة ضخمة كثيرة العدد ، وقد بلغت قافلة قريش التي تصدى لها المسلمون عند بدر ألف بعير <sup>(٢)</sup> ، وبلغ عدد الرجال المرافقين لها قريبا من سبعين راكبا في بعض الروايات <sup>(٣)</sup> . وثلاثين أو أربعين في رواية أخرى <sup>(٤)</sup> ، ويصفها ابن إسحق بأنها « غير عظيمة » <sup>(٥)</sup> ، وكانت بعض قوافل قريش تصل إلى ألفين وخمسمائة بعير <sup>(٦)</sup> ، وكان مرافقو بعض هذه القوافل يبلغون أحيانا ثلاثمائة <sup>(٧)</sup> ، وقد رأى سترابو قافلة من قوافل العرب التجارية وشبهها بالجيش <sup>(٨)</sup> ، ويذكر لامانس أن هذه القوافل كانت تتميز عادة بضخامتها العددية <sup>(٩)</sup> .

ومع ذلك لم يحل هذا كله دون استمرار حركات المتمردين ضد هذه

(١) عيون الأخبار ، المجلد الأول ١٨١/٢ ، ١٨٢ .

(٢) الواقدي : المنازى / ٢٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٢٦٧/٢ .

(٤) المصدر السابق / ٢٧٠ .

(٥) المصدر نفسه / ٢٧٠ .

(٦) الواقدي : المنازى / ٢ .

(٧) المصدر السابق / ٧ .

(٨) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185. & Lamencus; La Mecque

à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

(٩) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274. (٩)

القوافل ، أو « تعوير المتجر » كما كان يقول أهل مكة <sup>(١)</sup> ، ومحدثنا الرواة أن لطائم النعمان التي كان يبعث بها كل عام للتجارة إلى عكاظ كان يعترضها بعض بني كنانة فينتهبها <sup>(٢)</sup> ، وليس من شك في لطائم النعمان كانت ضخمة كثيرة العدد والرجال .

ويبدو أن هذه الغارات - مهما تختلف أسبابها المباشرة باختلاف أصحابها - يرجع سببها العام إلى اختلال التوازن الاقتصادي في ذلك المجتمع الذي يضع طائفة من أفرادها بين تامين من فقر وجوع ، بينما يضع في أيدي طائفة أخرى كنوز الثروة ومفاتيح الاقتصاد ، وهو لا يفصل بين هاتين الطبقتين ، ولا يجعل كلا منهما تعيش في عالمها الخاص ، وإنما أباح لإحدهما أن تعرض ثراءها ، وتبته بما أغلق عليها أمام أعين الطائفة الأخرى ، فتزيد من إحساسها بالفقر والجوع ، فكان من الطبيعي - إذا ما أتيحت لهذه الطائفة البائسة الفرصة لاغتصاب أي شيء من الطائفة الأخرى - أن تنهزها مؤمنة بأن هذا الاغتصاب حق ، ما دامت لا تبغى من وراءه سوى أن تعيش .

فإذا ما تركنا هذه القبائل التي كانت تنزل على الطرق التجارية ، ومضينا إلى داخل البادية العربية حيث تنزل القبائل بعيدة عن مراكز النشاط التجاري ، فإننا نجد ثمة صوراً أخرى من صور الصراع بين الفقر والغنى .

والمجتمع البدوي من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين ، يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل ، أو « أرباب الخائض » كما يسميهم بعض الشعراء <sup>(٣)</sup> ، وطبقة الصعاليك .

والناظر في المجتمع البدوي يلاحظ لأول وهلة أن الفرق الاقتصادية بين هاتين الطبقتين كان بعيداً ، بقدر ما كان الفرق النفسي بينهما قريباً ، ومن

(١) الواقدي : للمنازي / ١٩٦ .

(٢) ابن حبيب : المجر / ١٩٦ .

(٣) يزيد بن الصقيل العقيلي في الكامل للبهر / ٥٩ .

هاتين الظاهرتين المتناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادي ، وظاهرة القرب النفسى نشأت ظاهرة الصعلة .

وقد حصرت البيئة الجغرافية لأعراب البادية مواردهم الطبيعية فى المراعى ، ووقفت ظروفهم الحضارية بمجال عملهم عند الرعى ، ومن هنا انحصرت ثروتهم فى قطعان من الإبل والغنم والمعر . ومن الطبيعى أن تكون الإبل مقياس ثروتهم ، فهى خير ما فى هذه الثروة ، وقد سموها « النعم »<sup>(١)</sup> ، لأنها النعمة الكبرى التى أنعم الله بها عليهم ، وقد كان من عوامل سقوط اعتبار الفرد فى الهيئة الاجتماعية أن تقوم المعز أو صغار الماشية فى حياته مقام الإبل<sup>(٢)</sup> ، وبينما كانت المعز مادة يشتق منها السائحون من الهجائين عناصر مخريتهم ، كانت الإبل مادة يشتق منها المادحون عناصر مدحهم ، أما الغنم فليست بحيوان الصحراء الأول ، لشدة حاجتها إلى المراعى ، وقلة صبرها على الماء . ومن هنا كانت الإبل حيوان الصحراء الأول بلا منازع ، والدعامة التى تقوم عليها ثروة أبنائها ، وبحق سموها مالا<sup>(٣)</sup> ، لأنها — على حد التعبير الاقتصادى الحديث — « الرصيد » الذى تعتمد عليه « ميزانيتهم » ، و« العسلة » التى يتعاملون بها فى حياتهم ، « منها مهوور نسائهم ، وديات دمائهم ، ورهن ميسرهم »<sup>(٤)</sup> . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ « وسماء » خاصاً لإبلها تميزها به<sup>(٥)</sup> ، كما تتخذ كل دولة فى العصر الحديث رسماً خاصاً لنقدها .

وكانت ثروة الأفراد فى المجتمع البدوى تقاس بمقدار ما يملكون من الإبل ، « فكل ثرائهم كان يقوّم بالإبل »<sup>(٦)</sup> ، وما أكثر ما نسمع عن أولئك

(١) لسان العرب مادة (نعم) .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٣) « وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل » (لسان العرب ، مادة مول) ، ويقول الزمخشري « مال العرب الإبل » (أساس البلاغة ، المادة نفسها) ، ويقول الشاعر « فلم أر مثل الإبل مالا لقتن » (حجاسة أبو تمام ٦٧/٤) .

(٤) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 247.

(٦) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

الذين كان لهم « نعم قد ملأ الأرض »<sup>(١)</sup> ، أو « نعم قد ملأ كل شيء »<sup>(٢)</sup> ، أو أولئك الذين كانوا يفتقون أعين فحلهم ليردوا عن إبليس العين لأنها بلغت ألفاً<sup>(٣)</sup> ، أو ذلك الذي فقأ أعين عشرين بغيراً لأن إبليس بلغت عشرين ألفاً ، والذي ربما ذبح في أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة<sup>(٤)</sup> ، وفي الأخبار أن عتّاب بن ورقاء تكفل مرة بدفع تسع ديات<sup>(٥)</sup> ، وما أكثر ما نسمع عن ديات بلغت آلافاً من الإبل<sup>(٦)</sup> .

ولمّا جانب هذه الطبقة من المالة الذين ملأ نعمهم الأرض ، وجدت طبقة أخرى من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً ، أو — كما يقول بعض شعرائها — « تجرّر حبلاً ليس فيه بعر »<sup>(٧)</sup> . وقد رأينا في الفصل الأول صورة لفقر هؤلاء الصعاليك ، وكيف أن بعضهم كان يملق حتى لا يبقى له شيء ، أو يفقر فيخرج وقد آلى على نفسه ألا يرجع حتى يستغنى .

والأمر الذي لا شك فيه أن حياة هذه الطبقة الفقيرة من البدو كانت في مستوى اقتصادي سيئ جداً ، حتى ليضطّر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق ، كما يحدثنا القرآن الكريم<sup>(٨)</sup> ، أو يبيعهم ليستعينوا بأثمانهم على الحياة ، كما نرى فيما يرويه الرواة عن صعصعة بن ناجية الذي كان يشتري المؤن من آبائهم ، إذ يذكرون عنه أنه لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، قال له : « يا رسول الله ، إني كنت أعمل عملاً في الجاهلية ، أفينفعني

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢٣٤/١ .

(٢) الأغاني ١٨/١٣٤ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ٢٣٤/١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٨٧ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ٣/١٣٤ .

(٦) بلغت الدية التي دفعت لبنى ثعلبة بن سعد في حرب داحس والغبراء ألف ذاقة ( نقائض

جرير والفرزدق ١/١٠٥ ) وقد عرض بشو أسد على امرئ القيس بعد قتلهم أباء ألف بعر دية

( الأغاني ١٩/٨٥ ) وبلغت الديات في حرب عيس وذييان ثلاثة آلاف بعر ( الأغاني ١٠/٢٩٧ )

(٧) الأحيمر السعدي في المؤلف والمختلف للآمدي ٣٦/٣٦ .

(٨) الأنعام ١٥١/٣١ ، والإسراء ٣١/٣١ .



ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال : أضللتُ ناقَتين عُشْراوين ، فركبت جملا ومضيت في بُغْياتهما ، فرُفِع لي بيت حريدٌ ، فقصدته فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسأله عن الناقَتين ، فقال : ما نارهما ؟ قلت : ميسمُ بني دارم فقال : هما عندي وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مضر ، فجلستُ معه لتُخْرِجَا إليَّ ، فإذا عجوزٌ قد خرجت من كسر البيت فقال لها : ما وضعت ؟ فإن كان مقبراً شاركنا في أموالنا ، وإن كانت حائلاً وأدناها ، فقالت العجوز : وضعت أنثى ، فقلت : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العربُ أولادها ؟ قلت : إنما أشتري منك حياتها ولا أشتري رقها ، قال : فبكم ؟ قلت : احتكم ، قال : بالناقَتين والحمل ، قلت : ذاك لك على أن يبلغني الحمل ولإياها ، قال : ففعل ، فأمنت بك يا رسول الله وقد صارت لي سنة في العرب على أن أشتري كل موعودة بناقتين وعشراوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موعودة فقد أنقذتها (١) . . . . ، وهي قصة تعطينا صورة واضحة عن الفرق الكبير بين هاتين الطبقتين الاقتصاديتين في المجتمع البدوي ، وبين أولئك الذين يبيعون بناتهم بهذا الثمن البخس ، وذلك الذي يشتري ثمانين ومائتي موعودة ، ثم أرأيت إلى هذا اللون من ألوان « التجارة » عند هؤلاء الأعراب الفقراء ؟ بيع بناتهم نظير ناقَتين وجمل راجين من وراء ذلك أن يتكون لهم رأس مال من الإبل يعينهم على الحياة ، ويساعدهم على رفع مستواهم الاقتصادي ، ولو كان ذلك على حساب أكبادهم التي تمشي على الأرض ، كما يقول شاعرهم القديم (٢) .

والقصة بعد هذا تشير إلى نفسية أولئك الأعراب الفقراء ، وإحساسهم بما مميّاه « القرب النفسى » بينهم وبين الأغنياء ، أرأيت إلى ذلك الأعرابي كيف يقول لذلك السيد إن ناقتيه اللتين أضللهما قد أحيا الله بهما قوماً من أهله ؟ كأنما يرى أن الأغنياء والفقراء أسرة واحدة ، وأن هذا الفرق الاقتصادي بينهما

(١) البرد : الكامل / ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) حطان بن المعلى ، في حيلة أبي تمام ١ / ١٥٢ .



لا تأثير له في «العامل المشترك» بينهما وهو كرم العنصر وطيب النجار ، ثم أرأيت إليه كيف يتسامل منكراً : وهل تبيع العرب أولادها ؟ وانظر كيف عبر بالعرب ولم يقل الناس ، كأنما يرى أن العرب جنس متميز لا يجري عليهم ما يجري على سائر الأجناس ، أولئك الذين يرى أولادهم رقيقاً يشتري عند «أهله» من السادة الأغنياء ؟ وليس يتقضى هذا الإحساس بالجنس أنه باع ابنته بعد ذلك ، فقد كان ذلك تحت ضغط الفاقة والحاج الحاجة ، ثم هو لم يفعل ذلك إلا بعد أن تعهد له هذا السيد بأنه لن يستعبد لها ، وهو عذر — مهما يكن واهياً — بصور ذلك الإحساس النفسى الذى كان يسيطر على نفوس هؤلاء البدو ، فإن «الصفقة» لم تتم بين ذلك السيد وذلك الصعلوك إلا بعد هذه المحاولة من السيد لإرضاء نفس الصعلوك . وهما يكن من أمر ذلك الأعراي ، فالشيء الذى لا ريب فيه هو أن هؤلاء البدو — بقدر ما كانوا في فقر مادي — كانوا على جانب كبير من الغنى النفسى . ومعنى هذا أن البدوى الفقير كان يرى نفسه مساوياً للسيد الغنى ، ويرفض أن يكون فقره سبباً في التزول بنفسه أو تطامن كبريائه ، وأن الحياة إذا كانت قد ظلمته برغمه ، فإن عليه أن يعمل على أن يزيل عنه ذلك الظلم ، سالكاً في ذلك أى سبيل ، والغاية تبرر الوسيلة .

ولسنا في حاجة إلى القول بأن مجال العمل أمام هؤلاء البدو الفقراء كان ضيقاً جداً ، فهذه قضية مفروغ منها ، لأن اختلاف الحياة الاقتصادية الثلاثة : الزراعة والتجارة والصناعة لا تُدرّ خيراً فوق رمال الصحراء القاحلة ، وفي وسط تلك الظروف الحضارية المتأخرة . ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا هؤلاء الأغنياء ، يقومون لهم بالرعى وتخدمة الإبل ، أو يعينون نساء الحى ، كما يقول عروة بن الورد<sup>(١)</sup> ، فإذا رفضت نفوسهم القيام بهذه الأعمال لم يكن هناك بد — إبقاء على حياتهم — من الغزو والإغارة للسلب والنهب محاولين — كما يقول بعض الباحثين — «أن يزيلوا هذا الحيف المقدّر بأسنة رماحهم ،

معتقدين أن من الحلال دهم القوافل ، وسلب ما بأيديهم ، تعويضاً لهم عما لم تقلد أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة ،<sup>(١)</sup> .

ولكن يجب أن نسجل أن حركات القبائل في هذا الصراع بين الفقر والغنى كانت حركات قبلية ، تصدر عن القبيلة وتجرى برضاها ، أما حركات الصعاليك فقد كانت حركات فردية ، تصدر عن شخصياتهم المتمردة ، حتى لو أدى الأمر إلى أن يخلع الصعلوك نفسه من قبيلته في سبيل تنفيذ حركته . وعلى هذا الأساس من التفسير الاقتصادي نستطيع أن نفهم كثيراً من حركات صعاليك العرب .

ومعنى هذا أن ثمة صراعاً كان يدور في داخل البادية العربية بين طبقة المالة أصحاب المخاض والمتمردين من طبقة الصعاليك ، وأن مادة هذا الصراع التي دار حولها كانت الإبل عادةً ، لأنها الثروة الأساسية في المجتمع البدوي ، فكان هؤلاء المتمردون يربصون بقطعان الإبل ما أمكنهم الفرصة ، وينهبون منها ما يقترون على نهبه ، أو يقتلون أصحابها أو رعائهم ويسوقون القطيع بأسره ، ولكن ليس معنى هذا أن الإبل كانت المادة الوحيدة التي دار حولها هذا الصراع ، فإن أيدي الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم ، ففي أخبار تأبط شرا أنه خرج غازياً مع رجل يريدان بجيلة ، فأتى ناحية منهم فقتل رجلاً ثم استاق غنماً كثيرة<sup>(٢)</sup> ، وفي أخبار عروة أنه سلب هذلياً فرسه<sup>(٣)</sup> ، ولكن الأمر الذي نراه بكثرة تلفت النظر في أخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تعرضهم للإبل ونهبها .

(١) جوشاق لومين : خسارة العرب / ٨٢ .

(٢) الأغاني ٢١٣ / ١٨ .

(٣) الأغاني ٨٤ / ٢ .

## الباب الثاني

### شعر الصعاليك



## الفصل الأول

### ديوان الصعاليك

٨

#### مصادره :

يقف الدارس لشعر الصعاليك أمام مسألة بالغة الخطر ، تواجهه منذ البداية ، وتوشك أن تنصرف به عن المضي في دراسته ، إذ هي عماد هذه الدراسة ، والمحور الذي تدور حوله ، تلك هي مسألة مصادر هذا الشعر : أين هي ؟

ومن الحق أن نسجل قبل الإجابة عن هذا السؤال أن مسألة مصادر الشعر الجاهلي من المسائل التي تواجه الباحثين فيه منذ البداية ، ذلك لأن أكثر مجموعات شعر القبائل التي تزخر بأسمائها كتب التراجم قد فقدت ، ولم يصل إلينا منها إلا القليل ، أما دواوين الشعراء فقد تركزت عناية الرواة والشرح بدواوين المشهورين منهم ، أما أولئك الذين لم يكن لهم خطر في نظرهم فلم يكن حظهم من العناية بهم كبيراً . هذا إلى أن عمل هؤلاء الرواة والشرح قد اتجه اتجاهاً فنياً أو لغوياً خالصاً ، أما فكرة جمع الوثائق الأدبية التي تمثل الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو غير ذلك من جوانب العصر المختلفة فشيء وراء اهتمام هؤلاء الرواة ، مع ما له من أهمية للباحث الأدبي والباحث التاريخي على حد سواء . وليس من شك في أن هؤلاء الرواة لو نظروا إلى عملهم على أنه عمل تاريخي يحرص على تسجيل كل جوانب العصر الذي يجمعون وثائقه الأدبية ، حتى تلك التي تصور انحطاطه أو ضعفه ، لتغير وجه التاريخ الأدبي للعصر القديم تغيراً كبيراً .

أما أولئك المغمورون من الشعراء فقد بُعِثَتْ مجموعاتُهم الشعرية بين ثلاثة مصادر : كتب الثقافة العربية المختلفة ، كل منها يستغلها لأغراضه الخاصة وفي دائرته الخاصة ، ثم مجموعات المختارات من شعر الشعراء ، وهذه - بطبيعة الحال - كانت متأثرة بذوق أصحابها ، كما أنها كانت محصورة داخل دائرة الاختيار ، وهي دائرة مهما اتسع ضيقها ، ثم كتب التراجم التي تذكر بعض أخبار من ترجم لهم وبعض نماذجهم الفنية ، وحتى هذه - أو على الأقل أكثرها - لم تكن تعنى إلا بالمشهورين . ولنستمع إلى ابن قتيبة في مقدمة « الشعر والشعراء » يتحدثنا عن الأساس الذي أقام عليه كتابه ، لئلا نرى صورة من ذلك الاهتمام الذي يقف عند المشهورين فحسب ، ولا يكاد يفكر فيمن عداهم : « قال أبو محمد : وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما من خفي اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة » (١) . ومعنى هذا أن رواة الشعر العربي - أو على الأقل أكثرهم - كانوا ينظرون إلى الشعر القديم على أنه وسيلة لأغراض لغوية لا على أنه نتاج عصر متعدد الجوانب .

والأمر في شعر الصعاليك أسوأ من هذا ، فقد عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمثلون طائفة خارجة على المجتمع ، متمردة على أوضاعه وتقاليده ، لا تحرص على قبائلها كما لا تحرص قبائلها عليها ، ونتيجة هذا أن القبائل لم تحرص على شعرهم ، لأنه يمثل ذلك الخروج عليها ، وذلك التمرد على أوضاعها وتقاليدها ، ولأنه حديث فردي يعنى بتصوير شخصيات أصحابه بقدر ما يهمل شخصيات قبائلهم ، وما حاجة القبائل إلى ذلك اللون من الشعر الذي لا يهتم بها في شيء ، بل على العكس يهتم بتسجيل تمرده عليها والإساءة إليها ؟ وماذا يحمل هذه القبائل على الحرص على هذا الشعر بعد أن لم تحرص على أصحابه ؟ وقد رأينا إلى جانب

هذا أن هؤلاء الصعاليك عاشوا حياة متشردة بين أرجاء الصحراء الواسعة الرهيبة ، حيث يعيش الحيوان النافر ، والوحش الضارى ، ونتيجة هذا أن سبل الاتصال بين هؤلاء الصعاليك وبين مجتمعهم لم تكن ميسرة ، بل على العكس كانت معقدة أشد التعقيد ، إذ هي صلة عداوة مستحكمة ، لا تجعل أحدهما يطمئن إلى الآخر ، وقد قلنا من قبل إن المجتمع فقد اطمئنانه إلى هؤلاء الصعاليك كما فقلوا هم طمأنينتهم فيه . ومعنى هذا أن كثيراً من شعر الشعراء الصعاليك ضاع بين آفاق الصحراء المجهولة ، وذهبت أنغامه ما بين حيوانها ووحشها ، حيث لا ناطق ولا سميع ولا راوية إلا هؤلاء الصعاليك أنفسهم الذين يتعد ما بينهم وبين مجتمعهم ، وقد هدد تأبط شراً عاذليه إن لم يتركوا عذله ليتركهم إلى آفاق الصحراء المجهولة حيث لا أحد — مهما تكن معرفته — بمنبتهم عن موضعه<sup>(١)</sup> ، وإذن فكيف يصل ما يقوله من شعر في تلك الآفاق المجهولة إلى آذان المجتمع الأدبي ؟

ومع ذلك فقد وصلت إلينا مجموعة لا بأس بها — وإن تكن قليلة — من شعر هؤلاء الصعاليك . وقد نتساءل : كيف وصلت إلينا هذه المجموعة برغم كل هذا ؟

**مصادر هذه المجموعة ، عندى ، ثلاثة :**

فليس من شك في أن هؤلاء الشعراء الصعاليك قد مرت بهم في حياتهم فترات عاشوا فيها مع قبائلهم حياةً قبلية متوافقة توافقاً اجتماعياً ، وهى تلك الفترات التى سبقت حياتهم المتصلة ، إذ ليس مما يمكن تصوّره أن يبدأ هؤلاء الصعاليك حياتهم المتصلة منذ أن ترى أعينهم نور الحياة ، وإنما الذى يمكن تصوّره أنهم عاشوا فترة من حياتهم — قصرت أو طالت — مع قبائلهم ، فليس التصعلك بالظاهرة الوراثة ، وإنما هو كما رأينا فى الفصول السابقة ظاهرة تعمل فيها عوامل جغرافية واجتماعية واقتصادية . ومن الطبيعى أن يكون بعض هؤلاء الشعراء الصعاليك قد اكتملت ملكاتهم الفنية قبل أن يتصلحوا ،

(١) انظر البيتين ٢٣ و ٢٤ من قصيدته القافية ( ابن الأثير : شرح المفصليات / ١٨ ) .

وأن يكونوا قد شاركوا مآثر شعراء قبائلهم في حياتهم الفنية ، وقد رأينا مثلاً لهذا قيس بن الخدّادية الذي شارك قبيلته اجتماعياً وفنياً مشاركة قوية ، خاض معها غمار أيامها ، بل قادها أحياناً إلى مواطن النصر ، وتغنى بهذا كله في شعره . ومن الطبيعي أيضاً أن تحرص القبيلة على هذا الشعر وترويه ، وتتغنى به ، وتتناقله جيلاً بعد جيل ، حتى يتلقفه من أفواه أبنائها رواة الشعر العربي الذين كانوا يشنون الرحال إلى البادية ليجمعوا شعر قبائلها . ومعنى هذا أن جزءاً من شعر الصعاليك ، وهو ما يصح أن نطلق عليه « الشعر خارج دائرة الصعلكة » ، قد وصل إلينا عن طريق قبائلهم نفسها .

ومن هذه المجموعة أيضاً ذلك الشعر الذي خلا من مهاجمة القبيلة أو التعرض لها بما تكره ، كوصف الغارات ، أو وصف وحش الصحراء ، أو قصص تلك الأشباح التي كانت تراءى للصعاليك في تشردهم في ليالي الصحراء المظلمة ، فإلى القبيلة ضُبر من رواية هذا الشعر ، أو هذه الأقاصيص العجيبة التي ترضى الذوق الشعبي ، في أوقات فراغها أو في ليالي أسمارها . ولعل مما يؤيد هذا قلة ما وصل إلينا من شعر هؤلاء الصعاليك الذي هاجموا فيه قبائلهم ، أو تعرضوا فيه لها بما تكره ، وليس من شك في أنه كان شعراً كثيراً ، فإن هذه المجموعة من الشعر قد أغفلتها القبائل ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ويشبه هذا ما نلاحظه من ضياع تلك المجموعة من الشعر التي قالها مشركو مكة في أول ظهور الإسلام ، عند احتدام الصراع بين شعراء مكة المشركين وشعراء المدينة الذين اعتنقوا الإسلام ، ووقفوا يدعون له ، ويدافعون عنه .

ومن هذه المجموعة أيضاً شعراً أولئك الصعاليك الذين فقدوا توافقهم الاجتماعي مع قبائلهم لأسباب اقتصادية في أكثر الأحيان ، أو اجتماعية في بعض الأحيان ، ولكنهم لم يفارقوها ، كما نرى عند طائفة من صعاليك هذيل ، أو عند السليك الذي قلنا إن العصية القبلية عنده قد اتسعت حتى أصبحت « عصية جنسية » ، أو عند تأبط شرا الذي جعل من قبيلته فهم — أو بتعبير



أدق - من موطنها مركزاً يعود إليه بعد غاراته<sup>(١)</sup> ، فهذه الطوائف من الصعاليك لم تجد قبائلهم خيراً من أن تروى ما وصل إليها من شرهم ، وبخاصة لأنه يصلح مادة للسمر الممتع الشهي .

ومعنى هذا أن المصدر الأول من مصادر شعر الصعاليك هو قبائلهم نفسها . وقد رأينا أن الصعاليك الخلقاء الذين تبرأت منهم قبائلهم ، وطردتهم من حماها ، قد استجاروا ببعض القبائل أو ببعض ماداتها ، إما استجارة دائمة وإما استجارة مؤقتة . ومن الطبيعي أن يتحدث شعراء هذه الطائفة من الصعاليك الشذاذ عن هذا الجوار في شرهم ، فيمدحوا من أجاروهم ، ويشنوا عليهم بما يرونه رداءً لذلك الدّين الذى طوّقت به أعناقهم . ومن الطبيعي أيضاً أن يتعرضوا لقبائلهم التى خلعتهم ، فيكيلوا لها الهجاء ، ويخصوا بالذات أولئك الذين كانوا ميباً فى خلعتهم . ومن الطبيعي أن تحرص هذه القبائل التى أجارتهم ، وهؤلاء السادة الذين أنزلوهم فى حماهم ، على هذا الشعر حرصاً شديداً ، وأن يعملوا على إذاعته بين العرب ، لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم ، وإشادة ببعض أمجادهم ، وليس ما يمنع من أن تذيع هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك فى قبائلهم التى خلعتهم ، لأنه فرصة للنيل منها .

وإذن فالمصدر الثانى من مصادر شعر الصعاليك هى تلك القبائل التى استجار بها الخلقاء منهم .

والمصدر الثالث من مصادر شعر الصعاليك هم الصعاليك أنفسهم . وأظن أنه ليست هناك غرابة فى أن يروى الصعاليك شعر شعرائهم ، ويتغنوا به ، ويرددوه فى كل مناسبة ، لأنه صورة من حياتهم ، وصدى لما يدور فى نفوسهم . ومن الطبيعي أن يعمل هؤلاء الصعاليك على أن يذيعوا هذا الشعر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، لأنه تعبير عن مذهبهم فى الحياة ، وتعليل لذلك الأسلوب الذى سلكوه فى حياتهم ، لعلمهم بهذا يضمنون إليهم أنصاراً جُدداً ،

(١) قابت إل فهم وما ككت آتياً وكم مثلها فارقتهما وهى تصغر  
(حياة أبى تمام ٢٨/١) .

أويقننون مجتمعتهم بأنهم على حق في حركتهم . وساعدهم على هذا ما كان يجده هذا الشعر من إعجاب في الأوساط الشعبية التي كانت تُفَتَّن بهذا اللون من الشعر ، بما فيه من غرابة ، وما فيه من بطولة ، ولأنه تعبير عن أشياء لعلهم أكثر من يحسونها ويشعرون بها . ولعل شعر عروة بن الورد وصل إلينا أكثره عن طريق هذا المصدر ، لأن عروة كان يمثل شخصية الزعيم الشعبي صاحب المذهب الذي يحرص على أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأنصار ، ولعل هذا هو السبب في أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك وصلت إلينا .

أما تلك المجموعة من الشعر التي نظمها الصعاليك المخضرمون بعد ظهور الإسلام ، والتي يصح أن تطلق عليها « شعر ما بعد الصعلكة » ، فإن شأنها شأن سائر الشعر في ذلك العصر ، رواها الرواة كما روه ، وحفظوها كما حفظوه ، إذ أن الصعاليك المخضرمين قد ودعوا حياة التصعلك بعد ظهور الإسلام وشاركوا في الحياة الجديدة كما شارك غيرهم .

عن طريق هذه المصادر وصل إلينا شعر الصعاليك . ويبدو أن بعض رواة الشعر العربي قد تنبهوا إلى أن هذا الشعر يكون مجموعة متشابهة المقومات الفنية ، فعملوا على جمعه في دواوين خاصة به <sup>(١)</sup> . ولكن مع الأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه الدواوين إلا أسماؤها وأسماء مؤلفيها ، أما هي فقد ضاعت مع ما ضاع من التراث العربي القديم ، وليس بين أيدينا الآن من هذه الدواوين - فيما أعرف - سوى قطعة من « كتاب أشعار اللصوص » لأبي سعيد السكري الذي أشار إليه البغدادي في مقدمة الخزانة بين الكتب التي اعتمد عليها في تأليفها <sup>(٢)</sup> ، والذي ذكره ابن النديم من بين مؤلفات السكري <sup>(٣)</sup> ، ويذكر بركلمان أن هذه القطعة هي ديوان طههمان من العصر الأموي ، وأن

(١) انظر ما ورد في فهرس معجم الأدباء لياقوت عن كتب أشعار اللصوص والسطار والفتيان

والفتاك ( جزء ٢٠ ) .

(٢) خزانة الأدب ١٠/١ .

(٣) الفهرست ٧٨/ .

الأستاذ رايت نشرها<sup>(١)</sup> ، وفي خزانة الأدب للبغدادى قطعة أخرى منه<sup>(٢)</sup> ،  
 هي مجموعة من أخبار عبيد الله بن الحر وأشعاره ، وهو أيضاً من صعاليك  
 العصر الأموى ، وينقل عنه ياقوت في معجم البلدان في كثير من المواضع<sup>(٣)</sup> ،  
 وكذلك ينقل عنه صاحب الأغاني<sup>(٤)</sup> ، ويذكر بركلمان أن في شرح الحماسة  
 للتبريزى مقتطفات منه<sup>(٥)</sup> . ويبدو أن هذا الكتاب من الكتب التى كانت  
 لها قيمتها ، والقطع التى وصلت إلينا منه تدل على هذا دلالة قوية ، وصاحب  
 الخزانة يثنى عليه<sup>(٦)</sup> ، وحسب هذا الكتاب أنه من عمل السكرى الذى يقول  
 عنه ابن النديم « الذى عمل من علماء أشعار الشعراء فجود فأحسن أبو سعيد  
 السكرى »<sup>(٧)</sup> . وللسكرى أيضاً كتابان آخران يذكرهما ابن النديم ، هما أشعار  
 فهم وأشعار الأزدي<sup>(٨)</sup> . وليس من شك في أن هذين الكتابين كانا يضمّان شعر  
 تأبط شرا وغيره من صعاليك فهم ، والشنفرى وحاجز وغيرهما من صعاليك  
 الأزدي . وما يفسد له حقاً أن تصبغ هذه المجموعة من كتب السكرى التى  
 لو قد وصلت إلينا لأفادتنا كثيراً كما أفادنا ديوان الهذليين له .

وتشير مصادر الأدب العربى إلى دواوين لبعض الشعراء الصعاليك ،  
 فيشير الآمدي في ترجمته لأبي الطّمّحمان القينى إلى « ديوانه المفرد »<sup>(٩)</sup> ،  
 وينقل ذلك عنه البغدادى في خزانته<sup>(١٠)</sup> ، ويذكره أيضاً ابن النديم ، ويذكر

(١) Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 21. (١)

(٢) ٢٩٩ - ٢٩٧/١ .

(٣) انظر على سبيل المثال مادة (شعان) ٢٧٤/٥ ، ومادة (شعين) ص ٢٧٥ في  
 أخبار عن عمرو بن الورد .

(٤) انظر ١٥٩/٢٠ .

(٥) Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 108. (٥)

(٦) ٢٩٩/١ .

(٧) الفهرست ١٥٧ .

(٨) المصدر السابق ١٥٩ .

(٩) المؤلف والمختلف ١٤٩ .

(١٠) ٤٢٦/٣ .

أن الذى عمله الأصمعى وأبو عمرو<sup>(١)</sup> ، وما يتوصف له أن يفقد هذا الديوان أيضاً . ويشير صاحب الخزانة أيضاً إلى ديوان تأبط شرا فى نص ينقله عن ابنى جنى فى تصحيحه رواية بيت له يقول فيه « وكذلك وجدتُها فى شعر هذا الرجل بالخط القديم ، وهو عتيد عتدي إلى الآن »<sup>(٢)</sup> ، ويذكر بركلمان فى حديثه عن تأبط شرا أن « بعض مختارات من ديوانه جمعها ابن جنى مخطوطة فى الاسكوريال المجلد الثانى / ٧٧٨ »<sup>(٣)</sup> .

وقد وصل إلينا من دواوين الشعراء الصعاليك ديوانان : ديوان عروة بن الورد ، وديوان الشنفرى .

ويذكر ابن النديم أن شعر عروة قد جمعه اثنان من الرواة : الأصمعى وابن السكيت<sup>(٤)</sup> ، ولكن لم يصل إلينا إلا الثانى . وقد طبع هذا الديوان عدة مرات ، طبعه نولدكه فى جوتنجن سنة ١٨٦٣ مع مقدمة وتعليقات وترجمة ألمانيا ، ثم طبع مرة أخرى فى المطبعة الوهية بمصر سنة ١٢٩٣ هـ فى مجموع مشتمل على أربعة دواوين أخرى هى دواوين النابغة الذبياني ، وحاتم الطائي ، وعلقمة الفحل ، والفرزدق ، تحت اسم « مجموع مشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب » ، وديوان عروة فيه مختلف فى ترتيبه عن طبعة نولدكه ، وفى أوله ترجمة عروة نقلا عن الأغاني دون إشارة إلى ذلك ، ثم طبع هذا المجموع مرة أخرى فى بيروت بالمطبعة الأهلية بدون ذكر لتاريخ الطبع ، ويبدو أن هذه الطبعة منقولة عن الطبعة المصرية ، وإن يكن صاحبها يذكر فى أولها أنها « طبعة جديدة مصححة منقحة ، مقابلة على عدة نسخ ، مرتبة على الحروف ، مضافاً عليها كثير من شعره مما تفرق فى دواوين الأدب » .

وأدرج لويس شيخو ديوان عروة مع شرح ابن السكيت فى شعراء

(١) الفهرست / ١٥٨ .

(٢) ٥٤٠ / ٢ .

(٣) Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 25 .

(٤) الفهرست / ١٥٨ .

النصرانية<sup>(١)</sup> ، وأضاف إليه ما ورد في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام مع بعض أخبار منقولة عن الأغاني .

ثم طبعه مرة أخرى الشيخ ابن أبي شنب الأستاذ بكلية الأدب بالجزائر ، بمطبعة جول كريبوتل بالجزائر سنة ١٩٢٦ ، وأضاف إليه جملة من شعره مما لم يذكر فيه ، وشرحا على الأبيات يكمل به شرح ابن السكيت .

ومن ديوان عروة نسخة خطية في دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠٨٤ ( أدب ) ، وهي أيضاً من جمع ابن السكيت وشرحه ، وهي صورة من ديوانه المطبوع .

ولديوان عروة ترجمة فرنسية قام بها الأستاذ R. Basset ونشرها في المجلة الأفريقية التي تصدرها كلية الأدب بالجزائر بالعدد ٦٢ سنة ١٩٢٨ .

أما ديوان الشنفرى فقد كان حظه من العناية دون حظ ديوان عروة ، فبين أيدينا منه نسختان : نسخة مطبوعة صنعها الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، ونشرها في مجموعة « الطرائف الأدبية » ، بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ يذكر في مقدمتها أنها عن نسخة خطية من الديوان عثر عليها بكتبخانة خسرو باشا في استنبول تحت رقم ١٤٩ ، وعن مجموعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٤ ( أدب ) يظن أنها نسخة أخرى من الديوان مبتورة ، وقد أضاف إلى ما ورد في هاتين المخطوطتين بعض أبيات وجدها في مصادر الأدب العربى الأخرى ، ولكنه أسقط من الديوان التائية المفضلية ، ولامية العرب ، ورتاء تأبط شراً ، لأن الأوليين وإن كانتا توجدان في النسختين إلا أن ما عند غيرهما أوفى وأتم ، والثالثة خلطت عنها مرة ، فإلى وإثباتها ، وهي في عامة الكتب ، على أنها لا يوثق بعزوها إليه ، - كما يقول في مقدمته<sup>(٢)</sup> .

والنسخة الأخرى التي بين أيدينا من هذا الديوان نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى عن نسخة خطية بخط محاسن بن إسماعيل بن على من شعراء حلب ،

(١) من ص ٨٨٠ إلى ص ٩١٦ .

(٢) ص ٣٠ .

فرغ من كتابها بلعشق في منتصف شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٥ هـ .  
وهذه النسخة المصورة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت اسم « شعر الشنفرى »  
تحت رقم ٦٦٧٦ ( أدب ) ، وهى نسخة من الراجح أن المبنى لم يطلع عليها  
لأنه لم يشر إليها في ديوانه الذى طبعه .

والى جانب هذين الديوانين هناك مجموعة أشعار هذيل التى عملها السكرى  
أيضاً<sup>(١)</sup> ، وبين أيدينا منها الجزء الأول الذى نشره الأستاذ كوسجارتن  
John Godfrey Lewis Kosegarten تحت اسم « كتاب شرح أشعار الهذليين »  
فى لندن سنة ١٨٥٤ ، والجزء الذى نشره الأستاذ يوسف هل فى ليزج ،  
سنة ١٩٣٣ تحت اسم « مجموعة أشعار الهذليين الجزء الثانى » ، والقسم الذى  
نشرته دار الكتب المصرية تحت اسم « ديوان الهذليين القسم الثانى » فى  
سنة ١٩٤٨ . ففى هذه المجموعات من أشعار الهذليين طائفة من دواوين صعاليك  
هذيل : أبى خيرآش<sup>(٢)</sup> ، والأعلم<sup>(٣)</sup> ، وصخر الغنى<sup>(٤)</sup> ، وعمرو ذى الكلب<sup>(٥)</sup> ،  
كما أن فيها طائفة متناثرة من شعر تأبط شرا<sup>(٦)</sup> ، الذى كانت بينه وبين  
هذيل عداوة مشبوبة الأوار .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من دواوين الشعراء الصعاليك وجدنا أنفسنا  
أمام مشكلة صعبة ، هى مشكلة شعر سائر الصعاليك : أين نجده ؟  
لا مفر لنا - من أجل هذا - من الرجوع إلى كل مصادر الأدب العربى ،  
سواء منها المطبوعة أو المخطوطة ، لننقب - بعد امتثال علماء الآثار - عن  
آياته ومقطوعاته وقصائده . والواقع أن شعر الصعاليك مفرق تفريقاً شديداً بين

(١) ابن النديم : الفهرست / ٧٨ .

(٢) مجموعة أشعار الهذليين ٢/ ٤٧ - ٧٨ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ - ١٧٢ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٤ - ٦٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٧٧ - ٨٧ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦ - ٤٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٥٩ - ٧٦ ،

٢٢٣ - ٢٤٠ .

(٥) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٢ - ٢٤١ ، ولم تصل طبعة دار الكتب إلى ديوانه .

(٦) انظر شرح أشعار الهذليين ١/ ٤ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢ ، وهناك طائفة من أخباره وحديث

شعراء هذيل عنه متناثرة فى ٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

هذه المصادر ، حتى ليصح أن نقول - في شيء من الحذر - إن كل هذه المصادر تضم أبياتاً من شعر الصعاليك . وأظن أن ليس في هذا غرابة ، فما دام شعر الصعاليك يمثل البادية العربية في كثير من جوانبها اللغوية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية تمثيلاً صادقاً صحيحاً ، فن الطبيعي أن يتخذ اللغويون والرواة والجغرافيون والمؤرخون مصدراً من مصادرهم الأساسية ، لأنهم يجلبون فيه شواهد لكثير مما يقررون .

ومن هنا كانت المجموعة اللغوية من أهم مصادر شعر الصعاليك ، وأخص بالذكر منها لسان العرب وتاج العروس وجمهرة اللغة لابن دريد ، وأهمية هذه المصادر - إلى جانب ما تقدمه للدارس شعر الصعاليك من شرح لألفاظه ومعانيه ، وإلى جانب ما تتيحه له من فرصة الموازنة بين الروايات المختلفة - ترجع أيضاً إلى ما انفردت به من أبيات لم تر في مصادر هذا الشعر الأخرى<sup>(١)</sup> ، بل إن الأمر لبصل أحياناً إلى انفرداتها بمجموعة كبيرة من الأبيات لشاعر واحد من بحر واحد وقافية واحدة مما يرجح أنها من قصيدة واحدة<sup>(٢)</sup> ، أو انفرداتها بأبيات تصلح أن تكون تكملة لما روته المصادر الأخرى<sup>(٣)</sup> .

فلذا تركنا هذه المجموعة اللغوية وجدنا أن المجموعة الجغرافية ، وأخص بالذكر منها معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكري ، من المصادر

(١) انظر على سبيل المثال في لسان العرب المواد : قطر . وجر . بأس . سكن . نوم (تأبط شراً) - جوش . شق . قها (أبو الطمحان) - رمل . صرى (السليك) - ولغ (حاجز) - وانظر أيضاً ابن دريد : جمهرة اللغة ١/ ١٤٠ (حاجز) .

(٢) انظر الأبيات اللامية من بحر الطويل لتأبط شراً في المواد : جلب . غصب . ركب . شعر . كلب . صوف . ثمل . ختل . رمل . رمل . حلل . كدل . هبل . همل . جثم . دعى . غزا . وهي أبيات ترجع - لاتحاد وزنها وقافيتها وموضوعها - أنها من قصيدة واحدة لم تصل إلينا ، كما يرجح أن الأبيات التي تروى في معلقة امرئ القيس ، والتي يشك الرواة في صحة نسبتها إليه ، ويرجعون أنها لتأبط شراً ، وهي التي يتحدث فيها عن حمله قربة الماء وقطعه الوادي المقفر حيث تعوى الذئاب ، من هذه القصيدة أيضاً .

(٣) انظر على سبيل المثال لسان العرب : مادة (جنم) حيث يروى بيت لتأبط شراً لعله من قصيدته الرائية التي يروى له الأصمعي في الأصمعيات ٣٥ .



الأساسية أيضاً لشعر الصعاليك . ويرجع ذلك إلى أن هذا الشعر - لكثرة ما يرد فيه من أسماء الأماكن في الجزيرة العربية - يُعدُّ مادةً صالحةً يستشهد بها هؤلاء الجغرافيون في دراساتهم . وقيمة هذه المجموعة من المصادر - إلى جانب ما تقدمه لنا من هذا الشعر - ترجع إلى أنها تعيننا على ضبط نصوصه ، وتصحيح روايته ، بما تقدمه لنا من ضبط لألفاظ الأماكن التي ترد فيه ، والتي قد تكون واردة في المصادر الأخرى محرقة أو مصحقة<sup>(١)</sup> .

فإذا ما تركنا هاتين المجموعتين اللتين تعينان شعر الصعاليك من حيث هو وسيلة لأغراضهما اللغوية والجغرافية ، نصل إلى مجموعة تُعَدُّ بهذا الشعر من حيث هو غاية فنية تقصد لذاتها ، وهي مجموعة المختارات من شعر الشعراء ، وعلى رأس هذه المجموعة نضع المفضليات للضبي ، لا لكثرة ما فيها من شعر الصعاليك ، فليس فيها منه سوى قصيدتين : إحداها قافية تأبط شراً<sup>(٢)</sup> ، والأخرى تائية الشنفرى<sup>(٣)</sup> ، ولكن لأنها روت هاتين القصيدتين كاملتين ، مما أتاح لنا فرصة الوقوف أمام نصين كاملين من ديوان الصعاليك . هذا إلى جانب أن ابن الأنباري في شرحه عليهما قدم لنا مجموعة أخرى من شعر الصعاليك ، لم ترَ في المصادر الأخرى<sup>(٤)</sup> .

ومن الطبيعي أن نذكر مع المفضليات الأصمعيات ، لأنها بمثابة التكملة لها ، أو الجزء الثاني منها ، وقد قدمنا لنا أيضاً قطعتين من ديوان الصعاليك ،

(١) انظر على سبيل المثال ما ورد في لسان العرب ، مادة (مرج) ، السليك :

وأذعر كلاباً يقسود كلابه ومريّة لما أختبها بمقنب

فإننا حين نمنى إلى المجموعة الجغرافية لا نجد (مريّة) بالميم ، وإنما هي (مرخة) بالحاء وهي « بلد باليمن ومن نواحيه واد كثير النخل » (ياتوت : معجم البلدان ١٩/٨) ، فإذا أضفنا إلى هذا ما قررناه في التفسير الجغرافي لظاهرة المصلحة من أن السليك قد تخصص في الإشارة على اليمن ، وأن حركات الصعاليك كانت تنحصر إلى المناطق الخصبية ، تأكد لنا أن صحة هذا الاسم بالحاء ، وأن موضعه في لسان العرب يجب أن يكون في (مرخ) لا في (مرج) .

(٢) من ص ١ - ٢٠ .

(٣) من ص ١٩٤ - ٢٠٧ .

(٤) انظر بيتي الشنفرى اللذين في ص ١٩٧ ، وأبيات الثلاثة التالية أيضاً في ص ١٩٨ ،

وقد نقلها المصنف عنه في ديوانه الذي نشره في الطرايف الأدبية (ص ٣٤ ، ٣٥) .



إحداها رائية عروة المشهورة<sup>(١)</sup> ، والأخرى رائية لتأبط شراً<sup>(٢)</sup> ، وهذه الأخيرة قد انفردت بها الأصمعيات دون المصادر الأخرى ، وقد قلنا منذ قليل إن في لسان العرب بيتاً نرجح أن يكون منها .

وهناك « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، وفيها قطعة كبيرة من رائية عروة المشهورة<sup>(٣)</sup> يضعها في مجموعة « المنتقيات » . ثم هناك « منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية ( تحت رقم ٥٣ ش أدب ) ، الموجود منها جزآن ، في الأول منهما طائفة من قصائد عروة بن الورد ، وفي الثاني بعض مقطوعات للشنفرى وتأبط شراً .

وهناك مخطوطة أخرى مجهولة المؤلف في الخزانة التيمورية ( تحت رقم ١٢٧٥ تيمورية شعر ) فيها قصائد للشنفرى ولعمرو بن بركة الحمداني . ثم هناك مجموعات الحماسة ، وعلى رأسها حماسة أبي تمام التي تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك متنوعة الأغراض ، كما يمدنا التبريزي في شرحه عليها بمجموعة أخرى كبيرة ، تجعل من هذا المصدر مصدراً أساسياً لشعر الصعاليك .

وتقف إلى جانب حماسة أبي تمام في مستوى واحد حماسة الخالدين ، وهي مخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية ( تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر ) ، فإنها تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، بل إنها تنفرد أحياناً برواية قطع منه<sup>(٤)</sup> .

ثم هناك حماسة البحري ، وهي أيضاً تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك موزعة على أغراضها .

(١) ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ص ٣٥ .

(٣) ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) انظر على سبيل المثال : أبيات عمرو بن بركة ( ورقة رقم ٤٤٣ ) ، وبيت السليك

( ورقة رقم ٢٧٠ ورقم ٢٧١ ) وبيت تأبط شراً ( ورقة رقم ٢٩١ ) .

ثم هناك الحماسة الصغرى لأبي تمام ، وهي المعروفة بالوحشيات ، ومنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٢٩٧ أدب) وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك أيضاً الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري ، ومنها نسختان في دار الكتب المصرية ، إحداهما مخطوطة (تحت رقم ٥٢٠ أدب) ، والأخرى مصورة (تحت رقم ٦٣٠٠ أدب) ، وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك حماسة ابن الشجري ، وهي مطبوعة ، وفيها قصيدة لتأبط شرا ، هي لامية له<sup>(١)</sup> ، وقطعة لعمر بن بركة من قصيدته الميمية المشهورة<sup>(٢)</sup> .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من المختارات التي تعنى بشعر الصعاليك من حيث هو غاية فنية تقصد لذاتها ، فإننا نقف عند مجموعة أخرى من مصادر هذا الشعر تعنى به من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، ونعنى بها كتب التراجم ، وما أحسبني في حاجة إلى القول بأن كتاب الأغاني لأبي الفرج على رأس هذه المجموعة بدون استثناء ، ففيه أكبر مجموعة من شعر الصعاليك يرويها صاحبه في أثناء تراجمه لأصحابها<sup>(٣)</sup> .

وكذلك الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ولكننا نلاحظ أنه أغفل ترجمة الشنفرى ، وإن يكن قد روى له بضعة أبيات في مقدمته<sup>(٤)</sup> ، وربما كانت ترجمة الشنفرى قد سقطت من مخطوطات الكتاب .

(١) ص ٤٧ .

(٢) ص ٥٥ .

(٣) عروة بن الورد (٧٣/٣ - ٨٨ دار الكتب) ، وفضالة بن شريك (١٧١/١٠ - ١٧٣ بولاق) وأبو الطمسان (١٣٠/١١ - ١٣٤ بولاق) ، وحاجز (٤٩/١٢ - ٥٣ بولاق) .  
وقيس بن الحداية (٢/١٣ - ٨ بولاق) ، والسليك (١٢٣/١٨ - ١٢٨ بولاق) . وتأبط شرا (٢٠٩/١٨ - ٢١٨ بولاق) ، ومهر القى (٢٠/٢٠ - ٢٢ بولاق) وعمر بن ذو الكلب (٢٢/٢٠ - ٢٣ بولاق) ، وأبو خراش (٥٤/٢١ - ٧٠ ليدن) ، والشنفرى (١٣٤/٢١ - ١٤٣ ليدن) ، وعمر بن براق (١٧٥/٢١ - ١٧٦ ليدن) .

(٤) ص ١٩ .

ثم المؤلف والمختلف للأملى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وتراجم الشعراء فيهما - وإن تكن موجزة جداً - تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعرهم. ثم كتاب « المغتالين » لابن حبيب ، ومنه نسختان في دار الكتب المصرية : نسخة خطية ( تحت رقم ٥٧ ش أدب ) ونسخة مصورة ( تحت رقم ٢٦٠٦ تاريخ ) . وطرافة هذا الكتاب تأتي من أنه يهتم بتلك اللحظات الأخيرة في حياة من يترجم لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر الشعراء الصعاليك قد قتلوا ، أدركنا أهمية هذا الكتاب للباحث في شعر الصعاليك ، وإن كنا نلاحظ أن تراجم الشعراء فيه موجزة .

ثم كتاب « مَنْ نُسِبَ إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب أيضاً ، وقد كنا ننتظر أن نجد في هذا الكتاب شيئاً كثيراً عن الشعراء الصعاليك ما دام كثير منهم كانوا أغربة يُنسبون إلى أمهاتهم ، ولكن ابن حبيب ، أو لعل النسخة التي وصلت إلينا من كتابه ، قد خيبت ظننا ، فليس فيها من الشعراء الصعاليك سوى قيس بن الخدادي ، وليس فيها من شعره سوى قطعة من أرجوزته التي أنشدها قبيل مقتله (١) .

ثم كتاب « المعمرين » للسجستاني ، وفيه البيتان اللذان أنشدهما أبو الطمحان في شيخوخته (٢) .

فإذا ما تركنا مجموعة كتب التراجم التي نعتى بشعر الصعاليك من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، وصلنا إلى مجموعة أخرى نعتى به من حيث هو مادة للدراسة الأدبية أو اللغوية ، ونعتى بها كتب الأملى والمحاضرات والأحاديث ، ونخص بالذكر منها الكامل للمبرد ، والأملى للقالى ، والنوادر له أيضاً ، والتنبيه لأبي عبيد البكرى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والمجتر لابن حبيب ، ومحاضرات الأدباء للراغب ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ، ونقد الشعر لقدامة ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ،

(١) ص ٦ .

(٢) ص ٦٣ .

والوساطة بين المتنبي وخصومه ، وغيرها من كتب تلك المجموعة الضخمة من التراث العربي .

ثم هناك مجموعة كتب الشواهد ، ونخص بالذكر منها خزانة الأدب للبغدادى ، وشرح الشواهد الكبرى للعينى ، ففيهما مقدار كبير جداً من شعر الصعاليك . ومرد ذلك إلى اهتمام النحاة بهذا الشعر في شواهدهم . وميزة الخزانة - فوق هذا - أنها ترد كل ما ترويه إلى مصادره التى تنقله عنها ، وما أكثر المصادر التى اعتمد عليها صاحب الخزانة فى تأليفها ، والتى أشار إليها فى مقدمته طاً<sup>(١)</sup> ، حتى لتعد الخزانة من المصادر الأولى لشعر الصعاليك .

وقد قلنا إن الشعراء الصعاليك - نتيجة لتشردهم - ذكروا طائفة كبيرة من حيوان الصحراء فى شعرهم ، ومعنى هذا أن الكتب العربية التى تعنى بدراسة الحيوان تضم مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك ، ونخص بالذكر من بين هذه الكتب كتاب الحيوان للجاحظ .

ومن بين الشعراء الصعاليك جماعة أدركوا الإسلام ، وأسلموا فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، كأبى خراش وأبى الطمحان ، فهؤلاء نجد تراجمهم وطائفة من شعرهم فى كتب الصحابة ، كالإصابة لابن حجر ، وأسد الغابة لابن الأثير . ومن هذا القبيل أيضاً ما ترويه كتب السيرة من شعر عروة بن الورد وأخباره ، نظراً لأن إحدى سبباته كانت فى بنى النضير عندما أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر<sup>(٢)</sup> .

هذه أهم المجموعات التى تكون مصادر «ديوان الصعاليك» ، وهذه أهم كتبها ، ولم نقصد من ذكرها إلى الحصر ، فإنه ليس باليسير ، وقد قلنا فى أول حديثنا عنها إننا نستطيع أن نقول ، فى شىء من الحذر ، إن كل مصادر الأدب العربى تضم أبياتاً من شعر الصعاليك ، وإنما كل ما قصدنا إليه من

(١) انظر ١/٨ - ١٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : السهيل : الروض الأوفى ٢/١٧٨ - ١٨١ .

هذا الحديث هو أن نهي « المفاتيح » التي نتوصل بها إلى « كنوز » ديوان الصعاليك .

## ٢

## مادته :

حين ننظر في « المادة » التي تجمعت لنا من كنوز ديوان الصعاليك نلاحظ عليها ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها .

والأمر الذي لاشك فيه هو أن مادة شعر الصعاليك قليلة قلة لا تتكافأ مع كثرة مصادرها ، ومرد ذلك من غير شك إلى ضياع جزء كبير منها ، لأنها — من ناحية — شعر جاهلي ، ونحن نعرف أن الشعر الجاهلي قد ضاع أكثره ، ولم يصل إلينا منه إلا أقله ، وهي حقيقة معروفة مقررة عند القدماء<sup>(١)</sup> ، ثم هي — من ناحية أخرى — نتاج طائفة من الشعراء متمردة على قبائلها ، متشردة في مجاهل الصحراء . وليس الأمر استنتاجاً نظرياً ، وإنما هي حقيقة يذكرها القدماء ، فهم يذكرون عن قيس بن الخدادية أنه « شاعر قديم كثير الشعر »<sup>(٢)</sup> ، وليست مجموعة شعر قيس التي بين أيدينا بالتى يصح أن نطلق على صاحبها أنه « كثير الشعر » . وليس من شك في أن كثيراً من الشعراء الصعاليك كانوا مثل قيس من حيث كثرة الشعر ، وأن كل الشعراء

(١) يقول أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله » ، وأبو جهم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (ابن سلام : طبقات الشعراء / ١٠) ، ويعمل مصر بن الخطاب لهذا بهلاك روايته من العرب في الفتوح الإسلامية (المصدر السابق / ١٠) ، ويقول ابن قتيبة « ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفقه من تلك القبيلة شاعر إلا عرقه ولا قصيدة إلا رواها » (الشعر والشعراء / ٣) ، ويحدثنا الأصمعي أنه « كان ثلاثة أخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار فحبب وجزم » (المصدر السابق / ٤) .

(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٣٢٦ .

الصعاليك كانوا مثله ومثل سائر الشعراء الجاهليين من حيث ضياع أكثر شعرهم .

ولمى جانب هذه القلة فى المادة تلاحظ أيضاً كثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، وهى ظاهرة تلاحظ على كل نصوص الشعر الجاهلى ، ولكنها تلاحظ بصورة قوية فى نصوص شعر الصعاليك . ومن اليسير أن تفهم هذا ما دما قد عرفنا أن الشعراء الصعاليك كانوا يمثلون طائفة متمردة على قبائلها ، متشردة فى مجاهل الصحراء ، وما دام هذا الشعر قد وصل إلينا مفرقاً فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، ولم يصل إلينا إلا قليل منه فى دواوين مستقلة .

وكما يلاحظ هذا الاضطراب فى ألفاظ هذا الشعر ، يلاحظ فى ترتيب أبياته ، ويلاحظ أيضاً فى عدد هذه الأبيات ، وهذا ما سنحاول الإشارة إليه فيما يمر بنا منه فى هذا البحث .

فإذا ما تركنا هاتين الملاحظتين الشكليتين ، فإننا نصل إلى الملاحظة الثالثة ، وهى الشك الذى يحيط ببعض نصوص هذا الشعر ، وهى ملاحظة جوهرية ، لأنها تتصل بالمادة التى بين أيدينا : أهى حقاً لأصحابها أم هى مزينة عليهم ؟ وشعر الصعاليك فى هذه المسألة ليس بدعاً من سائر الشعر الجاهلى الذى اتهم بالتريف والانتحال اتهاماً شديداً ، والذى تعرض لحملة شديدة كانت على وشك أن تعصف بأركانه . ولستأ نبرئ الشعر الجاهلى من هذا الاتهام ، ولكننا أيضاً لا نمضى مع هذا الاتهام إلى ذلك الحد الذى يجعل من رواة الشعر الجاهلى « عصابة من المزيفين » لا همّ لهم إلا صناعة نماذج من الشعر ثم حملها على الشعراء الجاهليين ، والذى يجعل درس الشعر الجاهلى ضرباً من الأعمال « البوليسية » التى لا هم لها إلا البحث عن هؤلاء المزيفين ومصادرة « عملهم » الزائفة .

والأمر الذى لا أكاد أشك فيه هو أن الشعر الجاهلى قد لقي من عناية القدماء نصيباً موفوراً ، وأن نقاد هذا الشعر لم يشكوا فى شىء منه إلا سجلوا هذا الشك ، وحسبنا هذا الشك دليلاً على عناية القدماء بأمر هذا الشعر . أما

ما كان التزييف فيه بارعاً إلى درجة خفيت على القدماء أنفسهم من النقاد والرواة ، فما أظن أننا نبيح لأنفسنا الادعاء بأننا أدق حساً بالشعر الجاهلي من هؤلاء القدماء الذين كانوا أقرب منا عهداً بعصر هذا الشعر ، أما إذا كان الراوية أو الناقد مجرّحاً عرفت عنه الغفلة أو الكذب ، أو كان المتن نفسه يحمل في أثناؤه دليلاً على الكذب أو التزييف ، فهنا تكون مواضع الشك والالتهام . وليست هذه الخطوة بدءاً في الدرس ، وإنما هي خطوة سار عليها علماء الحديث في دراستهم لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وتحققها .

ومجموعة شعر الصعاليك التي دارت حولها أحاديث الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخلياً » بمعنى أن الرواة قد اتفقوا على أنها من شعر الصعاليك ، ولكنهم اختلفوا في نسبتها إلى أبيهم ، ومن الأمثلة على هذه المجموعة تلك البائية التي تروى مرة لأبي خراش الهذلي<sup>(١)</sup> ، ومرة للأعلم الهذلي<sup>(٢)</sup> ، ومرة لتأبط شراً<sup>(٣)</sup> وهم جميعاً من صعاليك منطقة واحدة هي منطقة السراة .

ومن الأمثلة على هذه المجموعة أيضاً تلك البائية التي يرويها الأصمعي وأبو عمرو الشيباني والسكري لصخر الغي الهذلي<sup>(٤)</sup> ، والتي يذكر أبو عبيدة « أنه رأى جماعة من شعراء هذيل يختلفون في هذه القصيدة فيرويها بعضهم لصخر الغي ، ويرويها بعضهم لعمرو ذي الكلب ، وأن الهيثم بن عديّ حدثه عن حماد الراوية أنها لعمرو ذي الكلب »<sup>(٥)</sup> ، وكلا الشاعرين من صعاليك هذيل .

والخطب في هذه المجموعة هين ، فإن المسألة لم تخرج عن دائرة الصعاليك . وهذا الاختلاف — وإن يكن له تأثير في الدراسة الفنية للشاعر الواحد —

(١) ديوان الهذليين ، القسم الثاني / ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) الآمدي : المؤلف والمختلف / ٩٥ .

(٣) ديوان الهذليين ، القسم الثاني / ١٦٨ ، ١٦٩ ، وأين دريد : جمهرة اللغة / ١ / ٢٤٠ .

(٤) الأغاني ١٩/٢٠ ، وشرح أشعار الهذليين ١٢/١ ، ويرويها له أيضاً ابن قتيبة في

الشعر والشعراء / ٤٢٠ .

(٥) الأغاني ١٩/٢٠ .



لأن تأثير له في الدراسة الفنية لشعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ،  
ولا تأثير له في الدراسة الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

ومن هنا وقفنا من هذه المجموعة موقفين مختلفين ، فاعتمدنا عليها في دراسة  
ظاهرة الصعلكة ، وفي دراسة شعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ،  
أما حين ندرس شاعراً معيناً ، فننطلق من طبيعته ألا نعتمد عليها ، لا في دراسة  
حياته ، ولا في دراسة فنه ، وإلا وصلنا إلى نتائج مشكوك في مقلداتها .

أما المجموعة الأخرى فإن الشك فيها شك « خارجي » بمعنى أنه يدور  
حول نسبتها إلى الشعراء الصعاليك أو إلى غيرهم من الشعراء ، كذلك الأبيات  
التي تنسب مرة إلى تأبط شراً<sup>(١)</sup> ، ومرة ثانية إلى البعيث<sup>(٢)</sup> ، ومرة ثالثة إلى  
هذبة العنبري<sup>(٣)</sup> ، وكذلك الأبيات البائية التي تنسب في بعض المصادر  
إلى أبي الطمحان<sup>(٤)</sup> ، وفي بعضها إلى لقيط بن زُرارة<sup>(٥)</sup> ، وكاليتين اللذين  
ينسبان في بعض المصادر إلى السليك<sup>(٦)</sup> ، وفي بعضها إلى المعتصم بالله  
ابن هارون الرشيد<sup>(٧)</sup> .

وقد يكون من اليسير أن ينتهي الباحث إلى رأى في هذا الاختلاف إذا  
أعانت بعض الخصائص الفنية في نصوص هذه الأبيات على التعرف على شخصيات  
أصحابها ، فمثلاً قد يكون من اليسير أن نصحح نسبة البيتين الأخيرين إلى  
المعتصم ، إذ أن سمات « الأرستقراطية » تبدو عليهما في صورة ذلك السيد  
الذي يأمر غلامه بأن يهيئ له حصانه ويطرح عليه سرجه ويلحاه ، فإذا  
أضفنا إلى هذا أن البيت الثاني يروى في بعض المصادر « أبلغ الأثران »<sup>(٨)</sup>

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، المجلد الأول / ٢٨١ .

(٢) المصدر السابق / ٢٧٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ / ١١٦ .

(٤) البرد : الكامل / ٣٠ ، وانظر أيضاً ص ٦٦ ، ٥٠٧ .

(٥) الجاحظ : الحيوان ٢ / ٩٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٤٤٧ .

(٦) أسامة بن منقذ : لباب الآداب / ١٨٢ .

(٧) المرزبانى : معجم الشعراء / ٤٢٥ .

(٨) المصدر السابق / ٤٢٥ .



مكان «أبلغ الفتيان»، رجحت لدينا نسبة هذين البيتين للمعتصم، ومن الحق أن السليك كان له فرس اسمه «التحام»<sup>(١)</sup>، ولعل هذا هو الذي أشكل على بعض الرواة فنسبوا البيتين له، ولكن هذا ليس كافياً لإثبات صحة هذه النسبة، فقد يكون في خيل المعتصم ما يحمل هذا الاسم.

والأمر في الأبيات التي تنسب إلى أبي الطمحان أو لقيط بن زرارة يشبه هذا الأمر، فإن في الأبيات فخراً يقوم الشاعر بالسيادة والحسب، وهذا أليق بلقيط ذلك السيد التميمي الذي يصفه ابن قتيبة بأنه «كان أشرف بني زرارة»<sup>(٢)</sup>، كما أن فخر الشاعر بلسان قومه ليس من الخصائص المألوفة في شعر الصعاليك، ومن هنا نستطيع أن نرجح نسبة هذه الأبيات إلى لقيط، وقد تنبه ابن قتيبة إلى هذا حيث يقول «وبعض الرواة ينحل هذا الشعر أبا الطمحان القيني، وليس كذلك، وإنما هو للقيط»<sup>(٣)</sup>.

وقد تنبه القدماء إلى مثل هذا، فقد اختلف الرواة في أربعة أبيات من معلقة امرئ القيس: أمي له أم لتأبط شرا؟ وهي تلك الأبيات التي يتحدث فيها الشاعر عن حمله قرية الماء، وتشرده في الوديان المقفرة مع الذئاب الجائعة، وعن فقره وإسرافه وهزاه<sup>(٤)</sup>: أما الأصمعي فقد ذهب إلى أن هذه الأبيات ليست لامرئ القيس وإنما هي لتأبط شرا، وتابعه في هذا الرأي أبو حنيفة الدينوري وابن قتيبة، وأما السكري فقد خالفهم في هذا ورواها لامرئ القيس في معلقته<sup>(٥)</sup>، وقد تنبه صاحب خزائن الأدب إلى أن هذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك لا بكلام الملوك<sup>(٦)</sup>.

وقد يقال إن امرأ القيس تصعلك حقبة من حياته، فلمله يعبر عن هذه

(١) انظر الكامل للبرد / ٤٧١، ولسان العرب مادة (نحم).

(٢) الشعر والشعراء / ٤٤٦.

(٣) المصدر السابق / ٤٤٧.

(٤) التبريزي: شرح القصائد العشر / ٣٧، ٣٨.

(٥) البغدادى: خزائن الأدب ١/ ٦٥.

(٦) المصدر السابق / ٦٥.

الحقبة في هذه الأبيات ، ولكن يلاحظ أن وضع هذه الأبيات في المعلقة وضع قلق ، إذ أنها حديث شاب « أرستقراطي » عن اللهو والنساء والصيد فليس من المعقول أن يتحدث في أثناء هذا عن حمله قرية الماء وفقره وتشرده ، وقد رجحنا منذ قليل أن هذه الأبيات قطعة من لامية لتأبط شرا لم تصل إلينا ، وقلنا إنه من الممكن أن تتألف من تلك الأبيات الكثيرة الواردة له في لسان العرب من وزن واحد وعلى قافية واحدة .

وصورة أخرى من هذا « الشك الخارجي » نراها حين تنهم بعضُ نصوص شعر الصعاليك بأنها قد صُنعت وحملت عليهم ، فمثلا يقول أبو عمرو تعليقا على القصيدة القافية المنسوبة إلى قيس بن الخدادية في مدح أسد بن كُرُز : « وهذه الأبيات من رواية أصحابنا الكوفيين ، وغيرهم يزعم أنها مصنوعة ، صنعها حماد الراوية لخالد القسري في أيام ولايته وأنشده إياها ، فوصله ، والتوليد يبين فيها جدًّا »<sup>(١)</sup> ، ويذكر أبو الفرج بعد أن روى القصيدة البائية المنسوبة إلى قيس بن الخدادية أيضاً التي يفتخر فيها بقومه ، ويعيّر عامر ابن الظرب بفراره : « هذه القصيدة مصنوعة والشعر يبين التوليد »<sup>(٢)</sup> .

ولعل أشهر ما تعرض لهذا الشك من شعر الصعاليك لاميّان : إحداهما تنسب إلى الشنفرى ، وهى المعروفة بلامية العرب ، ومطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم      فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

والأخرى تختلف القدما في نسبتها اختلافاً شديداً ، ومطلعها :

إن بالشعب الذى دونَ ملع      لقتيلا دمه ما يطل

وكلتا اللاميتين اتهم بصنعهما خلف الأحمر<sup>(٣)</sup> .

والقدما يصفون خلفاً بأنه « كان من أمرس النامس ليبت شعر »<sup>(٤)</sup> ،

(١) الأغاني ١٣/٥ (بلاق) .

(٢) المصدر السابق ٤/ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد القرئد ٥/٣٠٧ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٩٧/ ،

والجاحظ : الحيوان ١/١٨٢ ، والقال : الأمال ١/١٥٦ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ٥٠/ .

ويقول ابن سلام : « أجمع أصحابنا أن الأحمر كان أفرس الناس بيت شعر »<sup>(١)</sup> ، ويقول الأنخفش : « لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر الأصمى »<sup>(٢)</sup> ، ويقول أبو اليزيد : « أتيت بغداد حين قام المهدي محمد ، فوافاه العلماء من كل بلدة بأنواع العلوم ، فلم أر رجلاً أفرس بيت شعر من خلف »<sup>(٣)</sup> . ولكنهم مع الأسف يصفونه بأنه « كان يقول الشعر فيجيد ، وربما تحكّمه الشعراء المتقدمين ، فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم »<sup>(٤)</sup> ويقول أبو الطيب عبد الواحد اللغوي : « كان خلف يضع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يُعرف »<sup>(٥)</sup> ، ويذكر ابن قتيبة أنه « كان يقول الشعر وينحله المتقدمين »<sup>(٦)</sup> ، ويقول ابن عبد ربه : « وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيُحسّن وينحله الشعراء »<sup>(٧)</sup> ، ويذكر ابن النديم عنه أنه « كان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم »<sup>(٨)</sup> ، بل إنه هو نفسه يصرح بهذا في بعض الأخبار أنه قال : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ، وأعطيه المنحول فيقبل ذلك مني ، ويدنّاه في أشعارها »<sup>(٩)</sup> .

ومعنى هذا أننا أمام « مزيف » بارع يعرف أساليب العرب في الشعر ويقلدها ثم يحملها عليهم ، فلا يكادون يميزونها ، وهنا موطن الخطر ، فلو لم يكن خلف على هذه البراعة ، لاستطاع القلماء ، ولاستطعنّا نحن أيضاً ، أن نعرف ما هو صحيح النسبة إلى أصحابه مما يرويه من الشعر وما هو منحول عليهم .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١١ / ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ١١ / ٦٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست / ٥٤ .

(٤) ابن الأثير : نزّه الألباء في طبقات الأدباء / ٦٩ ، ٧٠ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ١١ / ٦٨ .

(٦) الشعر والشعراء / ٤٩٧ .

(٧) المقد الفريد ٥ / ٣٠٧ .

(٨) الفهرست / ٥٠ .

(٩) الأغاني ٦ / ٩٢ .

ولعل الأمر في اللامية الأخيرة « إن بالشعب » أيسر ، فإن الشك يكتنفها اكتنافاً شديداً لم تتعرض لمثله أية قضية أخرى من « ديوان الصعاليك » ، وتكاد مصادر الأدب العربي المختلفة لا تفتق على قائلها ، فهي مرة تُنسب إلى تأبط شرا<sup>(١)</sup> ، ومرة إلى ابن أخت تأبط شرا<sup>(٢)</sup> ، ومرة إلى الشنفرى<sup>(٣)</sup> ، هذا إلى جانب نسبتها إلى خلف الأحمر<sup>(٤)</sup> ، بل إن أبا تمام الذى ينسبها في حمامته في صراحة إلى تأبط شرا<sup>(٥)</sup> ، ينسبها في بعض المصادر الأخرى في صراحة أيضاً إلى الشنفرى<sup>(٦)</sup> ، بل الغريب أن تنسب أحياناً إلى الشنفرى في رثاء تأبط شرا<sup>(٧)</sup> ، مع أن المعروف أن الشنفرى قُتل قبل تأبط شرا ، وأن تأبط شرا هو الذى رثاه<sup>(٨)</sup> ، والجاحظ لا يعرض لما إلا متشككاً ، فهو يقول مرة : « وقال تأبط شرا أو أبو عرز خلف بن حبان الأحمر »<sup>(٩)</sup> ، ويقول مرة أخرى : « وقال تأبط شرا ، إن كان قائلها »<sup>(١٠)</sup> . وينقل ابن دريد بيتاً منها في أسلوب التشكك حيث يقول : « وقد روى البيت المنسوب إلى الشنفرى أو إلى تأبط شرا... »<sup>(١١)</sup> ، ووضع العبارة على هذه الصورة المتشككة ، والتعبير بكلمة « المنسوب » ، يشعران بما كان يدور في نفس ابن دريد من الشك في صحة هذه النسبة إلى أى من الشاعرين . ويقول ابن عبد ربه : « ويقال

(١) حجة أبي تمام ١٦٠/٢ . ولسان العرب : مادة (ملع) .

(٢) ابن عبد ربه : المقدم الفريد ٢٥٢/١ ، ٢٩٨/٣ ، ٣٤٥/٥ ، ٣٤٦ .

(٣) البغدادى : خزائن الأدب ٥٣٢/٣ . ولسان العرب : مادة (ملع) . وسهامة الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٤٩ .

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٩٧ .

(٥) حجة أبي تمام ١٦٠/٢ .

(٦) سهامة الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٥٠ .

(٧) البغدادى : خزائن الأدب ٥٣٢/٣ . ولسان العرب : مادة (ملع) . وسهامة الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٤٩ .

(٨) الأغاني ١٣٦/٢١ .

(٩) الحيوان ١٨٢/١ .

(١٠) المصدر السابق ٦٨/٣ .

(١١) جمهرة اللغة ٦٩/١ .

إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا وهو :

إن بالشعب السدى حون ملح      لقتيلاً دمه ما يطل  
 خلف الأحمر ، وإنه نحله إياه <sup>(١)</sup> . ويقول التبريزي في صراحة عن  
 هذا الشعر : « وذكر أنه لخلف الأحمر ، وهو الصحيح » <sup>(٢)</sup> . وكذلك يفعل  
 ابن قتيبة إذ يذكر في صراحة لا تحتمل شكاً أن قائل هذه القصيدة هو خلف ،  
 وهو يذكر هذا في ترجمته له <sup>(٣)</sup> .

ومعنى هذا أن العلماء لم يتفقوا على نسبتها إلى أحد من الشعراء الصعاليك ،  
 وإنما كان اختلافهم في هذا اختلافاً عريضاً ، وأنهم يقفون منها موقف التشكك  
 في صحة نسبتها إلى أي من الشعراء الصعاليك ، بل إن بعض من يُعتدُّ برأيهم  
 يصرحون في قوة بأنها لخلف .

ولكننا نعود فنقف أمام نص للخالدين في حماستهما يذكران فيه — بعد  
 أن ذكرا هذه القصيدة منسوبة إلى الشنفرى — « وقد زعم قومٌ من العلماء أن  
 الشعر الذى كتبنا للشنفرى هو لخلف الأحمر ، وهذا غلط » <sup>(٤)</sup> ، ثم يرويان  
 خبراً طويلاً <sup>(٥)</sup> عن الصولي عن أبي العيناء عن العتبي في إثبات هذا ، خلاصته  
 أن العتبي كان جالساً يوماً بالمريد مع « جماعة من أهل الأدب » ومعهم خلف  
 الأحمر يتذاكرون « أشعار العرب » ، ثم أخذ خلف ينشدهم قصيدة له  
 على روى هذه اللامية وقافيتها « يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة وما نالهم  
 وجرى عليهم من الظلم » ، إذ هجم عليهم الأصمعي ، وكان منصرفاً عن أهل  
 البيت ، فقطع خلف قصيدته ، ودخل في هذه اللامية ، ولم يكن في الجماعة  
 « أحدٌ عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى » ، فلما انصرف الأصمعي أقبلوا  
 على خلف يُطَرِّون سرعة بليته ، ومقلته على الارتجال ، ولكنه قال لهم

(١) العقد الفريد ٢٠٧/٥ .

(٢) شرح حجة أبي تمام ١٦٠/٢ .

(٣) الشعر والشعراء ٤٩٧ .

(٤) ورقة رقم ٢٥٠ (خطوة) .

(٥) من ورقة رقم ٢٥١ — إلى ورقة رقم ٢٥٤ .

« إن كان تقرّظكم لى لأنى عملت الشعر فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى  
تأبط شراً<sup>(١)</sup> ، والله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكموه  
ما أمسى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسه ، فادّعاء شعر  
لو أردت قول مثله ما تعذر على أهون عندي من أن يتصل بالسلطان فألحق  
باللطيف الخبير . »

والخبير على هذه الصورة يحمل فى ثيابه كذبه ، فإذا يحمل خلفاً على  
أن يدّعى أمام الأصمعى أن هذه القصيدة له ، ولا ينسبها صراحة إلى  
صاحبها ؟ ثم كيف نتصور أن الأصمعى لم يكن يعرف هذه القصيدة لو كانت  
حقاً للشنفرى أو غيره من الشعراء الجاهليين ، وهو الذى يقرنه الأنخفش بخلف  
الأحمر فى العلم بالشعر ، ويقول إنه لم يدرك أحداً أعلم بالشعر منهما<sup>(٢)</sup> ؟  
كيف نتصور أن خلفاً يسيء الظن بالأصمعى إلى هذا الحد الذى ينشده فيه  
قصيدة جاهلية ، ويدّعيها لنفسه ، دون أن يظن أن الأصمعى قد يكون يرويها  
هو أيضاً ؟ ثم كيف نتصور أن هذه « الجماعة من أهل الأدب » المجتمع  
لتذاكر « أشعار العرب » - على حد تعبيرات القصة - قد خلت من واحد  
يعرف أن هذه القصيدة جاهلية ؟ ثم أين سائر أفراد هذه « الجماعة من أهل  
الأدب » ولم لم يتذكر واحدٌ منهم غير العتي بهذا الخبر ؟

أما أنا فأرجح ترجيحاً شديداً أن العتي راوى هذا الخبر هو مختلفه .  
ويؤيد هذا انفراده بروايته ، وقوله إنه لم يبق من يعرفه غيره ، وأنه تحدث به  
فى مجلس له ورجلٌ يقرأ عليه شعر الشنفرى ، فلما وصل إلى هذه اللامية قال  
بعض من كان فى المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر ، فضحك العتي  
مستخفاً به ، ومضى يقص هذا الخبر . وهذا يجعلنا نرجح أن المسألة كانت  
تحدياً بينه وبين بعض الحاضرين ، وفى مثل هذا الموقف قد يعتمد بعض  
الناس إلى الاختلاق . ثم قد يكون العتي اختلق هذه القصة ليبرئ خلفاً من

(١) كذا فى المخطوطة (ورقة رقم ٢٥٢) وأظن أن صوابه « للشنفرى يرن تأبط شراً » .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٦٧ .

تهمة الكذب ، وكلاهما شيعي .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فقد حاول القدماء ممن نسبوها إلى خلف أن يدللوا على صحة هذه النسبة ، يروى التبريزي عن الثمري أنه قال « وما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها — جعل حتى دق فيه الأجل » — فإن الإعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا<sup>(١)</sup> . ويروى عن أبي الندى أنه قال « مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه مسلماً وهو بالمدينة ، وأين تأبط شراً من سلح ؟ وإنما قُتِل في بلاد هذيل<sup>(٢)</sup> » . ولكن صاحب معجم البلدان يذكر أن في ديار هذيل جبلاً اسمه سلح<sup>(٣)</sup> ، ولكنه — من ناحية أخرى — ينقل عن بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذه القصيدة ليست لتأبط شراً « بأن مسلماً ليس دونه شيعب »<sup>(٤)</sup> .

على هذه الأسس التاريخية والفنية نظن ، بل نرجح ، أن هذه اللامية ليست لأحد من الشعراء الصعاليك ولا في رثاء أحد من الصعاليك .

أما القصيدة الأخرى ، لامية العرب ، فإن الأمر فيها أصعب من هذا ، فليس حولها هذا الخلاف العريض الذي رأيناه حول اللامية الأولى ، فإن الرواة الذين تعرضوا لها ينسبونها إلى الشنفرى<sup>(٥)</sup> ، ما عدا صاحب تاج العروس الذي ينسبها إلى تأبط شراً<sup>(٦)</sup> ، وليس بين أيدينا من النصوص الصريحة على أنها ليست للشنفرى سوى نص يرويه القالي عن ابن دريد يذكر فيه أن هذه القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى لخلف الأحمر<sup>(٧)</sup> . وهو نص له قيمته ، لأن ابن دريد

(١) شرح حاشية أبي تمام ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٦١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٢/ ١٠٨ ، مادة (سلح) .

(٤) المصدر السابق ١/ ٥ (المقدمة) .

(٥) انظر على سبيل المثال التبريزي في شرحه على حاشية أبي تمام ١/ ٢٣٤ ، والبغدادى

في خزانة الأدب ٢/ ٤١٤ ، ٣/ ٢٣٤ ، والعيني في شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة

الأدب) ٢/ ١١٧ وإن كنا نلاحظ أن العيني يذكر أن الشنفرى هو عمرو بن براق ، وهو خلط ،

وهبة الله العلوي في ديوان مختارات شعراء العرب ٢١/ ، وحاشية الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ١٣٠ .

(٦) الأمل ١/ ١٥٦ .

(٧) مادة (آم) .



كان قريبَ عهدٍ بخلف ، فأكثر أخباره مرويةً عن تلاميذ الأصمعي عن خلف ، ثم إنه كان على صلة بأعمال المدرسة البصرية التي يسمي إليها خلف<sup>(١)</sup> ، فإذا أضفنا إلى هذا أن أبا الفرج قد أغفل هذه اللامية في ترجمته للشنفرى إغفالا تاماً ولم يشر إليها أى إشارة على كثرة ما روى من شعره<sup>(٢)</sup> ، كما فعل مع اللامية الأولى في ترجمته لتأبط شراً<sup>(٣)</sup> ، وأن لسان العرب—على كثرة ما نقل من شعر الصعاليك—لم يرد فيه أى ذكر لها ولا أى بيت منها ، بدأت كفة الشك في صحة نسبتها إلى الشنفرى ترجع .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فإن أول ما يلتفت نظرنا أن هذه اللامية طويلة طولا ليس مألوفاً في شعر الصعاليك ، وسرى فيما بعد أن شعر الصعاليك كان في مجموعه شعر مقطوعات ، فهذه اللامية تبلغ عمانية وستين بيتاً ، في حين لا تزيد أطول قصيدة في «ديوان الصعاليك» وهي ثمانية الشنفرى المفضلية على خمسة وثلاثين بيتاً في بعض المصادر<sup>(٤)</sup> ، أى أن هذه اللامية تبلغ ضعف أطول قصيدة في ديوان الصعاليك تقريباً . وإلى جانب هذا نلاحظ قلة الاضطراب في رواية ألفاظها ، وفي ترتيب أبياتها ، وهي ظاهرة ليست مألوفة في شعر الصعاليك ، فقد لاحظنا في أول هذا الفصل أن ممّا يميز شعر الصعاليك الاضطراب في رواية ألفاظه وترتيب أبياته . فإذا أضفنا إلى هذا ما لاحظته كرنكو<sup>(٥)</sup> من قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربى المبكرة ، زادت كفة الشك في صحة نسبة هذه اللامية إلى الشنفرى في الرجحان .

وقد نتساءل بعد هذا : ما السر في تلك العناية الغريبة التي لقيتها هذه

(١) Krenkow; The Ency. of Islam, Art. Al-Shanfara. (١)

(٢) ١٤٣ - ١٣٤/٢١ .

(٣) ٢١٨ - ٢٠٩/١٨ .

(٤) انظر في شرح ابن الأثير على المفضليات (ط بيروت) تعليق الأمتاذ Lyall

على البيت الأخير من الثانية (ص ٢٠٧) .

(٥) The Ency. of Islam, Art. Al-Shanfara, (٥)



اللامية حتى تؤلف فيها تلك الشروح الكثيرة المتعددة<sup>(١)</sup> ، وحتى يحرص الغربيون على ترجمتها إلى لغاتهم<sup>(٢)</sup> ؟

الذي يبدو لي أن سر إقبال الشراح العرب عليها هو أنهم وجلوا فيها مادة لغوية طيبة ، ثم أخذت المسألة تصبح لونا من التقليد والتنافس بين الشراح ، أما الغربيون فقد وجلوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب في الجزيرة العربية ، فكان اهتمامهم بها لغرض اجتماعي ، كما كان اهتمام العرب بها لغرض لغوي .

والحق يقال إن خلفاً قد صور حياة صعاليك العرب في هذه اللامية تصويراً رائعاً ممتازاً ، حتى ليصح أن تكون مصدراً من مصادر دراسة حياتهم الاجتماعية . والأمر الذي لاشك فيه هو أن خلفاً قد تمثل أولاً حياة صعاليك العرب وخصائص شعرهم الفنية ، ثم مضى يصور هذه الحياة وهذا الفن في قصيدة رائعة ، حاول ما استطاع أن يجعلها صورة صادقة لما عرّف عن شعرهم وأخبارهم ، حتى ليصح أن نطلق عليها لا «لامية العرب» وإنما «لامية الصعاليك» أو «دنيا صعاليك» .

(١) انظر فهرس دار الكتب المصرية في شروح هذه اللامية التي تبلغ أكثر من عشرين شرحاً .

(٢) انظر The Ency. of Islam, art. Al-Shanfara.

## الفصل الثاني

### موضوعات شعر الصعاليك

#### ١ - الشعر دخل دائرة الصعلكة

##### أحاديث المغامرات :

من الطبيعي - ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » - أن يكون أكبر ما يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم ، لأن هذه المغامرات هي « الحرفة » التي قامت عليها حياتهم ، والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته ، المعجب بها ، الفخور ببطولته فيها ، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة .

وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات ، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خططها ، إلى أن تنتهي الغارة ، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خططهم ، وحققوا أهدافهم ، وهم يصفون ، في أثناء ذلك ، الطريق الذي سلكوه ، ويتحدثون عن رفاق الغارة ، ودور كل واحد فيها ، وكيف نفذوا خططهم ، وكيف كانت آثارها في أعدائهم ، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا .

فهذا الشنفرى يخرج في عِدَّة من فِئَم<sup>(١)</sup> فيهم عامر بن الأخنس وتأبط شرا والمسيب وعمرو بن بركة ومرة بن خليف يقصدون العوص ، وهم حى من بجيلة ، فلما انتهوا من الغارة ، وأخذوا طريق العودة ، اعترضت لهم خنعم ،

(١) الأغاني ١٨/٢١٥ ، ٢١٦ ، وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٢ .

ودارت بينهم معركة انتهت بانتصار الصعاليك ، فلذا ما انتهت المعركة فرغ الشنفرى إلى فنه يحدثنا عنها حديثاً رائعاً فيه دقة وتفصيل ، يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج لها ، غير مبال بحياته أو حريص عليها ، وفيه المبالاة أو الحرص وهو يعلم أن أجله لا بد آت في يوم من الأيام :

دعيتى وقول بعد ما شئت إننى سيغدى بنعشى مرة فأغيب وهو لا يطيل في هذا الحديث لأنه في لطفة إلى أن يدرك رفاقه ، والموقف لا يحتمل ريثاً ولا إبطاء ، فليترك امرأته بعد هذا القول الفاصل «دعيتى وقول بعد ما شئت» ، وبعد هذا الحجة القاطعة «إننى سيغدى بنعشى مرة فأغيب» ، وليسرع إلى رفاقه في لطفة شديدة ، يمثلها انتقاله السريع من هذا الحديث إلى حديثه عن خروجهم في مغامرته . وهو يذكر لنا أنهم كانوا ثمانية ، وأنهم خرجوا جميعاً مسرعين ، لم يعجلوا إلى أحد بالقيام على شئونهم ، ولم يؤصوا أحداً بأهلهم ، وهم جميعاً فتيان كأنهم الذئاب ، وجوههم مشرقة لا تبدو عليها مظاهر جزع أو خوف :

خرَجنا فلم نعهد وقلت وصاننا ثمانية ما بعدها متعيب سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مذقب<sup>(١)</sup> ثم هاهم أولاء في طريقهم إلى هدفهم مسرعين ، لا يرجون على شيء حتى على الماء ، على شدة حاجتهم إليه ، وعلى علمهم أن الزاد ظن مغيب ، ثم هاهم أولاء بعد ثلاثة أيام على أقدامهم يصلون إلى هدفهم يتقدمهم دليل خفيف فارح شجاع :

نمر برهو الماء صَفْحاً وقد طوت ثمانتنا ، والزاد ظن مغيب ثلاثاً على الأقدام حتى مما بنا على العوص شَعْشاع من القوم محرب<sup>(٢)</sup>

(١) الذى هنا رواية الأغاني ، وفي الديوان « مستعيب » مكان « متعيب » . والسراحين :

الذئاب .

(٢) الرهو : مستنقع الماء . الثمانى جمع ثمانية وهى سقاء الماء . الشعشاع : الطويل الخفيف .

المحرب : الشديد الحرب الشجاع .

ثم يصور المعركة التي دارت قبيل الفجر ، في ظلام الهزيع الأخير من الليل ، وقد تنبه لهم الحى الذى يهاجمونه ، فعلت صبيحتهم ، واختلطت بصيحات الصعاليك . ودارت المعركة وقام كل من الصعاليك بدوره فيها فى بطولة وشجاعة : أما تأبط شرا فقد بدأ هجومه السريع بسيفه الذى يهتر فى يده لسرعة ضرباته ، وأما المسيب فقد أعمل فيهم سيفه فى تصميم لا يلين ، وأما الشنفرى فقد وقف للدفاع هو وجماعة من فتيان الصعاليك ، وثبتوا فى موقفهم ، حتى انجلت المعركة عن انتصار الصعاليك بعد أن قتلوا جماعة من أعدائهم وسلبوهم ، أما سائرهم - على كثرتهم - فقد انتابهم فرع شديد ، حتى خيل إليهم أن كل مرتفع من الأرض يصب عليهم كل الصعاليك الثمانية :

فشاروا إلينا فى السواد فهجهجوا      وصوت فينا بالصباح المثوب  
فشن عليهم هزة السيف ثابت      وصم فيهم بالحسام المسيب  
وظلت بفتيان معي أنقيهم      بن قليلا ساعة ثم خيَّبوا  
وقد خر منهم راجلان وفارس      كمي صرعناه وخوم مسلَّب  
يشن إليه كل ربيع وقلعة      ثمانية ، والقوم رَجُلٌ ومقنَّب<sup>(١)</sup>

وهنا ، وقد انتهى الشاعر من تصوير هذه الغارة الناجحة ، لم يعد أمامه هو وأصحابه إلا أن يسرعوا عائدين إلى قواعدهم سالمين ، ليحدثوا قومهم الصعاليك فى فخر واعتزاز بما قاموا به من بطولة :

فلما رأنا قومنا قبل أفلحوا      فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذب  
وهذا السليك يخرج مع رفيقين له يريدون الغارة      فى عشية فيها ضباب  
ومطر ، حتى يأتوا بيتاً قد انفرد من البيوت ،      ويأبى السليك إلا أن يكون  
بطل هذه الغارة ، فيخلف صاحبيه وراعه ،      ويتربص هو بمفرده ، حتى

(١) هجهجوا : صاحوا . المثوب : الداعي المكرر الدعاء . الخوم : الثقل . الربيع : المرتفع من الأرض . الرجل : الجماعة على أرجلهم . المقنَّب : الجماعة على الخيل - وقد خالفنا الأستاذ الميمى فى شرح البيت الأخير ( انظر الطرائف الأدبية / ٣٧ ) .

إذا خرج رب البيت بإبله ليعشيها تبعه السليك ، حتى إذا ما أخذت الشيخ سنة من النوم وقد غطى وجهه بثوبه من البرد سحنت القرصة للسليك ، فاستله من رداءه فضربه فأطار رأسه ، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره صاحبه ، فطردها معها<sup>(١)</sup> ، حتى إذا ما اطمأنوا فرغ السليك لفته مسجلا هذه المغامرة في هذه المقطوعة الرائعة :

وَعَاشِيَةٌ رَاحَتْ بِطَانًا ذَعَرَتْهَا	بِمِصْرُطٍ قَتِيلٍ وَمِصْطَهَا يَنْسِيْفُ <sup>(٢)</sup>
كَأَنَّ عَلَيْهِ لَوْنٌ بَرْدٍ مَحْبِرٍ	إِذَا مَا أَتَاهُ صَارِمٌ يَتْلَهْفُ <sup>(٣)</sup>
فَبَاتَ لَهُ أَهْلٌ خَلَاءَ فَنَازَوْهُمْ	وَمَرَّتْ بِهِمْ طَيْرٌ فَلَمْ يَتَعِيفُوا <sup>(٤)</sup>
وَبَاتُوا يَظُنُّونَ الظُّنُونُ ، وَصَحْبَتِي	إِذَا مَا عَلَوْا نَشْرًا أَهْلُوا وَأَوْجَفُوا <sup>(٥)</sup>
وَمَا نَلَتْهَا حَتَّى تَصْعَلَكْتُ حَقْبَةً	وَكَدْتُ لِأَسْبَابِ الْمَنِيَةِ أَعْرِفُ <sup>(٦)</sup>
وَحَتَّى رَأَيْتُ الْجُوعَ بِالصَّيْفِ ضَرَلِي	إِذَا قَمْتُ تَغْشَانِي ظِلَالُ فَأُسْدِفُ <sup>(٧)</sup>

فالشاعر الصعلوك هنا يبدأ مقطوعته من حيث انتهت مهمته الخطرة ، فهو لا يذكر شيئا عن خروجه للغارة ولا عن تربصه لها ، وإنما يبدأ بذكر طرده الإبل بعد أن قتل صاحبها ، كأنما هو فرح بتلك الغنيمة التي أنقذته من الجوع والإشراف على الهلاك ، فهو لا يرى إلا تلك الإبل التي نهبا ، ثم ينتقل إلى موازنة طريفة بين طرفي الصراع : بين أصحابه الصعاليك وأهل ذلك الشيخ القليل ، أما هؤلاء فقد خلا فناؤهم من إبلهم ، ولكنهم مطمئنون حتى لأنهم لم يتعيفوا الطير التي مرت بهم ، لأن خبر الغارة لما يبلغهم بعد ، وأما أولئك

(١) الأغاني ١٨/١٣٤ ، ١٣٥ ، والميداني : مجمع الأمثال ١/٢٩٩ .

(٢) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « وعاشية دوح بطن » ، و « بصوت قتيل » . والعاشية : الإبل ترمى ليلا . ويتسيف : يضرب بالسيف .

(٣) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « صارخ » مكان « صارم » ، وفيه أيضا « متلهف » . ويريد بقوله « لون برد محبر » طرائق الدم على القتل .

(٤) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « لها » مكان « له » .

(٥) كذا في المصدرين . النشز : المكان المرتفع . أهل : صالح ورفع صوته . أوجفوا :

حملوا الإبل على الوجيف وهو ضرب من السير .

(٦) كذا في المصدرين .

(٧) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « يغشاني » . أسدف أى أظلم بعصره من شدة الجوع .

فقد نجوا بغيرهم فوق طريق جبل وعمر ، وهم يصيحون صيحة الفرح والفوز ،  
ويحثون الإبل المهوبة على الإصرار بينما أهل الشيخ يفكرون أين استقر به  
وبإبله المقام ؟ وماذا أخره حتى تلك الساعة من الليل ؟ وفي هذه الغمرة من  
الفرح لا ينسى السليك أن يبرر غارته ، فهو لم يقدم عليها إلا بعد أن أصبحت  
المسألة مسألة حياة أو موت ، فقد أشرف على الهلاك لشدة فقره وجوعه ، حتى  
ليصيبه الدُّوار كلما قام لفرط ضعفه وإعيائه ، وتظلم عيناه لشدة هزاله وإجهاده .  
وهذا تأبط شرا يحدثنا في مقطوعة له <sup>(١)</sup> عن مغامرة طريفة من مغامراته ،  
خرج فيها إلى غار في بلاد هذيل ، أعدائه الألداء ، ليشتار عسلا ، وعلمت  
هذيل بخبره ، فوجدوا الفرصة سانحة ليتخلصوا منه ، فحاصروه في الغار  
وطلبوا إليه التسليم ، ولكنه راح يراوغهم وقد أخذ « يسيل العسل على فم الغار ،  
ثم عمد إلى زق فشده على صدره ، ثم لصق بالعسل ، ولم يزل يزلق حتى جاء  
سليماً إلى أسفل الجبل ، فنهض وقاتهم » .

يبدأ الشاعر الصعلوك قصيدته بأبيات في الحكمة يودعها خلاصة تجربته  
التي مر بها ، فالشخص الحازم هو الذي يستعين بالحيلة في مواطن الخطر ،  
لينجو بها منه ، وهو الذي يعمل للأمر حساباً قبل أن يأخذه على غرة ،  
وعلى المرء أن يكون مرناً في تصرفاته إذا ما سدت مناقد الأمر عليه :

إذا المرء لم يحتل وقد جدَّ جده أضاع وقامى أمره وهو مدبرٌ  
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً به الخطبُ إلا وهو للقصد مبصر  
فذاك قريع الدهر ما عاش حول إذا سدَّ منه منخرٌ جاش منخرٌ <sup>(٢)</sup>

(١) التبريزي : شرح حسانة أبي تمام ٢٨/١ وما بعدها ، والبغدادى : خزائن الأدب  
٣٥٧/٢ وما بعدها ، والعميق : شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ١٦٥/٢ - ١٧٠ ،  
وفي الأغاني ٢١٥/١٨ مع اختلاف في ترتيب الأبيات عن سائر المصادر الأولى ، ومع انفراد  
بزيادة بيت على آخر القصيدة ، وقد آثرنا رواية المصادر الأولى لأنها أدق في التعبير عن نفسية  
الشاعر .

(٢) قريع الدهر : يريد به المجرب البصير . وقوله : « إذا سدَّ منه منخر » المراد به إذا  
ضائق عليه الأمور ، وسدت المسالك .

فإذا ما انتهى الشاعر من هذا « الدرس النظري » انتقل إلى « التطبيق العملي » ، يبدأ به منذ أن تخرجت أموره حين محاصرته لحيان<sup>(١)</sup> ، وينقل لنا طرفاً من حوارهم ، ذلك الحوار الذي أراد أن يخدعهم به حتى يفرغ من إعداد وسيلة للنجاة :

أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابي ، ويومي ضيق الجحر معور<sup>(٢)</sup>  
 هما خطتا إما إसारاً ومنة وإما دم ، والقتل بالحر أجبر  
 وأخرى أصاды النفس عنها وإنها لمورد حزم إن فعلت ومصدر  
 ولا يكاد الشاعر يفرغ من هيئة وسيلة نجاته حتى يسارع إلى تنفيذها ، فإذا هو يفرش لها صدره في براعة تساعد عليها ضخامة صدره ودقة منته ، حتى نجا من الموت الذي وقف ينظر إليه خزيان ، ثم إذا هو في قبيلته وقد عاد إليها بعد أن كاد يهلك :

فرشت لها صدرى فزل عن الصفا به جوؤجو عبل ومتن مخصر<sup>(٣)</sup>  
 فخالط سهل الأرض لم يكذح الصفا به كذحة ، والموت خزيان ينظر  
 فأبئت إلى فهم ولم أك آيباً وكم مثلها فارقتها وهي تصفر<sup>(٤)</sup>  
 شعر المراقب :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم ، تحدثوا أيضاً عن تربصهم بأعدائهم ، وترصدتهم لضحاياهم ، وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، فوق المرتفعات العالية التي يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناس ولا يرونهم ، والتي كانوا يسمونها « المراقب » . وتكرر في شعر الصعاليك هذه الأحاديث

(١) لحيان : بطن من هذيل .

(٢) الوطابي : جمع وطب وهو سقاء اللبن . وصفرت : خلعت . والمراد بقوله « صفرت لهم وطابي » أن نفسه أشرفت على الهلاك بسببهم . والمعور : التي انكشفت عورته للعدو فهو مكشوف غير محصن . والمراد بقوله « ويومي ضيق الجحر معور » أنه في مركز حرج ضيق المذاقة .

(٣) الصفا : الصخر . والجوؤجو : الصدر . والعبل : الضخم .

(٤) فهم : قبيلته . وقوله « وهي تصفر » المراد به أنها تلغظ في أمره ، وتكرر القول في شأنه ، أو المراد أنها تتأسف على إفلاته منها .



الى يصح أن نطلق عليها « شعر المراقب » .

والمرقبة التي يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائماً منيعة أية على سواه ، وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقها والليل مقبلٌ يغشى الكون بدياجيه الكثيفة ، ليكون هذا أمعن في التخفي ، وأقرب إلى مواتاة الفرصة ، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم ، و « الليل أنحنى للويل » كما يقول العرب في أمثالهم <sup>(١)</sup> ، و « الصعاليك نومهم قليل » كما يقول الشاعر الصعلوك عمرو بن براقة <sup>(٢)</sup> .

ويرسمُ الشنفرى في قصيدة من شعره لوحةً رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز عنها الصيادُ الماهر الخفيف الذي يخرج بكلايه المضرة للصيد ، ويصف كيف صعدَ إليها وقد أقبل الليل بظلامه الحالك الشديد الذي يلف الكون ، وكيف قضى الليل فوقها مربصاً ، مُخدباً على ذراعيه مبالغة في تخفيه كما يتطوى الأفغوان المنكسر ، ولا شيء معه سوى نعلين باليتين ، وثياب أخلاق ، ثم أصحابه الذين لا يفارقونه ، سيفه وقوسه وسهامه :

ومَرْقَبَةٌ عِيْطَاءٌ يَقْصُرُ دُونَهَا	أَخْرَجَ الضَّرْوَةَ الرَّجُلُ الْخَفِيفُ الْمَشْفُفُ
نَمِيتُ إِلَى أَعْلَى ذُرَاهَا وَقَدْ دَنَا	مِنَ اللَّيْلِ مَلْتَفٍ الْحَدِيقَةَ أَسْدَفُ
فَبِتَ عَلَى حَدِّ الذَّرَاعَيْنِ مُخْدَباً	كَمَا يَتَطَوَّى الْأَرْقُشُ الْمُتَقْصِفُ
قَلِيلٌ جَهَازِي غَيْرَ نَعْلَيْنِ أَسْحَقَتْ	صَلَوْرُهُمَا مَخْصُورَةٌ لَا تُخْصِفُ
وَمَلْحَفَةٌ دِرْسٌ وَجَرْدٌ مَلَاعَةٌ	إِذَا أَنْجَمَتْ مِنْ جَانِبٍ لَا تَكْفِفُ <sup>(٣)</sup>

(١) الميداني : مجمع الأشكال ١٢٠/٢ .

(٢) الأغاني ١٧٥/٢١ .

(٣) الأغاني ١٤٠/٢١ ، ١٤١ . وديوانه في الطرائف الأدبية ٣٧ . وديوانه المصور

لوحة رقم ٥٠ . ورواية الأبيات في المصدرين الآخرين مضطربة يكثر فيها التحريف ، ولذا آثرنا رواية الأغاني - العيطاء : للعالية المرتفعة ، أو الآية المتنعة . أخو الضروة : الصياد معه كلاب ضراها للصيد . الرجل يسكون الجيم وفتح الراء كالرجل بضمهما . المشقف : التحيل . الأسدف : المظلم . مخدباً : من أسحب إذا انحنى . أسحقت : بلوت . الملحفة : ما يلبس فوق الثياب من دثار البرد ونحوه . الدرس بكسر الدال : الثوب الخلق ، ومثله الجرد بفتح الجيم . أنجمت : ظهرت وطلعت . كف الثوب : غاط حاشيته .



فإذا ما قتل الشفري ، ووقف تأبط شرا يرثيه ، لم ينس تلك المراقب  
الشيء الى طالما رُبضَ فوقها في انتظار فرائسه ، فرائس الغزو وفرائس الثأر :  
ومرّقة شماء أقعيت فوقها ليغمّ غاز أو ليدرك<sup>(١)</sup> ثائر<sup>(٢)</sup>  
وأما عند تأبط شرا فالمرّقة ذات صورة طريفة ، إنها مرّقة تعلو سائر  
المراقب ، وهي - إلى جانب هذا - معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء  
عليها ثياب بالية ، ولكنه - مع ذلك - ما إن يتتصف الليل حتى ينهض إليها  
ليبدأ في تنفيذ خططه :

ومرّقة يا أم عمرو طيرة مذبذبة فوق المراقب عيطل  
نهضت إليها من جشوم كأنها عجوز عليها هذمل ذات خيعل<sup>(٣)</sup>  
وأما ذو الكلب فالمرّقة التي يتربص فوقها بعيدة واسعة عالية ملساء ،  
وهو متربص فوق حرقها طول يومه يمتحن شخصه ، حتى إذا حانت الفرصة  
تحلر فوقها وهو ما يزال متخفياً كما يتحلر الماء الصافي :

ومرّقة يحار الطرف فيها تزل الطير مشرفة القدال  
أقمت برّيدها يوماً طويلاً ولم أشرف بها مثل الخيال  
ولم يشخص بها شرفي ولكن دنوت تحدر الماء الزلال<sup>(٤)</sup>  
وأما أبو خراش فالصورة التي يرسمها لمرقته أشمل وأكثر تفصيلاً ،  
فهى مرّقة في تنوء مشرف من الجبل كأنه حد الفأس ، يشرف على طريق  
ضيق كأنه النفق ، يتسرب فيه الناس بعضهم في إثر بعض ، وقد أقيم فوق  
هذا التنوء عرش يستظل المتربص تحته ويختفي فيه ، ولكن هذا العرش قديم  
مهلم لم يبق منه إلا عودان أحدهما قائم والآخر ملقى على الأرض :

(١) ديوان الشفري في الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) لسان العرب ، مادة (عطل) ، ومادة (جثم) . ويرى البيت الثاني أيضاً في أمالي  
الغلي / ١ - ٢٨ - الطيرة : المرّقة . العيطل : الطويلة . الحذل : الثوب الخلق . الخيمل : ثوب  
من ثياب النساء كالقميص ، أو هو قميص لا كين له .

(٣) شرح أشعار الهذليين / ١ - ٢٣٧ - القنال : الرأس ، يريد به رأس المرّقة . الريد :  
الحرف ينذر من الجبل ، ومعنى البيت الثاني أنه أقام بها متكياً ولم يتم مشرفاً .

لستُ لمرةً إنَّ لم أوف مرقبةً      يبدو لي الحرفُ منها والمقاصيبُ  
 في ذات ريد كذلتُ القاسُ مشرفةً      طريقها مَرَبٌ بالناس دُعيوبُ  
 لم يبقَ من عرشها إلا دعامتها      جذلان : منهدمٌ منها ومنصوبٌ<sup>(١)</sup>  
 ولكن أبا خراش يختلف هنا عن زملائه شعراء المراقب ، فهو لم يكن  
 وحيداً فوق مرقبته ، وإنما كان معه صاحب له ، وهو معنيٌ بصاحبه  
 أكثر من عنايته بنفسه ، فهو صاحبٌ حذر قوى النفس لم يرضَ لها أن يكون  
 عبداً راعياً ، وإنما آثر أن يكون صعلوكاً عاملاً ، يتربص فوق المراقب في  
 سواد الليل ، رافضاً تلك الراحة البغيضة التي ينعم بها الضعفاء الذين لا خير  
 فيهم ، ممن يؤثرون النوم والدفع على العمل والكفاح :

بصاحب لا تُنالُ الدهر غرتهُ      إذا افتلى الهدفَ القينَ المعازيبُ  
 بعثته بسواد الليل يرقبني      إذ آثر النومَ والدفعَ المناجيبُ<sup>(٢)</sup>  
 ويمضي أبو خراش بعد ذلك مضيفاً إلى صورة صاحبه خطين آخرين ،  
 فهو قائم فوق هذه المرقبة كأنه السهم ، ثم هو سَمَحُ النفس على نحافته وقلة لحمه :  
 يظل في رأسها كأنه زَلَمٌ      من القداح به ضرُسٌ وتعقيبُ  
 سَمَحٌ من القوم عريانُ أشاجعه      خَفُ النواشرُ منه والظنابيبُ<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ ، ١٦٠ - أوفى : أشرف . الحرف من الجبل : أعلاه المحدد ،  
 وقد رجعنا من قبل أنها هنا تحريف صوابه « الحرف » بمعنى النبات ، بدليل « المقاصيب » التي تأتي  
 بعدها ، وهي الأرض تنبت النبات الرطب . ذلق القاس : حدها . السرب : الشائع الذي يشرب  
 فيه الناس بعضهم في إثر بعض . الدعيوب : الموطوء . الجفل : العود .

(٢) ديوان الهذليين ١٦٠/٢ - اختلى الهدف أي ظلاه من أهله ، أي عزله وفصله . الهدف :  
 الثقليل الوحش من الرجال . القين : التي أبو عبد وأمه أمة . المعازيب : الإبل والشاء التي تعرب من  
 أهلها في المرعى . يريد بصاحب ليس براع يجعله إبله وشائه عن أهله . المناجيب : الضعفاء الذين  
 لا خير فيهم .

(٣) المصدر السابق ١٦١ - الزلم بفتح الزاي وضمها : القمح لا يريش عليه . الضرس :  
 تأثير العض . عريان أشاجعه يعني ليس بكثير اللحم . النواشر : عصب ظهر الكف . الظنابيب :  
 عظام الساق أو حرفها .

وأما صخر الغي - وإن لم يرد فيا بين أيدينا من شعره حديث عن المراقب - فإن حديثها قد ورد عنه في رثاء شاعر هذلي له هو أبو المثلث ، حيث يصفه بأنه « رباء مرقبة » (١) .

وأما عروة فصفة الرعامة لا تفارقه ، فهو لا يقف ربيئاً لأصحابه ، وإنما يبعث أحدهم ليرقب لهم الطريق فوق المرتفعات ، وهو يرسم في بعض شعره صورة لهذا الرقب ، وقد وقف فوق مرقبة ثابتاً لا يتحرك كأنما غرس فوقها ، ولكن عينيه لا تستقران ، فهو يقلبهما دائماً في الفضاء الذي يحيط بهن ، حيث أناخوا إبلهم ، وأوقدوا مواقدن بهيئون لأنفسهن طعاماً :

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة      بعثنا ربيئاً في المرائي كالجدل  
يقلب في الأرض الفضاء بطرفه      وهن مناخات ومرجلنا يغلي (٢)

التواعد والتهديد :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن التربص والترصد تحدثوا عن التواعد والتهديد ، حتى يجمعوا بين ركني الجريمة القانونيين : التربص وسبق الإصرار ! وأكثر من يتوعدن الشفري بنو سلامان ، أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم ، والذين كانوا السبب المباشر لتصعلكه ، والذين عاهد نفسه ليقتلن منهم مائة بما اعتبلوه (٣) . وهو يتوعدن في شعره توعداً عنيفاً ، فيعلن لهم أنه - ما لم يحل الموت بينه وبينهم - لن يكف عن غزوهم ، فالمسألة عنده مفروغ منها ، وكل ما يرجوه أن يمد الله في أجله حتى يشق غليله منهم حين يلاقين في عفر دارهم :

فإلاً تزرزني حثفتي أو نلاقني      أمش بدهور أو عدا في بنورا  
أمشي بأطراف الحماط ، وثارة      ينفض رجلى بسبطاً فعصنصرا  
أبغى بني صعب بن مريد دارهم      وسوف ألاقينهم إن الله أخرا

(١) شرح أشعار الخليلين ١/ ٣٤ .

(٢) ديوانه / ١١١ ، ١١٢ - الجبل هنا جلع الشجرة .

(٣) انظر الأغاني ٢١/ ١٣٤ .

ويوماً بذات الرُّمُس أوبطن منجَل هنالك نَبَغِي القاصِي المتغوراً<sup>(١)</sup>

وهو إذا كان يتأخر عن غزوهم أحياناً فليس هنا دليلاً على أنه قد كف عنهم ، وإنما هو يمهّلهم إلى حين ، وهو واثق من قوته على غزوهم ، فهو يعرفهم وهم يعرفونه ، وأحب شيء إليه أن يغير عليهم ، وأن يقطع الطريق على سادتهم ، وهو الخبير بطرق الصحراء ومسالكها ، القدير على الاهتداء في مجاهلها :

كَأَنَّ قَدْ ، فَلَا يَغُرُّكَ مَنِي تَمْكُئِي ، سَلَكْتُ طَرِيقاً بَيْنَ يَرْبَغَ فَالْسُرْدِ  
وَإِنِّي زَعِيمٌ أَنْ أَلْفُ عَجَلَجَتِي عَلَى ذِي كَسَاءٍ مِنْ سَلَامَانَ أَوْ بَرْدِ  
وَأَمْشِي لَدَى الْعَصْدَاءِ أَبْنَى مَرَاتِهِمْ وَأَسْلُكُ خَلّاً بَيْنَ أَرْقَاعِ وَالسُرْدِ  
هُمْ عَرَفُونِي نَاشِئاً ذَا مَخِيلَةٍ أَمْشِي خِلَالَ الدَّارِ كَالْأَسَدِ الْوَرْدِ  
كَأَنِّي إِذَا لَمْ أَمْسِ فِي دَارِ خَالِدِ بَنِيَاءَ لَا أَهْدِي سَبِيلًا وَلَا أَهْدِي<sup>(٢)</sup>

أما عمرو ذو الكلب فيعلن أعداءه بأن الصراع بينه وبينهم سيكون مريباً لا رحمة فيه ، الويل فيه للمغلوب ، وينذرهم بأنه لن يرحمهم إذا ظفروا بهم ، كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا هم ظفروا به ، فليكن الصراع بينه وبينهم عنيفاً ، وليغزهم برفاقه الصعاليك الشجعان الذين يختلف عددهم بين الواحد والجماعة ، وهو — فوق ذلك كله — يتوعدهم بأنه لن يكف عن غزوهم حتى يقتلهم ويرمل نساءهم :

فَإِنْ أَتَقِفْتُمُونِي فَاقْتُلُونِي وَإِنْ أَتَقَفْتُ فَسَوْفَ تَرَوْنِي بِأَلِي  
فَأُبْرِحُ غَازِيًا أَهْدِي رَعِيلًا أَوْ مِ سَوَادَ طُودِ ذِي نِجَالِ  
وَيُبْرِحُ وَاحِدٌ وَاثْنَانِ صَحْبِي وَيَوْمًا فِي أَضْيَافِ الرِّجَالِ

(١) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٥ ، ٣٦ . والأغاني ١٣٥/٢١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ١٠ ، ١١ . مع اختلاف في الألفاظ والترتيب — وهو أو وهو ، وعداف ، وبنور ، وبسبط ، وحصنصر : أسماء جبال . الخياط : شير يشبه شير التين . بنو صعب بن مرهم إخوة سلامان . ذات الرمس وبطن منجل : موضعان .

(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٤ . والأغاني ١٣٥/٢١ . ولبيكري : معجم ما استعجم ١٢٩/١ . يربغ : موضع بين عمان والبحرين . السرد وأرقاع : جبلان لبني سلامان ، وبهما منازلهم . العصداة : أرض لبني سلامان . الخلل : الطريق يتغصن في الرمل ، أو الناقص بين جبلتين ، أو الناقص في الرمل المتراكم .

بفتيان عمارط. من هذيل هم ينفون أناس الحلال  
وأبرح في طوال اللعرج حتى أقيم نساء بجلة بالنعال<sup>(١)</sup>  
وأما تأبط شرا فقد كان أوسع ميداناً من ذى الكلب ، فإنه لا يقنع بغير  
غزو خشم وبجيلة وثمالة وهذيل ، وهو يرد الفضل في هذا كله إلى قدميه اللتين  
أودع الله فيهما عذاباً وشراً يصيبهما عليهما :

أرى قدى وقعهما خفيف كتحليل الظلم حذا رثالة  
أرى بهما عذاباً كل يوم لخشم أو بجيلة أو ثمالة  
وشراً كان صب على هذيل إذا علفت حبالهم حباله<sup>(٢)</sup>  
وهو لا يترك دم صليقه دين أن يثأر له ، وإنما يهدد بالانتقام الشنيع ،  
يقتل فيه الرجال ، ويسبي النساء ، فأكبر همه كما يقول « دم الثأر أو يلقي  
كباً مسفحاً »<sup>(٣)</sup> ، غاية ما في الأمر أنه يحترم تقاليد مجتمعه الدينية ، فيؤخر  
انتقامه حتى تنهى الأشهر الحرم :

لعدوا شهور الحرم ثم تعرفوا قتيل أناس أو فتاة تعانق<sup>(٤)</sup>  
وهو في هذا الاحترام لمقدمات مجتمعه يخالف تلميذه الشفري الذي  
يصرح في بعض شعره بأنه قتل قتيلاً في أيام حجه وسط الحجيج المصوت بمنى :  
قتلنا قتيلاً مهدياً بمليسد جمار منى وسط الحجيج المصوت<sup>(٥)</sup>

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٢٢/١ ، ٢٢٤ - أثقفه : ظفر به . الرمال في البيت الأول  
معناه الحال . قوله « فأبرح غازياً » يريد به غلا أبرح . الزميل : الجماعة المتقدمة . النجال :  
ما يخرج من الأرض . الأصامير : الجماعات ، واحداً إصمارة . العمارط : الصماليك . الحلال :  
جميع حلة ، والمعنى أنهم يمرون بأصحابها فيهربون من غزوهم . بجلة : قبيلة .

(٢) الأغاني ٢١٨/١٨ ، وأيضاً ٢١٦ - التحليل : العدو . الرمال : جمع رال وهو  
ولد النعام . حذا : حاذى .

(٣) حكمة أبي تمام ٤٦/١ . والأغاني ٢١٧/١٨ وفيه « مقنما » مكان « مسفحاً » .

(٤) الأغاني ٢١٤/١٨ . الحرم : الإحرام . ويريد بقوله « فتاة تعانق » سبية تقع في  
أسره .

(٥) للمفضليات ٢٠٥/٢١ . والأغاني ١٤٠/٢١ وفيه « مغلها بين الحجيج » . وأيضاً ١٣٧ =

الشعراء الصماليك

ومن أطرف ما تصادفه في هذا الباب توعد الصعلوك للصعلوك ، وتأتي طرافته من أنه يمثل صراعاً بين قوتين متكافئتين ، ومن هنا كان حرص كل منهما على تجنب الاصطدام بالآخر من أخص ميزات هذا اللون من التوعد ، ولكن هذا الحرص ليس جيئاً ، وإنما هو محاولة لتفادي الكارثة ، ولهذا كان حديث الشاعر الصعلوك عن حرصه هذا مقروناً عادةً بحديثه عن قوته ، ومقلوبته على التغلب على خصمه إذ أن أي ضعف يبدو منه في هذا الحديث قد يكون سبباً في أن يدفع حياته ثمناً له ، ولهذا كله كان توعد الصعلوك للصعلوك في شعر الصعاليك قليلاً جداً ، ولعل أصدق مثال لهذه « الحرب الباردة » بين الشعراء الصعاليك توعدُ صخر الغي المذليل لتأبط شراً ، أو ابن تَرْتَنِي كما كان يلقبه ، فهو في قصيدة له يصفه أولاً بأنه يعاني صراعاً نفسياً ، مسبباً حقدته عليه وعجزه عنه ، ثم ينصحه ثانياً بأن يخفف من حدة هذا الصراع النفسي ، ولكنه يحذره من أن يجعل وسيلته إلى ذلك الاصطدام به ، فإنه لو فعل لآتى حظه لا محالة ، ثم يعود فيخفف قليلاً من حدة أساوبه ، فيمزج العنف باللين في حديث فيه لباقة وفيه دهاء ، يجعل وسيلته إليه أن يشير إلى بعض الصفات المحمودة في خصمه ، ويسأله ألا يكون سبباً في الإساءة إليها :

فإن ابن تَرْتَنِي إذا جشتكم	أراه يُدافعُ قولاً عنيفاً
قد أفتى أنامله أزمه	فأُمسى بعض على الوظيفة
فلا تقعدن على زخه	وتضمرن في القلب وجداً وخيفاً
ولا تُقمن على خطه	تكون إماماً لك حتماً ذيفاً
ولا أبغينك بعد التهي	وبعد الكرامة شراً ظليفاً
ولا أرقعنك رقع الصدي	ح لاعم فيه الصناع الكثيفاً <sup>(١)</sup>

= وفيه « قتل حرام » و « بطن من وسط الحبيج » ، وهي رواية البغدادي في خزائن الأدب ١٨/٢ - المهدي : الذي يقدم المهدي . والمليد : المحرم للثوب يأخذ صمغاً فيلبه به شعره لئلا يشعث في مدة الإحرام . والمثني : قتل رجلين محرماً بربيل محرم . وقوله « جمار من » أي عند جمار من . والمصوت : المني الذي يرفع صوته للطلبية في الحج .

(١) شرح أشعار المذليين ١/٤٦ ، ٤٧ - الأزم : الضم . الوظيف : الفراع . الزخه : =

## وصف الأسلحة :

ومن الطبيعي أن يتحلىث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم ، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ، تلك القوى الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا في رثائه للشنفرى حيث يقول :

فلا يبعدن الشنفرى ، وسلاحه الـ حديد ، وشد خطوه متواتر<sup>(١)</sup>  
والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي ، سواء منها أسلحة الهجوم : السيف ، والرمح ، والقوس ، والسهام ، أو أسلحة الدفاع : الدرع ، والدرس ، والمغفر . ويلج الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحاً شديداً ، وليس في هذا غرابة ، إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة ، وهي من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة . وفي أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لورثته بعد موته سوى درع ومغفر وسيف ورمح وجواد<sup>(٢)</sup> ، فهذا كل ما يحرص عليه في حياته ، وكل ما يبذل محافظاً عليه إلى آخر رمت منها حتى يرثه ورثته من بعده .

وبصرح صخر الغي في بعض شعره بأنه حريص على سلاحه لا يفتر فيه ، لئلا يطمع فيه أحد من أولئك الذين يتوعلونه ، ويتربصون به ، من أعدائه الذين طالما وترهم ، فهو بعدد سلاحه في قصيدة طويلة له ويصفه ، ثم يقول عنه :  
ذلك بزى . فلن أفرطه أخاف أن ينجزوا الذي وعثوا<sup>(٣)</sup>  
ويصل اعتداد الأعمى الهنلي بسلاحه إلى درجة أنه يرى فيه وسيلة تنقله من

الغيت . الخيف : جمع خيفة . الخف الثقيف : القاتل الذي يجهز عليه . الظليف : الشديد أو الغليظ . رقه : أصله بالرقاع كرقه (بالشديد) . الصديق : النصف من الشيء المشقوق نصفين . لام . أصلح . الكنيف : الضبات ، يريد لا أرقمك بالمجاء .

(١) الأغاني ١٢٧/٢١ . وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية ٢٩ - الشد : الجرى .

(٢) انظر ديوانه ٢٠٧ .

(٣) شرح أشعار الهنليين ١٢/١ - والبز : السلاح .



دائرة البشرية إلى دائرة يكون فيها صنواً للموت :

منى ما تلقى ومعى سلاحى تلاق الموت ليس له عليل<sup>(١)</sup>  
ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة ووصف المفتون بها الذى يتم  
بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل فى حديثه عنها كل شيء فيها : لونها ،  
وشكلها ، وصوتها ، وطريقة صنعها ، وطريقة استعمالها ، وقيمتها فى حياته ،  
وفعلها فى أعدائه .

قال سيف عند عمرو بن براقة « جل ماله » لا يفارق يمينه ، بل هو طوع  
أمرها ، ولكن لحمله تقاليد ، فصاحبه يجب أن لا ينام الليل ، إذ أن من تقاليد  
حمله أن يكون صاحبه من « أبناء الليل » الذين يراعون حتى « أبوته » :

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم  
غموض إذا عض الكربة لم يدع له طمعاً ، طوع اليمين ملازم<sup>(٢)</sup>  
وهو عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد أن تجتنبه المظالم فى ذلك

الجمع الذى يدين بشريعة القوة :

منى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم<sup>(٣)</sup>  
وهو عند عمرو ذى الكلب الهذلي وشاح لصدره :

تمنأى وأبيض مشرفياً وشاح الصدر أخلص بالصقال<sup>(٤)</sup>  
وصخر الفى الهذلي حريص على أن يرسم لسيفه صورة دقيقة ، فهو سيف  
ماض من حديد جيد أصيل ، رقيق الشفرتين ، يجرى الفرند فى متنه ، ثم هو  
سيف متنى ، فلا عنه سيوف أريج حتى أخرجه من بينها سيفاً معلوم النظير ،  
لا تقوى أشد العظام على ضربته ، وإنما تنكسر تحتها قطعاً :

وصارم أخلصت خشيته أبيض مهو فى متنه ربد

(١) المصدر السابق / ٦٣ .

(٢) القال : الأمال ١٢٢/٢ ، والأغانى ١٧٥/٢١ ، وفيه « صوت » مكان « غموض » ،

و « مكارم » مكان « ملازم » . والسيف التوض : لقي ينيب فى العلم .

(٣) المصدران السابقان : الأمال الصفحة نفسها ، والأغانى / ١٧٦ .

(٤) شرح لشعار الهذليين ٢٣٥/١ .



فَلَوْتُ عَنْهُ سَيْوْفَ أَرْيَحَ إِذْ بَاءَ بِكَفَى وَلَمْ أَكِدْ أَجْدُ  
 فَهُوَ حَسَامٌ تَتَرُّ ضَرْبَتُهُ سَاقِ الْمَذَكِيِّ فَعَظَمَهَا قَصْدُ<sup>(١)</sup>  
 أما تأبط شرا فيعرض علينا صورة طريقة سيفه ، فهو - إلى جانب أنه  
 حاد ثقيل لا يفارقه حتى أبلى عمله - سيف أصيل إذا كل لا يحتاج إلى  
 صيقل ، وإنما حسبه أن يحده صاحبه على الصخر فإذا هو حاد كما كان :  
 فطارَ بِقَحْفِ ابْنَةِ الْجَنِّ ذُو مَفَاسِقَ قَدْ أَخْلَقَ الْمُحْمِلَا  
 إِذَا كُلُّ أَمْهِيتِهِ بِالصَّفَا فَحَدَّ وَلَمْ أَرَهُ صَيَقِلَا<sup>(٢)</sup>  
 وأما الشنفرى فيهم بأثر سيفه في أعدائه ، وبالحدث عن براعته في استخدامه ،  
 فهو يقصد به أطراف سواعدهم : ليعجزهم بذلك عن العمل :  
 وَأَبْيَضُ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ مَهْنَدٌ مِجْدُ لِأَطْرَافِ السَّوَادِ مِقْطَفُ<sup>(٣)</sup>  
 وهو حريص على أن يصور رفاقه ونفسه في غاراتهم وهم يستخدمون سيوفهم  
 في الهجوم والدفاع حتى ينهزم أعدائهم :  
 فَشَنُّ عَلَيْهِمْ هِزَّةَ السَّيْفِ ثَابِتٌ وَصَمَّ فِيهِمُ بِالْحَسَامِ الْمَسِيبُ  
 وَظَلَّتْ بِفَتْيَانٍ مَعِي أَنْقِيَهُمْ بَيْنَ قَلِيلَا سَاعَةً ثُمَّ خَيَّبُوا<sup>(٤)</sup>  
 ولا يعدل وصف السيف عند الشعراء الصعاليك إلا وصفهم القوس  
 والسهم . وأكثر من اهتم بوصفها منهم الشنفرى والهلاليون . ويبدو أن مرد هذه  
 الظاهرة الفنية إلى ظواهر اجتماعية خاصة في حياتهم ، فقد كان الشنفرى - كما  
 يصوره الرواة مفتونا بسهامه ، حريصاً على أن تكون معلمة يعرفها الناس ،

---

(١) المصدر السابق / ١٢ - خشية : طيمه . مهر : رفيق الشفرتين . ربه : أى لم  
 تخالف لونه ، يريه القرفد . قلا : بحث . أريح : قرية بالشام . باء بكفى : أى صار بكفى .  
 تر : تبرى . المذكى : المن أو اليدى . القصد : الكسر ، أو القطع فيما مع .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ - مفايق السيف : طرائقه . أمهى السيف : أحده .

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٨ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . والأغاني ٢١ / ١٤١  
 وفيه : فحد لأطراف السواعد معطف . والتحريف فيه واضح .

(٤) الأغاني ١٨ / ٢١٦ ، وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٣٢ - للفسير في « بن »  
 يعود على السيوف المفهومة من السياق .

فكان يميزها بعلامة خاصة حتى تعرف ، ويحدثنا الرواة أنه كان « يصنع النبل ويجعل أفواقهم من القرون والعظام » ، فكان أعداؤه إذا رامهم « يعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم »<sup>(١)</sup> ، وأما المذليين فقد عرف عنهم الرمي من بين ثلاث صفات مميزة سجلها لهم القدماء<sup>(٢)</sup> .

وهم يصفون السهام في جميع أطوارها ، منذ برئها ، وتركيب الريش فيها ، حتى استخدامها ، في الرمي ، كما يصفون نصالها وأفواقها . ويتحدث الشنفرى في بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها ، وكيف يركب في قدامها الريش ، وكيف يتابع فيها البرئ حتى تصير صالحة للاستعمال ، ثم يتحدث عن قيمة هذه السهام التي أعطاها هدية لأعدائه الذين يغضهم :

وَرَدْتُ بِمَأْتُورٍ يَمَانٍ وَضَالَةٍ      تخيرتها مما أريش وأرُصِفُ  
أركبها في كل أحمر غائر      وأنسجُ للولدان ما هو مُقْرِفُ  
وتابعتُ فيه البرئ حتى تركته      يرنُ إذا أنزفته ويزفرفُ  
بكنى منها للبغض عِراضَةً      إذا بعتُ خلا ما له متعرفُ<sup>(٣)</sup>

ويتحدث في مقطوعة أخرى عن رميه أحد أعدائه بسهم قوى لا عوج فيه ، ثم يصف أجزاء هذا السهم ، فهو عود من نج عليه ريش من ريش العقاب ، وله فوق كانه عرقوب المقطاة :

ومستبسل ضاق القميص ضمنت      بأزرق لا نكس ولا منعوج

(١) الأغاني ١٤٢/٢١ - « أفواقهم » كذا في المصدر ، ومن الواضح أنه خطأ صوابه « أفواقها » . وأفواق جمع فوق وهو موضع الورع من السهم .

(٢) يقول الأصمى : « إذا قاتك الخذل أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه » . (المصدر السابق / ٥٧) .

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٢٨ . والأغاني ١٤١/٢١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ . مع اختلاف في الروايات ، ولكن هنا رواية المصدر الأول - المأثور : السيف . الضالة : يريد بها هنا السهام . النثرة : غيرة إلى خضرة . القزوف : الداني . أنزفته : كذا في نسختي الديوان ، وأظنها تحريفاً صوابه ما في الأغاني « أنفلة » . الزفزة : صوت القذح حين يدار على الظفر . العراضة : الهدية . الخذل : الطريق في الرمل .

عليه نُسارى على خوط. نبعة وفوق كعقوب القطاة مُدخَرَج<sup>(١)</sup>  
وأما عمرو ذو الكلب فيعنى بوصف اتصال مهامه لأنها التى يكمنُ في  
ستانها الموت ، فهى حيناً رماح طائفة يكسوها ريش منسول :

وَتُجْرَأُ كالرماح مسيرات كسين دَوَاخِلَ الريش التَسَالِ<sup>(٢)</sup>  
وهى حيناً آخر كأنها شوكُ العضاء :

وفى قعر الكنانة مرهفاتُ كأن ظلماتها شوكُ السبال<sup>(٣)</sup>  
وهم يتحدثون أحياناً عن عددها ، فهذا الشفري يصف تأبط شرا أو  
أم العيال ، كما كان يسميه مداعباً ، ويذكر عدد مهامه التى يحملها فى  
جعبته :

لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً إذا آنستُ أولى العدى أقشعرت<sup>(٤)</sup>  
أما حين يذكرون القوس فأشد ما يهتمون به صوتها حين ينبضون فيها ،  
أو حين يهينون للرى ، فهو صوت يفتنهم فتنة شديدة تبدو فى ذلك الإلحاح  
الشديد على تسجيله فى شعرهم ، وليس فى هذا غرابة فإن هذا الصوت ليدان  
ببده عملهم الذى وهبوا حياتهم له . وصوت القوس فى سمع صخر ألفى عندما  
ينبض فيها كأنه أصوات قوم يبحثون عن شىء قتلوه :

وَسَمَحَةٌ من قِيسٍ زَارَةٌ صفراء هتوفُ عِدَادُهَا غِرْدُ

(١) ديوانه المطبوع / ٣٤ . والأغانى ١٤١/٢١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢ .  
مع اختلاف فى رواية اليبين - الأثرية يريد به السهم . النكس : السهم ينكسر فوقه فيجبل أعلاه  
أسفله . النسارى : ريش النسارية وهو العقاب ، ويذكر الميخى فى تعليقاته على الديوان أنه لم يجردها  
فى المعاجم ، وقد ظن أنها من ريش النسر . المخرج : المنور .

(٢) شرح أشعار المهذلين ١/٢٣٥ - الثير : جمع أثير وهو التصل المريض الوسط .  
التسال : ما تساقط من الريش .

(٣) شرح أشعار المهذلين ١/٢٣٥ - السبال : قبات له شوك أبيض طويل ، أو ما طال  
من السمر .

(٤) المفضليات / ٢٠٤ . والأغانى ١٤٠/٢١ وفيه « سلحيا » و « إذا ما رأت » -  
الوفضة : اللعبة . البحر : السهم المريض التصل . العدى : القوم من الرجال . أقشعرت :  
تهيات للقتال .

كَأَنَّ إِرْنَانَهَا إِذَا رُدَّتْ هَزْمٌ بُغَاةٌ فِي إِثْرِ مَا فَقَدُوا<sup>(١)</sup>  
ولكنه في سمع عمرو ذى الكلب عجيجٌ ، كأنه حنين ناقة مسنة تسبقها  
إبل شابة فتية ، فهي عاجزة عن مسايرتها وهي لهذا دائمة الحنين :

وَفِي الشَّالِ سَمْحَةٌ مِّنَ النَّشْمِ صَفْرَاءُ مِنْ أَقْوَاسِ شِيْبَانِ الْقَدَمِ  
تَعِجُ فِي الْكَفِّ إِذَا الرَّاىِ اعْتَزَمَ تَرَنَّمَ الشَّارِفِ فِي أُخْرَى النَّعَمِ<sup>(٢)</sup>  
وهو في سمع الشنفرى رنين وهتاف ، ولكنه رنين حزين كصوت الشجى  
أثقلته شجونه وأحزانه :

وَصَفْرَاءُ مِنْ نَبْعِ أَبِي ظَهِيرَةٍ تَرْنُ كَارْنَانَ الشَّجَى وَهَتَفُ<sup>(٣)</sup>  
ولكن هذا الصوت الحزين الخافت يتقلب عندما تأخذ السهام في  
الانطلاق إلى صوت نشط مدو كأنه دوى نحل عائد إلى غاره ، فهو ملتف  
حوله مطيف به ، يبحث عن منفذ إلى داخله في نشاط ودوى :

إِذَا طَالَ فِيهَا النِّزْعُ تَأْبَى بِعَجْسِهَا وَتَرَى بِذُرْوَيْهَا بَهَنَ فَتَقْدَفُ  
كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فَوْقِ عَجْسِهَا عَوَازِبُ نَحْلِ أَخْطَأَ الْغَارَ مُطْنِفُ<sup>(٤)</sup>  
والشنفرى لا يكتفى بهذا ، بل يأبى إلا أن يكون دقيقاً في وصفه ، فهو  
يلاحظ أن للقوس عند الرمي صوتين : صوتاً عند بدء الرمي ، وصوتاً بعد الانتهاء  
منه ، فانطلاق السهم يبدأ بصوت عال صارخ ، ثم ما إن ينطلق السهم حتى  
يهدأ رنين القوس ، ويتحول إلى صوت ضعيف خافت نتيجة لاهتزازات وترها ،  
فهما صوتان مختلفان ، أما أولهما فهو عنده صياح ، وأما الآخر فأنين كأنين الجريح :

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ١٢٠. وديوان الهذليين ٢/ ٩٠ - المسحة : القوس المواتية .  
زارة : حى من أزد السراة . عدادها : صوتها . فرد : شديد الصوت .  
رست : أنبض فيها . الهزم : الصوت .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ - للنشم : شجر . الشارف : الناقة المسنة .

(٣) الأغاني ٢١/ ١٤١ . وديوانه المطبوع ٢٨/ ٣٨ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٠ ،

وفيها « وحمراء » بدلا من « وصفراء » - الظهيرة : القوة الظهور .

(٤) الأغاني ٢١/ ١٤١ . وديوانه المطبوع ٢٨/ ٣٨ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ ،

مع اختلاف في الروايات - القيس ، خلعة العين ، مقبض القوس . والنروان : طرفها . والمطنف :  
الذى يماو الطنف وهو رأس الجبل .

وقاربتُ من كفى ثم فرجتها بترع إذا ما امتكرة النزغُ مخلج  
فصاحت بكفى صيحة راجعت بها أنين الأميم ذي الجراح المشجج<sup>(١)</sup>  
وكما يهيم الشعراء الصعاليك بصوت القوس ، يهتمون أيضاً بلونها ، وهي عند  
الهذليين في ضوء ما وصل إلينا من شعرهم صفراء دائماً :

وسمحة من قسى زارة صفراء هتوف عداها غرد<sup>(٢)</sup>  
وصفراء البراية عود نبع كوقف العاج في ورك حُدال<sup>(٣)</sup>  
وفي الشمال سمحة من النشم صفراء من أقواس شيبان القدم<sup>(٤)</sup>  
ولكنها عند الشنفرى أحياناً صفراء وأحياناً حمراء ، ويبدو أن مرد هذا إلى  
دقة ملاحظة الشنفرى ، وصدق تعبيره عن تجاربه ، فالقوس تكون صفراء  
في أول أمرها ، فإذا ما كثر استعمالها وتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية  
صارت حمراء . يقول في ثائته متحدثاً عن أصحابه في بعض غزواته بهم :

وباضعة حمسر القسى بعثتها ومن يغز يغتم مرة ويشمت<sup>(٥)</sup>  
ويقول في قصيدة أخرى :

وصفراء من نبع أبي ظهيرة تُرن كإرنان الشجي وتهنف<sup>(٦)</sup>  
ومن هنا اختلف الرواة في هذا البيت ، فبعضهم يرويه « وحمراء من

(١) الأغاني ٢١/١٤١ ، ١٤٢ . وديوانه المطبوع ٢٤/ . وديوانه المصور ، لوحة  
رقم ٥٢ ، مع اختلاف في الروايات - النزغ : مد القوس . مخلج : من خلج بمعنى جلب ونمز  
وانزع ، وفي نسخة الديوان « مخلج » من خلج التذاف . الأميم : المشجوج على أم رأسه .  
(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ١ .  
(٣) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٥ - الوقف : السوار . الورك : جانب القوس ، ويجرى  
الور منها ، والقوس المصنوعة من ورك الشجرة أي عجزها . القوس الحُدال : التي مال منقها ،  
وتطامنت إحدى سبيلتيها .

(٤) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٢ .  
(٥) المفضليات ٢٠٢/ - الباضعة : القاطعة ، ويريد بها قوماً غزاة . حمسر القسى : يقول  
ابن الأنباري في شرحه على المفضليات ٢٠٣/ « غزوا مرة بعد مرة فاسمرت قسيم للشمس والمطر ،  
والقسي تحمر على القدم » . يشمت : يخيب ولا يتم .  
(٦) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٣ .

نبح<sup>(١)</sup>، ولكن من الطريف أن تأبط شراً في رثائه له يصف قومه بأنها صفراء:  
يُفْرَجُ عَنْهُ غُمَّةُ الرُّوعِ عَزْمَةٌ      وصفراء مرتان وأبيض باتر<sup>(٢)</sup>  
أما وصف الصعاليك للرماح فهو قليل ، ولعل السبب في هذا قلة اعتمادهم  
عليها في معاركهم ، وذلك لأنها من الأسلحة التي يستعملها الفرسان أكثر  
من يستعملها الرجال ، ومن هنا كان أشهر من تحدثت عنها من الشعراء  
الصعاليك عروة بن الورد وهو من الصعاليك الفرسان<sup>(٣)</sup> ، وهو يرسم في رائيته  
المشهورة صورة راتبة له ولأصحابه ، وهم على خيلهم يطاردون إبلا نهبوها ، وقد  
أشروعوا رماحهم وسيفهم ليدفعوا عنها أصحابها الذين خرجوا خلفهم ليستردوها :  
سيفزِعُ بعد اليأس من لا يخافنا      كواسحُ في أخرى السَّوامِ المنفر  
نطاعنُ عنها أولَ القومِ بالقنا      وببيض خفاف ذات لون مشهر<sup>(٤)</sup>  
وهي صورة تستمد روحها من صلتها بحيويتها ، فهذه الخيل القوية السريعة  
التي يمتطيها الفرسان الصعاليك مشغولة بمطاردة أخريات الإبل النهبية ،  
أما فرسانها أنفسهم فمشغولون بمقاتلة طلائع القوات المهاجمة من أصحاب الإبل .  
وقد مر بنا أن عروة ذكر رمحاً من بين الأسلحة التي هي كل ما سيخلفه لورثته  
من بعده ، وهو يذكر أنه رمح أسمر ، قتاته من الخطى المشهور ، ثم هو رمح  
مقوم معتدل :  
وأسمرُ خطى القناة مشقفٌ      وأجردُ عريانُ السراة طويل<sup>(٥)</sup>  
والطريف في حديث عروة عن رمح أنه لا يذكره إلا مقترناً بجواده ،  
كما نرى في هذين المثلين ، مما يؤكد تعليلنا لقلة وصف الشعراء الصعاليك للرماح  
بأنها من أسلحة الفرسان .

(١) انظر الموضع السابق ، الحاشي قس .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع / ٧٨ . وحاشية الخالعين (مخطوطة) ، ورقة رقم ٤١٧ .

(٣) الأغاني ٧٢/٣ .

(٤) ديوانه / ٨٢ ، ٨٤ .

(٥) انظر ص ٥٤ من هذا البحث .

ومع ذلك نجد عند بعض الصعاليك السرويين آثاراً ضئيلة من أحاديث الرماح . يتحدث تأبط شرا ، في رثائه لصاحبين له قتلا في بعض غزوهما ، عن مغامراته بفتيان من الصعاليك يحملون في أيماهم نوعين من الأسلحة ، ماحاً سمرأً وتصالاً ذات شعبتين :

لأَطْرَدُ نَهْياً أَوْ نَرُودَ بَفْتِيَةٍ بِأَيْمَانِهِمْ صَمْرَ الْقَنَا وَالْفَتَاتِقُ<sup>(١)</sup>  
ويتحدث الشنفرى عن طعنه قنلةً أيه طعنةً مامةً تخرج من حولها سم ثعبان خطر :

فَإِنْ تَطَلَعْنَا الشَّيْخَ الَّذِي لَمْ تَفُوقُوا مَنِيَّتَهُ ، وَغَبْتُ إِذْ لَمْ أَشْهَدْ  
فَطَعْنَةً خَلَسَ مِنْكُمْ قَدْ تَرَكْنَاهَا تَجْ عَلَى أَقْطَارِهَا سُمٌّ أَسْوَدُ<sup>(٢)</sup>  
ويتحدث أبو الطمحان عن ضرب يزيل الرعوس عن الأعناق ، وطعن شديد يحدث صوتاً كأنه تشهاق ولد الحمار حين يهم بالنهق :

بضرب يزيل الهام عن مسكناته وطعن كتشهاق العفا هم بالنهق<sup>(٣)</sup>  
وهي جميعاً - ما عدا بيت تأبط شرا - حديث عن آثار استخدام الرماح في الطعن ، وليست وصفاً صريحاً لها .

ومن الطريف أننا لا نجد حديثاً عن الرماح في شعر صعاليك هذيل ، ما عدا بيتاً واحداً لأبي خراش ، وهو مع ذلك ليس في مقام الحديث عن

(١) الأغاني ١٨/٢١٤ - النهب : الغنيمة . والفتيق : التمثل له شعبتان .

(٢) ديوانه المطبوع ٣٥/ . وشرح ابن الأنباري على المفضليات ١٩٨/ - لم تفوقوا : يرى المصنف في تعليقاته على الديوان أنه تحريف « ولعل صوابه لم تفوتوا من الفوت » ، ويرى Bozan أن صوابه « لم تفوقوا » ( انظر تعليقاته على هذا البيت في شرح المفضليات ١٩٨/ ) ، وعندى أن الكلمة صحيحة لا تحريف فيها ، وأنها من فوق الفصيل إذا سقاء الذين فواقا فواقا ، والفواق ما بين الحلبتين من الوقت ، والمفوق ما يؤخذ قليلاً قليلاً من مأكل ومشروب ، ويكون المني على هذا « أنكم طعنتموه طعنة قائلة لم تدع له فرصة للنجاة » . والطعن خاص بالرماح ( انظر العماليق : فقه اللغة ٣٠١/ ) .

(٣) لسان العرب : مادة ( شق ) . والسيوطي : المزهري ٢/ ٢٢٤ ، وفيه « بضرب كاذان الفراء فضوله » - السكة : مقر الرأس من العنق . التشهاق : الشيق . العفا : ولد الحمار .



استخدامه لها ، وإنما في مقام تشبيه إخوته الذين يرثيهم بها <sup>(١)</sup> .

وكما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحة المهجوم ، يتحدثون عن أسلحة الدفاع : الدرع والبرص والمغفر ، ولكنه حديث خافت الأنغام . وهذا طبيعي لأن الصعاليك ليسوا في حاجة إلى أسلحة للدفاع لأن سلاحهم الدفاعي الأول - أو بتعبير أدق - سلاح أكثرهم سرعة العدو الحارقة للعادة ، وهو سلاح طالما استخدموه فأنجأهم . ولهذا كان طبيعياً أن يتحدث عروة عن درعه ومغفره كما نرى في أبياته التي أشرنا إليها والتي يتحدث فيها عما سيخلفه لورثته من بعده ، فإن عروة كما نعرف عنه لم يكن من العدائين ، ومع ذلك لم يتحدث عن هذه الأسلحة الدفاعية إلا في هذا الموضع ، إلا إذا كان شعر عروة الذي بين أيدينا ليس كل شعره ، وكان في شعره المفقود حديث عن هذه الأسلحة الدفاعية . ولكن الغريب حقاً أن يرد ذكر هذه الأسلحة الدفاعية في شعر صعاليك هذيل ، ووجه الغرابة أن الهذليين مشهورون بالعدو ، فهم ليسوا في حاجة إلى هذه الأسلحة الدفاعية لأن سلاحهم معهم دائماً . ومع ذلك فالمسألة لا تصل إلى درجة المشكلة لأن حديث صعاليك هذيل عن هذه الأسلحة لم يتجاوز حديثهم عن البرص فقط ، وهو مع هذا حديث خافت الأنغام لا يعلو حالتين : إما إشارة سريعة له ، وإما وصفاً لصنعه ، فصخر الغنى يشير إلى ترسه ، عند ذكره لمجموعة أسلحته ، أو « بَرَزَه » كما يسميها ، إشارة سريعة لا تتجاوز جزءاً من شطر يصفه فيه بأنه مقبب موثق :

إني سينهي عني وعيدهم بيض رهاب ومجنأ أجد <sup>(٢)</sup>

وقد يكون عمرو ذو الكلب أشد عناية بترسه من صخر الغنى ، فهو يفرد له بيتاً في إحدى قصائده يصفه فيه بخمس صفات : فهو أسمر ، مقبب ، مصنوع من جلد ثور ، أصم لا خلل فيه ، نصيبه النصال فترتد عنه وقد تكسرت ظلماتها :

(١) ديران الهذليين ١٢٤/٢ (البيت الأول) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ - رهاب لى رفاق . مجنأ لى مقبب . أجد أى موثق



وَأَسْمَرَ مُجَنًّا مِنْ جِلْد ثَوْرٍ أَصَمَّ مَقْلًا ظُبَةَ النَّصَالِ<sup>(١)</sup>

أما أبو خراش ، ثالث الصعاليك الهذليين الذين وصفوا الترس ، فقد وصف ترسه بأنه موشق ، مصنوع من جلد ثور ، ولكن وقته طالت عند هذه الصفة الثانية ، إذ مضى يصف هذا الثور ، وكيف نشأ في واد خصيب مطير ، حتى شب قوياً يطمئن الثيران المتصدية له ، فترتد دامية من طعناته ، ضخماً كأنه خيمة كبيرة :

أَوَاقِدَ ، لَا آلُوكَ إِلَّا مَهْنَدًا      وَجِلْدَ أَبِي عَجَلٍ وَثِيقَ الْقَبَائِلِ  
غَدَاهُ مِنَ السَّرِينِ أَوْ بَطْنِ حَلِيَّةٍ      فَرُوعُ الْأَبَاءِ فِي عَمِيمِ السَّوَائِلِ  
مِشْبُ إِذَا الثَّيْرَانِ صَدَتْ طَرِيقَهُ      تَصْدَعُنْ عَنْهُ دَامِيَاتِ الشَّوَاكِلِ  
يَقْلُ عَلَى الْبَرْزِ الْيَفَاعَ كَأَنَّهُ      طِرَافٌ رَمَتْ أَوْتَادُهُ عِنْدَ نَازِلِ<sup>(٢)</sup>

وهكذا نستطيع أن نقرر ، في ضوء ما بين أيدينا من شعر الصعاليك ، أنهم بقدر ما كانوا حريصين على ذكر أسلحة الهجوم ، مفتونين بوصفها ، كانوا نفورين من ذكر أسلحة الدفاع ، مقلين من وصفها .

### الحديث عن الرفاق :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التي يستخدمونها في مغامراتهم ، يتحدثون عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها ، ودور كل واحد منهم . وما أكثر ما نجد في شعرهم ألفاظ الرجُل ، والمنسِير ، والسُرْبِيَّة ، والمِقْسَب ، والفتيان ، والأهصاب ، والصحب ، والقوم ، وأمثال هذه الألفاظ التي تدل على الجماعة ،

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٥ .

(٢) ديوان الهذليين ٢/ ١٢٩ - لا آلوك : لى لا أدع جهداً فى لمرى . أبو عجل هو الثور .

السرين : هى رتقة السرين بلدة على الساحل قريية من مكة بين حل وبيعة . الأباء : القصب . العميم : ما اعتم من النبت فى سواقل المطر ، والسواقل الأماكن التى تسيل بالماء . المشب : الشاب من الثيران أو المنس . الشواكل : كل لحم مضطرب بين الجنب والورك . الطراف : الخيمة .

وما أكثر ما نجد في شعرهم استخلام ضمير الجماعة، يعبرون به عن رفاقهم لا عن قبائلهم .

وقد مر بنا في صدر هذا الفصل<sup>(١)</sup> حديث الشفري في بانيته عن رفاقه الذين خرج معهم ليغزوا العرّص، أولئك الرفاق الثمانية الذين يعتر بهم ، ويملاً الإعجاب بهم نفسه ، حتى ليصفهم بأنهم :

سراحينُ فتیانُ كأن وجوههم مصابيحُ أولونُ من الماء مذهبُ  
ورأينا كيف وصف خروجهم معه ، وسيرهم إلى العوص ثلاث ليال على الأقدام ، والدور الذي قام به كل واحد منهم في الغارة ، فمن مهاجم بسيفه لا يشئ ولا يلين ، ومن مدافع عن رفاقه يحمي ظهورهم ، حتى تم لهم النصر ، وعادوا بغنيمتهم إلى قومهم الصعاليك .

وفي تائيته المفضلية المشهورة بحدثنا الشفري أيضاً عن غزوة له لبني سلامان أعدائه الألداء ، بل ألد أعدائه ، على رأس جماعة من رفاقه الصعاليك<sup>(٢)</sup> ، وهو يبدأ الحديث برسم صورة لرفاقه ، صورة سريعة ولكنها قوية وصعبة ، فهم جماعة من الغزاة المغامرين قد احمرت قسبهم لكثرة غزواتهم ، ويقدم نفسه لنا رئيساً عليهم ، يبعثهم للغزو وهو يعلم أن النصر والهزيمة أمران يتعرض لهما كل مغامر ، وما احتمال الهزيمة بصارف له عن المغامرة ، فهذه طبيعة المغامرة ، ومن يغزُ يغتم مرة ويشمت مرة أخرى . ثم بعد أن ينتهي من تقديم رفاقه وتقديم نفسه ، يأخذ في وصف خروجهم ، فيحدد أولاً الموضع الذي اجتمعوا فيه بأمره تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ثم يذكر الدوافع التي دفعت إلى هذه المغامرة ، ثم يهون على نفسه مشقة الطريق ، فستنتهي هذه المشقة باقترابه من هدفه حيث يراوح أعداءه ويقاديههم بغاراته ، ثم يعود بعد هذا إلى رفاقه ليتحدث عنهم حديثاً طويلاً ، وهو يخص أحدهم — وهو تأبط شرا الذي كان يقوم على زادهم في غزواتهم ، ويتولى أمر « التمين » فيها — بحديث مرح

(١) انظر : ص ١٨٢ من هذا البحث .

(٢) المقفليات / ٢٠٢ - ٢٠٥ وانظر أيضاً ص ٥٠ من هذا البحث .

يلاعبه فيه ملاعبة طريفة ، فهو «أمهم» التي تقوم على قوتهم ، وتقر عليهم مخافة أن تطول القزاة بهم فيموتوا جوعاً ، يعلن أنه غير راض عن هذه السياسة التي تنتهجها «أمهم» لأن «عيلها» جياع من تقثيرها ، فما تخشاه عليهم توقعهم فيه ، ولكنها لا تؤثر نفسها بشيء عليهم ، حتى لقد أصبحت نحيلة دقيقة ، وهي «أم» ليست كسائر الأمهات ، إنها غير محجة ، لا يحجبها سر ، ولا يضمها بيت ، تحمل جعبة فيها ثلاثون مهماً عريضة النصال ، وتعلم في سرعة فائقة وفي يمينها سيف صارم بتار :

وأمٌ عيالٍ قد شهدتُ نفوتهم      إذا أطعمتهم أوتحتُ وأقلتِ  
تخاف علينا العيل إنْ هي أكثرُ      ونحن جياع ، أيُّ آلٍ تألتِ  
مصعكة لا يقصرُ السر دونها      ولا تُرتجى للبيت إن لم تُبَيَّتْ  
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً      إذا آنستُ أولى العدى أقشعرتُ  
وتألى العدى بارزاً نصفُ ساقها      تجول كعير العانة المتلفت  
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم      ورامتُ بما في جفرها ثم سلَّتْ  
حسام كلون الملح صاف حديدُه      جرّاز كاقطاع الغدير المنعتُ  
تراها كأذئاب الحسيل صوادراً      وقد نهلتُ من الدماء وعَلَّتْ (١)  
ويتحدث عروة كثيراً عن أصحابه ، ولكنه حديث الزعيم أو القائد ، لا حديث الرفيق أو الزميل ، فهو يدعوهم إلى الخروج معه للغزو والغارة :

أقيعوا بنى لبنى صدور مطيكم      فإن منايا القوم خيرٌ من الهزل

(١) أوتحت : أقلت . العيل : الفقر . قوله «أي آل تألت» يعني أي سياسة ماست ، يقال آله أولاً إذا ماسه . مصعكة بكسر اللام : صاحبة صعايلك ، وبفتحة : الوضة : الحمية ، والسيحف : السهم المريض النصل . العدى : القوم من الرجالة . أقشعرت : تهيأت للقتال . المتلفت : أي التي يتلفت إلى الخمر يطرد عنها عن أفتة ، ويرى «المتلفت» أي التي يتلفت إلى قتال الخمر عن عانته ، والعانة : حماة الأذن الوحشية . الجفر : الكنازة . الجراز : السيف القاطع . الحسيل : جمع حيلة وهي أولاد البقر ، شبه السيوف بأذئاب الحسيل إذا رأت أمهاتها فنبعت تحرك أذناها .

فإنكم لن تبلغوا كل همي ولا أرتبي حتى تروا منبت الأثل<sup>(١)</sup>  
وهو يصرح بأنه سيقزو بهم - لا معهم - ليحقق أهدافه ، أو يرضى  
نفسه :

فإني لمستاف البلاد بمرية فمبلغ نفسي عنرها أو مطوف<sup>(٢)</sup>  
وهو قائد بارع ، يجمع جنوده ، ويخرج بهم فرساناً ورجالة ليغيروا ،  
حتى إذا ما انتهت الغارة ، وأخلوا طريق العودة ، ونزلوا عند بعض المياه لينحروا  
مما نهوه ، حتى ينالوا حظهم من الطعام والراحة ، تحول القائد البارع إلى قائد  
حذر ، يبعث ريثاً منهم فوق شرق عال ، ليراقب لهم الطريق حتى لا يفجأهم  
علو وهم غافلون :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي وشدي حيازيم المطية بالرحل  
سيلفني يوماً إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبحل  
قليل تواليا وطالب وترها إذا صحت فيها بالقوارس والرجل  
إذا ما هبطنا منهلا في مخوفة بعثنا ريثاً في المرائي كالجدل  
يقلب في الأرض الفضاء بطرفه ومن مناخات ، ومرجلنا يغلي<sup>(٣)</sup>  
ولعل أطرف ما في حديث عروة عن أصحابه حديثه عن مضايقاتهم له ،  
وشكواه من بعض تصرفاتهم التي يضيق صدره بها ، وبخاصة تنكرهم له  
بعد أن ينصبوا ويستغنوا ويصبحوا كالأغنياء الممولين ، ولكنه - مع هذا  
كله - يغفر لهم ، لأنهم عياله وأبناؤه ، وهو أبوهم الذي يتقبل منهم ما يرتكبونه  
في حقّه ، ثم لأنه يقوم منهم مقام السيد الذي تفرض عليه سيادته أن يتحمل  
ما يصدر عنهم ، فيحفو عن جاهلهم ، ويغفر لمسيئهم ، ثم لأنه أخيراً يقف

(١) ديوانه / ١٠٦ - شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ٩٠٨/٢ - مع اختلاف لفظي يسير.

(٢) ديوانه / ٩٢ .

(٣) ديوانه / ١٠٨ - ١١٢ . الهجمة : الجماعة من الإبل - أولاً ليرسوق إلى ما زادت ،  
أو ما بين السبعين إلى المائة ، أو إلى دويتها .

منهم موقف الزعيم الخبير بنفسية جماهيره<sup>(١)</sup> .

ويتحدث تأبط شرا عن رفاقه حديث المعجب بهم ، المعتر برفقتهم ،  
المقدر لقيمتهم في حياته المغامرة ، تلك الحياة التي يحياها وحيداً إلا منهم ،  
فهم عون على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفرعه أمر .  
وهم دائماً أبطال شجعان شعث ، لكثرة اشتغالهم بالغزو والكفاح ، والضرب في  
أعماق الصحراء ، وجوب آفاقها ، عيونهم نقاذة تتوقد بنار الحماسة والحرارة  
والإقدام كأنها نار الغضا المتأججة :

مساعرة شعث كأن عيونهم حريق غصاً تلقى عليه الشقائق<sup>(٢)</sup>  
وهو لهذا لا ينسى أبداً فضلهم وقيمتهم في مغامراته ، وهو يسأل الله أن  
يتولى عنه جزاءهم ، لأنه عاجز عن جزائهم :

جزى الله فتياناً على العوص أمطرت مهاوهم تحت العجاجة بالدم<sup>(٣)</sup>  
فإذا ما سقط أحطم صريعاً اشتد جزعه عليه ، فإذا مصابه فيه لا يعدله  
مصاب ، وإذا آماله في الحياة تنهار :

أبعد قتيل العوص أمى على فتي وصاحبه أو يأمل الزاد طارق<sup>(٤)</sup>  
وهو يرى أن فقد أحطم خسارة لا تعوض ، وإضعاف للجماعة التي تشق  
طريقها في الحياة بقوة أبنائها ، وكسر لسلاح من أسلحتها يستحق الأسف ،  
بل يستحق الأمى والحزن والبكاء ، وهو - على قلة دموعه - لا ييخل بها على  
من تفقده هذه الجماعة من أبنائها الممتازين ، أولئك الذين يمتازون بما يجب  
أن يمتاز به كل صعلوك عامل : من بصر بكسب المحامد ، وسبق إلى غايات  
المجد ، وقوة وزعامة بين الرفاق ، وخفة في الجسم ، وجرأة على اقتحام الأهوال

(١) انظر أبياته اللاحقة التي يقص فيها قصة من هذه المضايقات في ديوانه من ص ١١٢ - إلى  
ص ١١٨ ، ومن ص ١٢٢ - إلى ص ١٢٥ .

(٢) الأغاني ٢١٤/١٨ - مساعرة : جمع مسر وهو موقد نار الحرب . والشقائق هنا  
المراد بها أعشاب الجبال .

(٣) الأغاني ٢١٥/١٨ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٤ .

والسرى في الليل البهيم للظلم ، وشجاعة فائقة ، ورأى صائب ، وكرم واسع ،  
وفصل في الأمور ، وحب الحركة والتزور ، ويتنص للدعة والإقامة والاستقرار :

لكنما عولى إن كنتَ ذا عولٍ      على بصير يكسب الحمد سباق  
سباق غاياتٍ مجتدٍ في عشيرته      مرجع الصوت هذا بين أرفاق  
عارى الظنابيب ممتد نواشره      مدلاج أدمٍ واهى الماء غساق  
جمال ألوية ، شهاد أنلبة      قوال محكمة ، جواب آفاق  
فذلك همى وغزوى أمتغيث به      إذا استغثت بضاق الرأس نفاق<sup>(١)</sup>

ومن هنا كثرة رثائه لأصحابه ، فهو رثى لم ولذكراهم ، لا تنسبه إليهم  
شواغل حياته . وهو يرثى صديقه الأعز ، وتلميذه النابتة ، الشفري ، رثاء  
حاراً تتجلى فيه تلك اللوعة التي أصابته بعده ، وتلك الحسرة التي استشعرها  
لفقدته ، وتلك الفجعة التي لا يجد لها دفماً ، وهو يأسف لأنه لم يكن معه  
في ساعة الشدة حين قتل ، إذن لو وقف إلى جانبه أنحاً ناصراً معيناً :

فلو نبأتنى الطيرُ أو كنت شاهداً      لآمالك في البلوى أخ لك ناصراً<sup>(٢)</sup>  
وهو لا ينسى في غمرة هذا الأسى أن يسجل تعاونهما معاً في ساعات  
الشدة ، وأوقات الكفاح :

إذا راعَ روعَ الموتِ راعٍ      وإن حمى حمى مع حرٍ كريمٍ مصابراً<sup>(٣)</sup>

(١) المفضليات / ١٢ - ١٥ . للمولى : الإعوال . مرجع الصوت : يريد أنه يصيح  
بأصغاه آمراً ونهياً . المد : الصوت الخليل . الظنابيب : جمع ظنوب وهو حرف عظم الساق ،  
ويريد بقوله « عارى الظنابيب » أنه خفيف اللحم ، والعرب تجمع الهزال وتقم السمن . النواشر :  
عروق ظاهر الفراع ، ويريد بقوله « ممتد نواشره » أنه طويل الفراعين دلالة على تمام خلقه . الأدم  
هنا : الليل ، والنفاق : الشدة الظلمة . المحكمة : الكلمة القاطعة للأمور . ضاق الرأس :  
رجل كثير شعر الرأس لكثرة اشتغالها بالتزور فهو لا يتجاهد شعره . النفاق : الذي يصيح في إثر الطرائد .

(٢) ديوان الشفري المطبوع / ٢٩ .

(٣) المصدر السابق / ٢٩ .

## أحاديث الفرار :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصاراتهم فيها ، وفوزهم على أعدائهم ، يتحدثون أيضاً عن فرارهم وهربهم ، دون أن يجلوا في هذه الأحاديث غصاصة ، أو أمراً يدعو إلى الحجل والمداواة . وفي الحجل ما دام الفرار أمراً طبيعياً من قوم عدائين ، أو - بعبارة أخرى - سلاطاً من أسيادهم يضمن لهم النجاة ليعيلوا الكرة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية ؟ فإذا لاحظنا - إلى جانب هذا - أن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفخرون بها دائماً ، وهي سرعة العدو ، أدركنا سر حرصهم على أحاديث الفرار في شعرهم ، لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة .

وقد اشتهر بعض الصعاليك بفرارهم ، وبخاصة صعاليك الحجاز ومنطقة جبال السراة ، وبالذات صعاليك هذيل التي كانت تترل في هذه المنطقة ، وقد رأينا من قبل<sup>(١)</sup> ما يذكره الأصمعي من كثرة انتشار العدائين في الحجاز والسراة ، أولئك الذين كانوا «يعلمون على أرجلهم ويختلسون» ، وما يذكره من «أن بهذيل وحدها منهم أربعين» ، ويصف الرواة حليزاً الأزدي بأنه «كان مع غاراته كثير الفرار»<sup>(٢)</sup> . ويفرد البحري في حماسه باباً «فما قيل في الفرار على الأرجل»<sup>(٣)</sup> ، يروي فيه اثنتي عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء ، منها ثمان مقطوعات لأربعة من الصعاليك<sup>(٤)</sup> ، أي أن ثلثي المقطوعات من شعر الصعاليك ، ونصف الشعراء من الصعاليك ، فإذا لاحظنا أن من هذه المقطوعات الثماني ثلاثاً لحليز وحده<sup>(٥)</sup> ، أدركنا أن الرواة كانوا على حق حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثنتي عشرة

(١) انظر : ص ٨٠ من هذا البحث (فصل التفسير الجغرافي) .

(٢) الأغاني ٥٢/١٢ (بلاق) .

(٣) الباب الخامس والعشرون من ص ٦٣ - إلى ص ٦٩ .

(٤) أبو غراش الحنلي (ص ٦٣ ، ٦٤) ، وحليز الأزدي (ص ٦٤ ، ٦٥) ، والأعظم

الحنلي (ص ٦٦) ، وتأبط شراً (ص ٦٨ ، ٦٩) .

(٥) ص ٦٤ ، ٦٥ .



التي يضمها الباب أربعاً لشعراء من هذيل<sup>(١)</sup> ، أي ثلث الباب كله أو ما يعادل نصف عدد مقطوعات الصماليك أدركنا دقة ملاحظة الأصمعي عن كثرة العدائين في هذيل .

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح في أخبار الهذليين وأشعارهم حتى لتعد سمة من سمات الشعر الهذلي . وفي شعر الأعمى الهذلي قصيدة طويلة<sup>(٢)</sup> يتحدث فيها عن فراره مع صاحب له من مقامرة لهما في بعض بلاد كنانة . وهو يبدؤها مباشرة بالحديث عن ذلك المأزق الحرج الذي وجد نفسه فيه حين رأى القوم يطاردونه هو وصاحبه ، وقد اقتربوا منها حتى لم يعد بينهما وبينهم إلا أقل من رمية سهم ، ثم يصور الفرع الذي انتابه فشل مقلته على الرمي ، وإن لم يشل تفكيره عن أن يحث صاحبه على العدو حتى ينجوا معاً :

لما رأيتُ القومَ بالاً      علياءَ دونَ قِدَى المناصبِ  
وفريتُ منْ فرعٍ فلا      أرمى ولا ودعتُ صاحبِ  
يفرونُ صاحبهمَ بنا      جهداً وأغرى غيرَ كاذبِ  
أغرى أباً وهبَ ليه      جزمهمَ ومَدوا بالحلابِ<sup>(٣)</sup>

ثم يمضي في وصف تلك الجماعات التي تطاردنها ، وسرعة علو أحد مطارديه ، ثم ينتقل إلى الاعتذار عن فراره بأنه خشي أن يقتل بسيوفهم فيصير طعاماً للذئاب والضباع والثعالب والطير الجارحة :

ونخشيتُ وَقَعَ ضريبة      قد جربتُ كلَّ التجاربِ  
فأكونُ صيدهمُ بها      وأصيرُ للضبعِ السواغبِ  
جزراً وللطيرِ المرْبُة      والذئابِ والثعالبِ

(١) ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٥٥/١ وما بعدها ، وديوان الهذليين ٧٧/٢ وما بعدها . وفي حاشية البحري ٦٦/ قطعة منها .

(٣) القدى : القدر . المناصب : الرامى التي يتناصبك الرمي ، رميك ورميه . فريت : تعيرت ودهشت . الحلاب : الجماعات يحى بعضها في إثر بعض .



وتَجَرُّ مُجَرِّية لها لحمى إلى أَجْرِ حَوَاشِبٍ<sup>(١)</sup>  
 ثم يصف هذه الضباع وجراعتها، وكيف تترع جلد المرء نزعاً شديداً ،  
 ولا يكاد ينهى من رسم هذه الصورة المفزعة لمصيره لو قتل ، حتى يعود لذكر  
 علوه في شدة الحر ، ولكنه لا يبالي بشيء من هذا ، فقد اقترب من منطقة  
 الأمان ، ولاحت لعينيه منازل السلامة ، وهنا فقط يذكر أهله وفقيرهم ، وأولاده  
 الصغار وحاجتهم ، كأنما يزنّب نفسه التي أغرته بالفرار والهرب دون أن يحقق  
 شيئاً من أهدافه :

حتى إذا انتصف منها رُ وقلت يومُ حَقُّ ذائبُ  
 رَفَعْتُ عَيْنِي الحجا زَ إلى أناس بالمناقب  
 وذكرتُ أهلي بالعرَا ، وحاجة الشُّعَثِ التَّوَالِبِ  
 المُضَرِّمين من التلا د اللامحين إلى الأقارب<sup>(٢)</sup>  
 ولا يجد حاجزاً غضاضة من أن يتحدث عن فراره إلى صاحبه الجميلة  
 المتأنقة ، وحسبه - وحسبها أيضاً - أن نجا من أعدائه بعد أن كادوا يقتلونه :  
 ألا هل أتى ذاتَ الخواتم فرئى عشيةً بين الجُرْف والبحر من بحر  
 عشية كادت عامرٌ يقتلونى لدى طَرْفِ السَّلْماءِ راغيةَ البَكر<sup>(٣)</sup>  
 وهو ينهزها فرصة كغيره من الشعراء الصعاليك العدائين ، ليتحدث عن  
 سرعة علوه التي تفوق سرعة الظبي الهارب من مطاردة طائر جارح له :

فما الظبي أخطت حلقةَ الظفرِ رِجْلَه وقد كاد يلقي الموت في حلقة الظفر  
 كمثلى أو أن القوم بين مُعَيِّع وآخِر كالنَشْوَانِ مرْتَكِزٍ يَغْرِى<sup>(٤)</sup>

(١) الضريبة : السيف . جزرا : أى قطعاً ، يقال : تركته جزراً للسياح . الطير المريبة :  
 المقيمة على لم أبداً . مجرية : أى ضبع ذات جراء . الأجرى : الجراء . الحواشب : المنتفضات البطون .  
 (٢) يوم حق ذائب : أى شديد الحر . المناقب : أماكن . التوالب : الجحاش الصغار ،  
 يريد بها هنا أولاده .

(٣) حكمة البحري ٦٥ / . والأغاني ٥٢ / ١٢ ( يولاق ) ، والرواية فيه مضطربة لفظياً .  
 عيى : عى عن أمر قصده . ومرتكز أى معتد على سية قومه . والجرف : موضعان . وراغية البكر :  
 مثل في الشدة والثؤم ضرب في بكر ذاقة صالح . ( انظر أساس البلاغة ملحة - وغو - ) .

ويدافع تأبط شرا في قصيدة له عن قراره وتركه رفيقاً له بأنه ما كان  
ليستطيع أن ينتظر حتى يدهمه مطارده الذين كانوا وراءه كالتحل ،  
ولا أن يبطى في علوه حتى تصيبه سهام التي كانوا يرسلونها خلفه فتدبه صريعاً ،  
وهو لهذا يثني جسده ، ويسرع بعيداً عن الشر كأنه الظلم المذمور :

ولم أنتظر أن يدهموني كأنهم      ورأيت نحل في الخلية واكنا  
ولا أن تُصيب النافذات مقاتلي      ولم ألك بالشد الذليق مداينا  
فأرسلتُ مثنيًا عن الشر عاطفاً      وقلت تزحزح لا تكونن حائنا  
وحشحتُ مشعوف النجاء كأنني      هجفتُ رأى قصراً يسماً وداجنا<sup>(١)</sup>

وبعد أن يمضي في وصف سرعة الظلم ، على طريقة المذليين في الإلحاح  
على أوصاف المشبه به ، يستقل إلى الصورة التي رأيناها عند الأعمى ، صورة  
الفرع من الموت على أيدي الأعداء ، تلك الصورة التي تقرن عادة بإلقاء  
الجسد لحوان البادية الضاري ، وبخاصة الضباع ، تلك القصيدة التي اشتهرت  
بولعها بحيف الموتى كما يقرر علماء الحيوان<sup>(٢)</sup> ، فيحدثنا عن نجاة من  
مطارديه ، ولو لم ينبج منهم لأمسى قتيلاً في صحراء غبراء ، أو بين برائن ضبع  
تنبش الأرض بحثاً عن الحيف :

فزحزحتُ عنهم أوتجثني منيتي      بغبراء أو عرفاء تفرى اللفائنا  
كأنى أراها الموت ، لا در درها      إذا أمكنت أنيابها والبرائنا<sup>(٣)</sup>  
ويدافع أبو خراش عن قراره ، ويضني على دفاعه لونا من « المذهمية » ،

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ - الشد : العدو . الذليق : الخلد . النجاء : الإسراع ، والمشعوف  
هنا : من أصيب قلبه بذعر . الهجفت : الظلم . والقصر هنا : اختلاط الظلام . واليسال : جمع  
سحلة وهي بقية الماء في الخوض . والناجن : لعل معناه هنا المطر المطبق ، أو الصياد المتعود للفرور .  
ويكون الشاعر بهذا يصور فرع الظلم حين أخذ الظلام يختلط ، والمطر يسقط ، أو حين رأى  
عند اختلاط الظلام ماء عنده صياد مقربس .

(٢) للسيبى : حياة الحيوان ٧١/٢ .

(٣) الأغاني ٢١٣/١٨ - السقاء : الضبع .

فهو يفر لا لأنه جبان ، فهو إلى جانب فراره مقاتل شجاع ، ولكن لأنه يرى أحياناً أن قتاله لا يجلبه شيئاً إلا أن يورده موارد الهلاك ، وهو مع ذلك لا يكف عن القتال إلا إذا لم يجد لنفسه مجالا فيه :

فَإِنْ تَزَعُمِي أَنِّي جَبْنْتُ فَإِنِّي أَفْرُ وَأَرَى مَرَّةً كُلَّ ذَلِكَ أَقَاتِلُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأَنْجُو إِذَا مَا خَفْتُ بَعْضَ الْمَهَالِكِ<sup>(١)</sup> ولكن الأعمى يعلن في منتهى الصراحة والبساطة أنه حين تكاثرت عليه أعداؤه فر منهم مسرعاً ، ولم يحاول قتالهم :

بَذَلْتُ لَهُمْ بَدَى وَسُطَّانَ شَدَى غَدَاتُشْدٍ وَلَمْ أَبْذُلْ قِتَالِي<sup>(٢)</sup> سرعة العدو :

ولا يكاد الشعراء الصعاليك يتحدثون عن شيء في مثل ذلك الإلحاح الذي نراه في حديثهم عن مغامراتهم كما يتحدثون عن سرعة عدوهم ، ويبدو أن مرد هذا إلى أمرين : أولهما شعورهم بأنها ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم في البشرية ، وثانيهما إيمانهم بأنها من الأسباب الأساسية في نجاتهم من كثير من المآزق المخرجة . ومن هنا كان حديثهم عنها حديث المعجب بنفسه تارة ، والمعجب بها تارة أخرى : المعجب بنفسه لأنه تفرد بها من بين سائر الناس ، والمعجب بها لأنها كم أنقلته من أنظار أحطقت به .

وأحسب أننا لسنا في حاجة إلى القول بأن الشعراء الصعاليك الذين تحدثوا عن سرعة عدوهم هم أولئك الذين تحدثنا عنهم في تفسيرنا الجغرافي لظاهرة الصعلكة وهم الصعاليك السرويون - كما يسميهم الأصمعي<sup>(٣)</sup> - وبخاصة صعاليك هذيل وفهم والأزد ، أما أولئك الذين لم يعرفوا بالعدو كعروة بن الورد فمن الطبيعي ألا يتحدثوا عن شيء لم يعرفوا به .

وتحدث الصعاليك العدائون عن هذه الميزة حديث المعجبين بأنفسهم

(١) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ ، وحاشية الخاليتين (مخطوطة) ورقة ٢٩٧ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١٦٣/١ .

(٣) فعلة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

الذين يرون أنهم قادرون على شيء يعجز عنه بعض الناس ، على نحو ما نرى في قول الأعلم :

فلا وأبيك لا ينجو نجائي غداة لقيتهم بعض الرجال<sup>(١)</sup>  
ولكن ذا الكلب لا يرضى بهله « البعضية » ، وإنما يوسع دائرة حكمه حتى تشمل كل ذي قلم :

فجئت لا يشتد شدي ذو قدم<sup>(٢)</sup> .

بل إن أبا خراش لا يرضى بالبشر طرفاً ثانياً في هذه المباراة كأنما يرى أن البشر أبطأ من أن يصلحوا لها ، وإنما يعقد المباراة بينه وبين حمار الوحش ، ذلك الحيوان المشهور بسرعة العدو ، ومع ذلك فحمار الوحش لا يستطيع أن يجاريه في عدوه :

أقبلت لا يشتد شدي واحد عِلْجٌ أقبُ مسيرُ الأقارب<sup>(٣)</sup>  
وقد رأينا حاجزاً يتحدث إلى صاحبه الجميلة المتأنقة عن فرته دون أن يجد في هذا الحديث غصاصة ، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه إذ استطاع النجاة من أعدائه عدواً على قدميه ، فهو في هذا الحديث كأنما يقلم إلى صاحبه لوناً من ألوان البطولة التي يراها جديرة بإعجابها ، حتى ليتساءل في أول حديثه في لفظة ظاهرة « ألا هل أتى ذات الخوام فرقى ؟ »

وهم يتحدثون عن هذه الميزة أيضاً حديث المعجبين بها ، المقلدين لقيمتها في حياتهم . يصرح حاجز بأن الفضل الأكبر في نجاته من بعض مواقف الضيقة لا يرجع إلى قتاله . وإنما يرجع إلى عدوه ، وهو - لهذا ولشدة إعجابه برجليه اللتين أتاحتا له هذا العدو - لا يتورع عن أن يفتديهما بأمه وخالته ، وماذا جنى

(١) شرح أشعار المهذلين ١/ ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ٢٣٩/ ، وتروى لأبي خراش ، وقد قلنا في الفصل السابق إن هذا الاختلاف لا يضيرنا في هذا الدراسة لأنه اختلاف داخلي .

(٣) ديوان المهذلين ٢/ ١٦٩ ، وتروى لتأبط شراً ولالألم ، والقول في هذا كما نقول في البيت السابق - والعليج : حمار الوحش السمين القوي . والأقب : الضامر البعظ . وسير الأقارب : أي مخطط الخاصرتين .

من أمه ونخالته غير ذلك السواد الذي صبغه بصيغة بغیضة كانت سبباً من أسباب تلك الحياة المتصلة التي يحياها ، والتي زجت به في هذا الموقف الضيق الذي لولا رجلاه لفقد حياته فيه :

فغير قتالي في المضيق أغاثني ولكن بذلي الشد غير الأكاذب  
فداً لكما رجلي أمي ونخالي بشد كما بين الصفا والأثائب<sup>(١)</sup>  
ويصرح أبو خراش بأنه لولا سرعة عدوه فراراً من أعدائه لآمت امرأته  
ويتم ابنه :

ولولا دراك الشد قاطت حيلتي تخير من خطايا وهي أيم  
فتقعد أو ترضى مكاني خليفة وكاد خراش يوم ذلك ييتم<sup>(٢)</sup>  
ويقص علينا تأبط شرا في قافيتته المشهورة كيف أنجاه عدوه من عدوه ،  
برغم ما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم بالعيكين لدى معدى ابن براق  
كأنما حشحو حصاً قواده أو أم خشف بذى شت وطباق  
لا شيء أسرع مني ، ليس ذا عذر وذا جناح بجانب الريد خفاق  
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبض الشد غيداق<sup>(٣)</sup>  
وكما يتحدث الصعاليك العدائون عن شدة عدوهم ، يتحدثون عن شدة  
عدو رفاقهم ، ويصف تأبط شرا أحد أصحابه الصعاليك بأنه سريع العدو  
يسبق الريح :

(١) حاسة البحتري / ٦٤ . والأغاني ٥٢/١٢ (بولاق) .

(٢) ديوان المهديين ١٤٨/٢ . والأغاني ٥٦/٢١ ، ٥٧ - قاطت : من القبط ، أي أدركها القبط ، وهو الضيف .

(٣) الفضليات / ٧ - ١١ . حصاقواده يريد به الظلم ، والأحص : الذي تنثر ريشه وتكسر ، والقوادم من ريش الجناح : ما ولد الرأس . وأم خشف يريد بها الظبية . والشت والطباق : من نبت السراة ، وإنما خصهما لأنهما يضمران ما يرعاهما من الحيوان ، ويشدان لحمه . وذا عذر يعني به فرما ، والمتر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . الريد : أعلى الجبل ، وإنما خص جارج الجبل لأنه أسرع طيراناً من جارج السهل . البواله : القاذب العقل . والقيض : السريع . والغيداق : الكثير الواسع .

ويسبق وقد الريح من حيث ينتحي بمنفرد من شدة المشاركة<sup>(١)</sup>  
 ويشبه الأعم اقضاض جماعة من الصعاليك العدائين من كل ناحية  
 على فرسة عرّضت لهم في أثناء تربصهم بالصحرَاء يتفجر الماء من حوض  
 قديم منهم يحاول صاحبه أن يصلحه ولكن الماء يغلبه فيتفجر من شتى نواحيه :  
 تخاف لزّام عادية ثعلب كما يتفجر الحوض اللقيف<sup>(٢)</sup>  
 ويرسم أبو خراش صورة راتمة بلعامة من العدائين يحرص كل منهم على  
 ألا يتخلف عن رفاقه حتى لا يفتضح بينهم ، وهم خارجون للغزو في ليلة  
 ممطرة ، وقد ابطلت أقدامهم ، والشجر يتكسر من وقها ، فيلتف تحتها أكواماً  
 كأنها أوساط الإبل السود :

وليلة دجن من جمادى سريتها إذا ما استهلّت وهي ساجية نهى  
 وشوط. فصاح قد شهدت مشايحاً لأذكّ ذحلاً أو أشيف على غنم  
 إذا ابطلت الأقدام والتف تحتها غشاء كأجواز المقرنة الدّم<sup>(٣)</sup>  
 وكما يتحلثون عن شلة علو رفاقهم ، يتحلثون عن شلة علو أعلائهم  
 أيضاً ، ليثبتوا لأنفسهم تلك الميزة عن طريق غير مباشر. ويرسم الأعم في  
 بآيته التي يتحدث فيها عن فراره هو وصاحب له من بعض أعلائهما صورة  
 راتمة لمطاردهم لها ، يصف فيها خروجهم خلفهما ، وكيف يفرون أسرعهم  
 ليدركهما ، بينما يغري هو صاحبه ليفوتهم ، ثم يصف تلك الجماعات التي  
 تطاردهم ، والتي يحىء بعضها في إثر بعض ، كما تلغ الرياح السحب فتجلجل  
 بالرعد ، ثم يصف مرة علو أحد مطارديه الذي ينطلق خلفه كأنه حمار  
 وحش ضامر يسرع ليرد للماء :

(١) ساجية أبي تمام ٤٨/١ .

(٢) شرح أفعال الخليلين ١٨/١ - الزّام : الطّابع . الثعلب : التي لها زيادات بمنزلة  
 القصر . اللقيف : الذي أصله صاحبه فليت وسواء من نواحيه .

(٣) دوان الخليلين ١٣٠/٢ - شوط قاصح : أي لا يسبق فيه رجل اقضض . المشايخ :  
 الجاد في كلام حنيل . أشيف : أشرف .

يُغْرُونَ صَاحِبَهُمْ بِنَا جَهْدًا وَأَغْرَى غَيْرَ كَاذِبٍ  
 أَغْرَى أَبَا وَهْبٍ لِيَهْ جِزْمٌ وَمَلُّوا بِالْحَلَاتِبِ  
 مَدُّ الْمَجْلَجْلِ ذِي الْعَمَاءِ إِذَا يَرَّاحُ مِنَ الْجَنَائِبِ  
 يُغْرَى جَسَدِيَّةً وَالرَّدَا ۝ كَأَنَّهُ بِأَقْبَ قَارِبٍ<sup>(١)</sup>

ويرسم أبو خراش في ميميته التي يتحلف فيها عن فراره من خراقة صورة  
 دقيقة لمطارديه ، وقد اقرب منه أحلم حتى صار كأنه توأم له ، والسهام تنال  
 حوله ولكنها تخطئه ، وكيف زاد من سرعته حين رأى وراء ظهره أحد مطارديه  
 مسرعاً وقد بسط ذراعيه ، ومد ساقيه الطويلتين ، وهو حريص على أن يدركه  
 لأن له ثأراً عنده ، وأبو خراش حريص على أن ينجو منه لأنه شخص فاتك  
 جرىء أثيم :

بِأَسْرَعٍ مِنِّي<sup>(٢)</sup> إِذْ عَرَفْتُ عَلَيْهِمُ كَأَنِّي لِأَوْلَاهِمُ مِنَ الْقُرْبِ تَوَامُ  
 وَأَجُودَ مِنِّي يَوْمَ وَاقَيْتُ سَاعِبَا وَأَخْطَأَنِي خَلْفَ الثَّنِيَةِ أَسْهُمُ  
 أَوَائِلُ بِالشَّدِّ الذَّلِيقِ وَحَثْنِي لَدَى الْمَتْنِ مَشْبُوحُ الدَّرَاعِينَ خَلَجَمُ  
 تَذَكَّرُ دَحْلًا عِنْدُنَا وَهُوَ فَاتُكَ مِنْ الْقَوْمِ يَعْرِوهُ اجْتِرَاةٌ وَمَأْثَمُ<sup>(٣)</sup>

ومن أطرف الأشياء أن يحدثنا الأعلام عن كراهيته لمطارده ، لا شيء  
 إلا لأنه عداة سريع لا يألو جهداً في مطاردته :

كَرِهْتُ جَذِيَّةَ الْعَبْدِي لَمَّا رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَجْهَدُ غَيْرَ آتِي<sup>(٤)</sup>  
 وَأَكْثَرُ مَا يَتَحَدَّثُ الصَّعَالِيكُ الْعِدَاوُونَ عَنْ شِدَّةِ عَلْوِهِمْ مَقْرُونَةً بِمَوَازِنَةِ  
 بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ الطَّيْرِ أَوْ بَعْضِ حَيَوَانَ الصَّحَرَاءِ الْمَشْهُورِ بِسُرْعَةِ الْعُلُوِّ .  
 ويتردد ذكر حمار الوحش عند صعاليك هذيل ، ولا نعر به عند غيرهم

(١) شرح أشعار الخليلين ١/ ٥٥ ، ٥٦ . وجهة البحري ٦٦/ - الهاء : أرفع السحاب  
 في السماء . يراح : تصيبه الريح . القارب : طالب الماء ليلاً . أبو وهب صاحبه ، وجذبة علوه .

(٢) متعلقة بوصفه طيياً يطارده الصيادون يشبه به نفسه في شدة علوه .

(٣) ديوان الخليلين ٢/ ١٤٧ . وجهة البحري ٦٤/ . والأغاني ٥٦/ ٢١ - وائل : طلب  
 النجاة . مشبوح الدراعين : عريضهما . الخليم : الطويل .

(٤) شرح أشعار الخليلين ١/ ٦٠ .



من الشعراء الصماليك فيما بين أيدينا من شعهم ، فيما علما مقطوعة تروى  
لأبي خراش أو للأعلم أو لتأبط شرا ، وهي تلك البائية التي أشرنا إليها<sup>(١)</sup> ،  
حتى ليصح أن نقول إن ذكر حمار الوحش في صدد الحديث عن العدو خاصة  
هذلية .

يصف صخر الغي صاحباً له بشدة العدو فيشبهه بحمار وحش ضامر  
تعضه الحمر فيقر منها هارباً :

معي صاحبٌ داجنٌ بالقزا      ة لم يكُ في القوم وَغَلًا ضَعِيفًا  
تري عدوه صُبَحَ إقوائه      إِذَا رَفَعَ الْمَأْبِضَانِ الْحَشِيفَا  
كعدو أقبُ رِبَاع تری      بفائله ونَسَاءهُ نُسُوفًا<sup>(٢)</sup>  
أما الأعلم فالصورة التي يرسمها لحمار الوحش أكثر خطوطاً وألواناً ، فهو  
عنده ضامر البطن ولكن في غير هزال كأنه عرقُ السر في حمرة ، وهو  
سريع يسبق الإبل والخيل النجبية ، خرج ليلاً في طلب الماء ، فلاحته له أتان  
سمينة مكتزة اللحم ، فهو حريص على إدراكها :

يُغْرِى جَلْدِيَّةَ وَالرِدَا      كَأَنَّهُ بِأَقْبٍ قَارِبٌ  
خَاطُ كَعْرَقِ السَّرِيسِ      بِقِ غَارَةِ الْخَوْصِ النَّجَائِبِ  
عَنْتٌ لَهُ مَفْعَاءٌ لَكُ      تٌ بِالْبَضِيعِ لَهَا الْخَبَائِبِ<sup>(٣)</sup>  
وأما الظليم ، وهو من أسرع حيوان الصحراء عدواً<sup>(٤)</sup> ، فقد ورد ذكره  
عند تأبط شرا والأعلم ، كما ورد ذكر النعامة عند أبي خراش . أما تأبط شرا

(١) انظر : ص ٢١٦ الهامش ٣ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٤٨/١ - داجن : معاود مرة بعد مرة ، أو متعود للغزو .  
الوفل : التل . الإقواء هنا : النزول في القفر من الأرض . المأبضان : باطن للركبة وباطن المرقق .  
الحشيف : الثوب الخلق . الرباع : الذي أتى رباعيته وهي السن التي بين الثانية والثاب . لفائلا  
والنسا : عرقان . النسوف : آثار الض .

(٣) شرح أشعار الهذليين ٥٦/١ - خاط أي مكتنز مثلي لها . مفعاء : موداء الوجه  
في حمرة . لكت : قلقت بالهم . البضيع : اللحم . الخبائب : طرائق اللحم . لها هنا بمعنى منها .  
(٤) في أمثال العرب : أعنى من الظليم . ( الميداى : جميع الأمثال ١/٤٢٩ ) .



فالظلم عنده مذخور يقطع الصحراء وقد مد جناحيه ، وكل ما يحرص عليه  
تأبط شرا وصفه بالسرعة ، ومن هنا كثرت في أبياته تلك المترادفات التي تدل  
على السرعة ، ولكنه لا يكتفى بهذا بل يعقد بين هذا الظلم وبين الخيل السريعة  
مباراة ، فإذا هو أسرع منها :

وحشحت مشعوف النجاء كأتني هجف رأى قصرا سبالا وداجنا  
من الحص مزروف كأن عفاءه إذا استدراج الفيضا ومد المغابنا  
أزج زلوج هذرفي وفازف هزف يبذ الناجيات الصوافنا<sup>(١)</sup>  
وأما الأعلام فالصورة عنده أكثر خطوطاً وألواناً ، فالظلم عنده سريع  
يعترض فراخه في وقت العشية ، وهو غليظ الساقين طويلهما ، وقد تساقط  
ريشه ، وهو مذخور قد اختبأ بين أشجار طويلة ، فإذا عدا خفق جناحاه  
خفقان ربح جنوبية بشباب جليلة غير ممزقة :

كأن ملائقي على هزف يعن مع العشية للرنال  
على حت البراية زمخري ال سواعد ظل في شري طوال  
كأن جناحه خفقان ربح يمانية بریط. غير بالي<sup>(٢)</sup>  
وأما أبو خراش فهو يشير للنعام في صدد حديثه عن شدة علوه إشارة  
سريعة<sup>(٣)</sup> ، كما يفعل مع حمار الوحش ، وهو لا يقف طويلا عندهما لأنه  
مشغول بحيوان آخر سريع هو الظبي .

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ - المزروف : الظلم السريع الخفيف . الحص : جمع أحص  
هو القليل شعر الرأس . المغابن : جمع مغب وهو الإبط . الأزج من النعام . البعده الخطو .  
الزلوج : الناجي من المنارات . الهذرفي : نسبة إلى الهذرة وهي السرعة . وفازف : من الزفرقة وهي  
ري الطائر بنفسه أو بسط جناحيه . هزف : سريع .

(٢) ديوان المهذلين ٨٣/٢ ، ٨٤ . وحامة البحري ٦٦ . وروى البيت الأول في لسان  
العرب مادة ( خرق ) وفيه « هجف » مكان « هزف » ، وروى البيت الثاني في مادة ( شري ) ومادة  
( حت ) - الرنال : جمع رال وهو ولد النعام أو حويله . الزمخري : الأجوف ، وكان العرب يظنون  
أن النعام لا يخ بساقيه . وقوله « على حت البراية » يريد به أنه سريع حتى لا يبقى منه إلا براية .  
والشري : شجر .

(٣) ديوان المهذلين ١٤٥/٢ - البيت الأول .

والمنظر الذي يتخيره أبو خراش للظبي حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد  
 بثوا حبالهم في مسارحه ليعلق فيها ، ولكنه ينجو منها ، فلا يجد الصيادون مفراً  
 من رمية سهامهم وإطلاق كلابهم خلفه ، ولكنه يفوتها ، ومع ذلك يظل  
 مدعوراً غير مطمئن يصفى إلى ناحيتهم وقد نصب أذنيه كأنهما قطعاً لعدم  
 تحركهما ، فإذا ما سمع صوت ذباب يطوف حوله دُعر وخيل إليه أنه  
 صوت سهام الرماة ، فانطلق كما يتطلق السهم مخلفاً وراءه غباراً مختلفاً ألوانه  
 كأنه الملاء :

فَوَ اللَّهِ مَا رِبْدَاءٌ أَوْ عَلَجٌ عَانَةٌ	أَقْبُ وَمَا إِنْ تَبَسَّ رَبُّلٌ مَصْمُومٌ
وَبُثَّتْ حِيَالٌ فِي مَرَادٍ يَرُودَةٌ	فَأَخْطَأَتْ مِنْهَا كِفَافٌ مَخْزَمٌ
يَطِيحُ إِذَا الشُّعْرَاءُ صَاغَتْ بِجَنْبِهِ	كَمَا طَاحَ قَدْحُ الْمُسْتَفِيزِ الْمَوْثَمِ
كَأَنَّ الْمَلَاءَ الْمُخَضَّ خَلْفَ ذِرَاعِهِ	صُرَاحِيهِ وَالْآخِيهِ الْمَتَحِمِ
تَرَاهُ وَقَدْ فَاتَ الرَّمَاةَ كَأَنَّهُ	أَمَامَ الْكَلَابِ مُضْغَى الْخَدِ أَضْلَمُ
بِأَسْرَعٍ مِنِّي إِذْ عَرَفْتُ عَلَيْهِمُ	كَأَنِّي لِأَوْلَاهِمُ مِنَ الْقَرَبِ تَوَامٌ <sup>(١)</sup>

ويتردد ذكر الظبي أيضاً في شعر حاجر ، وهو حيناً يتخير منظر الظبي  
 المذعور الهارب من جوارح الطير بعد أن كاد يلقي الموت في أظفارها ، كما  
 رأينا في أبياته الرائية من قبل ، وهو حيناً آخر يذكره مع حيوانين آخرين من  
 حيوان الصحراء السريع : الأرنب ، والوعل ، وهو هنا يكتفى بأن يذكر  
 أنه ظبي في منطقة جبلية ، فهو خفيف نشيط قوي ، أما الأرنب فهو يمر  
 بها مرّاً سريعاً ، وأما الوعل فيتخير له منظراً يكون فيه في أقصى سرعته ، حين  
 يحس الصيادين خلفه وسهم كلابهم الملتربة :

(١) المصدر السابق / ١٤٥ ، ١٤٦ . والأغاني ٥٦/٢١ - الربداء : النعامة السوداء  
 لك غيرة . والتبس هنا الذكر من التلياس والريل : نيت ينبت في أول الشتاء . وقوله : في مراد يروده  
 أي في مسارح يسرح فيها . والكفاف : الحيلة يصيدون بها الظباء تيسل كالطوق . والمخزم : المنظم .  
 يطيح : يسرع . والشعراء : ذباب يلح . والمستفيز : الذي يفيض بالقنّاح يضرب بها . والموثم :  
 الذي به علامات . صراحيه : أبيضه . والآخي : نوع من الثياب . والمتحم : الذي به خطوط  
 خضر وحمير . والأصلم : المتأصل الأذن .

وكأنما ابتعث القوارس أرضاً أو ظي رابية خفافاً أشعباً  
 وكأنما طردوا بجني عاقل صدعاً من الأزوى أحس مكلباً<sup>(١)</sup>  
 وهذان البيتان هما الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذي  
 ورد فيه ذكر للأرنب والرعل في صدد الحديث عن العدو .

وإذا كان حاجر يشبه نفسه بالظي الحارب من جوارح الطير فإن أبا خراش  
 يعكس هذه الصورة فيشبه نفسه بالعقاب تطارد صيداً ، فهو يقدم لنا في  
 بعض قصائده صورة رائعة قوية لتلك المطاردة ، فهي عقاب كاسرة متفوضة  
 تطلب الصيد ، ولها فرخ في رأس جبل ، تحمل له طعامه عما تصيد حتى  
 امتلأ وكرها بعظامه ، وقد رأت على بعد صيداً فتحنزت له ثم انفضت فرقه  
 في أرض فضاء ليس فيها ما يستره :

كأنني إذ علّوا ضمنتُ بزى من العقيبان خائنة طلوباً  
 جريئة ناهض في رأس نبي ترى لعظام ما جمعت صلياً  
 رأت قنصاً على قوت فضمت إلى حيزومها ريشاً رطياً  
 فلاقته يبلقعة برّاز فصادم بين عينيها الجبّوباً<sup>(٢)</sup>  
 وهنا أيضاً الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذي ورد  
 فيه ذكر العقاب في صدد الحديث عن شدة العدو .

ويشبه أبو خراش ابنه ، والقوم يطاردونه بعد غارة له عليهم ، بطائر  
 خفيف العظم ، قليل اللحم ، عائد إلى وكره ، وقد دنا الليل ، فهو جاد في  
 طيرانه يسط جناحيه ويقبضهما في شدة قوة :

(١) حكمة البحري / ٦٥ - الخفاف : الخفيف القلب المتوقد . الأشعب : ما كان بين  
 قرنيه بعيداً جداً . الصدع يتحرك الدال وتساكنها : القى للشاب القوى . المكلب : معلم الكلاب  
 الصيد . وانظر البيتين أيضاً في الأغاني ١٢/ ٥٢ ( يولاق ) مع اختلاف لفظي .

(٢) ديوان المهملين ١٣٣/ ٢ ، ١٣٤ - الخائفة : العقاب تنقض على الصيد . الناهض  
 هنا المراد به فرخها ، وقوله « جريئة ناهض » يريد به أنها تكسبه ، وجريئة القوم : كلهم .  
 النبيق : التسراخ في الجبل . الصليب : الهوك وهو القسم ، يقال : صلب العظام إذا استخرج ودكها .  
 على قوت أي على سبق . البراز : القضاء البارز . الجبّوب : الأرض .

كَأَنَّهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِطَائِرٍ خَفِيفٍ الْمُشَاشُ عَظْمُهُ غَيْرَ ذِي نَحْضٍ  
 يَبَادِرُ قَرِيبَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِدٌ يَحْتِجُ الْجَنَاحَ بِالتَّيَسُّطِ وَالْقَبْضُ<sup>(١)</sup>  
 وَقَدْ تَسَاءَلَ : أَيْنَ الْخَيْلُ بَيْنَ هَذِهِ الْقِصَاصِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَوَانِ السَّرِيعِ ؟  
 وَلَإِذَا لَمْ يَذْكُرْهَا الصَّعَالِيكُ الْعِدَائُونَ فِي مَجَالِ حَدِيثِهِمْ عَنِ الْعَدُوِّ كَمَا ذَكَرُوا هَذِهِ  
 الْقِصَاصِ ؟

يَبْدُو لِي أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الصَّعَالِيكَ الْعِدَائِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْخَيْلِ عَلَى  
 أَنَّهَا أَقْلُ مِنْهُمْ سُرْعَةً ، وَهِيَ نَظَرَةٌ يُؤَيِّدُهَا وَاقِعُ حَيَاتِهِمْ ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْفَصْلِ  
 الْأَوَّلِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ رِوَاةَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ يَذْكُرُونَ عَنْهُمْ أَنَّكُمْ كَانُوا  
 يَسْبِقُونَ الْخَيْلَ ، وَيُرَوِّونَ عَنْهُمْ قِصَصًا فِي هَذَا الصَّدَدِ ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ مِبَالِغَةٍ  
 فِي هَذِهِ الْقِصَصِ فَإِنَّهَا تَصُورُ أَصْدَاءَ حَقِيقَةٍ وَاقِعَةٍ ، وَقَدْ فَسَّرْنَا هَذِهِ الظَّاهِرَةَ فِي  
 حَيَاةِ الصَّعَالِيكِ الْعِدَائِينَ عِنْدَ تَفْسِيرِنَا الْجُغْرَافِي لظَاهِرَةِ التَّصَعُّكِ ، وَانْتَهَيْنَا إِلَى أَنَّهَا  
 — عَلَى مَا فِيهَا مِنْ غَرَابَةٍ — لَيْسَتْ بِالْمُسْتَحِيلَةِ فِي الْحَيَاةِ الْوَاقِعَةِ . فَإِذَا أَضَفْنَا  
 إِلَى هَذَا أَنَّ الصَّعَالِيكَ الْعِدَائِينَ لَمْ يَكُونُوا عَلَى صِلَةٍ دَائِمَةٍ بِالْخَيْلِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ  
 صِلَتُهُمْ بِهَا صِلَةً عِدَاوَةٍ ، وَهِيَ تِلْكَ الصِّلَةُ بَيْنَ الْمَطَارِدِ وَالطَّرِيدِ ، مِمَّا جَعَلَ نَفْسَهُمْ  
 مُشْبَعَةً بِالسَّخَطِ عَلَى ذَلِكَ الْحَيَوَانِ السَّرِيعِ الَّذِي يَسْتَغْلِلُ أَعْدَاؤَهُمْ فِي مَطَارِدَتِهِمْ ،  
 اسْتَطَعْنَا أَنْ نَجِدَ تَعْلِيلًا آخَرَ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

وَلِهَذَا نَلَاظُ أَنَّ الصَّعَالِيكَ الْعِدَائِينَ لَا يَذْكُرُونَ الْخَيْلَ فِي صَدَدِ الْحَدِيثِ  
 عَنْ عَدُوِّهِمْ إِلَّا مُقْتَرَنَةً بِأَنَّهُمْ أَسْرَعُ مِنْهَا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ أَسْرَعُ مِنْهُمْ ،  
 كَمَا نَرَى عِنْدَ تَابِطِ شَرَا الَّذِي يَصْرَحُ بِأَنَّهُ يَسْبِقُ الْخَيْلَ عَدُوًّا عَلَى قَلَمِيهِ ، وَيَكْسُو  
 طَلَاتِعَهَا الْمُتَقَدِّمَةَ الْغُبَارِ النَّاتِرَ مِنْ عَدُوِّهِ :

يَفُوتُ الْجِيَادَ بِتَقْرِيْبِهِ وَيَكْسُو هَوَادِيَهَا الْقَسْطَلَا<sup>(٢)</sup>

(١) دِيَوَانُ الْهَذَلِيِّينَ ٢ / ١٥٩ . وَلِسَانُ الْعَرَبِ : مَادَّةُ ( هَبَّ ) وَمَادَّةُ ( هَفَبَ ) — الْمَشَاشُ :  
 جَمْعُ مَشَاشَةٍ وَهِيَ رَأْسُ الْعَظْمِ الْمُمْكِنِ الْمَفْعُ . النَّحْضُ : اللَّحْمُ أَوْ الْمَكْتَنُ مِنْهُ . الْمُهَابِدُ : الَّذِي يَسْرِعُ  
 فِي طَيْرَانِهِ ، مِنَ الْمُهَابِلَةِ وَهِيَ الْإِسْرَاعُ فِي الطَّيْرَانِ .

(٢) ابْنُ قَتِيْبَةَ : الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ / ١٧٦ . وَجَاهَةُ ابْنِ الشَّجَرِيِّ / ٤٧ — التَّقْرِيْبُ : ضَرْبٌ  
 مِنَ الْعَدُوِّ . الْقَسْطَلُ : الْغُبَارُ .

ويحرص الصعاليك العدائون على تسجيل ظاهرة طريقة في حديثهم عن العدو ، وهي حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها ، وهي ظاهرة تستمد طرفاتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها ، ومن أطراف الأشياء في هذا الصدد أنهم أكثر ما يذكرون ثيابهم يذكرون أنها بالية ممزقة .

يصف صخر الغي صاحباً له بأنه يعدو فيرفع باطن ركبتيه ثوبه الخلق :

تري عدوه صُبحَ إقوائه إذا رَفَعَ المأْبِضَانِ الحَشِيفَا

كعدو أقبَّ رِبَاع تَري بفسائله ونسائه نسوفا<sup>(١)</sup>

أما أبو خراش فتوبه الخلق البالي يهتر في أثناء عدوه كأنه ينتفض من حمى

تلازمه :

فَعَدَيْتُ شَيْئاً وَالدَّرِيسُ كَأَنَّمَا يُزَعِزُّهُ وَرَدُّ مِنَ المَوْمِ مُرْدِمٌ<sup>(٢)</sup>

وهو أحياناً يضيّق بثيابه لأنها تعوقه عن سرعة العدو فيطرحها عنه :

وَرَفَعْتُ سَاقاً لَا يُخَافُ عِثَارُهَا وَطَرَحْتُ عَنِي بِالْعِرَاءِ ثِيَابِي<sup>(٣)</sup>

وفي قصيدة أخرى يصف جماعة من العدائين وقد ألقوا ثيابهم عنهم من شدة عدوهم :

وَعَادِيَةٌ تُلْقِي الثِّيَابَ وَزَعَتْهَا كَرَجُلِ الجِرَادِ يَنْتَحِي شَرَفَ الحَزْمِ<sup>(٤)</sup>

ويتحدث تأبط شرا عن مطاردة حاجر الأزدي وأصحابه له ، ويصفهم بأنهم قد

ألقوا عن أجسادهم ثيابهم البالية ، وشعروا عن ميقاتهم ليسهل عليهم إدراكه :

فَتَعْتَمْتُ حِضْنِي حَاجِزَ وَصْحَابِهِ وَقَدْ نَبَذُوا خَلْقَانَهُمْ وَتَشَنَعُوا<sup>(٥)</sup>

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٨ . وانظر : ص ٢٢٠ من هذا البحث .

(٢) ديوان الهذليين ٢/ ١٤٤ . والأغاني ٢١/ ٥٦ . وسهامة البحري ٦٣/ - الدريس :

الثوب الخلق . الموم : الحمى . المردم : الملازم .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٦٨ ، وتروى للأعلم وتأبط شرا ، وهذا الاختلاف لا يضيرنا في

شيء فهم جميعاً صعاليك .

(٤) المصدر السابق ١٣٢ - الرجل بالكسر : القطعة العظيمة من الجراد . الحزم :

المكان المرتفع كالخزن .

(٥) الأغاني ١٨/ ٢١٨ ، وفيه « تعتمت » وواضح أنه تحريف - تعتمه : حركة بعنف .

تشنعوا : تهيأوا للقتال .

وبما يتصل بهذا حديثهم عن ناعلم ، ووصفها بأنها بالية ممزقة ، لكثرة سيرهم وعلوهم . يتحدث تأبط شرا عن صعوده إلى المرقبة بنعل بالية ممزقة قد تشدها بسيور بعد أن جعل تحتها نعلا أخرى :

بشَرَّة نَخْلَقُ يُوقِي البَنَانُ بِهَا شَدَدَتْ فِيهَا سَرِيحاً بعد إطراق<sup>(١)</sup>

ويصف الشنفرى نعليه بأنهما ممزقتان كأنهما أشلاء السمانى ، وبأنه نخلعهما فى بعض طريقه إما ليسهل عليه علوه ، وإما لأنهما لم تعودا صالحتين للاستعمال لمزقتهما الشديد :

ونعل كأشلاء السَّمانى تركتها على جنب مَوَّر كالنَّحِيْزَةِ أَغْبِرَا<sup>(٢)</sup>  
وهى صورة نجدها عند أبى خراش أيضاً :

ونعل كأشلاء السَّمانى نَبَيْتَهَا خلاف ندى من آخر الليل أوريهم<sup>(٣)</sup>

ومن الطريف أننا نجد لأبى خراش قصيدة نظمها فى مدح رجل حذاء نعلين جديدين<sup>(٤)</sup> ، وهو فيها مقلد له هذا الصنيع تقلديراً كبيراً ، معجب بنعليه الجديدين ، يصفهما ، ويصف صنعهما ، ويتحدث عن قيمتهما فى حياته ، إذ يروح بهما متأنفاً للهوى ، ويستخدمهما فى سيره وعلوه ، ومن يدرى فلعل له فيها مأرب أخرى ! !

وهنا نقف لتساءل : أين شعر السليك فى العلو ، وهو الصعلوك العداء الرجل الذى يضرب به المثل فى سرعة العلو ، والذى تحدث عن سرعته رواة

(١) المفضليات / ١٧ - الشرقة : النعل البالية . والسريح : القد أو السيور التى تشدها النعال . والإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلها .

(٢) ديوانه المطبوع / ٣٥ . وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ ، وفيه « وأشلاء نعل كالسمانى » المور : الطريق الموطوء المستوى . والنحيزة : نعل أقرب معانيها إلى معنى البيت أنها نسيجة شبه الخزام تكون على القسطاط .

(٣) ديوان الهذليين ١٣١/٢ - لرم : المطر الضعيف الساكن الكين .

(٤) انظرهما فى المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وفى الأغاني ٥٧/٢١ ، ٥٨ .

أخباره والشعراء المعاصرون له ، والذي اتخذه الشعراء من بعدُ مادةً طريفةً لأحاديثهم عن السرعة ؟

الحق يقال إنها مسألة غريبة ألا نجد للسليك شعراً يتحدث فيه عن سرعة عدوه ، ولكن يبدو أن أقرب الفروض لتعليل هذه المسألة هو أن شعر السليك في عدوه وسرعته قد فقد . وليس من شك عندى في أن جانباً كبيراً من شعر السليك قد فُقد ، فليس من المعقول أن كل ما نظمه السليك من شعر لا يعدو تلك الأبيات القليلة المتفرقة في مصادر الأدب العربى المختلفة . وإذا كنا قد لاحظنا أن مجموعة السليك الفنية لا تضم حديثاً عن هذا الجانب من حياته ، فإننا نلاحظ أيضاً أنها لا تصور جوانب حياته الأخرى تصويراً كاملاً أو شبه كامل ، وإنما هى مقطوعات قليلة لا تكاد تصور حياة صاحبها . أما صورة حياة السليك فصدها الأول أخبار الرواة وأقاصيصهم عنه . ومع ذلك فشعر السليك — كما يبدو مما وصل إلينا — ليس من الجودة بحيث نأسف على ضياعه ، وقديماً سئل الأصمعى عنه فقال « ليس من الفحول »<sup>(١)</sup>.

### الغزوات على الخيل :

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن غزواتهم على الخيل . وليس هناك ما يمنع الصعاليك من استخدام الخيل في غزواتهم إذا وجدت ، وليس في هذا ما يطن في مقدرتهم على العدو ، فهى مقدره معترف لم بها . هذا إلى أن بعض الصعاليك لم يكونوا عدائين .

وقد عرفت أسماء خيل بعض الصعاليك ، ففقرم كل فرس عروة بن الورد<sup>(٢)</sup> ، والنحام فرس السليك<sup>(٣)</sup> ، واليحموم فرس الشنفرى<sup>(٤)</sup> .

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

(٢) ديوانه / ١٢٠ . ولسان العرب : مادة (قرمل) .

(٣) للقالى : النوادر / ١٨٥ . ولسان العرب : مادة (نحم) .

(٤) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحامه الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .



ويتحدث الصعاليك أحياناً عن غزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الأقدام ، على نحو ما رأينا في الفصل الأول من الباب الأول من أبيات تأبط شرّاً وعروة . ويتحدثون أحياناً أخرى عن غزواتهم على الخيل حديثاً مستقلاً . وهي ظاهرة أكثر ما نجدها في شعر عروة .

فهو يتوعد حيناً أولئك الأغنياء المطمئنين الذين حسبوا أن لن يجرؤ على غزوهم أحد ، وينذرهم بأنه سوف يفرعهم بخيل نشطة تطرد أمامها إبلهم المنفرة طرداً عنيفاً :

سَبْفَرَع بَعْدَ الْيَأْسِ مَنْ لَا يَخَافُنَا      كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ الْمُنْفَرِ<sup>(١)</sup>  
وَحِيناً آخِرٍ يَصْرَحُ بِأَنَّهُ لَنْ يَكْفَ عَنْ الْمَغَامِرَةِ فِي سَبِيلِ الْغَنَى وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ  
مِنَ الصَّعَالِيكِ الْفَرَسَانِ حَتَّى يَحْتَقِ أَهْدَافَهُ أَوْ يُعْذِرَ نَفْسَهُ :

فَلَمَّا لِمُسْتَأْتِ الْبِلَادِ بِسَرْبَةٍ      فَمَبْلَغُ نَفْسِي عُذْرَهَا أَوْ مَطْوَفِ<sup>(٢)</sup>  
وَيُشِيرُ أحياناً أخرى إلى نجاته من مأزق خرج على ظهر جواده « قرمل » ،  
وهو يعد ذلك منةً لهذا الجواد لا تنسى :

كَلِيلَةُ شِيْبَاءٍ الَّتِي لَسْتُ نَاسِياً      وَلَيْلُنَا إِذْ مَنْ مَا مَنْ قَرْمَلِ<sup>(٣)</sup>  
وَيَصْرَحُ السَّليكَ ، ذلك الرجلُ الذي يضرب به المثل في سرعة العدو ،  
بشدة حاجته إلى فرسه في أثناء غارات أصحابه الفرسان على أهدافهم :

وَمَا يَدْرِيكَ مَا فَقَرَى إِلَيْهِ      إِذَا مَا الرِّكْبُ فِي نَهْبِ أَغَارِوَا<sup>(٤)</sup>  
وكذلك الشنفرى ، ذلك الرجلُ الآخر الذي يضرب به المثل أيضاً في  
سرعة العدو ، يتحدث عن فرسه حديثاً طريفاً ، ففرسه لا عيب فيه سوى  
هزاله ، ولكنه جرىء مقدام ، تطغى جرأته وإقدامه في أثناء القتال على هزاله ،  
بل إن الخيل السمينة لا تستطيع الوقوف أمامه :

(١) ديوانه / ٨٣ .

(٢) ديوانه / ٩٢ .

(٣) ديوانه / ١٢٠ .

(٤) لسان العرب : مادة (ركب) .



ولا عيبَ في اليخُموم غير هزاله      على أنه يوم الهَيَاج مسمينُ  
وكم من عظيم الخلق عبل موثق      حواه ، وفيه بعدَ ذلك جنون<sup>(١)</sup>  
وطرافة الصورة تأتي من أن الشنفرى يُضَيِّقُ صفات التصعلك على جواده ،  
فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه  
أيضاً جرىء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة ، وأن الرزق  
في الشجاعة ، وأن الجواد الحامل كالصعلوك الحامل . وتأتى طرافة الصورة أيضاً  
من أن الشنفرى يلون صورة جواده بألوان مغامراته هو ، فإذا جواده صورة منه ،  
كم حوى من خيل سمينة قوية موثقة ، كشأنه هو مع أفراد مجتمعه الأغنياء ،  
وهكذا يقدم لنا الشنفرى جواده على أنه « جوادٌ صعلوكٌ » .

فإذا ما قتل الشنفرى ، وفزع صديقه الحميم وأستاذه نابط شراً لأحزانه  
عليه يستمد منها رثاءه له ، لم ينس ذلك « الجواد الصعلوك » فخصه بيتين  
رائعين من مراثيه ، عند حديثه عن الوسائل التي كان يعتمد عليها الشنفرى في  
قتاله ، عزمه ، وقوسه ، وسيفه ، وفرسه :

وأشقرُ غَيْدَاقُ الجراء كأنه      عُقَابٌ تَدَلَّى بين نَيْقِينَ كاسرُ  
يَجْمُ جُمُومَ البحر طال عُبَابُه      إذا غاض منه أولُ جاش آخر<sup>(٢)</sup>

### الآراء الاجتماعية والاقتصادية :

من الطبيعي أن يعلل الشعراء الصعاليك لمغامراتهم الدامية التي وهبوا  
لها حياتهم ، وأن يفسروا الدوافع التي دفعتهم إلى تلك الثورة التي أشعلوها في  
وجه مجتمعهم ، حتى تكون حركتهم التي وصفها مجتمعهم بالشذوذ قائمة  
على أساس معلن مسبب ، وحتى تكون إجاباتهم حاضرة لكل من يسألهم :

(١) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحاشية الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .  
(٢) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ . وحاشية الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم  
٤١٧ - الفيداق : الطويل . والجراء : الجرى . والنيق : أرفع موضع  
في الجبل . وجه الماء : كثر واجتمع .

لم فعلتم هذا ؟ وحتى يبينوا للباحثين في حركتهم أن يعرفوا أسبابها ودوافعها .  
وقد رأينا في الباب الأول أن حركة الصعاليك قامت نتيجة لعوامل ثلاثة :  
عامل جغرافي ، وعامل اجتماعي ، وعامل اقتصادي ، وأن العامل الجغرافي -  
وإن يكن أول هذه العوامل - ليس العامل المباشر ، وإنما العامل الاجتماعي  
والعامل الاقتصادي هما العاملان المباشران في قيام هذه الحركة . وليس من شك  
في أن الشعراء الصعاليك كانوا يشعرون بهذه المعاني شعور المتصل بها الآخذ  
بأسبابها . وقد أدرك الشعراء الصعاليك عن طريق هذا الشعور أن حديثهم عن  
العامل الجغرافي لن يجدي حركتهم شيئاً ، ولن يضيف إلى حيثيات الحكم في  
قضيتهم ما يفيدها ، لأنه عامل عام يشترك في التأثير به مجتمعهم كله ، وإنما  
الذي ينفع قضيتهم ، ويصلح مادة للدفاع عنها العاملان الآخران الاجتماعي  
والاقتصادي ، ومن هنا حرصوا كل الحرص على تسجيل آرائهم الاجتماعية  
والاقتصادية .

ومن الطبيعي أن يتحدث الصعاليك عن انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ،  
تلك الظاهرة التي كان لها أكبر الأثر في تصعلكهم ، والتي تُعد نقطة التحول  
أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق اجتماعي ، وبين حياتهم  
التصعلكية بما فيها من شذوذ .

يعلن حاجز في صراحة أنه - وإن يكن أزدياً من سَلامان - أصبح متسبباً  
إلى بني مخزوم من قريش فقيهم حلفه ، وهم لا يخذلونه إذا استنصر بهم  
وإنما يسرعون شجعاناً إلى نجدته :

قوى سَلامانُ إذ ما كنت سائلةً      وفي قريش كريم الحلف والنسبِ  
إني مني أدعُ مخزوماً ترى عُنفاً      لا يرْعَشون لضرب القوم من كُشب<sup>(١)</sup>  
ويدعو قيس بن الخلدادية أن يجزي الله عنه خيراً أولئك الذين حسموه  
بعد أن خلعه قومه ، فما يملك شيئاً ليجزيهم به ، وهو الصعلوك الفقير ، سوى

(١) الأغاني ١٢/٤٩ (بولاقي) - العتق : الجماعة من الناس والرؤساء .

ذلك الدعاء الصادق الصادر من أعماق نفسه :

بِجَزَى اللَّهِ خَيْرًا عَنْ خَلِيعٍ مُطَرَّدٍ      رجلاً حموه آل عمرو بن خالد  
وماله لا يدعو لم وقد آروه ، وعطقوا عليه ، ونصروه بعزم وشرفهم وبأبنائهم  
الأبطال الأبطال :

وقد حذبت عمرو على بعزها      وأبنائهما من كل أروع ماجد  
وهو لهذا يعلن على الملأ أن هؤلاء القوم الذين بلأ إليهم ، إنما هم الأصحاب  
والأهل والثروة والنصر :

أولئك إخواني وجل عشيرتي      وشروتهم والنصر غير المحاردي<sup>(١)</sup>  
بل إن أبا الطمحيان يعلن أنه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد  
خلعه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، حتى لقد عرفت كلابهم ثيابه فما نهر عليه :

وقد عرفت كلابهم ثيابي      كأتى منهم ونسيت أهلي<sup>(٢)</sup>  
ولا ينسى الصعاليك الخلاء خلح قبائلهم لم حتى في آخر لحظات حياتهم ،  
حين يمر بهم ماضيهم الحافل بالمغامرة والكفاح ، فإذا قصة الخلع هي الحد  
الفاصل بين حياتين ، والسر الأول في تلك الحياة القاسية التي عاشوها ، والتي  
يودعونها في هذه اللحظات . هذا قيس بن الحداية يقاتل أعداءه الذين تكاثروا  
عليه حتى قتل وهو يرتجز ذاكرة أول ما يذكر قصة خلعه وبغض أهله له .  
أنا الذي تخلعه مواليه<sup>(٣)</sup> وكلهم بعد الصفا قاليه<sup>(٤)</sup>  
وكلهم يقسم لا يباليه<sup>(٥)</sup>

وإذا كان الصعاليك الخلاء والشذاذ قد صوروا في شعرهم هذه العقد  
النفسية التي كان منشؤها انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، فإن الصعاليك  
الأغربة لم يتحدثوا في شعرهم عن ظاهرة اللون التي كانت عقدة العقد في حياتهم ،  
والتي كانت سبباً في انعدام التوافق الاجتماعي بينهم وبين قبائلهم ، وفيما علما

(١) الأغاني ١٣/٥ (بولاقي) - المحاردي : من حادوت الناقة إذا انقطعت ألبانها أو قلت .

(٢) الجاهظ : الحيوان ١/٣٨٠ .

(٣) الأغاني ١٣/٨ (بولاقي) . وابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء ٦/ .

تلك المقطوعة التي أشار فيها الشفري إلى أنه هجين<sup>(١)</sup> لا تكاد نثر فيها بين أيدينا من شعر الصعاليك الأغربة على إشارة إلى هذه الظاهرة ذات الأثر البعيد في حياتهم .

والذي يبدو لي تعليلاً لهذا هو أن الصعاليك الأغربة كانوا يحملون غضاضة في الحديث عن هذه الظاهرة التي كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلي لهم ، حتى إن إشارة الشفري إليها في تلك المقطوعة السابقة كانت إشارة ملتوية تبدو عليها محاولة التنصل منها ، أو على الأقل الدفاع عنها . كما أن حديثهم عنها لا يفيدهم شيئاً في قضيتهم ، لأنها ظاهرة خلقية لا يدّ لهم فيها ، ولا قدرة لهم على تغييرها ، وهذا عكس الفقر الذي كثر حديثهم عنه ، فهو ظاهرة يستطيعون دفعها وتغييرها ، والمقصّر في هذا من الصعاليك الحاملين عليه وزره ، وعليه لعنة الصعاليك العاملين ، وهذا - بطبيعة الحال - إذا لم يكن فيما فقد من شعر الصعاليك الأغربة حديث عنها .

أما عقدة العقد التي اشترك فيها جميع الصعاليك ، وتحدث عنها جميع شعرائهم فهي الفقر ، تلك الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية التي كانت السبب الأقوى في تصعلكهم .

ويتحدث الشعراء الصعاليك في أكثر من موضع من شعرهم عن فقرهم ، وأسبابه ، وتأثيره في أجسامهم ، وأثره في حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التي يسلكونها للتخلص منه ، والأسباب التي يحرصون من أجلها على التخلص منه ، إلى غير ذلك من ألوان الحديث .

يصور الأعمى الهذلي فقره في صورة بلوية ساذجة ، ولكنها طريفة :

زَعَمْتُ خَنَازِرَ بَأْنٍ بُرْهَمْنَا      تَغْلَى بِلَحْمٍ غَيْرِ ذِي شَحْمٍ<sup>(٢)</sup>  
والشاعر الصعلوك هنا قد سجل على نفسه الفقر . ولن تجديه شيئاً هذه

(١) ديوانه المطبوع / ٤٠ قصيدة حرف (اك) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٥ ، ولسان العرب مادة (خنز) وفيه « تجري » مكان

« قتل » - وخناز : لقب امرأة ، والخناز في اللغة : المشتة .

المحاولة « المكشوفة » للندارة فقره حين ادعى أنه زعم من هذه المرأة التي يسبها ،  
ومع ذلك فهو يردّ عليها في آخر مقطوعته بأنه يفخر بأكل هذا اللحم الهزيل ،  
ما دامت نفسه لم يمسه عار ولا إثم :

إنا لنأكل لحمنا ، فاستيقنى في غير منقصة ولا إثم<sup>(١)</sup>  
وفي قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة له ، وهو يفر من  
أعدائه بعد مغامرة من مغامراته في سبيل العيش ، وقد ذكر أهله الفقراء في  
صحرائهم المحبدة ، وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراءه في العراء  
ولا شيء لهم سوى تلك الذلة التي تبدو عليهم كلما نظروا لمحا إلى أقاربهم في  
انتظار شيء يجودون به عليهم :

وذكرتُ أهلي بالعرا • وحاجة الشعث التوالب  
المصرمين من التلا • د اللامحين إلى الأقارب<sup>(٢)</sup>  
ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أسباب فقرهم ، وهم يردونه عادة إلى  
كرمهم وإسرافهم . فعروة أبو الصعاليك يرد فقره إلى بذله ماله للفقراء المحتاجين  
الذين يأتون إليه يشكون فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم :  
إذا قلتُ قد جاء الغنى حال دونه أبو صبيبة يشكو المفاقر أعجفُ  
له خلة لا يدخل الحق دونه كريم أصابته خطوب تجرف<sup>(٣)</sup>  
ويسجل تأبط شراً في قافيته المفضلية حواراً بينه وبين شخص يعذله على  
كرمه وإسرافه ، يصور نفسه فيه كريماً لا يُبقي على شيء عنده ، مغامراً في  
سبيل الحصول على مزيد من المال ليرضى به مطالب كرمه ، وماذا في الحياة  
يدفعه إلى الحرص ما دام كل ما فيها قائماً مهما يحرص الإنسان عليه :  
بل من لَعْدَالَة خَدَّالَة أشب حرق باللوم بجلدى أى تحراق  
يقول أهلك ما لا لو قنعت به من ثوب صدق ومن بز وأعلاق

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٦ .

(٢) المصدر السابق / ٥٨ . وانظر ص ٢١٢ من هذا البحث .

(٣) ديوانه / ٩٢ . وجملة أبي تمام ٤/ ١٢٢ .

عاذلتى إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاع وإن أبقيتهُ باق<sup>(١)</sup>  
ويذكر أبو خراش أنه كريم يدعو امرأته دائماً إلى ألا تدخر شيئاً ، ولا تبقى  
لغد شيئاً ، فإذا لم يجد في غد بعض زادها فسيحاول أن يحصل لها على زاد  
غيره ، أو فلتمسك فيها عن الطعام :

لقد علمت أم الأديبر أنني أقول لها : هدى ولا تدخرى لحمي  
فإن غداً إلا نَجِدُ بعض زادنا نُنَى لك زاداً أو نَعُدُّكَ بالأزْم<sup>(٢)</sup>  
ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن أثر الفقر في أجسامهم ، وما يحمله  
لهم من جوع وهزال . وقد مرّ بنا<sup>(٣)</sup> حديث السليك عن فعل الجوع به في  
أشهر الصيف المحرقة ، وما كان يصيبه من إغماء ودوار ، حتى لقد أوْشَكَ أن  
يفقد حياته صريع الفقر والجوع والهزال ، أو — بعبارة أخرى — صريع  
الصعلكة :

وما ناتها حتى تصعلكتُ حقبةً وكدتُ لأسباب المنية أعرف  
وحنى رأيتُ الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشاني ظلالُ فأسدِف  
ويرسم تأبط شراً في بعض شعره صورة لجسمه دقيقة كل الدقة ، صورة  
الشخص الذى لا يُبْقَى من الزاد إلا ما يتعلل به ، حتى لقد كَشَرَتْ أضلاعه ،  
والتصق معاه :

قليل ادخار الزاد إلا نَعْلَةٌ فقد نَشَرَ الشرسُوفُ والتصق المعى<sup>(٤)</sup>  
وينظر بعض الشعراء الصعاليك إلى المسألة من زاوية أخرى ، فيتحدثون  
عن صبرهم على الجوع واحتمالهم له ، متخفين من هذا الحديث مجالاً للفخر

(١) المفضليات ١٨/ — الخدالة : الذى يخذه في إرادته ويخالقه فيها . والأشب : المخلط  
عليه المعترض . والبيت الثانى معناه أنه يأمره أن يبخل ويمسك عليه ماله حتى يستغنى عن الغزو  
ولا يحتاج إلى طلب المال ( انظر شرح ابن الأثير ) .

(٢) ديوان المهذلين ١٢٥/٢ — هدى : أى اقضى هديتك وما عندك . الأزْم : الإمساك  
وترك الأكل .

(٣) انظر الباب الأول : الفصل الأول ( التعريف بالصعلكة ) ص ٣٠ .

(٤) حاشية ابن تمام ٢٧/٢ ، والأغاني ١٨/٢١٧ .

بقوة نفوسهم وصدق عزائمهم ، ولكننا نلاحظ أن بين النظرتين فرقاً في المجال :  
فأما الذين يشكون من الجوع فإنهم يتحدثون عن ذلك في مجال حديثهم عن  
مغامراتهم المتمردة ، وأما الذين يتحدثون عن صبرهم عليه فإنهم يتحدثون عن  
ذلك في مجال حديثهم عن قوة نفوسهم .

ويقدم لنا أبو خراش صورةً نبيلةً لذلك الجوع . الذي يُبطل حُبسه حتى  
يَمْلَهُ فيمضى عنه دون أن يلحقه منه عار ، وهو يكتفى بالماء القراح في حين  
يستمتع البخلاء الأشحاء بزادهم ، فإذا ما تَلَطَّى الجوع في بطنه فإنه يردده ويغلبه  
على أمره ، وهو يثر عياله على نفسه بالطعام ، وهو يفعل ذلك كله حتى يعيش  
حياة كريمة مرفعة لا تسقط إلى مهاوى المذلة والهوان والعار حيث يكون الموت  
خيراً من الحياة :

وإلى لأثوى الجوع حتى يَمْلَى      فيذهب لم يَدْنَس ثيابه ولا جرمي  
وأغتبِقُ الماء القراحَ فأنتهى      إذا الزاد أمسى للمزَلَجِ ذا طعم  
أرد شُجاع البطن قد تعلمينه      وأثر غيري من عيالك بالطعم  
مخافةً أن أحيا برغم وذلة      وللموت خير من حياة على رِغم<sup>(١)</sup>  
ومن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن تلك السياط النفسية التي  
يصبها الفقر على نفوسهم ، والتي تحدثنا عنها في الفصل الأول من الباب الأول .  
وفي شعر عروة أحاديث طويلة عن هوان مترلة الصعاليك الاجتماعية ،  
ومقامهم خلف أديار البيوت ، وسوء منظرهم في هذا المقام الذليل ، وعن تلك  
الغضاظة التي يراها عليهم ، وكيف يتوارون من الناس ، فلا يقيمون إلا حيث  
لا يراهم أحد ، وعن ضيق أقاربهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم :

رأيتُ بنى لبنى عليهم غضاضةً      بيوتهم وسط الحلول التكتف<sup>(٢)</sup>  
ذريني أطوف في البلاد لعلى      أخليك أو أغنيك عن سوء مخضر  
فإن فاز سهم للمنية لم أكن      جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر

(١) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، والأغاني ٢١/٦٠ - المزج : البخيل .

(٢) ديوانه ٩٤ .



وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد  
إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه  
لکم خلف أدبار البيوت ومنظر<sup>(١)</sup>  
شكا الفقر أولام الصديق فأكثر  
وصار على الأدنين كلاً ، وأوشكت  
صلات قوي القربى له أن تنكرا<sup>(٢)</sup>

ويرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإمام السود من الضيم  
والهوان ، وهو عاجز لفقره عن أن يفعل من أجلهن شيئاً حتى ليشيب رأسه مما  
يقاسيه نفسياً من أجلهن :

أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرحال  
يشق على أن يلقين ضياءً ويعجز عن تخلصهن مالى<sup>(٣)</sup>  
والسليك فى هذين البيتين لا يقصد خالاته القريبات شقيقات أمه بالذات ،  
ولكنه يقصد بهن عامة الجنس ، فهو يصور فيهما هوان الجنس الأسود الذى  
تنتمى إليه خالاته ، ويقول المبرد « وإنما توجع لخالاته لأنهن كن إماء »<sup>(٤)</sup> .  
ومن الطبع أن يتحدث الشعراء الصعاليك ، بعد أن عرضوا لمشكلة الفقر  
وأثرها وأسبابها ، عن آرائهم فيها ، وكيف يكون السيل إلى حلها . والسيل الوحيد  
إلى ذلك عندهم ، كما أسلفنا ، الثورة على المجتمع ، أو بالذات على طبقة المالة  
فيه ، واغتصاب حقوقهم منها ، معتمدين على قوتهم ، مهما يكلفهم ذلك من ثمن .  
وقد صور الشعراء الصعاليك هذا كله فى شعرهم ، فكما تحدثوا عن  
مغامراتهم وهى الناحية العملية من حلهم للمشكلة ، تحدثوا عن الناحية النظرية  
فيها ، فسجلوا آراءهم الاجتماعية والاقتصادية تسجيلاً صادقاً بارعاً .  
فهم يحتقرون تلك الطائفة الخاملة من الصعاليك الذين قبلوا وضعهم  
الاجتماعى الذليل وقنعوا به ، فعاشوا على هامش المجتمع ينتظرون من فضلات

(١) ديوانه / ٦٧ .

(٢) ديوانه / ١٩٠ .

(٣) المبرد : الكامل / ٢٩٩ . والبنداقى : خزانة الأدب ٣ / ١٢٨ وفيها « يعز » مكان

« يشق » .

(٤) الكامل / ٢٩٩ .



الأغنياء ما يسلون به رفقهم ، ويعلمون ذلك الغنى كل الغنى ، لا يفكرون إلا في أنفسهم يلمسون لها ذلك الزاد القليل الدليل ، أما التفكير في أن يكون لهم من الثراء ما يُطعمون به غيرهم ، ويسجلون به لأنفسهم أحاديث خالدة تتناقلها الأجيال من بعدهم ، فهذا أبعد الأشياء عن محيط نفوسهم الضعيفة التي تحيا حياة نخاملة متكاسلة أقصى ما فيها من عمل نخلة النساء « الأرستقراطيات » إذا احتجن إليهم .

أما الصورة التي يريدون أن يكون عليها أفراد جماعة الصعاليك فهي صورة الصعلوك المغامر القوي النفس والجسد ، الذي يشرق وجهه في أوقات الشدة ، والذي يهب حياته للمغامرة ، ويبت الرعب في قلوب أعدائه حتى لمخشوته في وجوده وفي غيابه ، فإذا استغنى فإنه جدير بهذا الغنى لأنه حصل عليه بقوة ، وإذا جاءه أجله في ميدان كفاحه فليمض إلى ربه حميداً مبرأ من العار والذم<sup>(١)</sup> .

وهم حريصون كل الحرص على أن يفرق المجتمع بين هاتين الطائفتين ، وكم يتمنون لو عرف لكل طائفة قيمتها ، فاحترق الأولى ، وقدر الأخرى حتى قدرها . وهذا السليك يوضح ذلك الفرق لصاحبه حتى تكون على بينة من أمرها فلا تخطئ بينه وبين صعاليك الطائفة الأولى الخاملة الضعيفة ، لعلها إن أدركت هذا الفرق كفت عن هجره ونال إعجابها :

ألا عتبت عليّ فصارمتني	وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فإني يا ابنة الأقبام أربي	على فضل الوضيء من الرجال
فلا تصلي بصعلوك نثوم	إذا أمسى يُعد من العيسال
ولكن كل صعلوك ضروب	بنصل السيف هامات الرجال <sup>(٢)</sup>

(١) انظر الحديث عن هاتين الصورتين : صوري الصعلوك الخامل والصعلوك العامل في رائية عروة في ديوانه / ٧٢ - ٨٢ والأصعبيات / ٢٩ ، ٣٠ وجمهرة أشعار العرب / ١١٥ ، وجماعة أبي تمام / ٢١٩ ، ٢٢٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) المبرد : الكامل / ٢٩٨ .

وما دام الأمر كذلك فليروموا لأولئك الذين آمنوا بدعوتهم خطة العمل ،  
وليحببوا إلى قلوبهم ، وليدافعوا عنها وعنهم كما دفعوهم إليها . وقد ترددت  
هذه المعاني كثيراً في شعرهم ، ووقف عروة بن الورد بالذات - كما يقف  
صاحب المذهب - يدعو إلى مذهبه ويحببه إلى قلوب الناس ، ويدافع عنه .  
وليس في هذا غرابة ، فلم يكن عروة يعد نفسه صعلوكاً من الصعاليك ، وإنما  
كان يعد نفسه زعيماً للصعاليك ، أو داعية لفلسفة التصعلك ، إن صحّت  
العبارة . وبهذه النظرة نظر إليه رفاقه ، وبحق سموه أبا الصعاليك<sup>(١)</sup> .

والخطة العملية في فلسفتهم الغزو والإغارة ، وكما كثر في شعرهم الحديث  
عن الجانب التنفيذي من هذه الخطة ، كثر أيضاً حديثهم عن الجانب التشريعي  
منها ، أو بعبارة أخرى كثرت دعوتهم إليها . وأكثر من ظهر عنده هذا الجانب  
التشريعي عروة بحكم وضعه داعية لفلسفة الصعلكة . وأساس دعوتهم أن هذه  
الخطة هي السيل الوحيدة للغنى لمن هو في مثل حالتهم :

مَنْ تَطْلُبُ الْمَالَ الْمُنْعَ بِالْقَنَاءِ تَعَثُّ مَا جَدًّا أَوْ تَخْتَرِمَكَ الْمَخَارِمُ<sup>(٢)</sup>  
ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الأهداف التي يقصدونها بغزواتهم ،  
فيحددون تلك الطوائف من مجتمعهم التي يرون أن يوجهوا إليها رهوس حراهم .  
ومن الطبيعي أن تكون طبقة المالة أكثر طبقات مجتمعهم تعرضاً لغزواتهم ،  
لأنها الهدف الدسم الذي يسيل له لعابهم . ويتحدث تأبط شرا عن ثلاث  
طوائف من هؤلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : أصحاب المواشي ، وأصحاب  
المزارع الخصبية ، وأصحاب النوق الخوامل :

فِيَوْمًا عَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي وَتَارَةً لِأَهْلِ رَكِيبٍ ذِي ثَمِيلٍ وَسَنِيلٍ<sup>(٣)</sup>  
وَلَكِنْ أَرْيَابَ الْمَخَاضِ يَشْفُهُمْ إِذَا اقْتَفَرُوهُ وَاحِدًا أَوْ مَشِيعًا<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني ٨١/٣ .

(٢) عمرو بن براقة في الأمال للقال ١٢٢/٢ .

(٣) لسان العرب : مادة (ركب) ومادة (ثميل) - الركب : المزرعة . والثميل : الحب .

(٤) حسانة أبي تمام ٢٨/٢ ، والأغاني ٢١٧/١٨ - يشفهم : يهزم ، ويك . عيشهم .

واقترفوه : تتبعوا أثره .

أما الأعم فإنه يقصد أولئك السمان المترفين ضعاف القلوب ، وهو يرسم في مقطوعة له صورة مائخة لطيفة لنموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافاً لغزواته ، فهو رجل غنى سمين مترف ، يعيش بين الستائر والحظائر ، وجهت امرأته إليه برها وعنايتها حتى سمته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب لو اخترق صحراء لغزاته شخصها ، ولحسب كل شخص فيها فارساً ، لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله في أرجائها ، الذين إذا رأوه انصبوا عليه كما تنفجر المياه من حوض منهم يحاول صاحبه إصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هارباً ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى :

أيسخط. غزونا رجلٌ سمين      تُكِنُّهُ السنارة والكنيفُ  
ولو رُقِّعتْ ثوبك في خروق      ترُوعك في مهالكها الشُّدُوف  
تخاف لِيْزام عاديةٍ تُعول      كما يتفجر الحوض اللقيفُ  
إذن لذكرت حالك غيرَ عصر      وأفسدَ صنْعَها فيك الوجيف<sup>(١)</sup>

أما أولئك الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم ، أو خلعوا هم أنفسهم منها ، فكما يشاركون غيرهم من الصعاليك في غزوهم أولئك الأغنياء ، يحرصون - إلى جانب ذلك - على الانتقام من أولئك الذين كانوا سبباً في صعلكتهم . ومن هنا نجد أن لهم أهدافاً أخرى غير هؤلاء الأغنياء . كما كان يفعل الشنفرى مع بنى سلامان .

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الغاية التي يريدون أن يصلوا إليها من وراء هذه الخطوة الدامية التي يسلكونها في حياتهم ، وهي - بطبيعة الحال - الغنى . ويسجل الأعم في أبيات له الأسباب التي يحرص على الغنى من أجلها

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٨ ، ٦٩ - الخروق : جمع خرق وهو القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح . والشُدُوف : جمع شدف (بالتحريك) وهو الشخص . والليْزام : العذاب . والشُعول : التي لها زيادات بمنزلة الفرع . واللقيف : الذي أصله صاحبه فطينه وسواه من فواحيه . والوجيف : ضرب من الير ، أو هو الاضطراب .

في ثلاثة : فأمواله تُغنيه عن الناس من ناحية ، وهو يُعين بها الداعين إذا حلت بهم عزيمة من ناحية ثانية ، ثم هو — من ناحية ثالثة — يعدّها للأضياف والمعوزين في أيام الجلب والشدة التي لا يجد الناس فيها ما يُطعمون به من بَكرتِ بَغلام ، ولا تجد الأم شيئاً تُسكت به فطيمها عن البكاء والصراخ جوعاً :

أَحْبَبْتُ إنا قد بُعِثنا الفنى بأموالنا نربحها ونُسِمها  
ونحبسها على العظام نتقى بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها  
إذا النفساء لم تخر من بيكرها غلاماً ، ولم يسكت بحتر فطيمها<sup>(١)</sup>  
ويذكر صخر الفى أنه قتل رجلاً من مزينة وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل  
فقير كريم لا يكاد يثبت له مال :

في المزنى الذى حششتُ به مَالَ ضَرِيكَ تلاده نَكِدُ<sup>(٢)</sup>  
أحاديث التشرد :

قلنا إن هذه الحياة الواقعة في وجه المجتمع المنمردة عليه الخارجة على نظمه ، كان من أثرها أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد هؤلاء طمأنينتهم فيه ، وقلنا إن النتيجة الطبيعية لهذا كانت هي التشرد .

وقد تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم في أرجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الخيفة ، واقتنروا باهتدائهم فيها دون دليل ، أو قيامهم بمهمة الدليل لجماعة من رفاقهم ، واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم ، أو لمدح رفاقهم الصعاليك . يفتخر تأبط شرا — في حديثه إلى امرأة خطبها فامتنعت عليه — بأنه لطول تشرده ألقته وحش الصحراء واطمأنت إليه ، حتى كتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيتُ بمغنى الوحش حتى ألقنه ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٧ . و « بها » في البيت الثاني ساقطة ، ولا يستقيم الوزن بدونها . الحرة : طعم الولادة . والحتر : التواء القليل .

(٢) المصدر السابق ١٣ — حششت به : قويت به . ضريك : فقير .

رَأَيْنَ فَنِي لَا صَيْدَ وَحَشٍ يَهْمُهُ      قَلَوْ صَافَحْتُ إِنْسًا لَصَافَحْنَاهُ<sup>(١)</sup>  
وَيَفْتَخِرُ فِي قَافِيَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِكُرمِهِ وَتَشْرُدُهُ ، وَيتَوَعَّدُ عَازِلِيهِ إِنْ لَمْ يَكْفُوا  
عَنْ عَذْلِهِ بِتَرْكِ دِيَارِهِمُ وَالْمَضِيِّ مُتَشَرِّدًا فِي الْآفَاقِ الْبَعِيدَةِ حَتَّى يَخْتَنِي عَنْهُمْ وَمَا هُمْ  
بِقَادِرِينَ عَلَى مَعْرِفَةِ مَكَانِهِ مَهْمَا يَجِدُوا فِي السُّؤَالِ عَنْهُ :

إِنِّي زَعِيمٌ لَشَنْ لَمْ تَتْرَكُوا عَلَيَّ      أَنْ يَسْأَلَ الْحَيُّ عَنْ أَهْلِ آفَاقِ  
أَنْ يَسْأَلَ الْقَوْمُ عَنْ أَهْلِ مَعْرِفَةٍ      فَلَا يَخْبِرُهُمْ عَنْ ثَابِتٍ لَاقٍ<sup>(٢)</sup>  
وَيَمْدَحُ صَدِيقًا لَهُ مِنَ الصَّعَالِيكِ ، فَلَا يَجِدُ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَبْدَأَ مَدْحَهُ بِذِكْرِ  
تَشْرُدِهِ :

قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِلْمَهْمِ يُصِيبُهُ      كَثِيرُ الْهَوَى شَتَّى النُّوَى وَالْمَسَالِكِ  
يَظَلُّ بِمَوَاقِفٍ وَيَمْسِي بِغَيْرِهَا      جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمِهَالِكِ<sup>(٣)</sup>  
ثُمَّ يَمْدَحُهُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْمَعَانِي الْآخَرَى ، وَلَكِنَّهُ لَا يَنْسِي أَنْ يَحْتَمِ مَقْطُوعَتَهُ  
بِذِكْرِ تَشْرُدِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، كَأَنَّمَا هُوَ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يُوَكِّدَ هَذِهِ الْمِيزَةَ لِصَاحِبِهِ  
الَّذِي بَلَغَ بِهِ تَشْرُدَهُ أَنْ أَصْبَحَتْ الْوَحْشَةُ أَنْسَهُ الْأَنْيسِ ، وَالصَّحْرَاءُ الْغَامِضَةُ  
الْمُجْهُولَةُ كِتَابًا مَفْتُوحًا يَهْتَدِي فِيهِ كَمَا تَهْتَدِي الشَّمْسُ فِي فَلَكِهَا :

يَرَى الْوَحْشَةَ الْأَنْسَ الْأَنْيسَ وَيَهْتَدِي      بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشُّوَابِكِ<sup>(٤)</sup>  
وَيَفْتَخِرُ عُرْوَةً بِمَقْدَرَتِهِ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ فِي الْفَلَاةِ الْغَامِضَةِ الْخَوْفَةِ الَّتِي يُعْرَضُ  
سَالِكُهَا نَفْسُهُ لِلْمِهَالِكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَشِيرَ أَحَدًا أَوْ يَسْتَعِينَ بِأَحَدٍ :

وَغَيْرَاءَ مَخْشَى رَدَاها مَخَوْفَةٌ      أَخْوَاهَا بِأَسْبَابِ الْمَنَآيَا مَفْرُورٌ  
قَطَعَتْ بِهَا شَكَّ الْخِلَاجِ وَلَمْ أَقْلِ      لَخَيَابَةِ هَبَابَةِ كَيْفِ تَأْمُرِ<sup>(٥)</sup>

(١) الْأَغَانِي ٢١٧/١٨ .

(٢) الْمَفْضَلِيَّاتُ ١٨ . وَابْنُ قَتَيْبَةَ : الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) حِمَاةُ أَبِي نَعَامٍ ٤٧/١ - جَحِيشًا : مُتَفَرِّدًا . يَعْرُورِي : يَرْكَبُ .

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ / ٤٩ .

(٥) دِيْوَانُهُ / ١٣٠ - غَيْرَاءَ : مَظْلَمَةٌ لَيْسَتْ بِمَسْفَرَةِ الطَّرِيقِ . وَشَكَّ الْخِلَاجِ : مَا يَخَابِلُهُ وَيَشْكُكُهُ .

وتأخذ الصورة عند أبي خراش وضعا آخر ، فهو لا يقنع باهتدائه في مجاهل الصحراء ، بل يذكر في مجال فخره أنه يهdy رفاقه في الليالي المظلمة :

ولاني لأهdy القوم في ليلة الدجى وأرى إذا ما قيل هل من فتى يرى<sup>(١)</sup>  
ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أماكن تشردهم في قلب الصحراء ،  
وبعدها عن المناطق المأنوسة ، وما يحيط بها من أهوال ، وما يكتنف الطريق إليها  
من مخاوف .

يتحدث تأبط شرا عن شعب من شعاب الصحراء ، في جهة نائية  
مهجورة ، ضربت حوله الجبال نطاقاً ، حتى غدا الطريق إليه وعراً ، وملأته  
الصخور ، وتجمعت فيه آثار من مياه قديمة لا تعرف مصادرها ، ويفتخر بأنه  
اهتدى إليه دون دليل ، ودون أن يسأل أحداً عنه :

وشعب كشل الثوب شكس طريقه مجامع صوحيه نطاق مَحَاصِرُ  
به من سيول الصيف بيض أقرها جبار ، لضم الصخر فيه قراقرُ  
تبطنته بالقوم ، لم يهتدى له دليل ، ولم يُثبت لي النعت خابرُ  
به سملاّت من مياه قديمة مواردُها ما إن لهن مصادِرُ<sup>(٢)</sup>

ويتحدث الشنفرى عن واد بعيد في أعماق الصحراء ملتف الشجر ، قد  
ألفته الجن والآساد ، حتى بات يخشاه المغامرون الشجعان ، وكيف أقدم  
في جرأة وشجاعة على السير فيه في وقت مبكر قبل أن يتطاير الندى عن أشجاره :  
وواد بعيد العمق ضنك جماعه بواطنه للجن والأسد مألَفُ  
تعسفت منه بعد ما سقط الندى عماليل يخشى غيلها المتعسف<sup>(٣)</sup>  
وقد قلنا إنه نتيجة لهذا التشرّد وردت في أشعار الصعاليك أحاديث كثيرة

(١) ديوان الهذليين ١٣١/٢ .

(٢) الأصمعيات ٣٥/١ . ويرى البيت الثاني في لسان العرب مادة ( جبر ) : به من نجاه  
الصيف - الشل : أن يصيب الثوب سواد ولا يذهب بفسله . الصوح : حائط الوادى وأسفل  
الجبل أو وجهه القائم كأنه حائط . الجبار : السيل . العملة : الماء القليل .

(٣) الأغاني ١٤١/٢١ - عماليل : الروابي . والغول : الشجر الكثير الملتف .

عن حيوان الصحراء ووحشها وطيورها وحشراتهما وما يُنجّل للسارى فيها من أشباح .  
 وحين نستعرض مجموعة شعر الصعاليك التى . بين أيدينا نجد أنهم تعرضوا  
 بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً من هذه الفصائل السابقة : الذئب ، والضبع ،  
 والسمع ، والفمر ، والأسد ، والثعلب ، والضب ، ثم حمار الوحش ، والنعام ،  
 والوعول ، والظباء ، والأرانب ، ثم الحيات ، والعظايا ، ثم النسر ، والصقر ،  
 والعقاب ، والغراب ، والبوم ، والسماني ، والقمرى ، والقطة ، والمهدد ، ثم  
 النحل ، والجراد ، ثم الجن ، والغيلان .

ومن الطبيعى ألا يتحدث الشعراء الصعاليك عن هذه الأنواع جميعاً بدرجة  
 واحدة ، فإن بعضها أقرب إلى طبيعة حياتهم ، وأدل على تصويرها ، وأصلح  
 للانتفاع به فى فهم من بعضها . ومن هنا تفاوت اهتمام الشعراء الصعاليك بهذه  
 الأنواع تفاوتاً كبيراً .

وقد رأينا كيف استغل العداءون منهم تلك المجموعة من الحيوان السريع  
 العدو فى حديثهم عن سرعة عدوهم استغلالاً رائعاً ممتازاً ، ورأينا تأبط شرا  
 يذكر فى بعض شعره أن وحش الصحراء قد ألفته ولم تعد تخشاه أو تنفر منه ،  
 كما رأينا الشنفرى ، وهو يصف الوادى البعيد الذى اعتسفه ، يذكر أنه موطن  
 للجن والآساد .

ولكن الأمر لا يقف بالشعراء الصعاليك عند هذا الحد ، بل يتجاوز ذلك  
 أحياناً إلى تعرضهم لبعض هذه الأنواع بالوصف الدقيق المفصل ، الأمر الذى  
 لا ينهيا إلا لمن اتصل بها اتصالاً قريباً عرف منه طبائعها وعاداتها .  
 ففى شعر عروة وصف للأسد ، فهو عريض الساعدين عريض الصدر ،  
 رابض فوق أجمة يتساقط قصبها فوق ظهره ، ولكن إذا بدت له فريسة فما  
 هى إلا وثبة واحدة حتى يقتنصها ، أما زهير فيشبه صوت الرعد :

تَبَغَانِي الأعداءُ إما إلى دم      وإما عراض الساعدين مصدراً  
 بَظَلَّ الأباء ساقطاً فوق متته      له العدة الأولى إذا القيرن أصحرا



كَأَنَّ خَوَاتَ الرعد رَزْ رَثِيرَه من اللاء يسكنُ الغريفَ بَعْشَرًا<sup>(١)</sup>  
وتستأثر الضباع بجزء كبير من شعر الأعمى ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ،  
ويصف جراءها ، وفعلهن بفريستهن ، فالضبع غليظة لها ثمانى جترًا عر ،  
خلف أظلافها شعرات مجتمعة ، وفوق هذه الشعرات دوائر مثل الخلاخيل  
يخالف لونها سائر لون الأرجل :

عَشَنَزَرَةٌ جَوَاعِرُهَا ثَمَانُ فُوقَ زَمَاعِهَا خَدَمٌ حُجُولٌ<sup>(٢)</sup>  
ويصف جراءها ، وانتفاخ بطونها ، وسواد جلودهن كأنما ارتدين ثياب  
رهبان ، وقصر آذانهن العريضة التي تشبه المغارف ، وما يفعلنه بالفريسة المسكينة  
التي تجر أمهن إليهن لحمها ، وكيف يترعن جلدها كما يترع القيون بطائن  
الحنون البالية :

وَتَجَرُ مُجْشِرِيَّةٌ لَهَا لَحْمِي إِلَى أَجْرِ حَوَاشِبِ  
سُودٍ سَحَالِيلِ كَأَنَّ جُلُودَهُنَّ ثِيَابَ رَاهِبٍ  
آذَانُهُنَّ إِذَا احْتَضَرُ نَ فَرِيَسَةً مِثْلَ الْمَذَانِبِ  
يَنْزَعْنَ جِلْدَ الْمَرْءِ نَزْ عَ الْقَيْنِ أَخْلَاقَ الْمَذَاهِبِ<sup>(٣)</sup>  
وهي صورة يخشاها تأبط شرًا أيضاً ، ويصورها في بعض قصائده ، فالضبع  
تنبش الأرض عن الجيف المدفونة ، ثم تنشب فيها أنيابها وبرائتها ، ثم تدعو  
رفيقاتها وبناتها ، فيسارعن إليها ليشاركنها نهشها :

(١) ديوانه / ٥٥ ، ٥٦ - العراض : العريض . والمصدر : العريض الصدر . والأبواء :  
القصب . وأصغر : رز إليه . وخوات الرعد : صوته . والرز : الصوت تسمعه من بعيد ولا ترى  
صاحبه . والغريف : الشجر الملتف . وعثر : أرض قبل نبالة تسكنها الأسود ، وتباله بلدة من  
أرض تهامة جنوبي الطائف .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٤ - العشزرة : الغليظة المستنة . والزماع : جمع زمعة ،  
وهي شعرات خلف ظلف الشاة قسريه مثلاً . والخلم جمع خلمة وهي لون يخالف سائر لون رجلها مثل  
الخلاخال .

(٣) المصدر السابق ١/ ٥٧ ، ٥٨ - مجرية : أي ضبع ذات جراء . والحواشب : المنتفضات  
الجنوب . والسحالييل : العظام البطون . والمذانب : المغارف التي يعرف بها . والمذاهب : بطائن  
ملحمة تنشى بها أبحان السيوف .



فَزُخْزِخْتُ عَنْهُمْ أَوْ تَجَشَّنِي مَنِيَّ      بَغِيرَاءٍ أَوْ عِرْقَاءٍ تَفْرَى الدَّقَائِنَا  
 كَأَنِّي أَرَاهَا الْمَوْتَ لَادِرٌ دَرَاهَا      إِذَا أَمَكَنْتُ أَنْيَابَهَا وَالْبِرَائِنَا  
 وَقَالَتْ لِأُخْرَى خَلْفَهَا وَبِنَاتِهَا :      حُتُوفٌ تَنْقَى مُخٌ مِنْ كَانَ وَاهِنَا  
 أَخَالِيجٌ وَرَادٌ عَلَى ذِي مُحَافِلٍ      إِذَا نَزَعُوا مَدُّوا الدَّلَا وَالشَّوْاطِنَا<sup>(١)</sup>  
 أما الشنفري فلا يخشى على جسده الضيع ، بل يحرص على أن يهي لها  
 منه ولحمة شبيهة ، وهو لهذا يبشرها بمقتله ، ويطلب إلى قاتليه ألا يدفنوه :  
 لَا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ      عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَ عَامِرٍ<sup>(٢)</sup>  
 ويرسم أبو خراش في قصيدة له صورةً طبيعية صادقة لجمار الوحش وأنه  
 التي استبان حملها ، وما يدور بينه وبينها ، فهي تتأني عليه ، وهو يصاوبها  
 ويتبعها . ولكن هذا ليس كل شيء في حياة هذا الحيوان ، وإنما هناك جانب  
 نفسي آخر في حياته ، هو ذلك الذعر الذي يملأ نفسه هماً من خشية  
 الصيادين ، ويعبر الشاعر عن هذا الذعر بمنظر الجمار وقد اعتلى مرتفعاً من  
 الأرض يشرف منه على الآفاق حوله ، وقد امتلأت نفسه خوفاً وهماً ، حتى  
 إذا آذنت الشمس بالمغيب بعد يوم طويل شديد الحر تذكر إنائه ، فأخذ  
 يطاردها مرة أخرى وهي تعدو أمامه فتثير غباراً ممتداً كأنه خيوط لم تُبرم :  
 أَرَى الدَّهْرَ لَا يُبْقِي عَلَى حَدَثَانِهِ      أَقْبُ تَبَارِيهِ جَدَائِدُ حَوْلُ  
 أَبْنُ عِقَاقًا ثُمَّ يَرْمَحُنْ ظَلَمَهُ      إِبَاءٌ وَفِيهِ صَوْلَةٌ وَذَمِيلُ  
 يَظَلُّ عَلَى الْبُرْزِ الْيَفَاعِ كَأَنَّهُ      مِنَ الْغَارِ وَالْخَوْفِ الْمَحْمُ وَبِيلُ  
 وَظَلُّ لَهَا يَوْمَ كَأَنَّ أَوَارَهُ      ذَكَاءُ النَّارِ مِنْ فَيْشِجِ الْقُرُوعِ طَوِيلُ  
 فَلَمَّا رَأَيْنِ الشَّمْسُ صَارَتْ كَأَنَّهَا      فَوَيْقُ الْبَضِيعِ فِي الشَّعَاعِ خَمِيلُ

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ - الضمير في « عنهم » يعود على أعدائه الذين يطاردونه وهو يفر منهم . والأخاليج : جمع إخطيج وهو السريع ، أو من خلع بمعنى جذب واقتزع . الدلا : هي الدلاء جمع دلو . والشواطن : الحبال .

(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية ٣٦ . والشعر والشعراء ١٩/ - وأم عامر : الضيع .

فهيئجها وانشامَ نَقماً كأنه إذا لفها ثم استمر سَحِيلٌ<sup>(١)</sup>  
ويرسم أيضاً صورة طبيعية صادقة للون من ألوان الصراع الذي يدور في  
تلك الصحراء المقفرة بين كائناتها الحية ، والصراع هنا بين صقر وأرنب ،  
فالصقر فوق مرتفع مشرف على الآفاق ، رأى على بعد أرنباً بين شقوق الأرض ،  
فهوى إليها ، ولكنها تسرع لتنجو منه ، فيزيد هو من سرعته حتى انقض  
عليها فانتظم قلبها :

ولا أَمْعُرُ الساقين ظل كأنه على مُخَزَّلات الإكام نصيلٌ  
رأى أرنباً من دونها غولٌ أشرج بعيدٌ عليهن السرابُ يزول  
فَضَمَ جناحيه ومن دون ما يرى بلادٌ وحوشٌ أَمْرُعٌ ومُحُولٌ  
تَوَائِلُ منه بالضراء كأنها صَفَاءٌ لها فوق التراب زَلِيلٌ  
يقربه النهض النجيج لما يرى ومنه بدوٌ تارة ومثول  
فأهوى لها في الجوف اختل قلبها صَبُودٌ لحبات القلوب قتول<sup>(٢)</sup>  
ولعل أطرف ما في شعر الصعاليك من هذا الباب أحاديث الجن والغيلان .

(١) ديوان الهذليين ١١٧/٢ - ١١٩ . أقب : سمار ضامر البطن . جنائذ : جمع جندود  
وهي التي لا لبن لها . وحول : جبل حائل وهي التي لم تحمل من عامها . والمقاق : الحبل . والظلم :  
طلب السفاد في غير موضعه . والنميل : سير لين مع سرعة . والبرز : ما يبرز قشيس . واليفاع :  
المرتفع من الأرض . وقوله الخوف الحم يريد به الخوف الذي يأخذه منه هم وحديث نفس . والوبيل :  
المصا الخليقة الشديدة ، يريد أنه من الخوف ضمر حتى صار كالصفا . ذكا النار : اشتعلها .  
من فيج الفروغ : أي يفور ويحتاج من مجراء الذي يخرج منه كتل فرغ الدلو . البضيع : الجزيرة  
في البحر . والحسيل : القطيفة لها أهداب ، يقول : صارت الشمس حين دنت للغروب فوريق جزر  
البحر كأنها قطيفة لها أهداب يشبه بها أشعثها . وقوله : انشام نقما أي دخل فيه ، والتقمع : الغيار .  
والسحيل : خيط لم يبرم يشبه به الغيار ، أي أن الحمار دخل في غيار كأنه هذا النسيج قبل أن  
ينسج .

(٢) ديوان الهذليين ١٢١/٢ - ١٢٣ . أَمْعُرُ الساقين : لا ريش عليهما ، يريد به صقرا .  
المخزتل : المرتفع . النصيل : حجر طويل أملس يجعل في البئر . الأشرج : شقوق تكون في الأرض  
بعيدة طوال . غول : أي ذات بعد . يزول : أي يتحرك . بلاد وحوش : أي بلاد واسعة تسكنها  
الوحوش . توائل : أي تتوارى لتنجو منه . الضراء : ما وارك من الشجر . السفاء : الشوكة .  
وقوله لها فوق التراب زليل : أي من خفتها زل فوق الأرض . اختل قلبها : أي انتظمه .

وأكثر ما يرد ذلك في شعر تأبط شرًا ، وهي صورة - وإن تكن محاطة بإطار أسطوري - تصور ما كان يخيله الوهم لذلك الصعلوك المغامر المتشرد البعيد الآفاق في الليالي المظلمة بين أرجاء الصحراء الموحشة ، حيث تتجسم الروى أشباحاً مخيفة ، وتختلط الأصوات في لحن غامض رهيب . ومع ذلك فقد يكون ما يقصده تأبط شرًا من الغيلان تلك القصيدة من الحيوان المعروفة باسم « الغورلا »<sup>(١)</sup> ، ولكن هذا لا ينفي أن صورتها عنده محاطة بإطار أسطوري . وهو يصور لقاءه لها ، بعد أن يمهد لذلك بالحديث عن الليل ، ثم يصفها ، ويسجل ما دار بينه وبينها ، وتنتهي القصيدة بينهما دائماً بقتلها :

وأدهم قد جُبتُ جليابه	كما اجتابت الكاعبُ الخيَلا
إلى أن حدا الصبحُ أثناءه	ومزقَ جليابه الأليلا
على شيمِ نار تنورتها	فبت لها مدبراً مقبلا
فأصبحت والغولُ لي جارة	فيا جارتنا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت	بوجه تغول فاستغولا
فقلتُ لها يا انظري كي ترى	فولتُ فكنتُ لها أغولا
فطار بقحف ابنة الجن ذو	سفاسق قد أنطق المحملا
إذا كل أمهته بالصفاء	فحدّ ولم أره صبقلا
عظاية قفر لها حلتا	ن من ورق الطلح لم تغزلا
فمن سال أين ثوت بجارتى	فإن لها باللوى منزلا <sup>(٢)</sup>

وهناك مقطوعان أخريان تصوران قصتين أخريين مع الغول والجن<sup>(٣)</sup> ،

(١) في القاموس المحيط : من مداني الغول السعلاة ، والحية ، وساحرة الجن ، « أر دابة رأها العرب وعرقها ، وقتلها تأبط شرًا » (مادة غول) .

(٢) الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ . والأغاني ١٨ / ٢١٠ - الخيميل : ثوب تلبسه المرأة كالقميص ، أو قميص لا كين له . العظاية : دويبة كسام أبرص .

(٣) انظر الأغاني ١٨ / ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ والبغدادى : غزاة الأدب ٣ / ١٠٨ . والبيكرى : معجم ما استعجم ١ / ٢٥٧ . ولسان العرب : مادة (حد) .

ولكن الشك يحيط بنسبتهما إلى تأبط شرا ، إذ أنهما كما تنسبان له تنسبان لغيره من الشعراء ، ولكن هذا يدل دلالة واضحة على شهرة تأبط شراً بحديثه عن الجن والغيلان ، حتى ليختلط الأمر على الرواة فيما يروى من هذا الحديث أهو له أم لغيره من الشعراء .

## ٢ - الشعر خارج دائرة الصعلكة

### آثار القبلية في شعرهم :

الباحث في شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت في أغراض قبلية ، وتسم بسمايات الشعر الجاهلي القبلي ، وهي مجموعة - وإن تكن قليلة متضائلة - تبدو للنظرة الأولى غريبة على شعر الصعاليك ، لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك قد تحللوا من التزاماتهم القبلية ، فتحللت شخصياتهم الفنية من التأثير بها ، فكان طبيعياً أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبلية التي نراها في سائر الشعر الجاهلي .

ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة ، فمن الطبيعي أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بتورين اجتماعيين : الدور الأول وهو فترة ما قبل التصعلك ، تلك الفترة التي كان الصعلوك فيها عضواً عاملاً في المجتمع القبلي قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعي الذروة التي يبدأ من عندها الدور الثاني في حياته الاجتماعية ، وهو فترة تصعلكه التي قد تستمر حتى مقتله أو موته . وليس بعنينا أن يقلع الصعلوك عن تصعلكه ، فهو في هذه الحالة لا يبدأ دوراً ثالثاً من حياته الاجتماعية ، وإنما يعود عودة اجتماعية لا عودة زمنية إلى الدور الأول . ومن الطبيعي أيضاً أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية في الدور الأول فشاركوا شعراء القبيلة في حياتهم الفنية ، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما انتهى الدور الثاني بالعودة إلى الحياة القبلية . ومعنى هذا أن هذه المجموعة القبلية من شعر الصعاليك نتاج لفترتين تمثلان في الحقيقة دوراً اجتماعياً واحداً : فترة ما قبل التصعلك وفترة ما بعد التصعلك .

ولعروة بن الورد العيسى مجموعة قليلة من القصائد والمقطوعات في موضوعات قبلية<sup>(١)</sup> ، كما نشر برواسب ضئيلة جداً من الحياة القبلية عند صخر الغي الهذلي ، والسليك بن السليكة السعدي . أما صخر الغي فلا يتجاوز ما وصل إلينا من شعره القبلي أبياتاً قليلة في مقطوعتين يناقض فيهما شاعراً فيهدده بكثرة قومه ، وبأنهم ينصرونه ، ويأبون له الضيم :

ونخفّض عليك القولَ واعلمْ بأنني من الأنس الطاحي الحُلُولِ العرْمَرِ  
أبت لي عمرو أن أضامَ ومازقُ وقرْدُ ولخيانُ وسهمُ فسَلَمُ<sup>(٢)</sup>  
ويعلنه بأن قومه يلبون دعوته إذا دعاهم ، فيسرعون لنصرته كما تسيل الشعاب بالماء :

أبا المثلّم إلى غسبر مُهْتَضِمٍ إذا دعوتُ نَمِيماً سالتُ المُسَلُّ<sup>(٣)</sup>  
وأما السليك فكل ما وصل إلينا من شعره القبلي مقطوعة واحدة في ثلاثة أبيات يحذرفها قومه من مغيرين قابلهم في بعض تشرده مسرعين إليهم ، ويذكر أن قومه يكذبونه ، ويؤكد لهم صدقه :

يُكْذِبُنِي العُمرانُ عمرو بن جندب وعمر بن سعد والمكذِبُ أكْذَبُ  
ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتها كراديس يَهْدِيها إلى الحي موكب  
كراديس فيها الخَوْفَزَانُ وقومه فوارس همام متى يدعُ يركبوا<sup>(٤)</sup>  
ومن مجموعة شعر حاجز القليلة التي وصلت إلينا خمس قطع من هذا الشعر القبلي قالها في ظروف قبلية معروفة يذكرها الرواة . وحاجز في هذه القطع مندمج في المجتمع القبلي اندماجاً واضحاً ، يعبر بلسان قومه كما يعبر أي شاعر جاهلي قبلي ، يفخر بهم فيذكر أنهم كرماء ، ويعتر بأبيه وعمه اللذين أسديا

(١) انظر ديوانه : القطعتين رقم ١٠ ورقم ٢٤ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢١ - الأنس : الحي . والطاحي : المتبع المنتشر . والأسماء في البيت الثاني أسماء قبائل .

(٣) المصدر السابق / ٢٤ - وتيم هنا من هذيل . والمسل : جمع مسل وهو مسيل الماء .

(٤) الأغاني ١٨/١٣٦ . والشعر والشعراء / ٢١٦ .

للقبيلة يدين يضاوين في يومين من أيامها . والطريف حقاً أن حاجزاً يبدأ إحدى هذه القصائد كما يبدأ الشعراء القبليون قصائدهم بالنسيب<sup>(١)</sup> ، فيحيي صاحبته ويدعوها بالسلامة ، ثم يصفها ويتحدث عن صرمها له وبعدها عنه ، ثم ينتقل — كما يفعل الشعراء القبليون أيضاً — إلى الحديث عن ناقته ورحلته عليها ، ثم ينتقل انتقالاً مفاجئاً — كمادة الشعراء القبليين أيضاً — إلى الحديث عن قومه .

وكما يفخر حاجز بقومه يذكر أيامهم التي انتصروا فيها :

إِنْ تَذَكَّرُوا يَوْمَ الْقَرِيِّ فَإِنَّهُ	بَوَاءَ بِأَيَّامٍ كَثِيرٍ عَدِيدُهَا
فَنَحْنُ أَبْحَنُ بِالشَّخِصَةِ وَاهِنًا	جَهَارًا فَجِئْنَا بِالنِّسَاءِ نَقُودَهَا
وَيَوْمَ كِرَاءٍ قَدْ تَدَارَكَ رَكْضُنَا	بَنَى مَالِكٌ وَالْخَيْلُ صَعُرَ خُدُودَهَا
وَيَوْمَ الْأَرَاكَاتِ اللَّوَاتِي تَأَخَّرَتْ	سَرَاةَ بَنِي لَهْيَانَ يَدْعُو شَرِيدَهَا
وَنَحْنُ صَبَحْنَا الْحَيَّ يَوْمَ تَنْوَمَ	بَعْلَمُومَةَ يُتَهَوَّى الشَّجَاعَ وَتَيْدَهَا
وَيَوْمَ شُرُومٍ قَدْ تَرَكْنَا عَصَابَةَ	لَدَى جَانِبِ الطَّرْفَاءِ حَمْرًا جُلُودَهَا
فَمَا رَغِمَتْ حَلْفًا لِأَمْرِ بِصِيهَا	مِنَ الذَّلِيلِ إِنْ لَمْ نَحْنُ رَغْمَانُ زَيْدَهَا <sup>(٢)</sup>

ويسجل شماته ، أو — بعبارة أدق — شماته قبيلته بأعدائهم ، ويعبرهم بما فعلوه بهم من قتل رجالهم وسبي نسائهم :

يَا ضَمَرَ هَلْ تَلْنَاكُمْ بِدَمَائِنَا	أَمْ هَلْ حَلَّلُونَا نَعْلَكُمْ بِمِثَالِ
تَبْكِي لِقَتْلِي مِنْ فُقَيْمٍ قُتِلُوا	فَالْيَوْمَ تَبْكِي صَادِقًا لَهْلَالِ
وَلَقَدْ شَفَانِي أَنْ رَأَيْتُ نِسَاءَكُمْ	يَبْكِينَ مُرَدِّفَةً عَلَى الْأُكْفَالِ
يَا ضَمَرَ إِنْ الْحَرْبَ أَضَحَّتْ بَيْنَنَا	لَقِحْتُ عَلَى الدَّكَاءِ بَعْدَ حِيَالِ <sup>(٣)</sup>

ويتوعد أعداء قبيلته ، ويهددهم بأبطال شجعان من قومه مسلحين

(١) (ميجية) الأغاني ١٢/٥٠ (بولاقي) .

(٢) المصدر السابق / ٥١ . البواء : الكف . والملمومة : الكنية .

(٣) المصدر السابق / ٥٢ . الحيال : الغم .

بالسيوف والرماح قد عرقتهم القبائل من قبل :

سَتَمْنَعُنَا مِنْكُمْ وَمِنْ سِوَاكُمْ صَفَائِحُ بَيْضُ أَخْلَصَتْهَا الصِّبَاقِلُ  
وَأَسْمَرُ خَطِي إِذَا هُزَّ عَاسِلُ بِأَيْدِي كِمَاةٍ جَرَّبَتْهَا الْقِبَائِلُ<sup>(١)</sup>  
وأما قيس بن الخدّادية ففى مجموعة شعره القليلة أيضاً التى وصلت إلينا ،  
نعت بثلاث قطع من الشعر القبلى ، إذا أخرجنا تلك القصيدة البائية المشكوك  
فيها ، والتى أشرنا إليها فى الفصل السابق<sup>(٢)</sup> .

وشأن قيس فى هذا الشعر شأن حاجز فى شعره القبلى شأن سائر الشعراء  
القبليين ، يفخر بانتصار قومه على أعدائهم ، ويسجل أسماء من قتلوا منهم ،  
ويذكر عودتهم بالإبل التى غنموها ، والنساء اللاتى سبوهن<sup>(٣)</sup> ، ويعتز بقومه  
حين تغزوهم قبيلة أخرى فيثبتون لهم ، ويردونهم على أعقابهم خاسرين ، بعد  
أن أعمل فيهم فرسانهم الرماح والسيوف التى تترع سواعدهم<sup>(٤)</sup> ، ويهجو أعداء  
قومه ويرد عليهم دعواهم بالنصر بأنهم يفخرون يوم ليس لهم ، ويعيرهم بفرارهم  
أمامهم ، والخيل تركض خلفهم ، وقد تركوا وراءهم أسرى<sup>(٥)</sup> . وقد يحور  
من الطريف أن نلاحظ أن اثنتين من هذه القطع الثلاث تقيضتان بين قيس  
وبين شاعرين من أعداء قومه<sup>(٦)</sup> يرد بهما عليهما ، وهى صورة أدل على قبلية  
هذا الشعر ، لأن قيساً حريص على أن يكون رده على هذين الشاعرين من  
جنس قولهما ، وهما شاعران قبليان .

وعلى كل حال فهذه المجموعة من الشعر القبلى التى تقابلنا فى شعر الصعاليك  
قليلة ، كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

(١) المصدر نفسه / ٥٠ .

(٢) الأغاني ١٣/٤ (بلاق) . وانظر من ١٧٤ من هذا البحث .

(٣) انظر قصيدته الحائية فى المصدر السابق / ٣ .

(٤) انظر مقطوعته الدالية فى المصدر نفسه / ٥ .

(٥) انظر مقطوعته الميمية فى المصدر نفسه / ٤ .

(٦) الحائية والميمية السابقتان .



### المجموعة الإسلامية في شعرهم :

حين ننظر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك نجد مجموعة أخرى قليلة نظمها المخضرمون منهم : أبو الطمحان القيني ، وأبو خراش الهذلي ، وقضالة ابن شريك الأسدي ، بعد أن أشرقت الجزيرة العربية بنور ربها .

وقبل أن نمضي في استعراض موضوعات هذه المجموعة التي يصح أن نطلق عليها « المجموعة الإسلامية في شعر الصعاليك » نقف لتسجيل ملاحظتين : أولاهما أن مجموعة شعر أبي الطمحان ليس من اليسير تمييز الجاهلي فيها من الإسلامي ، إذ أن كل ما يرويه الرواة حولها من أخبار لا يكفي لتحديد الوقت الذي قبلت فيه ، كما أن هذه المجموعة خالية تماماً من الإشارات التي تحدد زمنها ، ما عدا بيتين يصف فيهما انحناء جسمه وتقارب خطوه<sup>(١)</sup> ، مما يرجح أنه قالهما في شيخوخته المتأخرة ، وبيتين آخرين في مدح يزيد بن عبد الملك يذكر الأصمعي أنه أعطاهما مغنياً ليتغنى بهما في مجلس يزيد<sup>(٢)</sup> .

وأما الملاحظة الأخرى فهي أن كل ما وصل إلينا من شعر فضالة بن شريك إسلامي ، تؤكد ذلك أخباره والأسماء الإسلامية التي وردت فيه ، أما شعره الصعلكي فلم يصل إلينا شيء منه ، مع أنهم يذكرون عنه أنه « كان شاعراً فائقاً صعلوكاً مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام »<sup>(٣)</sup> . وهي ظاهرة غريبة وقفت طويلاً أمام تعليلها ، وانتهيت إلى فرضين : إما أن فضالة لم يكن قد نضج فنياً في الجاهلية ، ولم يتم نضجه إلا بعد الإسلام ، وإما أن يكون له شعر داخل دائرة التصعلك ولكن عملت ظروف خاصة على ضياعه ، وأنا أرجح هذا الفرض الأخير ، وأرجح أن أهم هذه الظروف المركز الاجتماعي لابنه فاتك ، فقد « كان سيداً جواداً »<sup>(٤)</sup> ، وكان كريماً على بني أمية ، وهو

(١) السجستاني : كتاب المعرّين / ٦٣ . والبغدادى : عزارة الأدب ٤٢٦/٢ . والأغاني

١٢٠/١١ ، (بولاقي) وحاشية البحري / ٢٢٣ .

(٢) المقدم الفريد ٣٧/٦ .

(٣) الأغاني ١٧١/١٠ (بولاقي) .

(٤) المصدر السابق / ١٧١ .



الوافد على عبد الملك بن مروان قبل أن ينهض إلى حرب ابن الزبير فضمن له على أهل العراق طاعتهم وتسليم بلادهم إليه ، وأن يُسلموا مصعباً إذا لقيه ويتفرقوا عنه ، وله يقول الأقيشر في هذه الوفادة :

وقد الوفود فكنت أفضل وافد      يافاتك بن فضالة بن شريك<sup>(١)</sup>  
وقد يؤيد هذا أن كل أخبار تصعلك فضالة قد ضاعت أيضاً ، والسبب هنا هو السبب هناك ، ولو قد وصل إلينا شيء منها لعقنا من هذا الفرض موقف المتشكك .

ومهما يكن من أمر فإن موضوعات « المجموعة الإسلامية في شعر الصعاليك » قد خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة التصعلك ، وهذا طبيعي بعد أن غير الإسلام من أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يعد للتصعلك مجال فيها . ونوشك موضوعات هذه المجموعة الإسلامية أن تنحصر في تلك الموضوعات العامة التي يعرفها الشعر العربي : المدح والهجاء والثناء . أما المدح والهجاء فيوشك فضالة أن يستأثر بهما . ويبدو أن فضاله أدرك أن هذه وسيلة من وسائل العيش تغنيه عن التصعلك ، فاندمج في الوسط السياسي الأموي ، وشارك شعراءه ، وأصبح شاعراً أموياً يمدح الأمويين ويهجو أعداءهم . وهو يؤثر بالمدح خاصة يزيد بن معاوية<sup>(٢)</sup> ، وقد قبلوا هذه الصلة بين يزيد وفضالة طبيعية ، فقد كان يزيد بما فيه من استهتار وجاهلية أقرب إلى نفس فضالة الصعلوك ، حتى ليحيره من عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ بعد أن هرب منها لهجائه عاصم بن عمر بن الخطاب ، واستعداء عاصم الأمير عليه<sup>(٣)</sup> ، وهو — وإن يكن قد أثر يزيد بمدحه — لم ينس أن يمدح بني أمية عامة<sup>(٤)</sup> .

(١) الأغاني ٢٧١/١١ (دار الكتب) وانظر أيضاً ١٧١/١٠ (بولاق) .

(٢) الأغاني ١٧٠/١٠ ، ١٧٢ (بولاق) .

(٣) المصدر السابق ١٧١/١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ١٧٠/١٧٢ ، ١٧٣ .

أما الهجاء فقد صبه مرةً على عاصم بن عمر بن الخطاب ، كما رأينا :  
لأنه «نزل به فلم يقره شيئاً ، ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيء» وقد عرّفوه  
مكانهم ، وهو يعلن له في بعض هجائه أنه لولا فضل أبيه لقلده خزيًا وعارًا:  
فلولا يدُ الفاروق قلّدتُ عاصمًا      مطوّقةً يحزى بها في المواسم<sup>(١)</sup>  
وصبه مرةً ثانية على رجل من سُلَيم أودع عنده ناقةً وخرج في سفر فلما  
عاد وطلبها منه ذكر السلمي أنها سرقت<sup>(٢)</sup>.

وصبه مرةً ثالثة على عبد الله بن مطيع وإلى عبد الله بن الزبير على الكوفة  
بعد أن طرده عنها المختار الثقفي<sup>(٣)</sup> ، وعلى عبد الله بن الزبير نفسه في قصيدة  
ينسبها بعض الرواة إليه ، وينسبها بعضهم إلى ابنه عبد الله<sup>(٤)</sup> .  
وصبه مرةً رابعة على رجل من الكوفة تزوج امرأة فسأل في صداقها<sup>(٥)</sup> ،  
وهي مسألة مشينة وبخاصة في نفس صعلوك لم يرض أن يتخذ من السؤال وسيلة  
للعيش في يوم من الأيام .

وقد روى بيتان لأبي الطمحان يمدح بهما يزيد بن عبد الملك وكان قد  
انتجعه :

يكاد الغمامُ الغُرُّ يُرْعِدُ أَنْ رَأَى      مُحَيَّا ابن مروان وينهلُ بَارِقُهُ  
يغزل فتيتُ المسك في رونقِ الضحى      تَسِيلُ به أَصْدَاغُهُ وَمَفَارِقُهُ<sup>(٦)</sup>  
أما الرثاء فقد اختص به أبو خراش ، شأنه في ذلك شأن سائر الشعراء  
الهذليين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة . والطريف أن أبا خراش في  
الإسلام يرثي أصدقاءه في الجاهلية ، وبين أيدينا من شعره الإسلامي أربع  
قطع يرثي بها صديقين من أصدقاء الجاهلية : أخاه أو ابن عمه زهير بن

(١) المصدر نفسه / ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه / ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه / ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه / ١٧١ ، ١٧٣ .

(٥) المصدر السابق / ١٧٢ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦ / ٣٧ ، ٣٨ .

المعجزة<sup>(١)</sup> الذي ينحصر بثلاث منها: قصيدتين ومقطوعة<sup>(٢)</sup> ، ودُيئة سادن العزى الذي يرثيه بمقطوعة من أربعة أبيات<sup>(٣)</sup> . وتتجلى لوعته وفجيئته بالذات على زهير الذي يبدو من حديثه عنه أنه كان أيضاً رفيقاً له في مغامراته<sup>(٤)</sup> ، أما دبية فلا يتحدث عنه حديث المتنازع المفجوع بقدر ما يتحدث عنه حديث الذاكر لأيامه الأسف على انقضائها ، ولعله وفاء بدين كان لدبية في عتق أبي خراش ، أو - بعبارة أدق - في قديم أبي خراش منذ أيام تصعلكه ، فقد حذاه دبية مرة نعلين فرح بهما فرحاً شديداً ، ومدحه بمقطوعة يسجل فيها هذه الهدية وقيمتها له<sup>(٥)</sup> . والأمر الذي لا شك فيه أن أبا خراش كان جريئاً حين وقف في الإسلام يرثي دبية سادن العزى الذي قتله خالد بن الوليد بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> . ومع ذلك فمن المحتمل أن أبا خراش حين قُتل دبية لم يكن قد أسلم بعد ، ولكن يبدو أنه احتمال ضعيف نظراً لطبيعة المروية التي بين أيدينا ، فإن أبا خراش فيها لم يتعرض لمقاتل دبية على الإطلاق ، ولو كان أبو خراش قالها قبل إسلامه لتعرض لخالد بن الوليد كما فعل مع قاتل زهير . ومع ذلك فقد يكون الرواة أسقطوا منها تعرضه لخالد ، وحتى مع هذا الاحتمال بأنه قالها قبل إسلامه فلا شك في أنه كان جريئاً حين وقف يرثي دبية في ذلك الوقت الذي أخذ فيه المسلمون يسيطرون على الموقف في جزيرة العرب ، إذ أن دبية لم يقتل إلا بعد فتح مكة<sup>(٧)</sup> .

ويرثي أبو خراش صديقيه بمعان مألوفة في الشعر الجاهلي عامة : الكرم والشجاعة وعجز الإنسان أمام الموت الذي لا ينجو منه حي حتى الحيوان

(١) يقال إنه أخوه ، ويقال إنه ابن عمه (انظر ابن الأثير : أسد الغابة ٥/ ١٧٨ ، ١٧٩) .

(٢) ديوان الهذليين ٢/ ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٦١ - ١٦٤ ، ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق / ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٤) انظر الأبيات السبعة في المصدر السابق / ١٥٠ .

(٥) انظر مقطوعة اللامية في المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر كتاب الأصنام / ٢٢ ،

(٦) انظر كتاب الأصنام / ٢٤ - ٢٦ .

(٧) المصدر السابق / ٢٤ ، ٢٥ .

الشارد في صحرائه ، ولكننا نقف أمام ظاهرتين طريفتين تستحقان التسجيل :

أولاهما : رواسب الصعلكة في شعر أبي خراش الإسلامي .

والأخرى : تأثير الإسلام فيه .

فما زالت صورة الفقراء المهلكين الجياع قوى الثياب البالية ، والضباع التي تنتظر أجساد القتلى في اشتهاى ظامئ ، والآثار الذي يملأ النفوس حقداً وغليلاً ، وذكريات الماضي الذي لا ينساه أبو خراش ، تردد في رثائه لزهير ، وبخاصة في لاميتيه<sup>(١)</sup> .

ومع هذه الصورة نعر على صورة أخرى لتلك الحياة التي تغيرت ظروفها نتيجة لظهور الإسلام ، فقد أحاطت برقاب هؤلاء الصعاليك سلاسل الدين الحديد ، فلم يعودوا قادرين على أن يمضوا في حياتهم كما كانوا في الجاهلية ، وأصبح مقياس الأمور في هذه الحياة الإسلامية العدل والحق ، أما الظلم والباطل فقد مضى عهدهما الطائش الجاهل ، وأصبح فتيان الصعاليك وقد تفرقت جماعاتهم كأنما فرق بينهم الموت :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل  
وعاد الفتي كالكهمل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل  
فأصبح إخوان الصفاء كأنما أهال عليهم جانب الترب هائل<sup>(٢)</sup>  
وأشد ما يملأ نفس أبي خراش غيظاً وغليلاً أنه أصبح عاجزاً عن أن يثار  
لصاحبه من قاتله ، وهو من قريش ، أولئك الذين صارت الإمارة والملك  
فيهم ، ولولا ذلك ما كان ليخشاهم ، ولكن ماذا يفعل سوى أن يظل طول  
عمره مغيظاً محققاً عليهم حتى يُقتلوا بصاحبه :

فما كنت أنخشي أن تنال دماءنا قريش ولما يُقتلوا بقتيل  
وأبرح ما أمرتهم وملكتم يد الدهر ما لم تُقتلوا بغليل<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق / ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه / ١٥٧ .

وهكذا تترج الصورتان في صورة رائعة طريقة لونها التصعلك والإسلام .  
والطريف أيضاً أن أبا خراش بعد أن أسلم وحسن إسلامه<sup>(١)</sup> ، وبعد  
أن عاش في الإسلام عمراً طويلاً امتد به حتى خلافة عمر بن الخطاب<sup>(٢)</sup> ،  
حين يقف على البرزخ الفاصل بين الحياة والموت ، لا يأسف على شيء كما  
يأسف على ساقه التي نهشها حية ، والتي طالما أعانته في حياته وكان لها عليه  
فضل أي فضل :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَابَا غَالِبَاتٌ عَلَى الْإِنْسَانِ تَطْلُعُ كُلُّ نَجْدٍ  
لَقَدْ أَهْلَكْتَ حَيَّةً بَطْنِ أَنْفٍ عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقَا ذَاتِ فَقْدٍ<sup>(٣)</sup>  
لَقَدْ أَهْلَكْتَ حَيَّةً بَطْنِ أَنْفٍ عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقَا ذَاتِ فَضْلٍ  
فَمَا تَرَكْتَ عَدُوًّا بَيْنَ بَصْرَى إِلَى صَنْعَاءَ يَطْلُبُهُ بِذَخْلٍ<sup>(٤)</sup>

وهذه أيضاً من رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو خراش  
في جاهليته إخلاصاً عميقاً ظلت آثاره تتسرب من حين إلى حين في شعره الإسلامي .

ولأبي خراش بعد ذلك قصيدة في سبعة أبيات يصور فيها حزنه على هجرة  
ابنه خراش الذي كان قد حمد الله في بعض أيام تصعلكه البعيدة على أن أنجاه  
له يوم قتل عروة أخوه<sup>(٥)</sup> ، وكان خراش قد هاجر في خلافة عمر وغزا مع  
المسلمين ، وكان أبوه بطبيعة الحال في ذلك الوقت شيخاً كبيراً ، فهو يتحدث  
إلى ابنه في نهاية الأبيات حديثاً تبدو فيه روح الإسلام واضحة ، فليس البر  
أن يهاجر خراش لينال أجر الشهادة مع المجاهدين خلفاً أباه وراءه شيخاً كبيراً  
ضعيفاً في أشد الحاجة إليه ، وإنما البر أن يرعى أباه الذي بلغ عنده  
الكبر :

(١) ابن الأثير : آمد القاية ١٧٨/٥ ، ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق / ١٧٩ .

(٣) ديوان المهذلين ١٧١/٢ . والأغاني ١٩/٢١ .

(٤) الأغاني ٧٠/٢١ .

(٥) ديوان المهذلين ١٥٧/٢ - ١٥٩ .

أَلَا فَاعْلَمْ خِرَاشُ بِأَنْ خَيْرَ الـ مَهاجر بَعْدَ هجرته زهيدُ  
 فَإِنَّكَ وَابْتِغَاءَ الْخَيْرِ بَعْدَى كَمَخْضُوبِ اللَّبَانِ وَلَا يَصِيدُ<sup>(١)</sup>  
 وَكَأَنَّمَا نَسْتَشْفِ مِنْ هَذَيْنِ الْيَتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ « وَقَضَى رَبُّكَ  
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا  
 أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَانْخَفِضْ  
 لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »<sup>(٢)</sup> .  
 وَبِحَقِّ أَمْرِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعَ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ بِأَنْ يَعُودَ  
 خِرَاشُ إِلَى أَبِيهِ ، وَأَلَّا يَفْرُو مِنْ كَانَ لَهُ أَبٌ شَيْخٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق / ١٧١ . والأغاني ٦٩/٢١ .

(٢) سورة الإسراء / ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) الأغاني ٦٩/٢١ .

## الفصل الثالث

### الظواهر الفنية في شعر الصعاليك

#### ١

#### شعر مقطوعات :

حين ننظر في شعر الصعاليك الذي بين أيدينا من الزاوية التي تظهرنا على بنائه الخارجي ، فأول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر مقطوعات . ولنا نعي بهذا انعدام القصيدة فيه ، وإنما نعي ذبوع المقطوعة أكثر من ذبوع القصيدة . وإذا استثنينا ثاية الشنفرى المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين في بعض المصادر<sup>(١)</sup> ، والخمسة والثلاثين في بعض المصادر الأخرى<sup>(٢)</sup> ، ولامية عمرو ذي الكلب الهذلي ذات الثلاثين بيتاً<sup>(٣)</sup> ، ورائية عروة بن الورد المشهورة<sup>(٤)</sup> ، وقائمة صخر الغي الهذلي<sup>(٥)</sup> ، وكل منهما في سبعة وعشرين بيتاً ، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شراً في رثاء الشنفرى التي جمعها ناشر ديوان الشنفرى وتألفت منها قصيدة في سبعة وعشرين بيتاً<sup>(٦)</sup> ، وقافية تأبط شراً المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين<sup>(٧)</sup> ، وبائية الأعمى<sup>(٨)</sup> ، وميمية أبي خراش<sup>(٩)</sup> ، وكلتاها في

(١) المفضليات ١٩٤ - ٢٠٧ .

(٢) انظر في المصدر السابق / ٢٠٧ تعليق Lyall على البيت الأخير من الثاية .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٢ - ٢٣٧ .

(٤) ديوانه / ٦٣ - ٨٥ .

(٥) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٢ - ٤٩ .

(٦) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ - ٢٩ .

(٧) المفضليات / ١ - ١٩ .

(٨) شرح أشعار الهذليين ١ / ٥٥ - ٦٠ .

(٩) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٢٥ - ١٣٢ .

أربعة وعشرين بيتاً ، ودالية صخر الفى ذات الأبيات الثلاثة والعشرين<sup>(١)</sup> ، إذا استثنينا هذه القصائد التسع ، واستثنينا معها تلك المجموعة القليلة من القصائد الطويلة التي قبلت في أغراض عامة ، والتي أخرجناها في الفصل السابق من دائرة شعر التصعلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة ، وأمام مجموعة أخرى من القصائد القصيرة التي توشك أن تكون مقطوعات لا تتجاوز أطولها ، وهي قائمة للشنفرى ، عشرين بيتاً في بعض المصادر<sup>(٢)</sup> ، وتسعة عشر بيتاً في بعض المصادر الأخرى<sup>(٣)</sup> ، هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الأبيات المفردة التي يرجح جداً أنها أبيات من قصائد أو مقطوعات لم تصل إلينا .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن كل ما وصل إلينا من شعر أبي الطمحان مقطوعات قصيرة ، أطولها في أربعة أبيات<sup>(٤)</sup> ، وأقصرها في بيتين<sup>(٥)</sup> ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر حاجر ، ما عدا قصيدة ميمية في تسعة أبيات<sup>(٦)</sup> ، مقطوعات قصيرة أقصرها في بيتين<sup>(٧)</sup> ، وأطولها في سبعة<sup>(٨)</sup> ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر السليك مقطوعات أقصرها في بيتين<sup>(٩)</sup> وأطولها في ستة أبيات<sup>(١٠)</sup> ، وإن تكن إحداها قد بلغت أربعة عشر بيتاً<sup>(١١)</sup> ، وكذلك قيس بن الحداذية ،

(١) شرح أشعار الهذليين ١٢/١ - ١٣ .

(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية ٣٧ - ٣٩ .

(٣) الأغاني ٢١/١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) اللامية في الحيوان الجاحظ ٣٨٠/١ ، والبيان والتبيين ٣/١٥٠ ، ١٥١ ، والأغاني

١١/١٣٢ (بولاقي) ، ورواية الجاحظ أصح ، والباثية في الأغاني ١١/١٣٢ ، ١٣٢ (بولاقي) ،

والثقافية في المصدر نفسه ١٣٣ ، والرائية في الحيوان الجاحظ ٦/١١٣ .

(٥) التوزية في الأغاني ١١/١٣٤ (بولاقي) والثقافية في البيان والتبيين ٣/٢٠٢ .

(٦) الأغاني ١٢/٥٠ (بولاقي) .

(٧) المصدر السابق ٥٢ ، ٥٣ .

(٨) المصدر نفسه ٥١ .

(٩) الأغاني ١٨/١٣٤ ، ١٣٧ . والشعر والشعراء ٢١٥ .

(١٠) الأغاني ١٨/١٣٥ . والميداني : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .

(١١) الأغاني ١٨/١٣٦ .



إذا استثنينا قصيدتين له في الغزل<sup>(١)</sup> لأنهما خارج دائرة التصعلك ، فإن كل ما لدينا من شعره بين الأبيات الثلاثة والتسعة ، بل إن تأبط شراً ، ومجموعته الشعرية أوفر عدداً من هؤلاء ، إذا استثنينا قصيدتيه اللتين ذكرناهما بين القصائد العشر المطولات ، واستثنينا خمساً أخرى بين تسعة أبيات وستة عشر بيتاً<sup>(٢)</sup> ، فكل ما يتبقى أمامنا مجموعة بين بيت واحد وستة أبيات .

وهنا نقف لتساءل : ما السر في هذا ؟

نحن بين أمرين : إما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك التي بين أيدينا ناقصة لا من حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب ، ولكن من حيث عدد أبياتها أيضاً . وهو فرض له إغراؤه لأنه مريح من ناحية ، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربي من ضياع أكثر الشعر الجاهلي من ناحية ثانية ، ولأنه — من ناحية ثالثة — مقبول في مثل حالة الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص على شعرهم ، وحتى لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم .

ولما أن نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهي أن مجموعة شعر الصعاليك — في مجموعها — مقطوعات قصيرة ، ثم نتلمس العلة في ذلك . والعلّة عندى هي طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، كما كان يفعل الشعراء القبليون ، تلك الطائفة « الأرستقراطية » التي فرغت للفن فراغاً هيأته لها قبائلها لا من أجل الفن ولكن من أجل أنفسها . وإلا فما معنى تلك الفرحة التي كانت تعم أفراد القبيلة جميعاً حين يتبع فيها شاعر إن لم تعمل القبيلة على الاستفادة من شاعرها ونهي له أو — بتعبير أدق — لها سبيل هذه الاستفادة ؟

وهل نتصور مثلاً أن يفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما كان يفرغ زهير

(١) الأغاني ١٣/٦ ، ٧ ، ٨ (بولاقي) .

(٢) حاشية أبي تمام ١/٤٦ ، ٢/٢٦ ، والأغاني ١٨/٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

لحوليّاته ، أو امرؤ القيس في حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التي ضمن له رغدها ملك أبيه ، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة ؟ الأمر الذي لا شك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلق مضطربة ، وأنهم جميعاً كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة قصيرة ، وبأنهم دائماً على موعد مع الموت الذي يترصد لهم ترصد الموتور ، حتى كثر ذكر الموت عندهم ، وتردد الحديث عنه في شعرهم ، صدى لما كان يحيش في نفوسهم من إحساس عميق بقصر حياتهم . وهل نظن شاعراً هذه طبيعة حياته يستطيع أن يفرغ لفته بطيله ويجوده ويعيد النظر فيه المرة بعد المرة ؟ أظن أن الطبيعي أن مثل هذه الحياة التي لا يكاد الشاعر يفرغ فيها لنفسه لا تنتج إلا لوناً من الفن السريع الذي يسجل فيه الشاعر ما يضطرب في نفسه في مقطوعات قصيرة موجزة ، يسرع بعدها إلى كفاحه الذي لا ينظره ولا يحمله . أما تلك القصائد الطويلة القليلة فهي أصدااء لفترات قليلة كانت تمر بحياة الشعراء الصعاليك يستريحون فيها من الكفاح في سبيل العيش ، فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسيها العميقة فناً متأنياً مطمئناً مطوّلاً مجوداً رائعاً ممتازاً .

أما أنا فأميل كل الميل إلى هذا الرأي الثاني الذي يفسر الحقيقة الماثلة أمامنا تفسيراً واقعياً دون أن يتكلف في سبيل إنكارها الفروض النظرية التي إن جاز قبولها جاز رفضها .

ومع ذلك أليس من المحتمل أن يكون السبب في كثرة المقطوعات في شعر الصعاليك أنه وصل إلينا مفرقاً في مصادر مختلفة اقتصر كل منها على ما ما يشهد به منه ، وأنه لو كان قد وصل إلينا مجموعاً في ديوان مفرد أو دواوين مفردة لكان من الجائز أن يكون قصائد طويلة ؟ وهو احتمال له وجاهته . وهنا لا يسعنا مرة أخرى إلا إبداء الأسف على عدم حصولنا على تلك المجموعة من أشعار اللصوص التي جمعها السكوي ، وعلى مخطوطة ديوان تأبط شرّاً الذي جمعه ابن جني . ولكن بين أيدينا مجموعة من اللواوين المفردة لطائفة من الشعراء الصعاليك : صخر الغي ، والأعلم ، وعمرو ذي الكلب ، وأبي خراش في

مجموعة أشعار الهذليين ، وعروة بن الورد ، والشنفرى فى ديوانين مستقلين .  
 وحين ننظر فى هذه الدواوين نجد أن ظاهرة انتشار المقطوعات فيها واضحة كل  
 الوضوح ، فليس فى ديوان صخر الغى سوى ثلاث قصائد طويلة<sup>(١)</sup> من مجموعة  
 شعره التى تبلغ ثلاث عشرة قطعة ، ومن هذه القصائد الثلاث واحدة خارج  
 دائرة التصعلك<sup>(٢)</sup> ، وليس فى ديوان الأعمى سوى قصيدتين طويلتين<sup>(٣)</sup> من  
 مجموعة شعره التى تبلغ ست قطع ، وليس لأبى خراش سوى سبع قصائد  
 طويلة<sup>(٤)</sup> ، منها اثنتان خارج دائرة التصعلك<sup>(٥)</sup> ، من مجموعة شعره  
 الكبيرة التى تبلغ اثنتين وعشرين قطعة ، وكل ما سوى هذه القصائد السبع  
 مقطوعات وقصائد قصيرة لا تتجاوز أطولها تسعة أبيات ، وأما ذو الكلب فله  
 قطعتان : إحداهما قصيدة طويلة<sup>(٦)</sup> ، والأخرى أرجوزة قصيرة<sup>(٧)</sup> ، وأما  
 عروة بن الورد فإذا أخرجنا من إحصائيتنا تلك المجموعة التى أضافها ناشر  
 ديوانه مما عثر عليه فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، لأننا نبني حكمنا على  
 ما جمعه القدماء من شعر هؤلاء الصعاليك فى دواوين مفردة ، واقتصرنا على  
 المجموعة التى رواها ابن السكيت وهى تبلغ إحدى وثلاثين قطعة ، فإننا لا نجد  
 فيها سوى سبع قصائد طويلة<sup>(٨)</sup> ، أقصرها فى أحد عشر بيتاً<sup>(٩)</sup> ، وأطولها  
 فى سبعة وعشرين<sup>(١٠)</sup> ، وكل ما عدا ذلك مقطوعات لا تتجاوز أطولها ثمانية  
 أبيات ، وتنخفض مجموعة منها إلى بيتين ، وأما الشنفرى ، فإذا استثنينا اللامية التى

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ١٢ - ١٣ ، ٣٦ - ٣٧ ، ٤٢ - ٤٩ .

(٢) المصدر السابق / ٣٦ - ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه / ٥٤ - ٦٠ ، ٦٠ - ٦١ .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ - ١٢٣ و ١٢٥ - ١٣٢ و ١٣٢ - ١٣٦ و ١٤٤ -

١٤٨ و ١٤٨ - ١٥٠ و ١٥١ - ١٥٣ و ١٦١ - ١٦٤ .

(٥) المصدر السابق / ١١٦ - ١٢٣ و ١٥١ - ١٥٣ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٢ - ٢٣٧ .

(٧) المصدر السابق / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٨) ديوانه : القصائد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ٢٣ .

(٩) المصدر السابق : قصيدة رقم ٦ .

(١٠) المصدر نفسه : قصيدة رقم ٣ .

تُنسب إليه أحياناً، ويشك في نسبتها إليه أحياناً أخرى ، والتي بيننا رأينا فيها في الفصل الأول من هذا الباب الثاني ، فإننا لا نجد في ديوانه المخطوط — لأننا لا نريد أن نعتمد على ديوانه المطبوع الذي أضاف إليه ناشره طائفة من شعره من مصادر متفرقة — سوى قصيدتين طويلتين هما تائيته<sup>(١)</sup> وفائيته<sup>(٢)</sup> ، وما عداهما مقطوعات لا تتجاوز أطولها ستة أبيات<sup>(٣)</sup> .

أليس في هذا ما يجعلنا نقف من هذا الاحتمال موقف التشكك في قبوله ، ونظل عند ميلنا إلى قبول الحقيقة الماثلة أمامنا ، وهي ظاهرة « انتشار المقطوعة في شعر الصعاليك » دون حاجة إلى تكلف فروض واحتمالات ؟

## ٢

### الوحدة الموضوعية :

وإذ انتهينا إلى تسجيل هذه الظاهرة ننقل إلى تسجيل ظاهرة أخرى تتصل بها ، وهي ظاهرة « الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك » . فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها ، دالاً على موضوعها . وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعته ، تلك القصائد التي تبدأ عادةً بمقدمة طلبية ، ثم نظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها ، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء .

ونستطيع أن نمضي مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها ، سواء ما كان منها في وصف

(١) من لوحة رقم ٤٦ — لوحة رقم ٥٠ .

(٢) من لوحة رقم ٥٠ — لوحة رقم ٥٢ .

(٣) لوحة رقم ١٠ .

المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك التي عرضنا لها في الفصل السابق . ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها ، المعبرة عنها ، الدالة على موضوعاتها ، فنثلاثائية الشنفرى <sup>(١)</sup> « غارة على العوص » ، وراثية تأبط شرًا <sup>(٢)</sup> « احتيال » ، وفائية السليك <sup>(٣)</sup> « العاشية المذعورة » ، وبائية حاجز <sup>(٤)</sup> « نجاة » ، وراثيته <sup>(٥)</sup> « فرار » ، وراثية أبي الطمحان <sup>(٦)</sup> « حنين » ، وكافية تأبط شرًا <sup>(٧)</sup> « الصديق الصعلوك » ، وراثية الشنفرى التي أنشدها قبيل مقتله <sup>(٨)</sup> « نهاية الصعلوك » أو « وصية الصعلوك » أو « ولية الضبع » ، وراثيته التي أنشدها فيما كان يطالب به بنى سلامان <sup>(٩)</sup> « تهديد » ، وفائية الأعم <sup>(١٠)</sup> « الأرستقراطي الملوغ » ، وضادية أبي خراش <sup>(١١)</sup> « فرحة وأحزان » ، وبائيته <sup>(١٢)</sup> « رقيق المرقبة » ، وفائية عروة <sup>(١٣)</sup> « طواف الاستقرار » وراثيته <sup>(١٤)</sup> « الفقير والغنى » ، ولاميته <sup>(١٥)</sup> « تراث الصعلوك » ، وهكذا نستطيع أن نفعل بسائر مقطوعات

(١) الأغاني ٢١٦/١٨ ، وديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٢ .

(٢) حسانة أبي تمام ٣٨/١ وما بعدها .

(٣) الأغاني ١٣٥/١٨ .

(٤) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاقي) ، وحسانة البحري / ٦٥ .

(٥) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاقي) .

(٦) الأغاني ١٣٤/١١ و ٦٩/١٦ (بولاقي) .

(٧) حسانة أبي تمام ٤٦/١ .

(٨) ديوانه المطبوع / ٣٦ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٦ .

(٩) المصدران السابقان : المطبوع / ٣٥ ، ٣٦ ، والمصور / ١٠ ، ١١ . والأغاني

١٣٥/٢١ .

(١٠) شرح أشعار الهذليين ١/٩٨ ، ٦٩ .

(١١) ديوان الهذليين ١٥٧/٢ . والمبرد : الكامل / ٢٢٧ ، ٢٢٨ . وحسانة الخالدين

(مخطوطة) : ورقة رقم ١١٥ ، ١١٦ .

(١٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ - ١٦١ .

(١٣) ديوانه / ٩١ - ٩٥ .

(١٤) ديوانه / ١٩٨ ، ١٩٩ .

(١٥) ديوانه / ٢٠٧ .

شعر الصعاليك وقصائده القصيرة دون أن نشعر بأى تفاوت بينها وبين عناوينها. ونتساءل : ما موقف القصائد الطويلة في مجموعة شعر الصعاليك من هذه الظاهرة ؟ وهل استجابت لها كما استجابت المقطوعات والقصائد القصيرة ؟ الأمر الذى لا شك فيه والذى يلاحظه كل ناظر في هذه القصائد الطويلة أول ما يلاحظ ، أنها لم تقف عند غرض واحد ، بل تناولت طائفة متعددة من الأغراض ، ولكن أخرج بها هذا عن الوحدة الموضوعية أم لا يخرج ؟ هذه هي المسألة .

حين ندقق النظر في هذه الأغراض المتعددة نلاحظ أنها في القصيدة الواحدة ترجع عادة إلى أصل موضوعى واحد تتفرع منه كما تتفرغ أغصان الشجرة من جذعها ، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع ، فلامية ذى الكلب الهذلي<sup>(١)</sup> على كثرة ما تناوله فيها من أغراض فرعية من حديث إلى صاحبته عن غزواته ، ومن حديث عن تربص أعدائه به ، وتربصه بهم وتهديده لإياهم ، ومن حديث عن رفاقه وعن أسلحته وعن المراقبة التى يتربص فوقها ، ترجع في حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو ذلك الصراع بينه وبين أعدائه ، حتى ليصح أن نسميها « صراع الصعلوك » . وراثية عروة<sup>(٢)</sup> التى يتحدث فيها عن مذهبه في الغزو ودوافعه ، وعن الصعلوك الحامل والصعلوك العامل ، وعن كرمه وفقره ، ترجع في حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو فكرة التصعلك ، حتى ليصح أن نجعل « فلسفة الصعلكة » عنواناً لها .

وميمية أبى خراش<sup>(٣)</sup> التى يتحدث فيها إلى امرأته عن فقره وكرم نفسه ، وشجاعته ، وصبره على الجوع ، ومغامراته ، وشلة عدوه ، ومقدرته على الاهتداء في الليالى المظلمة ، وبراعته في الرمي ، والتى يوازن فيها بينه وبين

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٢ - ٢٢٧ .

(٢) ديوانه / ٦٣ - ٨٥ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٢٥ - ١٣٢ .

ذلك الرجل الغنى الذى تطمح امرأته إليه ، أليس من اليسير أن نردها إلى أصل موضوعى واحد نجعله عنواناً لها وهو « مفاخر الصعلوك » ؟

وهكذا نستطيع أن نمضى مع كل قصيدة من تلك القصائد التسع المطولات فرد أغراضها الفرعية إلى أصل موضوعى واحد يصلح أن يكون عنواناً لها .

ولكن يبدو أن فى هذا الحكم بعض الإطلاق ، وأنه يجدر بنا أن نخفف قليلاً من إطلاقه ، فبين أيدينا بعض القصائد ، وإن تكن قليلة جداً ، لا تخضع لهذا الحكم : تائية الشنفرى وقافية تأبط شرا المفضلتان ، وقافية صخر الغى وداليتة ، فهذه القصائد الأربع لا تخضع للوحدة الموضوعية ، وإنما تتعدد موضوعاتها ، وهو ، وإن يكن تعدداً يسيراً لا يغير من الحقيقة التى نقرها كثيراً إذ أنه فى كل منها لم يتجاوز الموضوعين ، فإنه على كل حال يجب أن يدعونا إلى وقفة قصيرة نحاول فيها أن نتيين السر فيه .

الذى يبدو لى تفسيراً لهذا أنه تقليد للشعر القبلى الذى كان مسيطراً على الحياة الفنية فى المجتمع الجاهلى ، وهذا التقليد ليس من الصعب أن نتصوره فأظن أنه ليس من اليسير أن نتصور أن الشعراء الصعاليك — برغم ما كان بينهم وبين مجتمعهم من نفور — قد بعدوا كل البعد عن الحياة الفنية فى مجتمعهم أو نفروا كل النفور منها ، وإنما المعقول أن نتصور أنهم كانوا أحياناً يحاولون تقليد تلك النماذج الفنية التى كان مجتمعهم يقدرها كل التقدير ، لعالمهم يظفرون بنوع من تقدير المجتمع لهم ، ولو تقديرأً فنياً ، بعد أن يشوا من تقديره لهم تقديرأً اجتماعياً . ولن يضيرهم أن يقللوا أحياناً تلك النماذج الفنية من الشعر القبلى فى صورتها الشكلية ، فإن يغير هذا شيئاً من طبيعة حياتهم الاجتماعية المتمردة على القبيلة ، ولن يغير كثيراً من تقاليدهم الفنية الأساسية .

وعلى كل حال فهذه الظاهرة ، ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلى فى صورته الشكلية ، ظاهرة قليلة الدروع فى مطولات شعر الصعاليك ، ومنعدمة تماماً فى مقطوعاته ، فليست من الخطر فى شيء على فكرتنا التى نقرها ، فكرة « الوحدة الموضوعية فى شعر الصعاليك » .



### التخلص من المقدمات الطللية :

إذا استثنينا هذه المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك فإننا نصل إلى تسجيل ظاهرة ثالثة، وهي ظاهرة « التخلص من المقدمات الطللية » . وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم ، إذ أن المقدمات الطللية تخل - بطبيعة الحال - بهذه الوحدة الموضوعية . وفيما عدا تلك المجموعة التقليدية التي أشرنا إليها لا نعرّ فيها بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية ، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مذهب جعلوا محور « حواء الخالدة » أيضاً ، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها ، ويقف على أطلال ديارها ، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها ، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته ، إن لم يكن من أجل نفسه فن أجلها هي . وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مسهل قصائدهم صورة للأثني الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته ، يرفض نصيحته في رفق وأدب ، ويقابل جزعها بإبتسامة الائق بنفسه ، المعتد بشخصيته ، ويحاول أن يقنعها في قوة وإيمان بسداد رأيه ، وسلامة مذهبه في الحياة . والبراعة هنا ترجع إلى وضع صورتين متقابلتين في معرض واحد مما يترتب عليه وضوح الألوان الفنية في كليهما ، وهو وضع يذكرنا بما نعرفه من آداب فرسان أوروبا في العصور الوسطى ، حيث كانت لكل فارس سيدة يضع كل مفاخر حياته بين يديها . ومن هنا نستطيع أن نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك « مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك » في مقابل « المقدمات الطللية في الشعر القبلي » .



وقد رأينا الشنفرى فى قصيدته البائية التى جعلنا عنوانها « غارة على العوص » يستهلها بحديث إلى صاحبه بأن تركه شأنه الذى هو ماض إليه ، ولا تثبط عزيمته ، ولتقل بعد مضيه ما تشاء ، فكل ما يعرفه هو أنه لن يموت إلا مرة واحدة .

ويستهل عمرو بن براقة قصيدته الميمية<sup>(١)</sup> بحديث بينه وبين صاحبه ، تنصحه فيه ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يجعل ليله سباتاً يستريح فيه ، ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة ؟ ألم تعلم بأنه أحد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل إلا قليلاً ؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليلين المسالمين الذين ينامون الليل كله ؟

تقولُ مُسلمى لا تعرّضْ لتلفَةٍ      وليك عن ليل الصعاليك نائمٌ  
وكيف ينامُ الليلُ من بجلِ ماله      حسامٌ كلون الملح أبيض صارم  
غموضٌ إذا عض الكربة لم يدع      له طمعاً ، طوغُ اليمين مُلازم  
ألم تعلمي أن الصعاليك نَوْمهم      قليلٌ إذا نام الخلقُ المسالمُ  
ويستهل السليك مقطوعة له لم يصل إلينا منها - فيما بين أيدينا من مصادر - سوى بيتين يتحدث فى أولهما عن تحذير صاحبه له ، ويطمئنها على نفسه لأنه واثق من شجاعته وقوة نفسه :

تحذرنى أن أحذرَ العام خثعماً      وقد علمتُ أنى امرؤ غيرُ مسلمٍ<sup>(٢)</sup>  
وأكثر ما نرى هذه الظاهرة عند عروة بن الورد ، فكثير من قصائده ومقطوعاته تبدأ بحوار بينه وبين صاحبه ، أو لعلها امرأته كما يقول رواة شعره ، وهى تلومه على كرمه وإسرافه ، وتعاتبه على مخاطرته بحياته ، وتغريه على

(١) القائل : الأمالى ٢/١٢٢ ، والأغاني ٢١/١٧٥ ، ١٧٦ . والعيون : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب) ٣/٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ابن حبيب : كتاب المتتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٠ ، والتبريزى : شرح حكمة أبى تمام ٢/١٩٢ . وفيه « القوم » مكان « المام » .

البقاء إلى جانبها ، تارة بمسول القول :

تقول مُسلمي لو أَقمتَ لَسرنا ولم تَذرَ أُنّى للمقام أَطوْفُ<sup>(١)</sup>  
وتارة أخرى بخارَ اللمع الذي ينهل من عينها الجملتين :

تقولُ ألا أَقصرُ عن الغزو، واشتكى لها القولَ طرفَ أحوار العين داعم<sup>(٢)</sup>  
وتارة غيرهما بنخويقه الأعداء الذين يتربصون به :

أرى أم حسانَ الغداةَ تلومني تُخوفني الأعداء ، والنفسُ أخوف<sup>(٣)</sup>  
أما هو فيجيبها في رفق قوى ، أو في قوة رفيقة ، بأنه لا يفعل هذا إلا من  
أجلها ، ومن أجل من يغشاهما من الأهل ، ومن ينزل بهما من الفقراء . يقول لها مرة :  
ذريني أطوْفُ في البلاد لعلى أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضَر<sup>(٤)</sup>  
ويقول أخرى :

أبي الخفضُ مَنْ يغشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تَعْتَرى<sup>(٥)</sup>  
وكل ما يطلبه أن تركه ونفسه ليشتري بها المجد الخالد ، والأحاديث  
الباقية ، قبل أن تفلت منه الفرصة فإذا هو عاجز عن البيع والشراء ، بيع  
النفس وشراء الأحاديث :

ذريني ونفسي أم حسانَ إنني بها قبلَ أنْ لأملك البيعَ مشترى  
أحاديثَ نَبِيٍّ والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَبِيرٍ  
تُجاوبُ أحجار الكِناس ، وتشتكى إلى كل معروف تراه ومنكر<sup>(٦)</sup>  
وهو لا يجزع من الموت ، وهل يملك الإنسان تأخير ساعته إذا دنت ؟  
إن لكل إنسان ساعة إذا حلت فلا متأخر عنها :

(١) ديوانه / ٩٣ .

(٢) ديوانه / ١٧٦ .

(٣) ديوانه / ٩١ .

(٤) ديوانه / ٦٦ .

(٥) ديوانه / ٧١ .

(٦) ديوانه / ٦٣-٦٥ .

فإن فاز سَهْمٌ للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر<sup>(١)</sup>  
 وهل يضمن الإنسان إذا تخلف عن المغامرة والمخاطرة ألا يدركه الموت  
 وهو في عقر داره ؟

لعل الذي خَوَّفَتِنَا مِنْ أماننا يُصَادِفُه في أهله المتخلف<sup>(٢)</sup>  
 إنها مسألة مفروغ منها ، لا ينبغي لأحد أن تقعد به عن هدفه وغايته :  
 ألم تعلمي يا أم حسان أننا خَلِيطَا زِيَال ليس عن ذاك مَقْصَرُ  
 وأن المنايا ثغرُ كل منية فهل ذاك عما يبتغي القومُ مُخْصِرُ<sup>(٣)</sup>  
 والواقع أن عروة يُعدّ خير من يمثل هذه الظاهرة من بين الشعراء  
 الصعاليك ، وفي كثير من قصائده ومقطوعاته نرى هذا اللون من أحاديث  
 « الفروسية »<sup>(٤)</sup> . وربما كان السبب في هذا راجعاً إلى طبيعة مركز عروة في  
 حركة الصعلكة الجاهلية زعيماً لها ، ومشرعاً لفلسفتها ، وواضعاً لتقاليدها  
 الاجتماعية والفنية .

وقد تنحرف هذه المقدمات أحياناً بعض الانحراف ، فلا تكون حديثاً بين  
 الشاعر الصعلوك وصاحبه ، وإنما تصبح حديثاً من الشاعر الصعلوك إلى  
 صاحبه ، يتحدثها عن شيء سوف يفعله ، أو شيء قد فعله ، في اعتداد  
 وثقة بنفسه ، أو في إعجاب وفخر بها :

كَأَنَّ قَدْ فَلَا يَغْرُرُكِ مَنِي تَمَكِّي سَلَكْتُ طَرِيقاً بَيْنَ يَرْبَعِ فَالسُّرْدِ  
 وَإِنِّي زَعِيمٌ أَنَّ أَلْفَ عَجَاجَتِي عَلَى ذِي كِسَاءٍ مِنْ سَلَامَانَ أَوْ بُرْدِ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوانه / ٦٧ .

(٢) ديوانه / ٩١ .

(٣) ديوانه / ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) انظر على سبيل المثال في ديوانه : القصيدة الثالثة / ٦٣ ، والرابعة / ٩١ ، والتاسعة / ١٢٧ ،

والثالثة والعشرين / ١٦٤ ، والسادسة والعشرين / ١٧٦ ، والثانية عشرة من الزيادات / ٢٠٦ .

(٥) الشنفرى في ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٤ ، والبيت الأول غير مروي في النسخة

المصورة من ديوانه ، وإنما تبدأ المقطوعة هناك بالبيت الثاني ( لوحة رقم ١٠ ) ، وروايته « إني لأهوى

أن ألف عجاجتي » .

ألا هل أتى ذات القلائد فرقتي عشية بين الجرف والبحر من بحر  
وقد تنحرف هذه المقدمات انحرافاً آخر ، فلا تكون حديثاً من الش  
الصعلوك إلى صاحبه ، وإنما تصبح حديثاً من صاحبه عنه ، حديثاً ما  
تمكم فيه ، فيرد عليها مفتخراً بنفسه :

تقول سُلَيْمى لجاراتها أرى ثابتاً يَفِيناً حَوْقَلا  
لها الويلُ ما وَجَدْتُ ثابتاً أَلَفُ اليدين ولا زُمَلا<sup>(١)</sup>  
ألا عَتَبْتُ عَلَى فصارمَتِي وأعجبها ذوو اللحم الطوال  
فإني يا ابنة الأَقْوام أربي على فعل الوضىء من الرجال<sup>(٢)</sup>  
ومن اليسير أن نفهم هذين الانحرافين : أما الأول فن الطبيعي جداً أر  
يتحدث الشاعر الصعلوك إلى صاحبه بمفاخره لعله يثير في نفسه إعجاب  
به وتقديرها له ، وأما الآخر فإن النساء مفتونات أبداً بالمال والجمال .  
وهنا نقف أمام ملاحظتين متناقضتين كل التناقض : أما أولاهما فتؤيدنا  
فيما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطويلة ، وأما الأخرى  
فلأنها تثير إشكالا على هذه الملاحظة .

ذلك أن السكري في شرحه لأشعار الهذليين يروى قصيدة لامية لعمر  
ذى الكلب عن أبي عمرو وأبي عبد الله والأصمعي ، تبدأ ببيتين من الغزل  
في رواية أبي عمرو وأبي عبد الله ، أما الأصمعي فلم يرو هذين البيتين .  
وإنما تبدأ القصيدة عنده بحوار بين الشاعر الصعلوك وصاحبه أو امرأته بعد أن  
رجع سالماً من بعض غزواته<sup>(٣)</sup> . والملاحظة التي نريد تسجيلها هنا هي عدم  
اتفاق رواية القصيدة على رواية هذه المقدمة الغزلية ، كأنما كان يرى بعض

(١) حاجر في الأغاني ١٢/ ٥٢ (بلاق) ، وفي حاسة البحري ٦٥/ ذات الخواتم .  
(٢) تأبط شراً في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦ ، وحاسة ابن الشجري ٤٧/ - اليقن :  
الشيخ الكبير . والحقول : الضعيف . والآلف : الثقل البطل العي بالأمور . والزمل : الجبان  
الضعيف .

(٣) الطيب في الكامل للبدر ٢٩٨ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

الرواة أن المقدمة الطبيعية في شعر الصعاليك هي ذلك الحوار بين الشاعر وصاحبه حول مغامراته ، لا تلك المقدمة الغزلية التقليدية التي رأوا أنها غير مألوفة في شعرهم .

ولكن المشكلة تأخذ في الظهور إذ نعثر ببيتين مفردين أحدهما للسليك في لسان العرب<sup>(١)</sup> والآخر لتأبط شرا في معجم البكري<sup>(٢)</sup> . والبيتان يظهر عليهما طابع المقدمات الطللية التي نعرفها في الشعر التقليدي القديم ، فهما - أولاً - مُصرعان مما يشمر بأنهما مطلعاً قصيدتين ، ثم هما - ثانياً - صورة من أسلوب المطالع الجاهلية ، ذلك الأسلوب الذي يحرص الشاعر فيه على ذكر أسماء المواضع ، ثم هما - ثالثاً - لون من ألوان المطالع الجاهلية في حديثها عن الخيال الذي يُلم بالركب المسافر ، وعن عفاء الديار بعد رحيل الأحباب . وهنا تظهر المشكلة فكيف يتفق هذا مع ما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطللية ؟ لقد كانت المشكلة تكون أيسر حلاً لو أن هذين المطلعين قد وصلت إلينا قصيدتهما ، إذن لاستطعنا أن نتبين أهما داخلتان في دائرة شعر الصعلكة أم خارجتان عنها . ونحن لم ننكر أن شعر الصعاليك الخارج عن دائرة الصعلكة قد قلد الشعر الجاهل القبلي في كثير من خصائصه ، ولكن المشكلة قد تعقدت بضياح هاتين القصيدتين من مجموعة شعر الصعاليك الذي بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين في تقليد الشعر الجاهلي القبلي .

وعلى كل حال فإذا صحت نسبة هذين المطلعين إلى السليك وتأبط شراً ، ولم يكونا من صنع اللغويين والجغرافيين العرب ، فلأننا نضيفهما إلى تلك المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك التي قلنا إنها تعد شذوذاً على خصائص

(١) مادة (نيل) :

ألم خيال من أمية بالركب      وعن عجال عن نيال وعن قعب

(٢) معجم ما استعجم ١/ ٢٣١ :

عفا من سليبي ذو عنان فنشد      فأجراع مأثلي غلاء فبسدبد

شعر الصعلكة وهما على كل حال لن يغيرا شيئاً من الحقيقة التي قررناها ،  
والتي نراها في أكثر نماذج شعر الصعلكة ، وهي تخلصه من المقدمات الطولية .

#### ٤

#### عدم الحرص على التصريح :

وتتصل بهذه الظاهرة ظاهرة رابعة من حيث البناء الخارجي لشعر الصعاليك ،  
وهي عدم الحرص على التصريح في مطالع نماذجه الفنية . وقد كان  
يخيل إلى في أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر  
داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعاليك ، أو بالمقطوعات منه بالذات ،  
أو بالقصائد ذات الوحدة الموضوعية ، ولكن حين استعرضت مجموعة شعر  
الصعاليك كلها رأيت أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر  
الصعاليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها ، وسواء  
ما كان مقطوعات أو قصائد ، وسواء ما كان خاضعاً للوحدة الموضوعية أو خارجاً  
عليها ، وأقول « توشك » لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريح في  
مطالعها ، وهي مجموعة — وإن تكن قليلة — تحوّل دون إطلاق الحكم على  
كل شعر الصعاليك . ولكن الشيء الذي نحرص على تسجيله هو أن هذه  
الظاهرة لا تختص بمجموعة خاصة من شعر الصعاليك دون مجموعة ، ولو  
أنها كانت مختصة بمجموعة دون مجموعة لالتصنا تعليلها في خصائص المجموعة  
التي تختص بها ، ولكن انتشارها بهذه الصورة « اللاقاعدية » تجعلنا نلتمس  
لها تعليلاً آخر . وتعليلها عندي يرجع إلى تلك الثورة التي كانت تجيش بها  
نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم ، وإلى تلك الحرية التي كانوا يعيشون  
فيها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ، تلك الثورة وتلك الحرية  
ظهرت آثارها عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية ، فكان شعرهم ناثراً  
على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي ، حرّاً في أوضاعه الفنية . ولكننا

قلنا إن الشعراء الصعاليك لم ينجوا في بعض الأحيان من التقليد الفني للشعر الجاهلي القبيح ، ومن هنا نجد تلك المطالع المصرة في بعض نماذجهم الفنية . واستعراضنا لمجموعة شعر الصعاليك مظهرنا على طائفة من الملاحظات الطريفة :

فكل شعر أبي خراش بدون استثناء قد تخلص من التصريح تخلصاً تاماً . وكل شعر الأعلم بدون استثناء أيضاً قد تخلص من التصريح تخلصاً تاماً ؛ وكل شعر عمرو ذي الكلب ، إذا أخذنا برواية الأصمعي في لاميته التي عرضنا لها منذ قليل ، قد تخلص أيضاً من التصريح تخلصاً تاماً . وكل شعر الشنفرى ما عدا تائيته المفضلية ، وكل شعر تأبط شراً ما عدا قافيته المفضلية ، وكل شعر عروة بن الورد ما عدا رائيته (١) ، وكل شعر صخر الفى ما عدا داليتة (٢) ، وميميته التي قالها في رثاء ابنه (٣) قد تخلص من التصريح .

وكل شعر السليك ، ما عدا مقطوعة واحدة في بيتين اثنين (٤) قد تخلص أيضاً من التصريح .

وكل شعر أبي الطمحان ، ما عدا مقطوعتين (٥) إحداهما في المدح فن الطبيعي أن يلبس الشاعر فيها « الثياب الرسمية » التي يلبسها الشعراء المادحون حين يدخلون على من يمدحون ، كل شعره ما عدا هاتين المقطوعتين قد خلا من التصريح .

وكل شعر حازم ، ما عدا ثلاث قطع (٦) إحداهما يفتخر فيها بقومه ، قد خلا من التصريح .

(١) ديوانه / ٦٣ ، ١٢٧ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ١٢ .

(٣) المصدر السابق / ٣٦ .

(٤) الأغاني ١٨ / ١٣٤ ، والشعر والشعراء / ٢١٥ .

(٥) الأغاني ١١ / ١٣٣ (بولاق) (القافية والحائية) .

(٦) الأغاني ١٢ / ٤٩ (بولاق) (البائية في رثاء نفسه) ، ص ٥٠ (الميمية في الافتخار

بقومه) ، ص ٥٢ (البائية في وصف فراره) .



وحين ننظر في هذه الملاحظات فإننا نقف متسائلين أمام ظاهرة غريبة وهي انتشار التصريح - انتشاراً نسبياً طبعاً - في مقطوعات شعر الصعاليك وبخاصة عند حاجز . وقد يكون من المفهوم أن ينتشر التصريح في القصائد الطويلة التي يحتفل لها الشاعر احتفالاً فنياً خاصاً ، أما أن ينتشر في المقطوعات القصيرة السريعة كما رأينا في مقطوعة السليك ذات البيتين ، فهنا وجه الغرابة .

لست أرى تعليلاً قوياً لهذه الظاهرة الغريبة إلا أحد احتمالين : إما أن يكون هذا التصريح قد جاء عفواً دون أن يقصد إليه الشعراء الصعاليك قصداً ، وهو احتمال مقبول ، وإما أن تكون هذه المقطوعات ، وبخاصة التي قبلت في موضوعات خارج دائرة الصعلكة ، أجزاء من قصائد طويلة لم تصل إلينا كاملة احتفل لها أصحابها احتفالاً فنياً خاصاً فصرعوا في مطالعها ، وهو احتمال مقبول أيضاً .

## ٥

### التحلل من الشخصية القبلية :

ونترك هذه الظاهرة الفرعية لنسجل ظاهرة أساسية في « الشعر داخل دائرة الصعلكة » وهي ظاهرة « التحلل من الشخصية القبلية » . وهي ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق وما سيجتناه من قبل في دراستنا الاجتماعية لظاهرة الصعلكة من فقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصية القبلية في نفوسهم . ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصية القبلية ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فمن الطبيعي أن تنقطع فنياً ، ونعني بانقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك « العقد الفني » الذي نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك « لسان عشيرته » لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع ، ولا يكون شعره « صحيفة



قبيلته، لأنه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصديق من حياته هو ، يسجل فيه كل ما يدور فيها ، ويصبح ضمير الفرد « أنا » أداة التعبير فيه بدلا من ضمير الجماعة « نحن » الذى هو أداة التعبير فى الشعر القبلى ، وتصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته . ومعنى هذا أن ظاهرة الفناء الفنى لشخصية الشاعر القبلى فى شخصية قبيلته التى نلاحظها بوضوح عند أصحاب المذهب القبلى فى الشعر الجاهلى قد اختفت من مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، وحلت محلها ظاهرة أخرى يصح أن نطلق عليها « ظاهرة الوضوح الفنى لشخصية الشاعر الصعلوك » .

ولكن شخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته ، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد ، ويدبنون بعصبية مذهبية واحدة . ومن هنا كانت شخصية الشاعر الصعلوك شخصية « جماعية » ، ولنا نقصد بالجماعية فناء الشاعر الصعلوك فى جماعته فناء يشبه فناء الشاعر القبلى فى قبيلته ، وإنما نقصد بها ذلك التشابه فى الشخصيات بين أفراد جماعة الصعاليك . ومع ذلك فليس من اليسر أن نتصور جماعة الصعاليك قد تشابهت شخصياتها حتى أصبحت شخصية واحدة ، فإن أساس حركة الصعلكة اعتداد بالشخصية الفردية ، واعتزاز بمقدرة الفرد على الوقوف فى وجه المجتمع . ومن هنا كانت لكل شاعر صعلوك - إلى جانب شخصيته الجماعية - شخصية فردية خاصة يتفرد بها بين جماعته . ولكنهم - مع اعتدادهم بشخصياتهم الفردية - كانوا حريصين على شخصيتهم الجماعية ، لأنهم - من غير شك - أقدر جماعة<sup>(١)</sup> على تحقيق مذهبهم فى الحياة منهم أفراداً . ولعل أصدق الأمثلة على هذا عروة وجماعته ، فقد كان عروة - مع اعتداده بشخصيته الفردية - يعبر عن جماعته ويتكلم بلسانها ، وكذلك جماعة تأبط شراً التى كانت تدعوه « أمهم »<sup>(٢)</sup> لقيامه على شئونهم ، وتنظيمه زادهم ، مما يشعر بقوة روح الجماعة بينهم .

(١) نائية الشنفرى فى المفضليات شرح ابن الأنبارى ، البيت ١٩ وشرحه / ١٠٣ ،

وابن دريد : جبهة اللغة ٢١/١ ، والسيوطى : المزهرة ٣٠٢/١ ، وتاج العروس (مادة أم) .

والذى نريد أن نصل إليه من هذا هو تفسير ما نراه فى الشعر داخل دائرة الصعلكة من آثار الجماعة ، فضمير الجماعة « نحن » الذى يتردد أحيانا فيه ليس هو الضمير نفسه الذى نراه فى الشعر القبلى ، فنحن هنا نعبر عن الشخصية الجماعية ، ولكنها هناك تعبر عن الشخصية القبلية .

ومهما يكن من أمر ، فالشئ الذى لا ريب فيه هو أن الشعراء الصعاليك قد تخلصوا من الشخصية القبلية فى شعرهم داخل دائرة الصعلكة كما تخلصوا منها فى حياتهم ، وأنهم أصبحوا شخصية فنية « شاذة » فى الشعر الجاهلى كما كانوا شخصية اجتماعية « شاذة » فى حياتهم ، وهذا « الشذوذ » هو العامل المشترك بين شخصيتهم الفردية وشخصيتهم الجماعية ، حتى ليصح أن نطلق عليهم « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » .

وما أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن الشخصية القبلية ظاهرة فى تلك المجموعة من شعر الصعاليك التى اصطللحنا على تسميتها « الشعر خارج دائرة الصعلكة » . ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه المجموعة — وإن تكن صورة من الفن الجاهلى — تمثل « شذوذا » فى مجموعة شعر الصعاليك « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » .

## ٦

## القصصية :

وإذ قررنا أن شعر الصعاليك صورة صادقة كل الصدق من حياة أصحابه ، يسجلون فيه كل ما يدور فيها ، فإننا نصل إلى تقرير ظاهرة مترتبة على هذه الفكرة وهى ظاهرة « القصصية فى شعر الصعاليك » ، فشعر الصعاليك — فى مجموعه — شعر قصصى يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور فى حياته الخافلة بالحوادث المثيرة التى تصلح مادة طيبة للفن القصصى ، فحوادث مغامراتهم

الحرية التي كانوا يقومون بها فرادى وجماعات وما كان يدور فيها من صراع دام مرير ، وأخبار فرارهم وعدوهم ، وتشردهم في أرجاء الصحراء بين وحشها وأشباحها ، وتربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم ، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي . وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة في شعرهم استغلالاً قصصياً رائعاً جمع في صورة بسيطة عناصر الفن القصصي الأساسية من الإثارة والتشويق وتسلسل لأحداث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة .

وقد رأينا عند حديثنا عن « ظاهرة الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك » أن أكثر مقطوعاته وقصائده تقبل العناوين . ونظرة أخرى إلى هذه العناوين على ضوء هذه الظاهرة الجديدة ، ظاهرة القصصية ، ترينا أنها في مجموعها عناوين قصصية . وهل « غارة على العوص » ، أو « العاشية المذعورة » ، أو « احتيال » ، أو « نجاة » ، أو « فرار » إلا عناوين قصصية ؟ وهل بائية السليك<sup>(١)</sup> إلا قصة بطلاها الشاعر وصاحبه ، ومسرحها تلك المهامه الرملية التي تصل بين ديارهما وديار أعدائهما في الفصل الأول منها ، ثم ديار الأعداء في الفصل الثاني ، وزمانها تلك الليلة التي خرجا فيها وذلك الصباح الذي بدأ فيه الصراع بينهما وبين أعدائهما ، وحوادثها خروجهما من ديارهما وجزع صاحبه في الطريق ، وتشجيع السليك له وبعث الطمأنينة والأمل في نفسه ، ثم ذلك الصراع بينهما وبين أعدائهما ، ثم تأتي الخاتمة أو الفصل الأخير من القصة بانتصار الصعلوكين واستيلائهما على الإبل ثم عودتهما بها ؟ وهل لامية تأبط شرأ<sup>(٢)</sup> إلا قصة تبدأ بحوار بين صاحبة الشاعر وجاراتها ، ثم تتابع أحداث القصة التي تدور بين بطلها وهو الشاعر الصعلوك في ليلة مظلمة خالكة وبين غول قابلهما ، حتى تصل القصة إلى نهايتها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول ويخلفها

(١) بكى مرد لما رأى الحى أعرضت مهامه رمل دونهم وسهوب  
(الأغاني ١٨/١٣٦) .

(٢) تقول سليبي لجارتها أرى ثابتاً يقفأ حوقلا  
(الشعر والشعراء ١٧٦/١٧٦ ، وحمة ابن الشجرى ٤٧) .

صريعة ؟ وهل نائية الشئرى المفضلية — إذا أخرجنا منها مقلدها الغريبة — إلا قصة غزوة من غزواته مع جماعة من رفاقه يقص فيها استعدادهم للغزوة ، ثم خروجهم لها ، ومضيمهم في طريقهم إليها ، ثم تربصهم بأعدائهم ، وانتظارهم الفرصة المواتية ، وما كانوا يفعلونه في هذه الفترة من الانتظار والتربص ، ثم تحقيق أهدافهم التي كانوا يسعون إليها ، ثم تعليق من الشاعر على هذه القصة ؟ وهل بائية الأعلم<sup>(١)</sup> إلا قصة نفسية دقيقة تبدأ مباشرة بمنظر الشاعر الصعلوك مع صاحب له وهما يفران من أعدائهما الذين يطاردونهما مطاردة عنيفة تستمر حتى ينتصف النهار حين يصل الصعلوكان إلى منطقة الأمان ؟ وهى قصة وإن تكن أحداثها قليلة فإن أروع ما فيها ذلك التحليل النفسى الدقيق لنفسية الهارب المدعور والمطارد الطامع في إدراكه ، وذلك التصوير النفسى الرائع لخوف الهارب المدعور من الموت وحرصه على الحياة حين يشتد من خلفه الخطر ، ثم طمأنينة نفسه بعد نجاته وتذكره تلك «العقد النفسية» التي تدفع به إلى مثل هذه المآزق الخطرة : فقره ، وهوان أسرته ، وترف الأغنياء من حوله . والقصيدة ، أو القصة ، من هذه الناحية من الممكن أن نسلك في عداد القصص النفسية التي يعرفها العصر الحديث .

وهكذا نستطيع أن نمضى مع مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة فإذا نحن أمام مجموعة من الأقاصيص يصح أن نطلق عليها كما يفعل القصاص المحدثون «أقاصيص صعلكة» أو «مغامرات الصعاليك» أو «غزوات وقصص أخرى» . بل إن الأمر ليتجاوز هذه المجموعة إلى الشعر خارج دائرة الصعلكة ، وبخاصة عند الهذليين في رثائهم ، فقد اتخذ الهذليون فيه مذهباً قصصياً ، عماده حيوان الصحراء الشارد في أرجائها ، الممتنع فوق جبالها العالية ، يضربون به المثل على أن الموت يدرك كل كائن حى مهما يكن بعده عن مواطن الخطر وامتناعه عليه . والصورة القصصية عندهم دائماً حيوان آمن فى سربه أو فى معقله

(١) لما رأيت القوم بالعليا ، دون قلى المناب

(شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٥ - ٦٠) .

ثم يتبع له القدر صائداً ، تارة يكون إنساناً ، وتارة يكون جارحاً من الطير ،  
يربص به حتى إذا أمكنته الفرصة انقض عليه فأورده موارد الهلاك . ولكن  
من الحق أن نسجل أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على صعاليك هذيل ،  
ولكنها ظاهرة عامة عند الشعراء الهذليين ، وعند بعض الشعراء الجاهليين أيضاً .

وهنا نقف عند نص للأصمعي يرويه ابن دريد عن أبي حاتم عنه ، يقول  
فيه : « ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه »<sup>(١)</sup> لعلنا  
نصل عن طريقه إلى فكرة قد تكون جديدة في تاريخ الشعر العربي ، وقد  
تخالف ما قد تعارفنا عليه من أن امرأ القيس هو أول من اصطنع القصيدة في  
شعره ، وأن تاريخ القصيدة في الشعر العربي يبدأ بامرئ القيس .

ولن نقول مع الأصمعي إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا  
معه ، فتلك دعوى جريئة يعوزها الدليل ، ولا تستطيع الوقوف أمام الدراسة  
الفنية لمجموعة شعره ذات الطابع الفني الواحد ، والشخصية الفنية الواحدة ،  
ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا النص يشير إلى مسألة فنية مهمة أحسها القدماء  
وإن ضلوا الطريق إليها ، وهي أثر الصعاليك في شعر امرئ القيس . فن المعروف  
أن امرأ القيس في بعض فترات شبابه كان يتبع صعاليك العرب<sup>(٢)</sup> ، ومن  
الطبيعي أن النفس الفنية في هذه السن المبكرة تكون قابلة للتأثر لأن نضجها  
الفني لم يكن قد اكتمل بعد وإذن فليس من البعيد أن يكون امرؤ القيس قد  
تأثر من الناحية الفنية بفن هؤلاء الصعاليك وهو يستمع إليهم يقصون أقاصيص  
مغامراتهم وحياتهم في قصائدهم ومقطوعاتهم ، وليس من البعيد أيضاً أن يكون  
امرؤ القيس قد فتنه ذلك الأسلوب القصصي في شعر هؤلاء الصعاليك ،  
فحاول تقليده في شعره ، ثم اتخذ مذهباً فنياً له . وإذن فليس امرؤ القيس  
أول من اصطنع القصيدة في الشعر العربي بل هم الشعراء الصعاليك ، وليس شعر  
امرئ القيس نقطة البدء في تاريخ القصيدة الشعرية بل تسبق هذه مرحلة أولى

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٤ .

(٢) الأغاني ٨١/٩ .

هي مرحلة الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية في الأدب العربي » .  
ومن يدري ؟ فلعل تلك الألوان القصصية في شعر امرئ القيس هي التي أشكلت  
على صاحب هذا الرأي الذي يرويه الأصمعي فخيلت إليه أن جزءاً من شعر  
امرئ القيس من صنع صعاليك كانوا معه .

## ٧

### الواقعية :

والظاهرة السابعة التي نلاحظها على شعر الصعاليك هي « الواقعية » .  
وأول مظاهر هذه الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم ،  
وبعدهم عن الإمعان في الخيال إمعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام  
بسحبه العالية وأبراجه العاجية . ونظرة إلى موضوعات شعرهم التي عرضنا لها في  
الفصل السابق ترينا هذا المظهر واضحاً جلياً ، فقد صور الشعراء الصعاليك  
في فهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها : الصحراء القاسية بشعابها  
وجبالها وأغوارها ، وصحورها ومياهاها ، وحرها وبردها ، ولياليها المظلمة الرهيبة ، وحيوانها  
الشارد في آفاقها ، ووحشها الرابض في أرجائها ، وحشرات المتوارية في جحورها  
والسارية فوق رمالها ، وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدوها : طلوع  
الفجر ، وغروب الشمس ، والندى المتساقط في أول الليل وفي آخره ، والبرق  
والرعد ، والسحاب والمطر ، وصوروا الحياة الواقعية التي يحيطون بها بكل ما فيها من  
واقع خير وواقع شرير : الكرم والمروعة ، والعطف على الفقراء والمرضى والضعفاء ،  
والسلب والنهب وسفك الدماء ، وبكل ما فيها من محاسن وعيوب : الشجاعة  
والبطولة ، والقوة والمغامرة ، والهرب والفرار ، والفقر والجوع والهزال والهوان ،  
وصوروا الشخصيات الإنسانية التي يتصلون بها كما يرونها في الواقع المحسوس  
بكل ما بينها من تباين واختلاف : الأعداء والأصدقاء ، والصعاليك العاملين  
والصعاليك الحاملين ، والنساء المشجعات والنساء المثبطات ، والنساء المعجبات

والنساء المتكلمات ، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين ، كل هذه الجوانب من الحياة الواقعية هي الأسس التي أقام عليها الشعراء الصعاليك بناءهم الفني .

والمظهر الثاني لهذه الواقعية صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل ، بحيث لا يشعر الناظر في شعر الصعاليك باختلاف بين الصورة الشعرية وأصلها في الحياة ، أو بين ما يراه في شعرهم وما يشاهده في الحياة ، حتى ليخيل إليه أنه أمام مجموعة من الصور « الفوتوغرافية » . وهل صورة الضباع وجرائها عند الأعمى<sup>(١)</sup> ، وحمار الوحش وأنته عند أبي خراش<sup>(٢)</sup> إلا صور « فوتوغرافية » سجلتها « عدسات » الصعاليك لهذه النماذج من الطبيعة الحية ؟ وهل صورة المرقبة عند الشنفرى<sup>(٣)</sup> ، وصورتها عند أبي خراش<sup>(٤)</sup> ، وصورة الشعب عند تأبط شرأ<sup>(٥)</sup> ، وصورة البرق والرعد والسحاب والمطر عند صخر الغي<sup>(٦)</sup> ، إلا صور « فوتوغرافية » سجلتها « عدسات » الصعاليك لهذه الجوانب من الطبيعة الصامتة ؟

ومن مظاهر هذه الواقعية أيضاً استكمال الصورة العامة ، فحين ننظر مثلاً في صورة حمار الوحش وأنته عند أبي خراش نلاحظ أنها صورة واقعية كاملة استكملت كل عناصرها ، بحيث نشعر بأننا أمام صورة طبيعية منقولة عن الواقع نقلاً دقيقاً كاملاً . فحمار الوحش أقب خبيص البطن ، عنيف نشيط ، وأنته قد استبان حتمتها فهي متأبية عليه ، والمكان فوق مرتفع من الأرض يشرف منه حمار الوحش على الآفاق خائفاً يترقب ، والزمان يوم شديد الحر من أيام الصيف الطويلة ، ولكن المنظر يتغير حين تؤذن الشمس

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١١٧ - ١٢١ .

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٧ ، ٣٨ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ ، ٥١ .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٥٩ - ١٦١ .

(٥) الأصمعيات / ٣٥ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٢ - ٤٥ .



بالمغيب ، ويحين موعد أوبة هذه الحمر إلى منازلها ، فترى حمار الوحش يترك  
مركبته ، ويهيج أثنى التي تسرع أمامه مثيرة خلفها حبلا طويلا من الغبار الممتد ،  
فيسرع خلفها وسط هذا الغبار ، ولكن الأثن تحس خطراً يترصد بها ،  
ذلك أن صياداً فقيراً رث الحال يحمل سهامه الزرق في انتظارها ، فترهف الأثن  
السمع ، حتى إذا ما تأكدت من هذا الخطر أسرعت في قوة وشدة ، ويعترض  
طريقها ماء "آجن" يكسوه نبات طويل ، فتلقى بنفسها فيه ، وتفتح ما بين  
أيديها ، وتنطلق سابحة ، ولكن الصياد يرسل سهامه ، فأما الأثن فتنجو لأنها  
متقدمة ، وأما حمار الوحش فقد كان أقرب إلى الصياد منها ، فيخترق فؤاده  
سهم "ضخم عريض النصل" .

وأظن أننا قد لاحظنا في هذه الصورة — إلى جانب استكمالها لكل عناصرها  
من الهيئة والمكان والزمان والحالة والفعل والنتيجة — حرصاً على التفاصيل واهتماماً  
بالجزئيات ، وهو المظهر الرابع من مظاهر هذه الواقعية . فأبو خراش حريص  
على تسجيل حمل هذه الأثن وحذر حمار الوحش ، ثم هذا الحبل من الغبار  
الذى يخرقه حمار الوحش خلف أثنه ، ثم رثالة حال الصياد ، وشدة عدو  
الأثن بعد إحساسها بالخطر ، وحركة أيديها وهى سابحة فى الماء ، وهذا النبات  
الطويل الذى يكسو صفحة الماء الآجن ، ومركز حمار الوحش بين الأثن  
والصياد مما يسر إصابته ونجاتها .

وحين ننظر فى تصوير الأعلام للضباع وجرائها نجد مثلاً آخر لهذا المظهر ،  
فالأعلام حريص على التفاصيل حرصاً شديداً ، معنى بالجزئيات عناية قوية ،  
لا ينسى حين يذكر الجراء انتفاخ بطونها ، وقصر قوائمها ، وسواد جلدها ،  
وقصر آذانها العريضة التى تنبسط حين تقبل على فريستها فى نهم فتتزع جلدها  
نزع القيون لبطائن الجفون ، ولا ينسى حين يذكر الضباع المستة غلظها ،  
وجواعها الثماني ، بل إنه لا ينسى تلك الشعرات المجتمعة خلف أظلافها ،  
ولا تلك الدوائر التى تشبه الخلاخيل التى تقع فوق هذه الشعرات ، والى  
بخالف لونها سائر لون الأرجل .



وهنا نصل إلى مظهر آخر من مظاهر حرص الشعراء الصعاليك على التفاصيل ، وهو اهتمامهم « بظاهرة اللون » . وقد رأينا الأعلام حريصاً على تسجيل سواد الضياع ، وتلك الدوائر التي يخالف لونها سائر لون الأرجل ، كما رأينا في الفصل السابق اهتمام الشعراء الصعاليك بلون القوس . والحق أن الشعراء الصعاليك قد اهتموا بالوان كل أسلحتهم تقريباً ، وفرقوا بينها في دقة رائعة تستحق الإعجاب ، فالسيف أبيض<sup>(١)</sup> ، والقيدح أحمر<sup>(٢)</sup> ، والسهم والنصل أزرقان<sup>(٣)</sup> ، والرمح والترس أسمران<sup>(٤)</sup> ، والقوس إما صفراء وإما حمراء . وإلى جانب هذا نجد الأطباء البيض عند حاجز<sup>(٥)</sup> ، والإبل الدهم عند أبي خراش<sup>(٦)</sup> ، والحصان الأشقر عند تأبط شرأ<sup>(٧)</sup> ، والخيول الحو والكمت عند قيس بن الخدادية<sup>(٨)</sup> ، ونجد الدم الحالك عند أبي خراش<sup>(٩)</sup> والعصابة الحمر

(١) الحديث عن بياض السيف كثير جداً في شعر الصعاليك ، وفي الشعر العربي عامة ، وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض المواضع التي ورد فيها في شعر الصعاليك « حسام كلون الملح أبيض صارم » ( عمرو بن براقة : أسالي القول ١٢٢/٢ ) . « طارت بأبيض صارم » ، « حسام كلون الملح صاف حديد » ( الشنفرى : المفضليات / ٢٠٥ ) . « يكن من المأثور كالملاح لونه » ( عروة : ديوانه / ١٧٨ ) . « ببيض خفاف ذات لون مشهر » ( عروة : المصدر السابق / ٨٤ ) .

(٢) « أركبها في كل أحمر غائر » ( الشنفرى : ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٨ ) .

(٣) « بأزرق لا تكس ولا متعوج » ( الشنفرى : المصدر السابق / ٣٤ ) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٢ ) . « رباح من الخطى زرق فصالحا » ( أبو خراش : ديوان الهذليين ١٢٤/٢ ) .

(٤) « وأسمر خطى » ( حاجز : الأغاني ٥٠/١٢ بولاق ) . « سمر القنا » ( تأبط : الأغاني ٢١٤/١٨ ) - « وأسمر خطى القنا » ( عروة : ديوانه / ٢٠٧ ) . « وأسمر مجناً من جلد ثور » ( ذو الكلب : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٥ ) .

(٥) « ترى البيض يركضن الجاسد بالضحى » ( الأغاني ٥١/١٢ بولاق ) .

(٦) « كأجواز المقررة الدم » ( ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٣٠ ) .

(٧) « وأشقر غيظاق الجراء » ( ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ ) .

(٨) « رمينهم بالحو والكمت » ( الأغاني ٥/١٣ بولاق ) .

(٩) « ولا بطلا إذا الكساء تزينوا لدى غمرات الموت بالحاك القدم »

( ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٢٦ ) .

الجلود عند حاجز<sup>(١)</sup> ، والوجوه المشرقة كلون الماء المذهب عند الشنفرى<sup>(٢)</sup> ،  
والنبت الأخضر فى الربيع<sup>(٣)</sup> ، واسوداد أنامل الفقراء فى الشتاء<sup>(٤)</sup> ، وسواد  
معاصم الفقيرات<sup>(٥)</sup> ، والقلدر السوداء التى يجتمع حولها الفقراء الجياع<sup>(٦)</sup> ،  
عند عروة .

والمظهر الخامس من مظاهر هذه الواقعية الصريحة فى التصوير ، وتسجيل  
الواقع كما هو دون محاولة لإخفائه ، أو تغيير حقيقته ، وقد رأينا فى الفصل السابق  
أمثلة لهذه الصراحة التى تسجل الواقع كما هو فى أحاديث الشعراء الصعاليك  
عن فرارهم وهربهم ، وعن فقرهم وجوعهم وهزالهم ، وهوان وضعهم الاجتماعى .  
ولا يجد الشاعر الصعلوك حرجاً من أن يتحدث عن فرحته بنعلين أهديتا  
له كما يفعل أبو خراش<sup>(٧)</sup> ، أو يتحدث عن نعليه الباليين الممزقين كما يفعل  
تأبط شراً والشنفرى وأبو خراش أيضاً<sup>(٨)</sup> ، أو عن ثيابه الأخلاق التى « إذا  
أنجمت من جانب لا تكفّف » كما يقول الشنفرى<sup>(٩)</sup> ، أو عن حملة قرية  
الماء كما يذكر تأبط شراً<sup>(١٠)</sup> .

والمظهر السادس لهذه الواقعية الدقة فى التعبير ، تلك الدقة التى تحدد  
العبارة تحديداً واضحاً لا غموض فيه .

فحين يعتذر تأبط شراً عن فراره من أعدائه مخلفاً صاحبه لم يراه يضع

(١) ويوم شروم قد تركنا عصابة لدى جانب الطرفاء حمرا جلودها  
(الأغاني ٥١/١٢ بولاق) .

(٢) سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مذهب  
(ديوانه فى الطرائف / ٣٢) .

(٣) « حتى يؤكل النبت أخضرا » (ديوانه / ٩١) .

(٤) « كريما إذا اسود الأنامل أزهر » (المصدر السابق / ٦٩) .

(٥) « ومن كل سوداء المعاصم تعترى » (المصدر نفسه / ٧١) .

(٦) « وإذا ما يربح الحى صرماء جوفة » (المصدر نفسه / ١١٤) .

(٧) ديوان المذليين ٢/ ١٤٠ ، ١٤١ .

(٨) المفضليات / ١٧ ، وديوان الشنفرى (المطبوع) / ٣٥ ، وديوان المذليين ٢/ ١٣١ .

(٩) ديوانه (المطبوع) / ٣٧ ، والأغاني ٢١/ ١٤١ .

(١٠) البغدادى : خزانة الأدب ١/ ٦٥ ، ولسان العرب : مادة (عصم) . وقد رجحنا فى

الفصل الأول من هذا الباب أن هذه الأبيات لتأبط شراً .

المسألة وضماً « حسابياً » ، فإذا يفعل وقد نظر فإذا هؤلاء الأعداء أكثر من ثلاثة ؟ ولو أنهم كانوا اثنين مثليهما أو حتى ثلاثة ما فر مختلفاً صاحبه لهم : تقول تركت صاحباً لك ضائعاً وجئت إلينا فارقاً متباطئاً إذا ما تركت صاحبي لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبت أمنا<sup>(١)</sup> وحين يتحدث الشنفرى عن غارته على العوص مع أصحابه فراه يحدد عددهم تحديداً « حسابياً » أيضاً ، فيذكر أنهم كانوا ثمانية ، ويحدد الزمن الذى استغرقه طريقهم حتى وصلوا إلى العوص ، ثم يحدد أخيراً عدد من صرعوهم من أعدائهم<sup>(٢)</sup> .

وحين يتحدث عن صديقه تأبط شراً أو « أم العيال » كما يسميه ، ويصف جعبة سهامه ، يحرص على أن يقدم لنا إحصائية دقيقة عن عدد هذه السهام فهى ثلاثون سهماً عراض النصال<sup>(٣)</sup> .

والى جانب هذا « التحديد الحسابى » الذى يستمد دقته من لغة الأرقام نجد صورة أخرى تأتى من « التحديد الجغرافى » الذى يستمد دقته من ذكر المواضع وتحديدها على نحو ما يفعل كتاب الوثائق والمعقود !

فحين يصف الشنفرى خروجه مع أصحابه فى بعض غزواتهم يحدد مكان خروجهم تحديداً جغرافياً دقيقاً ، فيذكر أنهم خرجوا من الوادى الذى يقع بين مشعل وبين الجبا<sup>(٤)</sup> . وحين يهدد بنى سلامان ، أعداءه الألداء ، يحدد المواضع التى سيلاقهم بها تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ويعدددها موضعاً موضعاً ، وهو تحديد يضئ على تهديده لوناً من التحدى لهم والاستخفاف بهم ، لأنه به « يكشف أوراقه » ، كما يقال فى لغة « اللاعبين »<sup>(٥)</sup> . وحين يهدد عروة أعداءه من الأوس « يكشف لهم أوراقه » أيضاً ، فيحدد لهم

(١) الأغاني ١٨/٢١٣ .

(٢) ديوانه (المطبوع) ٣٢ .

(٣) المفضليات ٢٠٤ - وديوانه المصور : لوحة رقم ٤٨ - والأغاني ٢١/١٤٠ .

(٤) المصادر السابقة : المفضليات ٢٠٣ ، والديوان ٤٨ ، والأغاني ١٣٩ .

(٥) انظر رأيته فى ديوانه المطبوع ٣٥ ، ٣٦ ، وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ .

الموضع الذى سيلاقهم به تحديداً دقيقاً ، فيذكر أنه سيلاقهم « بمنبطح الأوعال من ذى السلائل »<sup>(١)</sup> . وكذلك يفعل الأعلام الهذلي :

فلست لحاصن إن لم ترَوْنى      ببطن صريحة ذات النجال  
وأى قينة إن لم ترَوْنى      بعورش وسط عَرَعرها الطوال<sup>(٢)</sup>  
وإلى جانب هذا « التحديد الجغرافى » نجد صورة أخرى من صور الدقة فى التعبير يصح أن نطلق عليها « التحديد التعبيرى » ، ونقصد به ذلك التحديد اللفظى الدقيق للدلول العبارة الذى يأتى من طبيعة اللفظ أو النظم أو من طبيعتهما معاً . فحين يصف تأبط شراً الحية يذكر أن خروجها يكون « بعيد غروب الشمس » :

أصم قطارى يكون خروجه      بعيد غروب الشمس مختلف الرُؤس<sup>(٣)</sup>  
والدقة هنا تأتى من ذلك التصغير لظرف الزمان ، وهو تصغير يحدد الوقت تحديداً دقيقاً .

وحين يصف غلاماً قابله فى بعض مغامراته ، وكادت الأعجوبة أن تحدث ويسقط تأبط شراً صريع مهم من سهامه ، لا يكتفى بأن يذكر أنه غلام ، ولكنه يحدد طوله وسنه تحديداً طريفاً ولكنه دقيق ، فهو غلام يزيد طوله على خمسة أشبار ، ولكنه لم يبلغ السن التى تشبه فيها النساء :

غُلامٌ نما فوق الخُماسى قَدْرُه      ودون الذى قد ترتجيه النواكح<sup>(٤)</sup>  
وحين يصف تلك القلة البارزة التى تشبه سنان الرمح ، والتى يسرع إليها مع أصحابه ، يحرص على أن يسجل لنفسه سبقه إياهم فى الوصول إليها ، ولكنه

(١) انظر لاميته فى ديوانه / ٢١٠ - وذو السلائل فيه تصحيف صوابه ما أثبتناه هنا كما هو وارد فى الأغاني ٣/ ٧٥ ، ومعجم البلدان لياقوت ٥/ ١٠٥ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٧ .

(٣) لسان العرب : مادة ( قطر ) - القطارى : الحية تأرى إلى قطر الجبل ، أو مأخوذ من القطار وهو سمها الذى يقطر من كثرته .

(٤) الأغاني ١٨/ ٢١٦ . وغلام خماسى : طوله خمسة أشبار ( انظر القاموس المحيط مادة

« خمس » ) .

في الوقت نفسه حريص على ألا يسيء إليهم ، أو أن يكون حديثه عن نفسه طعناً فيهم ، فراه يعتمد على هذا « التحديد التعبيري » فيذكر أنه سبقهم إليها لا لأنهم كسالى ، فهم جميعاً صعاليك نشطون ، ولكن لأنه أسرع منهم : وقُلَّةُ كسنان الريح بارزة ضَخَيَانَةٌ في شهور الصيف مِخْرَاقٌ بادرتُ قُنْتَهَا صَحْبِي وما كَبِلُوا حتى نَمَبْتُ إليها بعد إشراق<sup>(١)</sup> وهي دقة في التعبير يشبهها قوله في القصيدة نفسها حين أراد أن يتحدث عن قوة نفسه وأنه حريص على رفاقه أكثر من حرصه على رفيقاته :

ولا أقول إذا ما خُلَّةٌ صَرَمْتُ يا وبيحَ نفسي من شوق وإشفاق  
لكنما عَوَلِي ، إن كنتُ ذا عَوَلٍ على بصير بكسب الحمد سباق<sup>(٢)</sup>  
فهو لا يريد أن يسجل على نفسه ضعفاً سواء في موقفه من رفيقته أو في موقفه من رفيقه ، فحين أحس أنه قد ضعف في مطلع البيت الثاني استدرك وحدد عبارته تحديداً دقيقاً أثبت به حرصه على رفيقه ، ونفى ما بدا من ضعف في مطلع عبارته ، فالدقة هنا تأتي من هذه المقدرة البارة على النفي والإثبات في موضع واحد .

والمظهر السابع من مظاهر هذه الواقعية ظهور الخبرة العملية في فهم . وهو مظهر يجعلنا نشعر بأننا أمام إنسان يعيش في الواقع العملي لا أمام شاعر يعيش في الخيال والأوهام . وقد رأينا أبا خراش في حديثه عن حمر الوحش يذكر تمنع الأتُن الحوامل على الذكر ، وهي ظاهرة مقررة عند علماء الحيوان . وحين يصف الأعمى العظيم يذكر من بين أوصافه أنه « زَمَحَرِي السواعد »<sup>(٣)</sup> أي أن عظامه جوف لا مخ فيها ، ويذكر شراح شعره أن « النعام جوف

(١) المفضليات / ١٦ ، ١٧ ، ولسان العرب مادة (ضحا) ١٩ / ١١٤ ، ومادة (نم) ١٦ / ٩٢ وفيها قلتما ، وقيل إشراق .

(٢) المفضليات / ١١ ، ١٣ .

(٣) شرح أشعار الخليلي ١ / ٦٢ ، وشرح المفضليات لابن الأنباري / ٢٢٩ ، ولسان العرب مادة (حت) ٢ / ٣٢٧ ومادة (زحمر) ٥ / ٤١٨ ، ومادة (بري) ١٨ / ٧٥ .

العظام لا منح فيها<sup>(١)</sup> ، ويقول الجاحظ في حديثه عن النعام : « ومن أعاجيبها أنها مع عظم عظامها وشدة عدوها لا منح لها<sup>(٢)</sup> » ، والطريف أن الجاحظ يستشهد على هذا بيت الأعمى الذي نحن بصدده . وهكذا نرى شعر الصعاليك مصدراً من مصادر دراسة حيوان الصحراء يعتمد عليه الدارسون في تأييد آرائهم . وقد رأينا تأبط شراً حين يصف الحية يذكر أن خروجها يكون « بعيد غروب الشمس » ، وهو تحديد دقيق لوقت خروج الأفاعي من جحورها ، تؤيده التجربة العملية ، وليس غريباً على تأبط شراً أن يذكر ذلك ، لأنه بحكم طبيعة حياته مضطر إلى ملاحظة هذه الظواهر ، وقد قيل له : « هذه الرجال تغلبها ، فكيف لا تنهشك الحيات في سراك ؟ فقال : إني لا أسرى البرددين ، يعني أول الليل لأنها تتحرك خارجة من جحرها ، وآخر الليل تمور مقبلة إليها<sup>(٣)</sup> » وهكذا يكون هذا البيت صدى لتجربته العملية التي تصورها هذه العبارة .

ومن أدل الأمثلة على هذه التجربة العملية التي تظهر في شعر الصعاليك أنهم لا يكادون يذكرون الضباع إلا في مجال الحديث عن الموت ، وقد رأينا ذلك الفزع الذي كان يسيطر على نفوس بعض الشعراء الصعاليك من أن « تلقى أجسادهم بعد مقاتلتهم إلى الضباع » ، والذي ظهرت آثاره في شعر الأعمى وتأبط شراً ، كما رأينا حديث تلك الوليمة التي يُعدها الشنفرى للضبع من جسده بعد مقتله .

ومن المقرر عند علماء الحيوان أن الضبع « مولعة » بنيش القبور لكثرة شهوتها للحوم بني آدم<sup>(٤)</sup> ، وهذه الحقيقة العلمية المقررة هي التي عرفها تأبط شراً الجاهلي ، وظهرت آثارها في شعره ، حين وصف الضبع في دقة رائعة بأنها « نفرى الدفاتنا<sup>(٥)</sup> » . ومن الطريف أن الجاحظ عند حديثه عن الضباع وولعها بنيش القبور و « فرط طلبها للحوم الناس » يستشهد بأبيات

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٢ ص ١١ ، ١٢ .

(٢) الحيوان ٤/٣٢٦ .

(٣) الأغاني ١٨/٢١٠ .

(٤) النعيرى : حياة الحيوان ٢/٦٧ .

(٥) الأغاني ١٨/٢١٣ .

الشغرى التى يبشر فيها الضبيع بجسده بعد مقتله ولكنه ينسبها لتأبط شراً<sup>(١)</sup> ، وهو اختلاف لا يضير قضيتنا شيئاً فكلما الشاعرين صعلوك .

ولعل أكثر الأمثلة على خبرة الشعراء الصعاليك العملية دوراناً فى شعرهم تلك الموازنات التى يعقدها العداءون منهم بينهم وبين مجموعة حيوان الصحراء المشهور بشدة العدو ، فإن اختيار هذه المجموعة دليل على خبرتهم العملية بها . وكذلك تلك الأمثال التى يضربها الهذليون بطائفة من حيوان الصحراء الشارد الممتنع عند حديثهم عن الموت ، فإن الإلحاح على ذكر أحوال هذا الحيوان وطباعه وخصاله دليل على خبرتهم العملية به .

ومهما يكن من أمر هذه الحقائق التى يذكرها الشعراء الصعاليك فليس مما يعنيننا هنا مطابقتها أو عدم مطابقتها لما يقرره العلم الحديث الآن ، إذ ليس من الإنصاف أن نتخذ ما وصل إليه العلم التجريبي الحديث من حقائق علمية مقياساً لما يذكره هؤلاء الشعراء القدماء ، وإنما حسبنا أن ما يذكرونه كان صدقاً صادقاً لمشاهدتهم العملية فى حياتهم الواقعية ، أو لما كان يدور فى مجتمعهم من معلومات .

## ٨

### السرعة الفنية :

وإذ كانت حياة الشعراء الصعاليك قلقة مضطربة لا تكاد تعرف للاستقرار أو الطمأنينة طعماً ، فهم دائماً مشغولون بكفاحهم من أجل العيش ، ذلك الكفاح الدامى المرير الذى فرغوا له فراغاً تاماً ، والذى وهبوا له حياتهم ، وجعلوه مذهباً لهم يعيشون له ويموتون فى سبيله ، وإذا كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم ، كانت النتيجة الفنية لهذا أن اتسم شعرهم بالسرعة الفنية ، فالعمل الفنى عند الشعراء الصعاليك أشبه الأشياء بشوط من أشواط عدوهم ، يندفعون فيه ولا يتوقفون حتى يصلوا إلى غايتهم . وليس من البعيد أن تكون هذه السرعة الفنية التى سميت شعرهم صدقاً نفسياً لتلك



السرعة التي اعتمدت عليها حياتهم ، منبعثاً من أعماق « اللا شعور » . ولست أدري فقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن الصنعة الفنية في شعر عروة أبطأ وأشد أناقة وإحكاماً منها في شعر صعلاليك السراة ، ومن المعروف أن عروة لم يكن من العدائين وإنما الصعلاليك العداءون — كما رأينا من قبل — هم أولئك الذين كانوا ينزلون منطقة السراة بين مكة واليمن<sup>(١)</sup> .

وقد رأينا من مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة في شعرهم ، وتخلصهم من المقدمات الطويلة ، ومن التصريح ، وهي مظاهر ترجع إلى الشكل العام أو البناء الخارجي للعمل الفني .

وحين نمضي إلى داخل البناء الفني لشعر الصعلاليك نجد أن أقوى مظاهر هذه السرعة « خفوت الصنعة الفنية » في شعرهم بحيث لا يكاد الناظر فيه يلمح أثراً من آثار التجويد الفني المتمهل الواضح الأناة ، وإنما هو حديث سريع يتدفق من نفس الشاعر دون أن يحرص على أن يتمهل هنا أو هناك لينسقه أو يوشيه بتلك الألوان الفنية المختلفة التي يحرص عليها الشعراء المحترفون . والواقع أن حياة الشاعر الصعلوك لم تكن بالتى تتبج له من الفراغ والاطمئنان ما يجعله يتمهل في عمله الفني أو يتأنى فيه . وهل نستطيع مثلاً أن نتصور أن السلياك وقد مضى للغارة مع صعلوكين التقى بهما في طريقه ، ثم مضى وحده ليستكشف لهما خبر نار لاحت لم ، حتى إذا ما بلغها ووجد أن ليس عندها سوى عبيد وإماء يسهل التغلب عليهم ، رفع عقيرته متغنياً بهذين البيتين ليعلم صاحبيه أن الفرصة سانحة :

يا صاحبي\* ألا لا حتى\* بالوادي      إلا عبيدٌ وآمٌ بين أذواد  
أتنظران قليلاً ريثَ غفلتهم      أم تغفلوان فإن الريح للعادي<sup>(٢)</sup>  
هل نستطيع أن نتصور أن السلياك في هذا الجو يستطيع أن يفرغ

(١) الباب الأول : الفصل الثاني (التفسير الجغرافي) ص ٨٦ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٥ . والأغاني / ١٨ / ١٣٤ . وانظر البيت الثاني في

لسان العرب : مادة (روح) .



لفنه مجوداً منمقاً موشياً ؟ أظن أن الشاعر لم يكن يبغى من وراء هذين البيتين سوى أن يسمعهما صاحبا فيفهما عنه ما يريد ، فالصنعة الفنية لم تكن هدفاً يحرص عليه ، وإنما كل حرصه على أن يبلغ صاحبيه هذه الرسالة ، أو بتعبير أدق هذه « البرقية » في أسرع وقت حتى لا تفلت منهم القرصة .

ومثل السليك كان أكثر الصعاليك ، وخاصة العلانين منهم ، لم تُتَّعْ لهم حياة الكفاح وما تلقبه على كواهلهم من تبعات جسام فراغاً لفهم بوجوده وينمقونه ويخرجونه إخراجاً متأنياً متمهلاً .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشعر عند الصعاليك لم يكن « حرفة » تُقصد لذاتها ، ويفرغ صاحبها لتجويداتها ، والوصول بها إلى المثل الأعلى الذي يستطيع معه أن يدخل حلبة المباراة الفنية ليقول لغيره من الشعراء : هأنذا ، وإنما كان الشعر عندهم وسيلة يسجلون بها مفاخرهم ، أو ينفسون بها عما تضيق به صدورهم من تلك « العقد النفسية » التي تمتلئ بها أعماق نفوسهم ، أو يدعون بها إلى مذهبهم في الحياة لعلمهم يجدون من يؤمن به وينضم إليهم ، أما أن يرضى عنهم المجتمع الفني الذي يعيشون فيه فهذا أمر لم يكن في حسابهم ، فهم يعرفون أنهم يعيشون في مجتمعهم شذاذاً منمردين ليس بينهم وبينه إلا صلة الصراع ، وهم لهذا يدركون أن مجتمعهم لن يرضى عن فهم كما لم يرض عنهم ، ولن يحرص عليه كما لم يحرص عليهم ، ويعرفون أن القبائل لا تحرص إلا على شعرائها ، ولا تشغل إلا بهم ، ولا تقيم وزناً إلا لهم ، ولا تخلص بالتقدير والإعجاب إلا شعرهم . وهكذا انصرف الشعراء الصعاليك عن احتراف الشعر ، ولو أنهم فكروا في احترافه لاتخذوا منه وسيلة يتكسبون بها كما يتكسب بها غيرهم من الشعراء ، ولضمنوا بهذا لأنفسهم حياة هادئة مستقرة مطمئنة كالتى كان يحياها غيرهم من الشعراء المحترفين .

ولعل « التشبيه » أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في شعرهم ، وهو لون يتفق تماماً مع هذه السرعة الفنية التي لاحظناها ، إذ أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لاتتجاوز عقد موازنة بين أمرين يشتركان في معنى ، وهو — من هذه الناحية — غير الاستعارة مثلاً التي تعتمد على لون

من الصنعة الفنية العميقة المتأنية . وفي صنيع القلماء من علماء البلاغة ما يشهد بهذا ، فقد جعلوا التشبيه المرحلة الأولى التي تبنى عليها الاستعارة ، وبنائها على التشبيه — كما يقولون — أن استعارة اللفظ إنما تكون بعد المبالغة في التشبيه ، وإدخال المشبه في جنس المشبه به ادعاء . ومن هنا دار بينهم كلا طويلاً حول جعله باباً مستقلاً من أبواب البيان مع أنه مقدمة لها تتوقف عليه ، وهل توقف بعض الأبواب على بعض يوجب كون المتوقف عليه مقدماً للفتن أولاً يوجب (١) . ومعنى هذا بتعبير أيسر أن العملية الفنية في التشبيه عملية بسيطة من درجة واحدة ، ولكنها في الاستعارة عملية مركبة من درجتين .

وعلى كل حال ، وبدون الوقوف عند هذه التعليقات العقلية ، فالأمر الذي لاشك فيه أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لا تحتاج إلى أكثر من وضع الأمرين المراد عقد الموازنة التشبيهية بينهما في معرض واحد حتى يتضح وجه الشبه بينهما .

وحين ننظر في شعر الصعاليك لتبين كيف استخدموا هذا اللون الفني في صناعة نماذجهم فإن أول ما نقف عنده تلك العناصر التي استخدموها في تأليف هذا اللون ، أو بعبارة أخرى نستأذن أصحاب الرسم في استعارتها منهم « صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » .

وصندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك صندوق متعدد العناصر ، ولكنها في مجموعها عناصر قائمة قليلة الإشراق والتألق ، مستمدة من تلك البيئة البدوية القاحلة التي يعيشون فيها ، ومتأثرة بتلك الحياة الحشنة القاسية التي يحيطونها ، ومتسمة بتلك الواقعية التي تسيطر على تفكيرهم ومزاجهم .

والحق أن هذه العناصر أكثر من أن تُحصى ، لأنها — من ناحية — مستمدة من واقع الحياة بكل ما فيه من مظاهر متعددة ، ولأنها — من ناحية أخرى — منتشرة في شعرهم انتشاراً واسعاً . ولكننا مع ذلك سنحاول أن نردها إلى

(١) انظر شروح التلخيص عند قول صاحب التلخيص في مقالة علم البيان « ثم منه ما يبنى على التشبيه فتميز التعرض له » ٢٨٩/٢ وما بعدها (الطبعة الثانية بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٣هـ) .

ثلاثة منابع أساسية : عالم الحيوان أولاً ، والحياة الإنسانية ثانياً ، ثم البيئة الطبيعية ثالثاً ، وهو ترتيب قائم على أساس « الكم » ، كما يقول المناطق .  
أما المنبع الأول قلعله أغزر منابع التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في تشبيهاتهم ، فقد استغلوا حيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشرات استغلالاً واسعاً . ومرد ذلك من غير شك إلى حياتهم القريبة منها نتيجة لتشردهم في مواطنها الأصلية وبيئاتها الأولى . وقد رأينا في الفصل السابق أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً منها ، وطبيعي أننا لم ندخل في ذلك الإحصاء تلك الأنواع الأليفة التي تعرضوا لها بالذكر كالإبل والحيل والغنم والبقر ، لأننا كنا بصدد الحديث عن تشردهم .

وقد رأينا في الفصل السابق كيف استغل الشعراء الصعاليك الطير وحيوان الصحراء المشهور بالعدو في حديثهم عن شدة عدوهم . وحين ننظر مرة أخرى في هذه الظاهرة الموضوعة في شعر الصعاليك من الزاوية الفنية التي ندرسها الآن نجد أن التشبيه هو أكثر الأساليب شيوعاً في هذا الحديث .  
أما ضواري الصحراء ، وجوارح طيرها ، وأفاعيها ، فأكثر ما يستغلها الشعراء الصعاليك في تشبيه أنفسهم أو رفاقهم أو أعدائهم بها .  
فالشنفرى سمعٌ أزل لا يبالي بشيء مهما يكن صعباً :

أما السُّمْعُ الْأَزْلُ فلا أبالي      ولو صَعُبَتْ شَنَاخِيْبُ الْعِقَابِ<sup>(١)</sup>  
وبنو سلامان أعداؤه الألداء يعرفون بشائر حرامته منذ صغره يوم أن  
كان يمشى بينهم كالأسد الوَرْد :

هُمُ عَرَفُونِي نَاشِئاً ذَا مَخِيلَةٍ      أَمْشِي خِلَالَ الدَّارِ كَالْأَسَدِ الْوَرْدِ<sup>(٢)</sup>  
ويصف تربصه فوق المراقبة العالية المنبئة ، وكيف بات على حد ذراعيه  
« كما يَتَطَوَّى الْأَرْقَشُ الْمُتَقَصِّفُ »<sup>(٣)</sup> ، أو « الْأَرَقْمُ الْمُتَعَطِّفُ » في رواية

(١) ديوانه المطبوع / ٢٢ - والسمع فيما يرى العرب ولد الثقب من الضبع .

(٢) المصدر السابق / ٢٤ .

(٣) الأغاني ٢١ / ١٤٠ .

أخرى<sup>(١)</sup> . ويشبه قيس بن الخملادية قومه — في بعض شعره القبلي — بالضراغم فيقول معيراً أعداءهم بالهزيمة :

غداةً توليتم وأدبر جمعكم وأبنا بأسراكم كأننا ضراغم<sup>(٢)</sup>  
ويشبه صخر الغي وروده ماء مخوفاً على حذر بمشي الفرحين يستقبل ريح  
باردة كندية :

وماء وردت على زورة كمشي السبئي يراح الشفيفا<sup>(٣)</sup>  
ورفاق الشنفرى « سراحين فتيان<sup>(٤)</sup> » ، وصاحب أبي خراش « كالسرحان  
سرحوب<sup>(٥)</sup> » وعدو أبي خراش يسقط صريعاً كما يسقط نسر أكل لحماً  
مسموماً :

به ندع الكمي على يديه يخر نخاله نسرًا قشيباً<sup>(٦)</sup>  
وهي صورة قوية تستمد قوتها من عنصر « الحركة » الذي نتمثله في سقوط  
النسر صريعاً ، ذلك السقوط العنيف المفاجئ الذي يمثل لنا سقوط العدو تمثيلاً  
قوياً بعد أن عبر عنه الشاعر بتلك اللفظة الموحية المعبرة « يخر » .  
ولكن تأبط شراً يخرج على هذه القاعدة ، فيشبه حصان الشنفرى في  
رثائه بالعقاب التي تنقض بين ذروتين شامختين :

وأشقر غيداق الجراء كأنه عقاب تدلى بين فيقين كاسر<sup>(٧)</sup>  
ويستغل الشعراء الصعاليك النحل في صورتين : صورة تعتمد على الصوت ،  
وصورة تعتمد على الهيئة . أما الأولى فهي صورة القوس حين تنطلق منها سهامها

(١) ديوانه المطبوع / ٣٧ .

(٢) الأغاني ١٣ / ٤ (بولاقي) .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٧ ، وشرح المفضليات لابن الأنباري / ٨٧٢ ، ولسان  
العرب مادة (روح) ٢٨٢ / ٣ ، ومادة (زور) ٤٢٣ / ٥ ، وورد الشطر الثاني فقط في مادة  
(شف) ٨٣ / ١١ .

(٤) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٢ ، والأغاني ١٨ / ٢١٦ .

(٥) ديوان الهذليين ، القسم الثاني / ١٦١ .

(٦) المصدر السابق / ١٣٥ — القشيب هنا : المسموم .

(٧) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ ، وجماعة الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٤١٧ .

فتحدث حفيفاً مهماً غير واضح هو في سمع بعض الشعراء الصعاليك كصوت النحل ، وأما الأخرى فهي صورة الجماعات الكثيرة المتزاحمة سواء أكانوا أعداء يطاردونهم ، أم وفود المعوزين المحتاجين على أبواب الكرماء .

فحفيف النبل في سمع الشفري حين ينطلق من قوسه كصوت النحل العائد إلى غاره وقد أخطأ فهو يُحومّ حوله :

كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فَوْقِ عَجَسِهَا عَوَازِبُ نَحْلٍ أَخْطَأَ الْغَارَ مُطْنِفٌ<sup>(١)</sup>  
وأعداء تأبط شراً من خلفه وهم يطاردونه كالنحل الكثير الذي يتجمع في خليته :

وَلَمْ أُنْتَظَرْ أَنْ يَدْهَمُونِي كَأَنَّهُمْ وَرَأَى نَحْلٌ فِي الْخَلِيَةِ وَاكْنَا<sup>(٢)</sup>  
وطالبر الحاجات الذين يغشون باب بعض الكرماء الذين يمدحهم أبو خراش يشبهون النحل الذي يهوى إلى غاره :

تَرَى طَالِبِي الْحَاجَاتِ يَغْشَوْنَ بَابَهُ سَرَاعاً كَمَا تَهْوِي إِلَى أَدَمَى النَحْلِ<sup>(٣)</sup>  
وكما استغل الشفري النحل في تصوير حفيف مهامه استغل القطاة في تصوير أفواقيها ، ففُوقُ مهامه مدور كعقوب القطاة :

عَلَيْهِ نُسَارِيٌّ عَلَى خُوطِ نَبْعَةٍ وَفُوقِ كَعْقُوبِ الْقَطَاةِ مُدْخَرَجٌ<sup>(٤)</sup>  
وإذا كان المطاردون عند تأبط شراً كالنحل فإن العدائين عند أبي خراش كأرجال الجراد الذي يقصد إلى الأماكن الغليظة المرتفعة :

وَعَادِيَّةٌ تُلْقِي الثِّيَابَ وَزَعَتْهَا كَرِجْلُ الْجَرَادِ يَنْشَحِي شَرْفَ الْحَزْمِ<sup>(٥)</sup>  
ويستغل الشعراء الصعاليك من الغريبان جانبيين متناقضين : سوادها الخالك ، وصفاء عيونها الشديد . فقطعان السوام عند صخر الغي كجماعات الأغربة في سوادها :

(١) الأغاني ٢١/١٤١ .

(٢) الأغاني ١٨/٢١٣ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٦ - أدب : موضع .

(٤) ديوانه المطبوع ٣٤/٣٤ . والمصور : لوحة ٥٢ . والأغاني ٢١/١٤١ .

(٥) ديوان الهذليين ٢/١٣٢ .

فأرسلوهنَّ يَهْتَلِكْنَ بهنَّ شَطَرَ مَوَامٍ كَأَنَّهَا الْعَجْدُ (١)  
أما عيون الماء في ديار أبي الطمحان التي يحن إليها وهو خليع مجاور في  
مكة فهي في صفاتها كعين الغراب :

إذا شاء راعيتها استقى من وقية كعين الغراب صفوها لم يُكْدِرْ (٢)  
ويستغل الشعراء الصعاليك السمانى استغلالاً طريفاً ، فهم يشبهون بأشلائها  
نعلم الممزقة ، وهي طرافة تأتي من تلك المفارقة الغريبة بين طرفي التشبيه :  
ونعل كأشلاء السمانى تركتها على جنب مَوْرٍ كالنحيزة أغبراً (٣)  
ونعل كأشلاء السمانى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهم (٤)  
ويستغل الشعراء الصعاليك الإبل في تشبياتهم على صورة واسعة ، ولكنها  
لا تصل إلى الدرجة التي نراها في استغلالهم لحيوان الصحراء السريع أوضواربها .  
ومرد ذلك - فيما يبدو - إلى قلة اتصالهم بتلك الفصيلة من الحيوان التي هي  
أول سمات « الرأسمالية » العربية . وقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن أكثر الأوصاف  
التي يشيرونها للإبل في تشبياتهم تعد من الناحية النفسية أصداء لذلك الحقد  
الذي كان يملأ نفوسهم عليها ، فالصعلوك الحامل المذموم عند عروة :  
يُعينُ نساءً الحي ما يَمْتَعِنُهُ فيمسي طليحاً كالبعير المَحْسَرِ (٥)  
والجبل بعد أن غسله المطر وصقله عند صخر الفى كالبعير الأجرب الذي  
طلى وتنف :

فذاك السطاعُ خلاف النجاء تحسبه ذا طلاء نثيفاً (٦)  
وحين يسخر أبو خراش من امرأته التي لا تستطيع صبراً على الجوع يذكر

(١) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ - والحديث في البيت عن الفرمان والحيل . الاحتلاك : دى  
النفس في تهلكة . والمجد : التزيان .

(٢) الأغاني ١١/١٣٤ (بولاقي) . والحيوان الجلاظ ٢/٤٢١ - الوقية : المكان الصلب  
يمسك الماء . وفي الأمثال : أصق عيناً من الغراب (المصدر الأخير ٤٢١) .

(٣) الشنفرى في ديوانه المطبوع ٣٥/ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

(٤) أبو خراش في ديوان الهذليين ١٣١/٢ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

(٥) ديوانه ٧٧/ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ٤٤/١ - السطاع : جبل . خلاف للنجاء أى بعد المطر .

أن جوفها كجوف البعير :

إذا هي حنت للهوى حنَّ جوفها كجوف البعير، قلبها غير ذى عزم<sup>(١)</sup>  
والقبر عنده فى احديدا به ومنظره العام كالبعير :

إذا راحوا سوى وأملوني لخشناء الحجارة كالبعير<sup>(٢)</sup>  
ومع ذلك فلا يتخلو الأمر من بعض الصور الطريفة التى أحسن الشعراء  
الصعاليك اختيار أوضاعها وألوانها، فحين يصف أبو خراش عدوه هو ورفاقه  
فى ليلة ممطرة من ليالى جمادى الباردة ، يشبه الغناء الكثيف الملتف تحت  
أقدامهم بأوساط الإبل الدهم التى قُرن بعضها ببعض :

إذا ابتلت الأقدامُ والتفت تحتها غنَاء كَأَجَازِ المقرنة الدهم<sup>(٣)</sup>  
وصوت القوس عند عمرو ذى الكلب كحنين الناقة المسنة المتخلفة عن  
الإبل الفتية لأنها لا تستطيع مسايرتها :

تعجُّ فى الكف إذا الرامى اعتزم ترنم الشارف فى أخرى النعم<sup>(٤)</sup>  
أما الخيلُ فهى قليلة الدوران فى تشبيهات الشعراء الصعاليك لدرجة كبيرة .  
ويبدو أن السبب فى هذا قلة اعتمادهم عليها فى حياتهم . ولكن الصور التى  
وردت — على قلنا — مشرقة زاهية . ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق  
صورتان : صورة الفجر عند تأبط شرا حين لاح ضوءه كأنه تلك الخطوط  
البیضُ فى جواد أدهم :

وقد لاح ضوء الفجر عَرَضاً كأنه بلمنحتيه أقرابُ أبلق أدهم<sup>(٥)</sup>  
وصورة البرق الذى يلمع بين السحاب الأسود عند عروة كأنه فرس بقاء  
حديثه النتاج تُنحى برجلها ذكور الخيل عن ولدها فيبدو بياض بطنها :  
إذا قلتُ امشهل على قُدَيْدٍ يحورُ ربابه حورَ الكسيرِ

(١) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق / ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه / ١٣٠ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤٠ .

(٥) الأغاني ١٨ / ٢١٥ .



تَكْشُفَ عَائِدَ يَلْقَاءَ تَنْفَى ذُكُورَ الْخَيْلِ عَنْ وَلَدٍ ، تَغُورُ<sup>(١)</sup>  
وَيَسْتَغْلُ تَأْبِطُ شَرًّا جَبْنَ الْغَنَمِ وَخَوْفَهَا فِي رِثَائِهِ لِلشَّنْفَرَى ، فَيَشْبَهُ أَعْدَاءَهُ  
وَهُوَ يَجِيلُ فِيهِمْ سِلَاحَ الْمَوْتِ بِالْغَنَمِ الْمَذْعُورَةِ :

تَجِيلُ سِلَاحَ الْمَوْتِ فِيهِمْ كَأَنَّهُمْ لَشَوْكَتِكَ الْحُدَى ضَمِينُ نَوَافِرُ<sup>(٢)</sup>  
أَمَّا الشَّنْفَرَى فَيَسْتَغْلُ أَوْلَادَ الْبَقَرِ فِي رَسْمِ صُورَةٍ غَرِيبَةٍ ، فَهُوَ يَشْبَهُ سَيْوْفَ  
وَفَاةِ الصَّعَالِيكِ مُشْرَعَةً فِي أَيْدِيهِمْ وَهِيَ تَهْلُ مِنْ دِمَاءِ أَعْدَائِهِمْ وَتَعْلُ بِأَوْلَادِ  
الْبَقَرِ الصَّغَارِ إِذَا رَأَتْ أُمَهَاتَهَا فَجَعَلَتْ تَحْرُكَ أَذْنَابِهَا :

تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرًا وَقَدْ نَهَلَتْ مِنْ الدِّمَاءِ وَعَلَّتِ<sup>(٣)</sup>  
وَهِيَ صُورَةٌ تَسْتَمِدُّ غَرَابَتَهَا مِنْ هَذِهِ الْمَفَارِقَةِ بَيْنَ طَرَفِ التَّشْبِيهِ : أَوْلَادَ الْبَقَرِ  
الصَّغِيرَةِ الْمَسَالِمَةِ ، وَسَيْوْفِ الصَّعَالِيكِ الْمُخَضَّبَةِ بِالدِّمَاءِ .

أَمَّا الْمَنْبِعُ الثَّانِي لِأَصْبَاغِ لَوْنِ التَّشْبِيهِ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ الصَّعَالِيكِ ، وَهُوَ الْحَيَاةُ  
الْإِنْسَانِيَّةُ ، فَهِيَ الْمُسَكَّنُ أَنْ نَرُدَّهُ إِلَى أَرْبَعَةِ مَظَاهِرٍ مِنْ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْحَيَاةِ :  
الْحَيَاةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَالْحَيَاةُ الْاِقْتِسَادِيَّةُ ، وَالْحَيَاةُ النَّفْسِيَّةُ ، وَالْحَيَاةُ الْجَسَدِيَّةُ .  
وَقَدْ اسْتَعْدَمَ الشُّعْرَاءُ الصَّعَالِيكِ عُنَاوَنَ هَذَا الْمَنْبِعِ الْإِنْسَانِيَّ اسْتِخْدَامًا  
طَرِيفًا ، وَلَعَلَّ أَطْرَفَ مَا فِيهِ أَنَّهُ يَصُورُ كَيْفَ كَانَ تَأَثُّرُ هَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكِ  
بِالْحَيَاةِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ حَوْلَهُمْ أَوْ الَّتِي كَانُوا يَدُورُونَ فِيهَا .

فَحِينَ يَرَى صَخْرَ الْغَى السَّحَابِ الثَّقِيلِ وَهُوَ مُقْبِلٌ فِي بَطْءٍ لَا تَرَاهِي أَمَامَهُ  
إِلَّا صُورَةَ الْأَسِيرِ الَّذِي يُسَاقُ فِي قَيْودِهِ فَهُوَ يَطِيءُ الْخَطَرَ مُتَأَقِّلَهُ :

وَأَقْبَلَ مَرًّا إِلَى مَجْدَلٍ سِيَاقَ الْمُقِيدِ يَمْشِي رَسِيفًا<sup>(٤)</sup>  
وَهِيَ صُورَةٌ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَرَاهِي لِهَذَا الصَّعْلُوكِ الْهَذَلِ الَّذِي كَانَ

(١) ديوانه / ٤٢ - المائدة : الحديثة التتاج . وشغور صفة لعائد ، وهي التي ترفع رجليها .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع / ٢٨ . وشرح المفصلية / ١٩٩ . مع اختلاف في ألفاظ

الشر الأول - الحدى : الحادة ، مؤنث أقبل التخفيل .

(٣) المفصلية / ٢٠٥ .

(٤) شرح أشعار الهذليين / ١ / ٤٣ .

يعيش قريباً من مكة حيث سوق الرقيق يُساق إليها الأسرى الذين لا يفتديهم أهلهم حيث يباعون .

وحين يُفرغ هذا السحاب مطره بعد ما تكاثفت أواخره ، ويهدأ ذلك الدوى الذى كانت تثيره رعوده ، يرى الشاعر أن أقرب صورة لهذا المنظر صورة جماعة من النصارى مجتمعين فى عيد من أعيادهم يستقون بعضهم بعضاً ، وهم من مرحهم ولطوهم فى ضجة وصخب ، ولكنهم ينظرون فإذا أمامهم رجل من غير دينهم ، فإذا ضجعتهم تهدأ ، وصخبهم ينقطع ، حتى يتبينوا أمر هذا الغريب :  
كَأَنَّ تَوَالِيْسَهُ بِالْمَلَا نَصَارَى يُسَاقُونَ لَاقُوا حَنِيفاً<sup>(١)</sup>

وهى صورة ترسم فى براعة ممتازة جانباً دقيقاً من الحياة الدينية فى العصر الجاهلى . ومن الطبيعى أن يعرف مخبر الغنى هذا الجانب معرفة دقيقة ، فقد كانت هذيل تنزل فى تلك المنطقة التى تقع فيها مكة المركز الدينى الأول فى جزيرة العرب ، والتى تقام فيها أشهر الأسواق التى كان القسس والرهبان يردونها فيعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

ومن هنا أيضاً نستطيع أن نكشف الستار عن تشبيه الأعمى الهذلى بخلود جراء الضباع السود بشباب الرهبان :

سُودٌ سَحَالِيلُ كَأَنَّ جُلُودَهُنْ ثِيَابُ رَاهِبٍ<sup>(٢)</sup>

ولكننا مع ذلك نحس شيئاً من السخرية الماكرة من هذه التقاليد الكهنوتية فى عقد الصلة بين جراء الضباع وبين الرهبان ، وهى سخرية ليست غريبة على هؤلاء الصعاليك المتمردين على كثير من تقاليد مجتمعهم .

وحين يلمع البرق فإن الصورة التى تراءى لصخر الغى هى صورة ذلك البشير الذى أقبل بعد غزوة فاجحة وهو يحرك ترسه فى كفة ليعلم أصحابه أنه قد عاد غانماً :

(١) شرح أشعار الهذليين ٤٥/١ . وديوان الهذليين القسم الثانى / ٧١ - وقد اختلف المفسرون فى معنى هذا البيت اختلافاً عريضاً ، ولكنى أظن أن هذه الصورة التى رسمتها لبيت هذا هى أقرب الصور إلى معناه .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٥٧/١ .

أرقتُ له مثلَ لمح البشير يُقلِّب بالكفَ قرصاً خفيفاً<sup>(١)</sup>  
وهي صورة - كما نرى - تستمد أصباغها من ذلك اللون المشرق من حياة  
المغامرة التي يحياها هؤلاء الصعاليك ، ومن هنا جاءت طرافتها .

وحين يرسم أبو الطمحان صورة لشيخوخته ، يستخدم لونين من ألوان  
الحياة الاجتماعية التي عاشها وتركت رواسبها في تفكيره ، فالدهر قد حناه  
حتى صار كالصبياد الماكر الذي يحني قامته ليخفي شخصه عن صيد يدنو  
منه ، وهو قد أصبح قريب الخطو مثاقلاً كالأسير المقيّد :

حَنَنْتُ حَانِيَاتُ الدهر حنى كَأَنِّي خَاتِلٌ يَدْنُو لَصِيدٍ

قريبُ الخطو يحسب من رَأَىي ولستُ مقيداً أَنِي بَقِيدٌ<sup>(٢)</sup>  
وهذان اللونان اللذان استخدمهما أبو الطمحان عاش في جوفهما زمناً طويلاً ،  
فليس من شك في أن حياته صعلوكاً اتصلت بالصيد اتصالاً قريباً ، وليس  
من شك أيضاً في أن حياته مستجيراً في مكة بعد خلعه جعلته قريباً من تلك  
الأسواق التي تستقبل الأسرى لتنقلهم من قيود الأمر إلى قيود العبودية .

ويستخدم الشعراء الصعاليك ألوان المقامرة كثيراً في رسم صورهم التشبيهية .  
فالظبي المنزَّع عند أبي خراش ينطلق مسرعاً كما ينطلق القِدْحُ المعلمُ يرسله  
الضارب بالقداح :

يَطِيحُ إِذَا الشُّعْرَاءُ صَبَاتَتْ بِجَنْبِهِ كَمَا طَاحَ قِدْحُ الْمُسْتَفِيزِ الْمَوْشُمِ<sup>(٣)</sup>  
وصاحبه في المراقبة يظل منربصاً فوقها كأنه قدحٌ كثير الفوز قد جعل صاحبه  
فيه علامة لشدة اعتزازه به وحرصه عليه :

يَظَلُّ فِي رَأْسِهَا كَأَنَّهُ زُلْمٌ مِنْ الْقَدَاحِ بِهِ ضَرْسٌ وَتَعْقِيبٌ<sup>(٤)</sup>  
والصعلوك العامل الذي يمدحه عروة يظل مصدر تهديد لأعدائه مُطَلاً

(١) ديوان الهذليين القسم الثاني / ٦٩ ، وشرح أشعار الهذليين ١٣/١ وقد أثرت معنى البيت كما ورد في المصدر الأول - والفرض هنا الترس .

(٢) الأغاني ١١/١٣٠ (يولاق) ، واللمعات : كتاب المعربين / ٦٢ .

(٣) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٤٦ .

(٤) المصدر السابق / ١٦١ .

عليهم وهم يزجرونه كما يزجر المقامرون بعض قلوبهم الخاسرة إذا ضربوا بها :  
مُطْلَا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنبج المشهر<sup>(١)</sup>  
ومن أطرف الصور التي نراها عند الشعراء الصعاليك تلك الصور التي  
استخدموا في رسمها ألواناً من الحياة الاقتصادية . ووجه الطراقة في هذه الصور  
هو أنها مرسومة بريشة أولئك الصعاليك الفقراء الذين ارتبطت حياتهم بهذه  
الحياة ارتباطاً وثيقاً .

ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق ثلاث صور يرسمها صخر الغي ،  
بشبه في إحداها أواخر السحب المتراكمة الثقيلة التي يتوالى بعضها في إثر  
بعض بسفائن أعجمى رست إلى بعض السواحل فأوقرت من صادراته :

كَأَنَّ تَوَالِيَهُ بِالْمَتَلَا سَفَائِنُ أَعْجَمَ مَا يَحْنُ رِيْفَا<sup>(٢)</sup>  
ويتصور في الثانية هذه السحب أيضاً وقد حملت من الماء ما أثقلها كأنها  
مقبلة من تجارة وقد حملت بضائع كثيرة اشترت بغير حساب :

فَأَقْبِلْ مِنْهُ طَوَالَ الذَّرَى كَأَنَّ عَلَيْهِنْ بَيْعاً جَزِيْفَا<sup>(٣)</sup>  
ويدعو في الثالثة أصحابه إلى أن يثبتوا في القتال، ويمشوا إلى أعدائهم كما  
تمشى جمال الحيرة المثقلة بالبضائع التي تحملها من تلك المنطقة التجارية  
الغنية :

يَا قَوْمَ لَيْسَتْ فِيهِمْ غَفِيرَةٌ فَامْشُوا كَمَا تَمْشَى جَمَالُ الْحِيرَةِ<sup>(٤)</sup>  
ويستغل الشعراء الصعاليك أيضاً بعض مظاهر الحياة النفسية في تشبيهاتهم،  
على نحو ما رأينا عند الشنفرى الذي يشبه صوت قومه بصوت الشجي  
الذي أثقلته همومه وأحزانه :

(١) ديوانه ٧٨/ - المنبج هنا هو القلج الذي لا نصيب له .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٤٣/١ ، وديوان الهذليين القسم الثاني ٦٩/ - ما يحن أي

خالطن .

(٣) المصدران السابقان : الموضع نفسه .

(٤) شرح أشعار الهذليين ٣٣/١ .

وصفراء من نبع أبي ظهيرة تُرن كإرنان الشجى وتهتف<sup>(١)</sup>  
وهي صورة نفسية معبرة برغم إيجازها وتركيز ألوانها .

ولعل أطرف هذه الصور النفسية في شعر الصعاليك تلك الصورة التي يرسمها عروة لموقف صعاليكه من بعد أن تعهدهم حتى « أخصبوا وتمولوا » فإذا هم يلتوون عليه ويتنكرون له . وهو يستخدم في رسم هذه الصورة لونا من ألوان الحياة النفسية التي تعرفها الحياة الإنسانية في مختلف عصورها : تلك الأم التي تعهدت وليدها الصغير متحملة في سبيله كل تعب وجهد ، حتى إذا تم شبابه ، وراحت تنتظر خيره ، وترتجى نفعه ، تزوج فغلبت الزوجة الأم على ابنها ، وأخذته منها تاركا أمه العجوز مكبة على حد مرفقها تشكو وتولول مما نزل بها ، وهي حائرة ماذا تفعل ، ولكنها لا تملك في النهاية إلا أن ترجع صابرة متجملة . يقول عروة مخاطبا صعاليكه :

فلما وإياكم كذى الأم أرهنت      له ماء عينيها تفدى وتحمل  
فلما ترجت نفعه وشبابه      أنت دونها أخرى جديد تكحل  
فبانت لحد المرفقين كليهما      توحوح ممسا نابها وتولول  
تخير من أموين لسا بغيطة      هو الككل ، إلا أنها قد تجمل<sup>(٢)</sup>

والصورة هنا صورة نفسية متكاملة الخطوط والألوان ، دقيقة التاوين والتظليل إلى حد كبير ، ألح الشاعر فيها على المشبه به فجاءت تشبها تمثيلا رائعا - على حد الاصطلاح البلاغي . وقد يكون طبيعيا أن تراعى هذه الصورة من الحياة الإنسانية لعروة ، وهو الإنسان الذي وهب حياته للعمل من أجل تلك العناصر الضعيفة في مجتمعه ، وجعل من نفسه أبا للصعاليك .

ويستخدم الشعراء الصعاليك بعض المظاهر الجسدية في رسم صورهم التشبيهية . فالأزق الحرج الذي تُسد أمام المرء جميع منافذه حتى لا يعرف له مخرجاً منه يشبه تأبط شراً بسد المنخرين . يقول في رثاء الشفري :

(١) ديوانه المطبوع / ٢٨ .

(٢) ديوانه / ١١٧ ، ١١٨ .

وأمر كسد المنخرين اعتليته فنقصت منه والمنايا حواضر<sup>(١)</sup>  
وهي صورة — على بساطتها — قوية تستمد قوتها من معرفة كل إنسان  
بها معرفة عملية، وتسليمه بها تسلياً تجريبيّاً لا مجال للتفكير النظري فيه، وهل  
يختلف اثنان في أن أشد ما يقع فيه إنسان أن تكتم أنفاسه حتى يشعر كأن  
صدره يوشك أن يتمزق؟

ويشبه أبو خراش اهتزاز ثوبه البالي في أثناء عدوه بانتفاضة الحمى :  
فَعْدِيْتُ شَيْئاً والدريس كأنما يُزَعِزْعه وَرْدٌ من الموم مُرْدِمٌ<sup>(٢)</sup>  
وهي صورة تستمد قوتها من تلك الدقة في اختيار المشبه به، ومن ذلك  
القرب بينه وبين المشبه، وهل هناك أقرب إلى اهتزاز الثوب وقد أخذت بصاحبه  
حمى العدو من انتفاضته وقد أخذت بصاحبه حمى المرض؟  
ولا يجد الشنفرى ما يشبه به رهبة الماء المخوف الذي يفتخر بوروده في مغامراته  
الرهيبة مثل داء البطن الذي يخافه كل الخوف، ويخشاه كل الخشية. يقول  
مخاطباً صاحبه :

وإنك لو تدرين أن رُبَّ مَشْرَبٍ مَخُوفٍ كداء البطن أو هو أَخُوفٌ  
وردتُ بِمَأْثُورٍ بِمَانٍ وَضَالَةٍ تخبرتها مما أريش وأرصف<sup>(٣)</sup>  
وهي صورة نستطيع أن نشعر بما فيها من قوة وصدق في الإحساس إذا  
تذكرنا أن حياة الصعاليك كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على سلامة الجسد وقوته  
وأنهم كانوا يفخرون بأنهم ضامرو البطون مهازيل قد نشرت أضلاعهم،  
والتصقت أمعاؤهم، لإيثارهم غيرهم على أنفسهم بالزاد، ومن هنا كان أخوف  
ما يخافه أحدهم أي يصاب بمرض يضعفه، ويقعد به عن تحقيق رسالته  
في الحياة، وبخاصة أمراض البطن التي يصاب بها المتخمون النهمون، والتي  
تعد بالنسبة لهم اتهاماً صارخاً بالتفكر لهذه الرسالة وخيانتها.

(١) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٤٤ .

(٣) ديوانه المطبوع / ٢٨ .

أما المنبع الثالث لأصباغ لون التشبيه عند الشعراء الصعاليك ، وهو البيئة الطبيعية ، فلعله أقل المنابع الثلاثة تلفقاً في شعر الصعاليك . ولست أرى سبباً لهذا سوى شغل الصعاليك بكفاحهم في الحياة من أجل العيش عن التأمل في الطبيعة ، واستغلال مظاهرها في فهم . وسنرى أن أصباغ هذا المنبع أقل طرافة من أصباغ المنبعين السابقين ، وأن الصور الطريفة فيه أقل منها فيهما . فظبات السهام عند عمرو ذي الكلب كشوك شجر السَّيَال<sup>(١)</sup> ، والرَبِيء الذي يبعثه عروة ليرقب لهم الطريق يقوم فوق المرباة كأنه أصل شجرة لا يرح موضعهُ :

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة      بعثنا ربيثاً في المرائي كالجدل<sup>(٢)</sup>  
وعيون رفاق تأبط شراً ، أولئك الرفاق الأبطال الشعث ، كأنها نار الغضا  
التي تتأجج بما يُلقى عليها من أعشاب الجبال الخفاة :

مساكرة شعث كأن عيونهم      حريق الغضا تلقى عليها الشقائق<sup>(٣)</sup>  
ويتحدث تأبط شراً عن رجل كثير شعر الرأس متلبده لعنم عنايته به ،  
فيشبهه بحقف الرمل الذي كثر صعود الناس عليه حتى أصبح صلباً متماسكاً :  
فذاك همى وغزوى أستغيث به      إذا استغثت بضافي الرأس نفاق  
كالحقف حداه النامون قلت له      ذو ثلثين وذو بهم وأرباق<sup>(٤)</sup>  
وحين يصف عروة الأسد يشبه زثيره بصوت الرعد ، ولكنه يشعر أنه  
تشبيه عادي مألوف ليست فيه براعة متميزة ، فيحتال بعض الاحتيال ليضفي

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٥ بيت رقم ٢٠ وانظر / ١٩٩ من هذا البحث .

(٢) ديوانه / ١١١ .

(٣) الأغاني ١٨ / ٢١٤ .

(٤) المفضليات / ١٥ - النفاق : الذي يصيح في إثر الطرائد . والحقف : المجتمع من الرمل . النامون : الذين يرتفعون إليه ويدوسونه . وحداه النامون أي داسوه وصلبوه يدوسهم إياه وصعودهم عليه . الثلة : اللقطة من النعم . والبهم : أولاد الشاء . والأرباق : جمع ربق وهو حبل يجعل منه مثل الخلق تشد فيه البهم . ويقال في شرح البيهقي أيضاً إنه يصف بهما فرسه . وعلى كلا المعنيين فالفكرة التي تقرها هنا واحدة .



عليه شيئاً من الغرابة والبراعة فيقلبه ، فإذا صوّت الرعد كأنه زئير الأسد :  
 كَأَنَّ نَحَوَاتَ الرِّعْدِ رَزَّ زَئِيرُهُ      مِنْ اللَّاهِ يَسْكُنُ الْغَرِيفَ بَعْثَرًا<sup>(١)</sup>  
 ولعل أطرف الصور التي رسمها الشعراء الصعاليك مستخدمين أصباغ هذا  
 المنبع تلك الصورة التي رسمها الشنفرى لصاحبه في قصيدته النائية المشهورة ،  
 وهي صورة حشد لها الشنفرى مجموعة من الألوان المتناسقة الزاهية ، وأجاد  
 مزجها وعرضها لإجادة رائعة ، فصاحبه طيبة الرائحة تملأ البيت عطراً ، كأن  
 البيت أغلق على ريحانة مطلولة ، سرت إليها نسيمات باردة في وقت العشاء ،  
 فجاءت بأريجها المعطر ، وهذه الريحانة نبتت في روبة فهي لهذا قوية الرائحة ،  
 ثم هي ريحانة ناضجة قد خرج ثورُها ، وانتشر عطرها في كل جانب ، ثم  
 هي فوق ذلك كله في بقعة خصبة كل ما حولها خصب غير مجلب :

فَبَيْنَمَا كُنَّا الْبَيْتَ حُجْرًا فَوْقَنَا      بِرَيْحَانَةٍ رِيحَتْ عِشَاءً وَطُلَّتْ  
 بِرَيْحَانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةٍ نَوَّرَتْ      لَهَا أَرْجٌ ، مَا حَوْلَهَا غَيْرُ مُسْنِتٍ<sup>(٢)</sup>  
 على هذا النحو استغل الشعراء الصعاليك هذه المنابع الثلاثة في تأليف  
 أصباغهم التي استخدموها في رسم لوحاتهم التشبيهية .

## ٩

## آثار من الصنعة المتأنية :

إذا كان لون التشبيه هو أقوى الألوان التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك  
 في صنعتهم الفنية ، وإذا كان هذا اللون يتفق والسرعة الفنية في شعرهم ، فإننا  
 لا نعلم في شعر الصعاليك آثاراً من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية .  
 ولننظر في هذه القطعة من شعر تأبط شراً التي سجل فيها نجاته من  
 لحيان الذين حاصروه وهو في غار لم يشتار عسلاً ، وهي قطعة يبدو أن الشاعر

(١) ديوانه / ٥٦ .

(٢) المفضليات / ٢٠٢ - ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيمها . وطلت : أصابها

الطل . والمسنت : المجلد .

قد فرغ فيها لصنعة الفنية متمهلاً متأنياً ، والدليل الفنى على هذا أنه يبدوها <sup>(١)</sup> أو يختمها <sup>(٢)</sup> بأبيات من الحكمة يبدو عليها أثر التفكير العقلى الهادئ الذى وعى التجربة ثم فلسفتها ، أما الدليل الواقعى فواضح من أن الشاعر قد نظم هذه القطعة بعد أن نجا من أعدائه ، وعاد إلى قومه ، واطمأنت نفسه ، ثم فرغ لفنه يسجل فيه قصته وفلسفته لها .

فحين ننظر فى هذه القطعة نلاحظ أن الشاعر يستخدم فى البيت الأول <sup>(٣)</sup> لوناً من ألوان المقابلة المعنوية الدقيقة الصنعة بين قوله « وقد آجد جلد » وقوله « وهو مدبر » إذ أن التعبير الأول يساوى قوله « وهو مقبل » أو — كما يقول البلاغيون فى تعبيراتهم — إن الجدل فى الأمر مُسبَّب عن الإقبال عليه . ثم انظر إلى هذه الألوان الفنية الكثيرة التى أحشدها الشاعر فى هذه الأبيات الثلاثة المتتالية :

فذلك قريعُ الدهر ما عاش حَوْلُ      إذا مُدَّ منه منخرُ جاش منخرُ  
أقولُ للحيان وقد صَفرتْ لهم      وطابى ، ويوى ضيقُ الجحر مُعورُ  
هما خُطنا إما إِمَارُ ومنة      وإما دمُ ، والقتلُ بالحر أجدرُ  
انظر كيف جسم الدهر فجعله جباراً لا يزال يقرع المرء بنوابه حتى يُصَبِّره مجرباً بصيراً حازماً ، وكيف مثل براعة المرء فى الاحتيال إذا أخذ عليه طريقٌ تَفْدَ إلى آخر تلك الصورة الحسية ، صورة المرء « إذا سد منه منخر جاش منخر » وكيف مثل إشرافه على الهلاك بفراغ وطابه ، وكيف جعل يومه الخرجَ ضيقَ الجحر مُعوراً ، ثم كيف ختم هذه الألوان الفنية المحتشدة بهذا التذييل الذى يجرى مجرى المثل ، كما يقول البلاغيون فى اصطلاحاتهم فى باب الإطناب . ثم يمضى الشاعر فى أبياته مستخدماً لون المطابقة مرة أخرى بين « مورد ومصدر » ، ولكنها مطابقة لفظية مألوفة فى الأساليب الجاهلية

(١) فى رواية الهامة ٣٨/١ .

(٢) فى رواية الأغاني ٢١٥/١٨ .

(٣) فضلنا ترتيب الهامة على ترتيب الأغاني لأنه أقرب إلى طبيعة فكرة القصيدة .

حتى لنوشك أن تكون رؤساً<sup>(١)</sup> يطبعه الشاعر في كل مناسبة يحتاج فيها إليه. ولكنه يعود إلى صناعته الفنية الدقيقة فإذا هو يفرش صدره لخطته التي استقر عليها ، وإذا الموت ينظر إليه خزيان من عجزه عنه ، وإذا القبائل التي يفارقها تصفر أسفاً على إفلاته منها . وهكذا يفرغ الشاعر من رسم لوحته التي استخدم في تلوينها أكثر ما استخدم ذلك اللون العميق من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية ، وهو الاستعارة .

وهذه الآثار من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية تتردد من حين إلى حين في نماذج شعر الصعاليك . فالمنية في ذهن أبي الطمحان ناقة يسوقها إلى الإنسان دليل بارع لا يضل ، ولكن أبا الطمحان لا يرسم لوحته بهذه الألوان الواضحة ، وإنما يعتمد على «التظليل» في إخفاء بعض جوانبها إخفاء فنياً رائعاً ، فإذا المشبه به قد أخفى وراء هذه الظلال الفنية الجميلة ، ولكن الشاعر يشير إليه ببعض خصائصه ، أو - كما يقول البلاغيون - « بشيء » من لوازمه ، وإذا اللوحة التي يرسمها لفكرته تعتمد على الظل أكثر مما تعتمد على النور - كما يقول أصحاب الرسم - أو تعتمد على الاستعارة المكنية - كما يقول أصحاب البلاغة :

لو كنت في ريمان تحرش بابه أراجيل أحبوش وأغصف ألف  
إذن لأتني حيث كنت منيبي يخب بها هاد بأمرى قائف<sup>(٢)</sup>  
وصديق تأبط شراً إذا هز سيفه في عظام أعدائه ضحك الموت سروراً  
بما حصل عليه من أرواح ، حتى لتبرق أسنانه من شدة ضحكته :  
إذا هزه في عظم قرن تهلت نواجذ أفواه المنايا الضواحك<sup>(٣)</sup>  
والعملية الفنية هنا عملية مركبة معقدة تقوم على استعارتين : استعارة في « تهلت » تقوم على تشبيه يريق الأسنان عند الضحك بلمعان البرق ، واستعارة

(١) الروم : الطابع يطبع به ( انظر القاموس المحيط : مادة - رسم - ) .

(٢) الأغاني ١١/ ١٣٢ ( بلاق ) .

(٣) حجة أبي تمام ٤٩/ ١ .

في « المنايا » تقوم على تشبيهها بإنسان يضحك .  
وأحكام الإسلام وقيوده عند أبي خراش سلاسل<sup>(١)</sup> تطوق رقاب الصعاليك  
الذين أسلموا ، ولكن أبا خراش يريد أن يكون مهذباً في تعبيره ، فيمخني لفظة  
الإسلام وراء ظلاله الفنية ، ويركز الضوء على المشبه به وهي السلاسل على  
طريقة الاستعارة التصريحية التي يرشح لها ببعض خصائص المشبه به وهي  
الإحاطة بالرقاب :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل<sup>(٢)</sup>  
ولكن هذه الصنعة الفنية المتعملة المتأنية - برغم قوة أنغامها ورنين أصداؤها -  
قليلة لا تكفي لتكوين مذهب فني خاص نبيح لأنفسنا أن نجعله من خصائص  
شعر الصعاليك .

ولإ جانب هذه الصنعة الفنية العميقة الدقيقة نجد آثاراً ضئيلة لصنعة  
فنية بسيطة زاهية ، هي بعض الألوان البديعية .  
وقد رأينا أمثلة من الطباق في رائية نأبط شرا التي عرضنا لها منذ قليل ،  
وحين ننظر في سائر شعره نجد أمثلة أخرى ، فني قوله :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك<sup>(٣)</sup>  
نجد طباقاً لفظياً ساذجاً بين « قليل » و « كثير » .  
وفي قوله من القصيدة نفسها :

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك<sup>(٤)</sup>  
نجد طباقاً لفظياً آخر بين « الوحشة » و « الأنس » .  
وفي قول أبي الطمحان :

نمت بك من بني شمع زياد لها ما شئت من فرع وأصل<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٥٠ .

(٢) حكمة أبي تمام ٤٧/١ .

(٣) المصدر السابق / ٤٩ .

(٤) الملاحظ : الحيوان ٣٨٠/١ .

نجد ذلك الطباق اللفظي الذي تبدو عليه الصبغة العقلية بين « فرع » و « أصل » .

وفي تائيد الشنفرى المشهورة نجد أمثلة أخرى من الطباق ، مثل « دقت » و « جلت »<sup>(١)</sup> ، و « حلو » و « مر »<sup>(٢)</sup> .

وليس الطباق هو اللون البديعى الوحيد فى شعر الصعاليك ، بل هناك ألوان أخرى كالجناس الذى نرى مثلاً منه فى بيت تأبط شرا السابق « قليل التشكى » بين « الهوى » و « النوى » وبين قافية هذا البيت وقافية البيت الذى يليه ، « المسالك » و « المهالك » ، وبين « نحيفا » و « نحيفا » فى قول الأعمى :

وقدح يخور خوار الغزا ل ركبت فيه نحيفا نحيفا<sup>(٣)</sup>  
كما نرى أمثلة أخرى فى قوافى لامية أبى خراش حيث تتابع أبياتها الأولى هكذا : قليل . جليل ، جميل ، عقيل ، مقيل ، ثقبل<sup>(٤)</sup> ، مؤلفة أمثلة متتابعة من الجناس اللفظى الناقص ، بين قوافى البيتين الأول والثانى ، ثم الثانى والثالث ، ثم الرابع والخامس والسادس .

كما نرى أمثلة غيرها فى شعر أبى خراش أيضاً بين « العقم » و « الرقم » وبين « حاجة » و « عاجة » فى بيتين متتاليين من ميمية له<sup>(٥)</sup> .

كما نلاحظ مثلاً من جناس الاشتقاق فى قول الأعمى يصف الرعد :  
أجش ربخلاً له هيدب يكشف للخال ريطاً كشيفاً<sup>(٦)</sup>  
والشئ الذى لا شك فيه هو أن أكثر هذه الألوان البديعية لم يقصد إليها

(١) البيت ١٢ من القصيدة فى المفضليات / ٢٠٢ .

(٢) البيت ٣٣ من القصيدة فى المصدر نفسه / ٢٠٧ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٩ - التحيف هنا : السنان الرقيق ، من نحف السنان إذا رققه .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ ، ١١٧ .

(٥) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٢٩ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٢ - الريجل : الضخم الطويل . والخال هنا : السحاب لا يخلف مطره أو البرق . والريط : جمع ربطة وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، أو كل ثوب لين رقيق .

الشعراء الصعاليك قصداً ، وإنما جاءت عفواً في أثناء تعبيراتهم ، إذ أن هذه الألوان التي تعتمد على نوع من التلاعب اللفظي لم تكن بالألوان الفنية التي يحرص عليها الشعراء الجاهليون ، أو التي يقصدون إليها قصداً متعمداً ، أو التي يتخلون منها أسماً لمذاهبهم الفنية .

## ١٠

## الخصائص اللغوية :

حين نتظر في مجموعة شعر الصعاليك لتبين خصائصها اللغوية فإن أول ما نلاحظه على لغتهم أنها هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي بكل ما نعرفه عن هذه اللغة من خصائص ، وهذه ظاهرة طبيعية ليس من الصعب تحليلها ، فإن الشعراء الصعاليك ، مهما يبلغ بهم الأمر في الخروج على تقاليد مجتمعهم الأدبي من ناحية موضوعات شعرهم ، أو معانيه ، أو خصائصه الفنية ، فما هم بقادرين على الخروج عليه من ناحية لغتهم ، لأن هذا الجانب اللغوي هو العامل المشترك بينهم وبينه ، والوسيلة الأساسية للتفاهم بينهم وبين أفرادهم ، أو — بعبارة أخرى — هو « العملة » التي اتفق المجتمع الأدبي على أنها أساس التبادل الفكري بين أفرادهم جميعاً سواء منهم المتوافقون معه أو الخارجون عليه ، وبدون هذه « العملة » يصبح عمل الشعراء الصعاليك الفني عملاً « مزيفاً » لا يصلح للتداول ، أما تلك الجوانب الأخرى من العمل الفني : الموضوعات والمعاني والخصائص الفنية فإنها الجوانب الشخصية فيه التي يستطيع كل أن يتصرف فيها كما يشاء .

ولكن يبدو أننا يجب أن نقيد هذا الكلام قليلاً ، فإن للمسألة جانباً آخر يجب ألا ننغله ، فنحن نعرف أن الشعراء الصعاليك قد خرجوا على مجتمعهم القبلي ، وانطلقوا إلى أعماق الصحراء النائية مشردين . ومعنى هذا أن صلة الشعراء الصعاليك بالمجتمع الأدبي من حولهم لم تكن صلة دائمة مستمرة ، أو — بعبارة

أخرى - أن المجتمع الأدبي من حولهم لم يكن على صلة دائمة مستمرة بهم .

ونتيجة هذا من الناحية اللغوية أمران :

الأول أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلاً لها ، إذ هي صادرة من منابعها الأولى قبل أن تؤثر فيها تلك التيارات الاجتماعية وغير الاجتماعية التي تؤثر في اللغات . ولستأ ندعى أن لغة سائر الشعراء الجاهليين لا تمثل فطرة اللغة العربية ، ولكن الذي نقرره هو أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلاً لها من سائر الشعراء الجاهليين .

ولعل هذا هو السبب في كثرة ما يرد من شعر الصعاليك في المعاجم اللغوية ، واعتماد أصحاب هذه المعاجم عليه في تكوين مادتهم اللغوية ، وفي لسان العرب وتاج العروس مجموعة كبيرة من أبيات الشعراء الصعاليك ، وقد رأينا أن المجموعة اللغوية تعد من المصادر الأساسية لشعر الصعاليك ، أو - بعبارة أخرى - أن شعر الصعاليك من المصادر الأساسية للمجموعة اللغوية .

والأمر الثاني كثرة الغريب في شعرهم ، حتى ليشعر الناظر فيه أحياناً أنه أمام مجموعة من الطلائع اللفظية ، يضطر أمام كل لفظ منها إلى الرجوع إلى المعاجم المطولة ، لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه ، ويكفي أن نقرأ هذه الأبيات لتأبط شراً :

وَحَشَحَشْتُ مَشْعُوفَ النَّجَاءِ كَأَنِّي	هَجَفْتُ رَأْيَ قَصْرٍ سَمَالاً وَدَاجِنَا
مَنْ الْحُصِّ هَزْرُوفٌ كَأَنَّ عَفَاءَهُ	إِذَا اسْتَشْرَجَ الْقَيْفَا وَمَدَّ الْمَغَابِنَا
أَزَجُ زَلُوجٍ هَذَرَقِي زَفَازَفٌ	هَزَفٌ يَبْدُ التَّاجِيَّاتِ الصَّرَافِنَا <sup>(١)</sup>
أَوْ هَذِينَ الْيَتِينَ لَهُ أَيْضاً :	
وَشَعْبٍ كَشَلَّ الثَّوْبَ شَكْسَ طَرِيقِهِ	مِجَامِعُ صَوَّحِيهِ نَطَاقُ مُحَاصِرُ
بِهِ مِنْ مَبُولِ الصَّيْفِ بَيْضٌ أَقْرَاهَا	جُبَارٌ لَصُمُ الصَّخْرِ فِيهِ قَرَاقِرُ <sup>(٢)</sup>

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ وانظر ص ٢٢١ من هذا البحث .

(٢) الأصمعيات ٣٥/ . والبيت الثاني في لسان العرب مادة ( جبر ) وفيه « به من نجاء

الصيف » وانظر : ص ٢٤٢ من هذا البحث .



أو هذه الأبيات للأعلم :

فشايح وسط ذودك مستقناً      لتحصب سيداً ضبعاً تنول  
عشزرة جوارعها ثمان      قودق زماعها خدم حُجول  
تراها الضبع أعظمهن رأساً      جَراهمسة لها حيرة وثيل<sup>(١)</sup>  
أو هذه الأبيات لأبي الطمحان :

فأصبحن قد أقهين عنى كما أبت      حياض الإمدان الهجان القوامح<sup>(٢)</sup>  
أو هذا البيت لحاجز :

خُصَاخِصَةً بخَضِيع السيو      ل قد بلغ الماء حَذْفارها<sup>(٣)</sup>  
أو هذا البيت للأعلم :

والحنطى الحنطى يُنْجُ شَجْ بالعظيمة والרגائب<sup>(٤)</sup>  
يكفى أن نقرأ هذه الأبيات ، وأمثالها كثير في شعر الصعاليك ، لتبدو  
لنا هذه الغرابة اللفظية التي انبعثت من أعماق الصحراء حيث كان يعيش هؤلاء  
الصعاليك مشردين .

والحق أن هذه الغرابة قد شعر بها رواة شعر الصعاليك وشراحه ، كما شعر  
بها اللغويون أيضاً ، فصرحوا بأنهم لا يعرفون طائفة من ألفاظه ، أو بأنها لم ترد  
إلا فيه ، أو بأنها ألفاظ نادرة . ويصرح الأصمعي بأنه لا يعرف « سحاليل » في  
قول الأعلم يصف جراء الضباع :

مسود سحاليل كأن جلودهن ثياب راهب<sup>(٥)</sup>  
ويذكر السكري عند تفسيره لقول صخر النقي :

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٣ ، ٦٤ . لسان العرب : مادة (قن) ومادة (جر) ومادة (عشزرة) .

(٢) لسان العرب : مادة (قها) .

(٣) ابن دريد : جمهرة القن ١/ ١٤٠ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٩ . لسان العرب مادة (حنطاً) وفيه « يمنح » مكان

« يمنح » .

(٥) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٧ . وديوان الهذليين القسم الثاني / ٨٠ .

فلا. تَقْعَدَنَّ عَلَى زَنْخَةٍ وتَضْمُرُ فِي الْقَلْبِ وَجْداً وخيفاً  
أنه لم يسمع « زنخة » في شيء من كلام العرب ولا في أشعارها إلا في هذا  
البيت <sup>(١)</sup> ، وكذلك يذكر الأصمعي عن هذه الكلمة <sup>(٢)</sup> .  
ويروى صاحب لسان العرب أن « الخيعابة » بمعنى الرديء لم يسمع إلا في  
قول تأبط شرا :

ولا خَرَعَ خَيْعَابَةً ذِي غَوَائِلَ هَيَّامَ كَجَفَرِ الْأَبْطَحِ الْمُتَهَيَّلِ <sup>(٣)</sup>  
ويذكر الأزهري أن « المكذل » بمعنى المكر قد أحمله الليث ، ثم يقول  
« وجدت أنا فيه بيتاً لتأبط شرا » <sup>(٤)</sup> .

ويذكر ابن سيده أنه يقال رجل ترعية لمن صناعته وصناعة آباءه الرعاية ،  
أما ترعى بغير هاء فإنه نادر ، وقد ورد في قول تأبط شرا :

ولستُ بترعى طویل عَشَاوَهُ يُونَفَهَا مُسْتَأَنَفَ التَّيْتِ مُبْهَلِ <sup>(٥)</sup>  
ومن الأدلة على هذه الغرابة أيضاً اختلاف اللغويين حول معاني بعض  
الألفاظ ، فقد اختلفوا مثلاً حول معنى « المسترعل » في قول تأبط شرا :

مَنْ تَبَغْنِي مَا دَبْتُ حَيَاً مُسَلِّماً تَجْدُنِي مَعَ الْمُسْتَرْعِلِ الْمُتَعَبِّلِ  
فقالوا إنه الذي ينهض في الرعيل الأول ، وقيل هو الخارج في الرعيل ،  
وقيل هو قائد الفرسان كأنه يستحثها ، وفسره ابن الإعرابي بأنه ذو الإبل ،  
ولكن ابن سيده يذكر أن هذا التفسير ليس بجيد <sup>(٦)</sup> .

وقد اختلفوا أيضاً في معنى لفظة « زنخة » التي وردت في بيت صخر الغي  
السابق ، فالسكري والأصمعي يذكران أنها الغيظ <sup>(٧)</sup> ، واللحياني فيما يرويه

(١) شرح أشعار الهذليين ٤٦/١ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثاني ٧٤/ .

(٣) لسان العرب : مادة ( خعب ) .

(٤) لسان العرب : مادة ( كذل ) .

(٥) لسان العرب : مادة ( رعى ) .

(٦) لسان العرب : مادة ( رعل ) .

(٧) شرح أشعار الهذليين ٤٦/١ . وديوان الهذليين ٧٤/٢ .

صاحب الأملالي يذكر أنها الدفعة (١) .

ويذكر صاحب اللسان في قول تأبط شراً :

ولا حَوَقْلٍ خَطَّارَةٌ حول بيته إذا العِزْمُس آوى بينها كلَّ حَوَقْلٍ  
 قيل في تفسيره : الحَوَقْلُ الظريف ، ويجوز عندي أن يكون من الحَتْلِ  
 الذي هو الخديعة بني منه فَوْعَلًا (٢) ، وعبارة صاحب اللسان الأخيرة تشعر  
 بأن هذه الكلمة قد تكون من اشتقاق تأبط شراً .

ولعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية ،  
 ولعل سبب هذا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبي ،  
 أو صاحب المذهب الذي يدعو الجماهير إلى اعتناق مذهبه ، فكان طبيعياً  
 أن يتبسط في الحديث إلى جماهيره باللغة التي يألّفونها ، هذا من ناحية ،  
 ومن ناحية أخرى لم يكن عروة بالصعلوك الذي اعتزل مجتمعه ، وعاش بين  
 حيوان الصحراء ووحشها ، كما كان يفعل غيره من الصعاليك ، وإنما كان  
 إنساناً بكل ما في الإنسانية من معان ، يحرص على الاتصال بمجتمعه الإنساني  
 والعمل من أجله ، ومن هنا خلصت لغته من تلك الحوشية البدوية التي نلاحظها  
 عند غيره من الشعراء الصعاليك ، وبخاصة تأبط شراً والشنفرى .

## ١١

### ظواهر عروضية :

إذا نظرنا بعد ذلك في مجموعة شعر الصعاليك لتبين خصائصها العروضية  
 فإننا نلاحظ أن الأوزان التي صاغ فيها الشعراء الصعاليك شعرهم هي الأوزان  
 نفسها التي عرفها سائر الشعراء الجاهليين : الطويل ، والبسيط ، والوافر ،  
 والكامل ، والمتقارب ، وأمثال هذه البحور التي ترددت فيها أنغام الشعر  
 الجاهلي .

(١) الفال : الأملالي ٢١٢/١ ، ٢١٣ .

(٢) لسان العرب : مادة ( حتل ) .

كما نلاحظ في شعرهم الذي جاء من بحر الطويل ذلك الزحاف الشائع في الشعر الجاهلي في هذا البحر ، وهو حذف ياء « مفاعيلن » ونون « فعولن » وتحول التفعيلة إلى « مفاعيلن » و « فعول » وهو ما يسميه العروضيون « القبض » ، وذلك مثل قول تأبط شرا :

تقولُ تركتُ صاحباً لك ضائعاً      وجئتُ إلينا فارقاً متباطنا  
إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة      أو اثنين مثلينا فلا أبتُ آمناً<sup>(١)</sup>  
ومثل قول الشنفرى :

فواكبداً على أميمة بعدما      طمعتُ فهبها نعمة العيش زلتُ<sup>(٢)</sup>  
ومثل قول الأعلم :

أحببني إنا قد يمتعنا الفنى      بأموالنا نربحها ونُسِيمها  
ونحبسها على العظامم نتقى      بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها  
إذا النفساء لم تخرس ببكرها      غلاماً ولم يسكت بحشر فطيمها<sup>(٣)</sup>  
ومثل قول أبي خراش :

كأن النضى بعدما طاش مارقاً      وراء يديه بالخلاء طميل<sup>(٤)</sup>  
والأمثلة على هذه الظاهرة العروضية أكثر من أن تعدّ ، فهي منتشرة في شعرهم انتشاراً واسعاً ، ويمكن أن ننظر مثلاً في ثابته الشنفرى المفضلية لتبين مدى هذا الانتشار ، ففيها عداً أحياناً قليلة منها تنتشر هذه الظاهرة في كل بيت من أبياتها .

كما نلاحظ أيضاً انتشار تلك العلة الجارية مجرى الزحاف التي تنتشر أيضاً في سائر الشعر الجاهلي . وهي إسقاط أول الوند المجموع من « فعولن »

(١) الأغاني ١٨/٢١٣ .

(٢) المفضليات / ٢٠٠ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٦٧ . وانظر من ٢٤٠ من هذا البحث .

(٤) ديوان الهذليين ٢/١٢١ - النضى : السهم بلا فصل ولا ريش . والطميل : السهم

لطفه الدم .

في أول القصيدة أو المقطوعة فتتحول إلى « فعلن » ، وهو ما يسميه العروضيون « الحرم » . وذلك مثل قول حاجر :

إِنْ تَذْكُرُوا يَوْمَ الْقَرَىٰ فَإِنَّهُ      بِوَاءٍ بِأَيَّامٍ كَثِيرٍ عَدِيدُهَا<sup>(١)</sup>  
وقول أبي الطمحان :

لَوْ كُنْتُ فِي رَمَانٍ تَحْرُسُ بَابَهُ      أَرَا جَيْلٌ أَحْبَبْتُ وَأَغْضَفْتُ آلفُ<sup>(٢)</sup>  
وقول الشنفرى :

لَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ      عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ<sup>(٣)</sup>  
وهي ظاهرة منتشرة أيضاً في شعر الصعاليك انتشارها في سائر الشعر الجاهلي .

ولكن هناك ظاهرة عروضية تلفت النظر في شعر الصعاليك وتستحق التسجيل ، وهي انتشار الرجز قبيل مصارعهم ، ولعل السبب في هذا سهولة هذا الوزن ، واتفاقه مع حركات القتال . وقد لقي كثير من الصعاليك مصارعهم في أثناء قتالهم مع أعدائهم ، وسقطوا في أثناء هذا القتال شهداء الفكرة التي عاشوا من أجلها .

وحين ننظر في شعر الصعاليك الذي قالوه قبيل مصارعهم نجد أن كثيراً منه كان رجزاً . فقيس بن الخدّادية يقاتل أعداءه وهو يرتجز حتى يقتل<sup>(٤)</sup> ، والشنفرى في ساعته الأخيرة حين يضرب أعداءه يده فيقطعونها يرثيها رجزاً<sup>(٥)</sup> ، وصخر الغي حين يحيط به أعداءه في ساعته الأخيرة يرتجز حائناً أصحابه على الثبات معه وعدم الفرار حتى لتبلغ أراجيزه في هذه الفترة الحرجة من حياته خمساً<sup>(٦)</sup> .

(١) الأغاني ٥١/١٢ (بولاقي) - البواء : السواء والكف ، من باء دمه يده إذا عدله .

(٢) الأغاني ١٣٢/١١ (بولاقي) .

(٣) الأغاني ١٣٦/٢١ .

(٤) الأغاني ٨/١٣ (بولاقي) .

(٥) الأغاني ١٤٣/٢١ . وشرح ابن الأنباري طل المفضليات/ ١٩٩ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٣١-٣٣ .

ومع ذلك فلمعرو ذى الكلب<sup>(١)</sup> أرجوزة طويلة يقص فيها قصة طريفة ،  
 هي غارة ذئب فاتك على غنمه ، ورميه بسهم من سهامه يلقيه صريعاً وقد  
 اختضب بعضه من بعض بدم ، كما يقول في نهايتها<sup>(٢)</sup> . ولعلها رمز لذلك  
 الصراع الدامى بين طبقة الصعاليك المظلومة وطبقة الرأسمالية الظالمة ، وائتصار  
 الصعاليك في النهاية في هذا الصراع .

---

(١) ودرى لأبى خراش ، ودرى لرجل من هذيل غيرمسمى (شرح أشعار الهذليين  
 ٢٣٩/١) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ .

## الفصل الرابع

### شخصيتان متميزتان

#### ١

#### تشابه وتميز :

رأينا أن صعاليك العرب سلكوا جميعاً أسلوباً واحداً في الحياة ، آمنوا بأنه الأسلوب الوحيد الذي يستطيعون به أن يرفعوا عن كواهلهم ما وضعت فوقها ظروف مجتمعهم الجغرافية ، وتقاليد الاجتماع ، وأوضاعه الاقتصادية ، من ضيم وهوان ، وهو ذلك الأسلوب الذي جعلنا شعاره « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

ورأينا أن صعاليك العرب جميعاً ، سواء منهم الخلقاء أو الأغربة أو الفقراء المتمردون ، قد تخلصوا من فكرة « العصبية القبلية » وشقوا طريقهم في الحياة دون تقيّد بقبائلهم ، أو رجوع إليها ، أو حرص على رضاها ، حتى أولئك الذين ظلوا على صلة بقبائلهم ، أو — بتعبير أدق — بمنازل قبائلهم ، لم تكن حركاتهم مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة في قبائلهم .

ورأينا أن مرّد هذا إلى إحساس هؤلاء الصعاليك بأنهم مهضومو الحق ، مستضعفون في الأرض ، وما نشأ عن هذا الإحساس بالضعف ، وعن هذه الرغبة في التسامى ، من « مركب نفسي » ، اتجه بهم إلى التمرد .

وليس من الطبيعي أن تكون كل شخصيات صعاليك العرب قد فئنت في هذه « العصبية المذهبية » التي استعاضوا بها عن « العصبية القبلية » ، وإنما الطبيعي أنه برغم هذا التشابه في جماعة الصعاليك ، يوجد تميز بين شخصياتهم ، فقد رأينا أن أساس حركة الصعلكة قوة النفس ، وأن قوامها مقدرة الفرد على الوقوف في وجه المجموع .



ومن الطبيعي تبعاً لهذا أن يختلف موقف الصعاليك من هذه الحركة التي وهبوا لها حياتهم . ونستطيع في سهولة أن نلاحظ شخصيتين متميزتين نرد إليهما جماعة الصعاليك : فهناك تلك الشخصية المتمردة التي رأت في هذه الحركة فرصة سانحة تظهر فيها بطولها الفردية ، وتستغلها إلى أبعد حد في إرضاء ما في نفسها من نزعة شريرة ، تصبح حياتها كلها بلون من الدم الأحمر القاني محجب إليها ، لا يرضيها إلا أن ترى تلك الرعوس اليانعة ، رعوس الأغنياء المترفين ، تتطاير تحت ضربات سيوفها ، وذلك المال الذي يملكونه يُسهب ، بل هي لا تبالي في سبيل ذلك بأن توجه حركاتها المتمردة الشريرة ضد أية جماعة من الناس لا ترضى عنها . وإلى جانب هذه الشخصية التي رأت أن يكون تمردا الوسيلة والغاية معاً ، نرى شخصية أخرى رأت أن يكون تمردا وسيلة لغاية إنسانية معينة ، هي رفع الظلم عن المظلومين ، وحماية المستضعفين من ضيم السادة الأقوياء ، وتهيئة الفرصة للفقراء المهضومة حقوقهم ليشاركوا سائر أفراد مجتمعهم في حياة اجتماعية كريمة عن طريق إحداث نوع من العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي القطري بين طبقتي هذا المجتمع الاقتصاديّتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك ، بما تنهيه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى .

وحين ننظر في مجموعة صعاليك العرب نجد أن أشهرَ من يمثل هذه الشخصية الأخرى عروة بن الورد ، أبو الصعاليك ، الذي أخذ على عاتقه من الناحية الاجتماعية أن يحقق هذه العدالة الاجتماعية وهذا التوازن الاقتصادي، ومن الناحية الفنية أن يقف موقف الداعية صاحب المذهب الذي يتخذ من شعره وسيلة للدعاية إلى مذهبه .

أما الشخصية الأولى فإن أفرادها أكثر من أن يحصوا ، لأنها تمثل طائفة التمردين من فتيان المجتمع الجاهلي ، وما أكثرهم ! ولعل الشنفرى من أصلح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الاجتماعية ، نظراً لإمعانه في التمرد والشر ، حتى ليذكر الرواة أنه آلى على نفسه ليقتلن مائة من بني سلامان بسبب لطفة لطمها له إحدى فتياتهم ، ولعله أصلح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الفنية لأن له بين الشعراء الصعاليك

أيدينا ديواناً مستقلاً نستطيع أن نضعه في الكفة الأخرى من الميزان أمام  
ديوان عروة :

## ٢

## عروة بن الورد :

ينتهي نسب عروة إلى قبيلة عبس ، فهو عروة بن الورد بن زيد<sup>(١)</sup> بن  
عبد الله بن ناشب بن هُرَيم بن لُديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس<sup>(٢)</sup> ،  
فهو من هذه الناحية في شرف من قبيلته ، ولكن أباه كانت عبس تتشامم به ،  
لأنه هو الذي أوقع الحرب بينها وبين فزارة بمراهنته حذيفة<sup>(٣)</sup> .

أما أمه فليس فيما بين أيدينا من أخباره ما يشير إليها ، ولكن عروة نفسه  
قد كفانا مشقة البحث عنها ، فهو يذكر في شعره أنها من نهد<sup>(٤)</sup> من قضاة<sup>(٥)</sup> ،  
ولكن الشيء الذي يلفت النظر في حديث عروة عن أمه أنه دائم السخط  
على هذه الصلة التي ربطت بين أبيه وأمّه<sup>(٦)</sup> ، بل إنه يهجو أخواله هجاء مرّاً<sup>(٧)</sup> ،  
ولعل من أسباب هذا أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من عبس<sup>(٨)</sup> ، أو ربما  
كانت هناك أسباب أخرى لم تصل إلينا أخبارها .

(١) وقيل ابن عمرو بن زيد (الأغاني ٧٣/٣) .

(٢) المصدر السابق : الصفحة نفسها . وفي شرح التبريزي على حاشية أبي تمام « عروة  
ابن الورد بن حابس بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة  
ابن عبس » (٨/٢) وفي تاريخ اليعقوبي « عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان  
ابن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة بن عبس » (٢٠٩/١) .

(٣) الأغاني ٨٨/٣ .

(٤) ديوانه ١٥٧/ البيت الأول .

(٥) المبرد : رسالة علفان وقحطان / ٢٤ .

(٦) ديوانه ١٥٧/ ١٥٨ .

(٧) المصدر السابق / ١٥٧ .

(٨) The Ency of Islam; art. Urwa b. al-Ward. (٨)

ولعل هذا الإحساس الذي سيطر على نفس عروة بأن أمه أقل شرفاً من أبيه هو الذى جعله ينسب كل ما يحسه من عار إلى تلك الصلة التى تربطه بأخواله النهابين<sup>(١)</sup> .

ومعنى هذا أن عروة قد وضع منذ نشأته الأولى بين شقى الرحى ، فأبوه تشاءم منه قبيلته ، وأمه من قبيلة أقل شرفاً .

وليس لدينا عن نشأة عروة الأولى سوى خبر واحد ، ولكنه قوى الدلالة على تلك الظروف الأولى التى جعلته يشعر بالظلم شعوراً قوياً سيطر عليه فى كل مراحل حياته بعد ذلك ، كما أنه قوى الدلالة على قوة نفسه التى بدأت براعمها فى الظهور منذ وقت مبكر . ففى الأخبار أنه كان له أخ أكبر منه وكان أبوه يؤثره عليه فيما يعطيه ويقربه ، « قليل له : أنثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه ؟ قال : أترون هذا الأصغر ؟ لئن بقى مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه »<sup>(٢)</sup> .

ومعنى هذا أن عروة تفتحت عيناه فى الحياة على صورة مختلة التوازن من صورها : صورة الأخ الأكبر الذى يؤثره أبوه مع غناه عنه ، وإلى جانبها صورة الأخ الأصغر الذى يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه . أليست هذه الصورة هى التى شاهدها عروة بعد ذلك فى المجتمع الذى يعيش فيه فى مجال أوسع : الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة بكل شىء مع غناهم ، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شىء مع شدة حاجتهم وضعفهم ؟

وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية فى الظهور فى هذه السن المبكرة .

وما إن تتقدم الأيام بعروة حتى تفتح هذه البراعم عن فلسفة ناضجة ، يؤمن بها كل الإيمان ، ثم يأخذ فى تنفيذها والدعوة إليها بكل قوة وحماسة .

(١) وما بى من عار إخال علمته سوى أن أخوال إذا نسبوا نهد (ديوانه / ١٥٧) .

(٢) الأغاني ٣ / ٨٨ .

ومن الطبيعي أن تجد دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً مؤمنة ، وأنصاراً مخلصين بين أولئك الفقراء المستضعفين الذين أجهدهم الفقر وأهزلهم الجوع ، وأذلهم الأوضاع الاجتماعية ، وسدت الحياة في وجوههم سبل العيش الحر الكريم ، فالتفت حوله طوائف من الصعاليك ، يخرج بأقويائهم فيغير ، ثم يوزع القنائم على من أغار بهم ، وعلى من تخلف عنه من المرضى والضعفاء أيضاً ، فربما عاد كل منهم إلى أهله وقد استغنى <sup>(١)</sup> .

وقد عرف الصعاليك في عروة هذه النفس الإنسانية القوية فكانوا إذا أصابهم السوء أتوه « فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغشنا » فيخرج ليفزو بهم <sup>(٢)</sup> .

وقد عرف عروة لهذه « الأبوة » - على حد تعبير هؤلاء الصعاليك الذين كان يسميهم « عياله » <sup>(٣)</sup> - أو لهذه « الزعامة » - كما يصح أن نطلق عليها - حقوقها . فلم يكن يؤثر نفسه بشيء على صعاليكه ، وإنما « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » <sup>(٤)</sup> ، وفي بعض غاراته ، وهو مع قوم من هؤلاء عشيرته في شتاء شديد ، قبض الله له رجلاً « صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه » فقتله وأخذ إبله ثم أقبل بالإبل يقسمها بين صعاليكه ، وأخذ مثل نصيب أحدهم <sup>(٥)</sup> .

وعرف هذا « الزعيم الشعبي » « نفسية جماهيره » فكان يقبل منهم أحياناً التواضع عليه إذا ما تحسنت حالتهم ، لأنه يعرف أنهم « كما الناس » على حد تعبيره <sup>(٦)</sup> ، ولأنه يترك أنهم « صنيعة » ، ولو أنه عاملهم كما يعاملونه لأفسد

(١) انظر الأغاني ٧٨/٣ ، ٧٩ ، والتبريزي : شرح حاشية أبي تمام ٩/٢ .

(٢) الأغاني ٨١/٣ .

(٣) ديوانه ٩٩ ، وحاشية أبي تمام ٧/٢ البيت الأخير .

(٤) التبريزي : شرح حاشية أبي تمام ٩/٢ .

(٥) الأغاني ٧٩/٣ ، وانظر التبريزي : شرح حاشية أبي تمام ٩/٢ وابن السكيت :

شرح ديوان عروة ١١٢ .

(٦) ديوانه ١١٢ البيت الأول ، وشرح التبريزي على حاشية أبي تمام ٩/٢ .

ما يصنع ، ولاتنقضت الجواهر من حوله ، وهو حريص عليهم لأنه حريص على تنفيذ مذهبه في الحياة . ففي أخباره أنه غم في بعض غزواته إبلا وامرأة ، فلما أخذ في قسمة الإبل بين صعايكة أخذ مثل نصيب أحدهم واستخلص المرأة لنفسه ، « فقالوا : لا واللوات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً ، فمن شاء أخذها ، فجعل بهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم ويتزع الإبل منهم ، ثم يذكر أنهم صنعته ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طويلاً ، ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم فجعل له راحلة من نصيبه »<sup>(١)</sup>.

وهو إلى جانب هذه « الزعامة » الحكيمة « قائد » موفق يخرج « بجنوده » ويرسم لهم الخطط الدقيقة التي تضمن لهم الفوز . ففي أخباره أنه خرج بصعايكة إلى أرض بني القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها ماء ، فرأى عليه آثاراً « فقال : هذه آثار من يرد هذا الماء فاكثروا ، فأحس أن يكون قد جاءكم رزق » ، فأقاموا يوماً « ثم ورد عليهم فصيل » ، فقالوا : دعنا فلنأخذه فلناكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وإن بعده إبلا ، فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذي جهدهم ، ووردت إبل بعده بخمس فيها ظعينة ورجل معه السيف والرمح ، والإبل مائة متال ، فخرج إليه عروة ، فرماه في ظهره بسهم أخرجه من صدره فخرميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه<sup>(٢)</sup> . أرأيت إلى هذه القيادة الموفقة كيف تتخير المكان والزمان ، وكيف تحكم اللحظة ولا تتعجل تنفيذها حتى تحين الفرصة المناسبة ؟

ومن مظاهر هذه القيادة الموفقة الحذر ، فقد كان عروة إذا نزل بصعايكة

(١) الأغاني ٣/ ٧٩ ، ٨٠ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه / ١١٢ . وشرح التبريزي على حاشية أبي تمام ٩/ ٢ .

(٢) شرح ابن السكيت على ديوانه / ١٠٣ ، ١٠٤ . وشرح التبريزي على حاشية أبي تمام

في موطن من موطن الخوف أخذ للأمر عدته فبحث أحد صعايكة فوق مرقبة عالية يرقب لهم الطريق ، بينما يشغل الباقيون في تهيئة طعام الجماعة أو في غير ذلك من الأعمال<sup>(١)</sup> .

وقد رأينا في تفسيرنا الجغرافي لظاهرة الصعلكة أن حركات عروة وصعايكة قد تركزت في شمالي الجزيرة العربية حول منطقة يثرب ، وأنها كانت تمتد إلى منطقة نجد أحياناً ، ومن هنا نشأت طائفة من الصلات الاقتصادية بينه وبين بني النضير الذين كانوا يتزلون في تلك المنطقة فكانوا « يقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا ضم »<sup>(٢)</sup> .

هكذا سلك عروة سبيله في الحياة ، يسلب الأغنياء أموالهم ليوزعها على الفقراء ، وفقاً لفلسفة معينة عبر عنها في شعره أصدق تعبير ، حتى أصبح شعره فبراساً يهتدى به قومه ، أو يأتمن به — على حد تعبير الخطيئة في حديثه مع عمر بن الخطاب<sup>(٣)</sup> .

وأساس فلسفة عروة أن « الغزو والإغارة للسلب والنهب » السبيل الوحيد للغنى لمن هو في مثل حالته :

ومن يك مثلي ذا عيال ومفترا من المال يطرح نفسه كل مطرح<sup>(٤)</sup>  
وما صاحب الحاجات من كل وجهه من الناس إلا من أجدر وشراً<sup>(٥)</sup>  
وليس وراء ذلك سوى إحدى نتائج ثلاث : نجاح الغزوة أو إخفاقها أو الموت في سبيلها ، أما إن كانت الأولى فقد حقق أهدافه وجاء الغنى معها ، وأما إن كانت الثانية فقد أبلغ نفسه عذرها ، « ومبلغ نفس عذرها مثل منجى » ، وأما إن كانت الثالثة فالموت خير من حياة الفقر والجوع والذل والهوان :

(١) انظر أبياته التي رسم فيها هذه الصورة في ديوانه / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) الأغاني ٧٦/٣ .

(٣) المصدر السابق / ٧٤ .

(٤) ديوانه / ٩٩ . وحاشا أبي تمام ٧/٢ .

(٥) ديوانه / ١٩١ .

ذريني أطوف في البلاد لعل  
 فإن فاز سهم للمنية لم أكن  
 وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد  
 أقيموا بني لبني صدور ركابكم  
 فقلت له ألا احى وأنت حر  
 فسر في بلاد الله والشمس الغنى  
 وهو يتمنى أن يصادف في أثناء انطلاقه هو وصعاليكه في البلاد غازين  
 مغيرين بعض أولئك الأغنياء أصحاب الإبل الكثيرة الذين يحرسون على مالهم  
 بالبخل والعقوق ، عقوق أفراد مجتمعهم الفقراء ، حتى يستردوا منهم بعض  
 حقوقهم عليهم :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي  
 سيدفعني يوماً إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل<sup>(١)</sup>  
 ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله ، فإذا يفعل سوى أن يغامر  
 في سبيل الغنى حتى يهيئ لنفسه شيئاً يقلمه لم ، فيحقق محسن ظنهم فيه ،  
 ويرضى نفسه الطموح إلى حسن الأحلوة وطيب الذكر ؟  
 يريح على الليل أضيافاً ماجد كريم ، ومالي سارحاً مالاً مقتر<sup>(٢)</sup>  
 وينساءل : أهلك أفراد من المجتمع لفقرهم وجوعهم في حين يعيش إخوان  
 لهم مترفين متخمين ، وهو قاعد لا يفعل شيئاً ، وهو الذي باع روحه للموت  
 في مخاطراته ومغامراته ؟

أهلك معتم وزيد ولم أقم على ندب يوماً ولي نفس مخطر<sup>(٣)</sup>

(١) ديوانه / ٦٦ ، ٦٧ . وجهرة أشعار العرب / ١١٤ . والأصمعيات / ٢٩ .

(٢) ديوانه / ١٠٦ .

(٣) ديوانه / ١٦٦ .

(٤) ديوانه / ١٩١ .

(٥) ديوانه / ١٠٨ ، ١٠٩ . وجهة أبي تمام / ٩٢ .

(٦) ديوانه / ٨٥ . والأصمعيات / ٣٠ .

(٧) ديوانه / ٨٢ . والأصمعيات / ٣٠ .



والغاية التي يريد أن يصل إليها - بطبيعة الحال - الغنى ، ولكنه لا يريد الغنى من حيث هو غاية يقف عندها ، وإنما يريد أن يكون وسيلته للارتفاع بمرتبة الاجتماعية بين أفراد مجتمعه ، من حيث إنه يهيئ له الفرصة التي يشارك فيها السادة الأغنياء في البذل والكرم واكتساب المحامد والمفاخر :

دعني أطوف في البلاد لعني أفيد غنى فيه لدى الحق محمل  
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول  
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تلم به الأيام فالموت أجمل<sup>(١)</sup>  
والفقير في رأيه شر الناس ، وأحقرهم عندهم ، وأهونهم عليهم مهما يكن  
له من فضل ، يخافه أهله ، وتزدريه امرأته ، حتى الصغير يستطيع أن يذله ،  
أما الغنى فمهما يفعل يقبل منه ، ومهما يخطئ يغفر له ، فللغنى رب يغفر  
الذنوب جميعاً :

ذريني للغنى أسعى ، فإني رأيت الناس شرهم الفقير  
وأذنأهم ، وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير  
يباعده القريب ، وتزدريه حليته ، ويقهره الصغير  
ويؤتى ذو الغنى ، وله جلال يكاد فؤاد لاقيه يطير  
قليل ذنبه ، والذنب جم ولكن للغنى رب غفور<sup>(٢)</sup>  
هكذا يسجل أبو الصعاليك فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة ،  
مشكلة الفقر والغنى ، في هذا الأسلوب الممتاز الذي يستمد امتيازه من عنصرين  
أساسيين هما السخرية والبساطة : السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذي  
يحترق الفقير لا لشيء إلا لأنه فقير ، ويقدّر الغنى لا لشيء إلا لأنه غنى ،  
والذي لا يهتم بغير المظاهر المادية ، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر  
فأمر وراء اهتمامه ، ثم البساطة التي نلمسها في عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض

(١) ديوانه / ٢٠٦ .

(٢) ديوانه / ١٩٨ ، ١٩٩ . وابن قتيبة : عيون الأخبار ١ / ٢٤١ ، ٢٤٢ . وابن

عبد ربه : العقد الفريد ٢ / ٢٩ .

السهل الذي لا يقبل معارضة ، أو يثير جدلاً ، والذي ينقذ إلى النفس من أقرب السبل ، ذلك العرض الذي يصح أن نطلق عليه « عرضاً شعبياً » ، حتى لنسمع أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطلب إلى معلم أولاده ألا يروّيهم هذه القصيدة ، ويقول له : « إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم » (١) .

وأسوأ طوائف الصعاليك عند عروة هم أولئك الصعاليك الذين يقضون حياتهم في خول وهوان وتخاذل ، وقعود عن طلب الغنى ، وخلعة لنساء الحى المترفات :

لحاً الله صُعلوكاً إذا جنَّ ليله مصافى المشاش ألفا كل مجزّر  
يعدُّ الغنى من دهره كل ليلة أصابَ قراها من صديق ميسر  
ينام عشاء ثم يصبح طاوياً يحُت الحصى عن جنبه المتفر  
قليلُ التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجور  
يعين نساء الحى ما يستعنه فيمسي طليحاً كالبعير المحسّر (٢)  
أما أولئك الصعاليك العاملون الذين يقضون حياتهم في العمل والكفاح والمغامرة فإن عروة معجب بهم إعجاباً شديداً ، لأنهم الذين آمنوا بمذهبه في الحياة ، وساكنوا مسيله فيها ، فهو لهذا يكيل لهم مدحه ويضئ عابهم ثناءه :

ولكن صُعلوكاً صَحيفة وجهه كضوء شهاب القابض المثنور  
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زَجَرَ المنيع المشهر  
فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوَّفَ أهل الغائب المتنظر  
فذلك إن يلتقِ المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر (٣)  
هكذا كان أبو الصعاليك يتأدى بمذهبه في أرجاء المجتمع الجاهلى . وليس

(١) الأغاني ٧٥/٣ .

(٢) ديوانه ٧٣ - ٧٧ .

(٣) ديوانه ٧٨ - ٨٢ .

من شك في أن دعوة عروة هذه قد لقيت إعجاباً من هذا المجتمع ظلت أصدائه ملوية حتى بعد ظهور الإسلام في البلاط الأموي نفسه، حتى لنسمع معاوية يقول « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم »<sup>(١)</sup>، وحتى ليستأذن بعض الناس عليه ويقول لآذنه : استأذن لي على أمير المؤمنين وقل ابن مانع الضيم ، فيقول معاوية : ويحك لا يكون هذا إلا ابن عروة بن الورد العبسي أو الحصين بن الحمام المري<sup>(٢)</sup> ، وحتى ليقول عبد الملك : من زعم أن حائماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد<sup>(٣)</sup> .

وأخص ما يتميز به أسلوب عروة في شعره أنه « أسلوب شعبي » ، فهو سهل اللفظ بالقياس إلى شعر مائير الصعاليك ، واضح المعنى ، قريب التعبير ، لا تكلف فيه ولا تصنع . وقد يكون هذا طبعياً بعد أن قررنا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بالداعية المذهبي أو الزعيم الشعبي الذي يحرص على استمالة الجماهير إليه .

ولعل عروة أكثر الشعراء الصعاليك استخداماً لتلك المقدمات النسائية التي اصطلمحنا على تسميتها « مقدمات القروسية » في شعر الصعاليك . وهذا أيضاً طبعياً فإن أخبار عروة مع نساءه السبايا تدل على احترام متغلغل في نفسه للمرأة ، ورواة الأدب العربي يصفونه بأنه كان لا يمس النساء<sup>(٤)</sup> .

### ٣

#### الشنفري :

إذا كان عروة يمثل الجانب الإنساني في حركة صعاليك العرب ، فإن الشنفري — ولا شك — يمثل الجانب الشيطاني فيها .

واسم الشنفري ، ونسبه ، ونشأته الأولى ، غامضة كل الغموض ، فكل

(١) الأغاني ٧٣/٣ .

(٢) الأغاني ١٢٣/١٢ (بولاقي) .

(٣) الأغاني ٧٤/٣ .

(٤) الأغاني ٧٥/٣ .

ما يعرف عن الجحنيين الأولين أنه الشنفرى ، وأنه كان من الإواكس بن الحيجتر ابن الهنوبن الأزدي<sup>(١)</sup> ، وأن أباه كان في موضع من أهله ولكنه كان في قلة<sup>(٢)</sup> ، وأن أمه كانت مسية<sup>(٣)</sup> .

والشنفرى أحد أولئك الأغربة الذين رأينا أنهم كانوا يمدون حركة الصعلكة بجماعات كبيرة من الصعاليك ، ويضعه صاحب لسان العرب نقلاً عن ابن سيده عن ابن الأعرابي بين « أغربة العرب »<sup>(٤)</sup> ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلاً عن التهذيب والمحكم ولسان العرب<sup>(٥)</sup> ، ويضعه ابن الأعرابي في نوادره بين أغربة الجاهلية<sup>(٦)</sup> ، والشنفرى نفسه يصرح في بعض شعره بأنه « هجين »<sup>(٧)</sup> .

ولكن يبدو أن الشنفرى يأبى إلا أن يوقعنا في إشكال غامض ، فإنه بعد بيت واحد من تصريحه هذا يعود فيصرح بأن أمه « ابنة الأحرار »<sup>(٨)</sup> ، وهنا نقف لتساءل : كيف يتفق التصريحان وبينهما هذا التناقض الظاهر ؟ ونعود إلى أخبار الشنفرى في مصادرنا المختلفة نسألها الإجابة عن هذا التساؤل ، ولكننا لا نظفر مع الأسف بشيء ، فإن رواية أخباره لم يقفوا عند هذا التناقض ، ولم يقدموا لنا الوسائل التي تعيننا على هذه الإجابة ، لأنهم لم يذكروا شيئاً له قيمة عن أسرة الشنفرى ، لا عن أبيه ولا عن أمه ، حتى لنباحظ الأستاذ

(١) كذا في الأغاني ١٣٤/٢١ ، والذي في خزائن الأدب البغدادي (١٦/٢) الأواس بفتح الهمزة ، والمحرف بفتح الحاء المهمله وسكون الجيم ، والهمزة بثلاث الهاء وسكون النون وبملها همزة ، وهو الذي في ديوانه المطبوع ٢٧ .

(٢) ابن الأنباري : شرح المفصليات / ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق / ١٩٥ .

(٤) انظر مادة (غرب) .

(٥) مادة « غرب » . ولكن الغريب أن يذكره هذان المصنفان بين الأغربة الإسلاميين وهو خطأ فاحش ، فكل مصدر حياة الشنفرى صريحة في أنه جاهل ، والأغرب من هذا أن ينقل ناشرو « الأغاني » بدار الكتب المصرية نص التاج في أحد هوامشهم ( ٢٤٠ / ٨ ) دون أية إشارة إلى ما فيه من خطأ .

(٦) السيوطي : المزهر ٢ / ٢٦٩ .

(٧) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٤ من ٢٠ .

(٨) المصدر السابق ص ١٣٤ من ٢٢ .

Lyal أن « أصل الشنفرى ونسبه مسألتيان شديدتا الغموض »<sup>(١)</sup> . والواقع أن أخبار الشنفرى كلها قليلة ومضطربة حتى ليعارض رُواتها بعضهم بعضاً ، ومن هنا ترددت كلمة « لا » النافية في أول كل خبر منها<sup>(٢)</sup> . ومن الحق ما يذكره Lyal من أن القصص التي تروى حول الشنفرى لا تتفق دائماً مع قصائده ، وإنما هي أقرب إلى أن تكون صورة من الأساطير الشعبية التي كثرت حول أبطال العصر الجاهلي من أن تكون أخباراً حقيقية<sup>(٣)</sup> .  
ومع ذلك فلا بد من محاولة للإجابة عن هذا التساؤل .

يرى Fresnel أنه من المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر وأم أمة ، وبهذا يكون الشنفرى من أولئك الذين يطلقون عليهم في الولايات الأمريكية اسم Quarteron<sup>(٤)</sup> . ولكن هذا الرأي لا يعدو أن يكون فرضاً ، وصاحبه يصريح بأذه شيء من الممكن أن يفترض<sup>(٥)</sup> ، وهكذا تظل المشكلة قائمة ، ويظل السؤال وارداً .

أما أنا فيبدو لي أن المسألة أيسر من هذا ، وأنها لا تحتاج إلى تكلف مثل هذا الفرض الاحتمالي ، وأن وصف الشنفرى لأمه بأنها « ابنة الأحرار » لا يعدو أن يكون تعبيراً عاطفياً يتلاءم مع ذلك الجو العاطفي الشديد الحساسية الذي قبلت فيه الأبيات<sup>(٦)</sup> ، فهو صرخة من نفس الشنفرى الحساسة في وجه ابنة سيده المتعجرفة ، يعلن لها فيها أن العبودية وضع اجتماعي خاطئ لا يعترف به ، لأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 79 (n. 28), Oxford, 1918.

(٢) الأغاني ١٣٧/٢١ - ١٤٢ .

(٣) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 68.

(٤) Fulgence Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re lettre) ; p. 93.

والكلمة معناها من أبوه أبيض وأمّه من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود أي أن فيه الريح من دم زنجي .

Ibid. ; p. 93. (٥)

(٦) الأغاني ١٣٤/٢١ ، ١٤٢ .

من أمه أمة فإن هذا لا يغير من الوَضْع الإلهي الذي خلقها الله عليه ، فهي ابنة أحرار قبل أن تكون أمةً ، ولو أن هذه الفتاة المتعجزة عرفت أصلها لعرفت أنها ابنة أحرار مثلها ، ولهذا يعقب على قوله « وأمي ابنةُ الأحرار » بقوله « لو تعرفينها » ، فكأنه يقول لما ذلك القول الذي قاله عمر بن الخطاب لعمر بن العاص فيما بعد : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وكأن المسألة عنده مسألة نسبية ، فإذا كانت هذه الفتاة ترى أمه أمةً فإنه يراها ابنة أحرار .

ومع ذلك فما زال في المشكلة جانب يحتاج إلى تفسير ، وهو قول الشنفرى بعد ذلك :

إذا ما أرومُ الودَّ بيني وبينها      يومَ بياضِ الوجه مني يمينُها<sup>(١)</sup>  
والذي يبدو لي أن وصف الشنفرى لوجهه بالبياض إما أن يكون على طريقة العرب في التعبير عن اللديغ بالسليم ، وإما أن يكون لوناً من السخريّة من اهتمام هؤلاء السادة بمسألة اللون . ومع ذلك فهذا البيت لم يرد إلا في رواية واحدة من روايات الأغاني المتعددة عن هذه القصة ، وهي رواية مجهولة الراوية ، فيها بعض تفصيلات غير معقولة<sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من أمر فإن لفظة « الشنفرى » تحمل في طياتها دليلاً على أصل هذا الشاعر ، فمن معاني هذه اللفظة الرجل الغليظ الشفتين<sup>(٣)</sup> ، وغلظ الشفتين - كما هو معروف ، وكما يقرر علماء الأجناس - من سمات الجنس الأسود . ويجعل Fresnel هذه الظاهرة من أدلته على أنه « من المؤكد أن أم الشنفرى كانت أمةً سوداء أو من دم مختلط »<sup>(٤)</sup> ، كما يجعلها Lyall دليلاً

(١) الأغاني ٢١/١٤٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه الصفحة نفسها .

(٣) الزنجشوى : أعجب العجب في شرح لامية العرب / ١١ ، والبغدادي : خزائن الأدب

١١/٢ .

(٤) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re. lettre), p. 93. (٤)

على أنه : من المرجح أن دماً إفريقيّاً زنجيّاً أوحشيّاً كان يجري في عروقه ،<sup>(١)</sup> .  
أما عن بدء تصعلكه فإنه غامض ككل الغموض ، وتروى عنه ثلاث روايات : إحداهما عن محمد بن هشام الثمري بسنده وتذكر أن الشنفرى أسرته بنو شابة بن فهم فلم يزل فهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج<sup>(٢)</sup> من الأزد رجلاً من بني شابة ، فقدته بنو شابة بالشنفرى ، فكان الشنفرى في بني سلامان لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره ، وكان السلاوى اتخذه ولداً ، فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أختى ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم ، فقال له : اصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الإواس بن الحجر ، فقال : أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتموني<sup>(٣)</sup> .

وأما الثانية فمن رواية مجهول يكذب فيها هذه الرواية ويقول إن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمي ، فأبوا أن يبيعوا بقتله ، فباء بقتله رجل منهم يقال له حركم بن جابر ، فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم<sup>(٤)</sup> .  
وأما الثالثة فمن رواية مجهول أيضاً يكذب فيها هاتين الروایتين ، ويقول : بل كان من سبب أمر الشنفرى أن بني سلامان بن مفرج سبوا الشنفرى وهو غلام ، فجعله الذي سباه في بهيمة يرعاها مع ابنة له ، فلما خلاها ذهب ليقبلها ، فصكت وجهه ، ثم سمعت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليه ليقته ، فوجده ينشد ألياناً يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه ، فلما سمع الرجل قوله سأله : ممن هو ؟ فقال : أنا الشنفرى أخو بني الحارث بن ربيعة ، فقال له : : لولا أنى أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي ، فقال :

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II, p. 68.

(٢) ضبطت في هذا الموضع بتشديد الراء ، ولكن الذى في شعره « مفرج » بتخفيفها وكسرهما ( انظر بيته رقم ٢٨ من تائيته في المفضليات / ٢٠٥ وفي الأغاني ٢١ / ١٤٠ ) وهو الصواب ( انظر القاموس المحيط : مادة فرج ) .

(٣) الأغاني ٢١ / ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق / ١٣٧ - وباء بقتله أى أقر واعترف به .



على أن قتلوك أن أقتل منهم مائة رجل بك ، فأنكحه ابنته ، ونحلي سبيله ، فسار بها إلى قومه ، فشددت بنو سلامان خلافاً على الرجل فقتلوه ، ثم أخذ يوفى بوعده للرجل فيغزو بني سلامان ويقتلهم<sup>(١)</sup> .

ويروى ابن الأثير عن نشأته الأولى ثلاث روايات : اثنتين عن مؤرخ ، إحداهما تلك التي يرويها صاحب الأغاني عن النعمان ، والأخرى يقول فيها : ويقال إن السبب في غزو الشنفرى الأزدي وقتلهم أن رجلاً منهم وثب على أبيه فقتله ، والشنفرى صغير ، وكان أبوه في موضع من أهله ولكنه كان في قلة ، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحد ارتحلت به وبأخ له أصغر منه حتى جاورت في فهم ، فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى ، فجعلت تبدو منه عرامة ، وجعل يكره جانبه ، فوقع في نفس تأبطشرا ، فكان يكرمه ويدنيه ، وكان يغير مع تأبطشرا حتى صار لا يقام لسبيله<sup>(٢)</sup> .

والرواية الثالثة عن رواية مجهول ، يقول فيها إن الأزدي قتل رجلاً من فهم في خفرة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمي ، فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ولم يفلوهم ، فنشأ فيهم الشنفرى ، فكان شديد البأس والنفس وكان أشد فهم على الأزدي قتلاً سلباً<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات المتناقضة المضطربة فإن المسألة في أبسط صورها ترجع إلى أن الشنفرى لسبب من الأسباب فقد توافقه الاجتماعي مع قبيلته الأزدي ، ثم انتقل إلى قبيلة فهم ، تلك القبيلة المتمردة المشهورة بلصوصها<sup>(٤)</sup> ، وهناك اتصل به تأبطشرا ، ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ، فلقد درس الصعلكة الأولى حتى صار لا يقام لسبيله ، ورأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته الأزدي قد سنحت له فصب عليها كل غزواته .

(١) المصدر نفسه / ١٤٢ .

(٢) ابن الأثير : شرح المفضليات / ١٩٦ ، وأيضاً / ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤) The Ency. of Islam; art. al-Shanfara. (٤)



ولعل أقرب هذه الروايات إلى الحقيقة، وأبعدها عن أوهام الرواة، الرواية الثانية التي يرويها ابن الأنباري عن مؤرج، والتي تتحدث عن قتل الأزد أباه. والشنفرى نفسه في بعض شعره يصرح بأن قومه قد أضاعوا أباه<sup>(١)</sup>، وفي أخباره أنه « قلم منى وبها حرام بن جابر فليل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله »<sup>(٢)</sup> ، وهو يصرح بهذا في تائيته المفضلية<sup>(٣)</sup>.

وأياً ما كانت الأسباب لهذا الحقد الذي ملأ نفس الشنفرى على بنى سلامان فإنه قد وهب حياته للانتقام منهم ، فكان يغير على الأزد على رجله فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك<sup>(٤)</sup>.

وبلغت الرغبة في الانتقام في نفس الشنفرى حدًّا جعله يحرص على التفتن فيه ، فكان يصنع النبل ويجعل أفواقها من القرون والعظام ، فإذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها في قتلاهم<sup>(٥)</sup> ، وكان إذا رى رجلاً منهم قال له تحدياً : أأطرك ؟ ثم يرى عينه<sup>(٦)</sup>.

ويقتل الشنفرى منهم - فيما تزعم الروايات - تسعة وتسعين ، ثم يتربص به أعداؤه ، ثم يقتلونه بعد أن يتفتنوا في تعذيبه تفتناً قاسياً ، ثم يمر رجل منهم بمجمعتهم فيضربها فتعقره فيموت ، وتم به المائة الذين كانت حلفاء الشنفرى عليهم<sup>(٧)</sup>.

(١) أضعم أبي إذ مال شق وساده على جنف ، قد مال من لم يوسد (ابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٨ - وديوانه المطبوع / ٢٥).

(٢) الأغاني ١٣٧/٢١.

(٣) قتلنا حراماً مهدياً بلبس بطن من وسط الحبيج المصوت (المصدر السابق : الصفحة نفسها ، وانظر المفضليات / ٢٠٥).

(٤) الأغاني ١٣٥/٢١.

(٥) المصدر السابق / ١٤٢.

(٦) المصدر نفسه / ١٣٦. وابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٦.

(٧) انظر المصدرين السابقين : الأغاني / ١٣٥ - ١٣٦ ، ١٣٧ - ١٣٨ ، ١٤٢ -

١٤٣ ، وابن الأباري / ١٩٦ - ١٩٩. وانظر أيضاً ابن حبيب : المغتالين (مصورة) لوحة

رقم ٩٣ - ٩٤.

ويدور الجزء الأكبر من شعر الشنفرى حول هذا الصراع بينه وبين  
بنى سلامان ، والجزء الباقى منه حول أحاديث تصهاكك وقره وتشرده وغاراته  
على غير بنى سلامان .

ويساير هذا الشعر حياة الشنفرى منذ طفولته ، فهم يروون له بيتين  
يخاطب بهما أمه بعد مقتل أبيهم موت أخيه<sup>(١)</sup> ، تظهر فيهما قوة نفسه وبراعم  
تمرده الأولى .

فإذا ما لطمت الفتاة السلامية سجل هذه الحادثة البعيدة الأثر فى حياته ،  
وسجل أسفه لأن هذه الفتاة المغرورة لا تعرف شيئاً عن نسب أبيه وأمه ، ثم  
يتحدث إليها عن كرم نسبه<sup>(٢)</sup> .

ثم إذا ما بدأ الصراع المرير بينه وبين بنى سلامان حرص على أن يسجل  
كل شيء فى شعره : تهديده لم ، وتربص به ، وأحاديث غاراته عليهم ،  
ويصف أسلحته التى يستخلمها ، ويتحدث عن رفاق غاراته ، وعن أعدائه  
وضحاياهم ، حتى إذا ما أمسك به أعداؤه وقطعوا يده رثاها بأرجوزة<sup>(٣)</sup> ، هى  
مزيج من الحزن والفخر حتى لا يشمت أعداؤه به ، فإذا ما أخذوا يسخرون  
منه ويسألونه أين يدفنونهم رد عليهم بمقطوعة رائعة<sup>(٤)</sup> ، تظهر فيها قوة نفسه ،  
فهو لا يحرص على أن يدفن ، وإنما كل ما يوصى به أن يلقوا بجسده إلى  
الضبع ، رفيقة تشرده .

والى جانب هذا التسجيل لأحاديث الصراع بينه وبين بنى سلامان سجل

(١) ديوانه المطبوع / ٣٧ . والأغاني ١٣٧/٢١ . وابن الأنبارى / ١٩٦ . مع اختلاف فى الروايات .

(٢) ديوانه المطبوع / ٤٠ ، ٤١ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٢ . والأغاني ١٣٤/٢١ ، ١٤٢ .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين ( مصورة ) لوحة رقم ٩٣ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٤ ، ٥ والأغاني ١٣٨/٢١ . وديوانه فى الطرائف الأدبية / ٤٠ .

(٤) ابن حبيب : كتاب المغتالين ( مصورة ) لوحة رقم ٩٣ ، ٩٤ وابن الأنبارى : شرح  
المفضليات / ١٩٧ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٦ ، ٧ ، والأغاني ١٣٦/٢١ ، وديوانه فى الطرائف  
الأدبية / ٣٦ ، والشعر والشعراء / ١٨ ، ١٩ ، والمقد القريد ١/١١٨ - ١١٩ .

في شعره جوانب أخرى من حياته : فقره ، وهزاله ، ونعليه الممزقتين ، وثيابه البالية ، وحمله قربة الماء ، وتشرده في الصحراء بين الوديان المخيفة حيث الجن والآساد ، وغاراته على غير بني سلامان .

ويوشك ما وصل إلينا من شعر الشنفرى أن يدور كله داخل دائرة التصعلك ، ونقول يوشك لأن تائته المفضلية تبدأ بمقلعة طويلة من النسب التقليدى<sup>(١)</sup> ، يرسم فيها صورة رائعة ممتازة لصاحبه الحية الوفية الجميلة .

ومما يؤسف له أن مجموعة شعر الشنفرى التى بين أيدينا - برغم أنها مجموعة فى ديوان - قليلة ، فإذا أخرجنا منها « لامية العرب » التى رجحنا أنها ليست له ، والتائية المفضلية ، فإن ما يتبقى منها طائفة من المقطوعات والقصائد القصيرة . وأخص ما يميز أسلوب الشنفرى الفنى تلك الحشونة اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدى تمثيل ، ثم تلك القوة التعبيرية التى تجعل أسلوبه أسلوباً محكماً لا رخاوة فيه ، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صلق التصوير ، والصراحة فى النقل عن الحياة :

(١) المفضليات / ١٩٤ - ٢٠٢ ، والأغاني / ٢١ / ١٣٨ - ١٣٩ ، وديوانه المصور لوحة

## الختامة

### ١

#### الصعاليك :

رأينا أن مادة « صعلك » تدور في دائرتين اصطلاحنا على تسميتهما بالدائرة اللغوية والدائرة الاجتماعية ، وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هي الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت عند الفقر ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يظل في نطاقها فقيراً ، لأنه لا يستطيع أن يغير الوضع الاجتماعى الذى فرض عليه لضعف في نفسه ، أو لضعف في جسده ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتبعد عن نقطة البدء محاولة ألا تنتهى عندها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على هذا الفقر ولكن بطريقة خاصة هي تلك التى جعلنا شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، تدفعه إلى ذلك قوة في نفسه وقوة في جسده ، أى أن المادة في هذه الدائرة الاجتماعية قد اكتسبت صفات اجتماعية جديدة .

ووقفنا بعد ذلك نلتمس السرفى نشأة هذه الظاهرة ، فنظرنا في المجتمع الجاهلى من ناحية بيئته الجغرافية ، ورأينا أن الظاهرة الجغرافية التى تسيطر على هذا المجتمع هي ما اصطلاحنا على تسميتها « بظاهرة التضاد الجغرافى » ، ورأينا أن هذه الظاهرة كانت العامل الأول في نشأة حركة الصعاليك ، لأنها كانت السبب في وجود الفقر وفي إحساس الفقراء به . ورأينا أن هذه الظاهرة تدخلت مرة أخرى في توجيه حركات الصعاليك التى كانت تخرج دائماً من المناطق الحدودية إلى المناطق الحصينة ، ورأينا أن كل مناطق الحصب في الجزيرة العربية قد تعرضت لغزوات الصعاليك ، ثم رأينا أنه من الممكن أن نحدد مناطق

حركات الصعاليك، فرأينا أن عروة وصعاليكه قد توزع نشاطهم بين منطقتين أساسيتين : منطقة نجد ، ومنطقة يثرب وما يجاورها شمال جزيرة العرب ، وإن لم يمنع هذا من أن يغير أحياناً على غير مناطق اختصاصه ، ورأينا أن منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف وأول الطريق الصاعد إلى اليمن هي المنطقة التي شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب ، وأن أشهر الصعاليك الذين اشتهروا في هذه المنطقة صعاليك فهم وهذيل ومن انضم إليهم من خلعاء القبائل وشذاذها ، ورأينا أن منطقة اليمن عرفت أجزاءها القريبة من الحجاز صعاليك من فهم ومن الأزد ، وأما أجزاءها البعيدة فقد تخصص في الإغارة عليها السليك ، وإن يكن تأبط شراً يتعدى أحياناً على منطقة اختصاص السليك . ولفت نظرنا في صعاليك هاتين المنطقتين أن أكثرهم - إن لم يكونوا جميعاً - من العدائين ، وقد رددنا هذا إلى ثلاثة عوامل ، طبيعة المنطقة الجبلية ، وبعد الأهداف ، وقلة الخيل . ثم وقفنا عند هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو ، وقلنا إنها ليست بالظاهرة المستحيلة ، وإنما هي صورة من صور التكيف العضوي بين الإنسان وبيئته .

ثم مضينا إلى المجتمع الجاهلي نلتبس فيه تفسيراً لظاهرة التصعلك ، فرأينا أنه مجتمع قبلي ، آمنت كل قبيلة فيه بوحدة الاجتماعية وبكرم جنسها ، ورأينا أن إيمان القبيلة بوحدة أوجد طائفة الخلعاء والشذاذ في هذا المجتمع ، وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة المهجناء والأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصية القبلية ، مؤمنين بعصية مذهبية ، معتمدين على قوتهم في سبيل العيش ، شأنهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه ، غاية ما في الأمر أن عملهم فردي يجري بدون رضا القبيلة ، وعمل القبائل جماعي معترف به .

ثم مضينا إلى الناحية الاقتصادية في هذا المجتمع فرأينا أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور ممراً تجارياً نشطاً لطرق القوافل ، وأنه على طول هذه الطرق قامت مجموعة من الأسواق . ورأينا أن مراكز نشاط الصعاليك كانت

عادة على طول هذه الطرق ، وبالقرب من هذه الأسواق . ورأينا أن الصعاليك قد استغلوا هذه الأسواق استغلالاً آخر فكانت لهم فرصة يستقون فيها ضحاياهم . وقد عللنا كثرة الصعاليك في منطقة السراة حول مكة بوقوع هذه المنطقة على الطريق التجارى ، وبوجود ثلاث أسواق مشهورة فيها . ورأينا أن هذه الأسواق قد شهدت السطور الأولى من قصة طائفتين من طوائف الصعاليك هما طائفة الأغربة وطائفة الخلعاء ، ففي هذه الأسواق -أو في بعضها على الأقل- كانت تجرى تجارة الرقيق التي كانت سبباً في نشأة طبقة الأغربة ، وفيها -أو في الأسواق الأساسية منها- كان الإعلان الرسمي الذي تذيبه القبائل عن خلعهما بعض أفرادها الخارجين عليها .

ورأينا أن المدن العربية قد عرفت لونا من النشاط التجارى الذى ترتب عليه تضخم الثروة وتركزها في أيدي نفر قليل من أهلها ، الأمر الذى أحدث لونا من الاختلال الاقتصادى ، نشأت عنه كثرة عدد الصعاليك الذين كانوا في حالة ميثة حملت أكثرهم على الهرب إلى الصحراء والحقاق بعصابات الصعاليك المنتشرة بها .

فإذا مضينا إلى داخل البادية العربية وجدنا ثمة صراعاً بين طبقة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك ، وقد رددنا هذا إلى التفاعل بين ظاهرتين متناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى ، ورأينا أن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت عادة الإبل ، لأنها الثروة الأساسية في المجتمع البدوى ، وإن لم يمنع هذا من أن تمتد أيدي الصعاليك إلى أية غنيمة تعرض لهم .

## ٢

### شعر الصعاليك :

رأينا أن شعر الصعاليك لم يصل إلينا منه مجموعاً سوى ديوانين هما ديوان عروة وديوان الشنفرى ، ورأينا أن هذا الشعر قد توزع بين مصادر الثقافة

العربية المختلفة ، وأن من يريد أن يجمع « ديوان الصعاليك » عليه أن ينقب بين كل هذه المصادر . وقد لاحظنا على المادة التي جمعناها والتي تكون ديوان الصعاليك ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها . ورأينا أن مجموعة شعر الصعاليك التي دار حولها الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخلياً » ، والخطب في هذه المجموعة هين ، ومجموعة كان الشك فيها « خارجياً » ، وأشهر شعر هذه المجموعة لاميتان تنسيان لتأبط شرا والشتفري ويتم خلف الأحمر بصنعهما ، وقد وقفنا عند هاتين اللاميتين طويلاً ، وانتهينا إلى ترجيح نسبتهما إلى خلف .

ثم مضينا إلى مجموعة شعر الصعاليك فدرسنا موضوعاتها ، ورددنا هذه الموضوعات إلى مجموعتين أساسيتين : مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، ومجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة .

ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد تعرضوا في المجموعة الأولى لكل ما كان يلور في حياتهم الفردية أو حياتهم الجماعية ، فتحدثوا عن مغامراتهم ، وعن تربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم ، وعن توعدهم أعداءهم وتهديدهم لهم ، وعن أسلحتهم سواء منها أسلحة الهجوم أو أسلحة الدفاع ، وتحدثوا عن رفاقهم الذين رافقوهم في هذه المغامرات ، وتحدثوا عن فرارهم وهربهم ، وعن سرعة عدوهم ، وعن غزواتهم على الخيل ، وعللوا لمغامراتهم ، وفسروا الدوافع التي دفعتهم إليها ، وذكروا العقد النفسية التي كانت سبباً لها ، كما تحدثوا عن آرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، وعن نشردهم في أرجاء الصحراء المقفرة ، وانصالحهم بحیوان الصحراء ووحشها وأشباحها .

أما المجموعة الأخرى ، مجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة ، فإننا تلمسنا أولاً آثار القبلية فيها ، ولاحظنا أن هذه المجموعة من الشعر القبلي التي تقابلنا في شعر الصعاليك قليلة . كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

ثم مضينا بعد ذلك إلى المختصرين من الشعراء الصعاليك فتلمس الآثار

الإسلامية في شعرهم بعد الإسلام . ومن الطبيعي أن موضوعات هذه المجموعة الإسلامية قد خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة الصعلكة ، ومع ذلك فقد رأينا رواسب ضئيلة من الصعلكة تتسرب من حين إلى حين في أثناء هذا الشعر .

ثم مضينا ندرس الظواهر الفنية في شعر الصعاليك ، فلاحظنا أول ما لاحظنا أنه شعر مقطوعات ، وقد ملنا في تعليلنا لهذا إلى طبيعة حياة الصعاليك نفسها ، تلك الحياة القلقة التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده . ثم لاحظنا ظاهرة أخرى وهي ظاهرة الوحدة الموضوعية ، ورأينا أن أكثر مقطوعات شعر الصعاليك وقصائده تقبل العناوين ، بل إن مطولاته - برغم تعدد أغراضها - نستطيع أن نردها إلى أصل موضوعي واحد ، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع الواحد ، ورأينا مع ذلك أن هناك طائفة قليلة جداً من قصائد شعر الصعاليك لا تخضع لهذه الظاهرة ، وقد رددنا هذا إلى ما سمينا « ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية » ، وقلنا إن هذه الظاهرة ليست من الخطر في شيء على الفكرة التي نقررها . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك قد تخلص من المقدمات الطولية التي عرفها الشعر القبلي ، ما عدا تلك المجموعة التقليدية ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك استعاضوا عنها بمذهب آخر أطلقنا عليه « مقدمات القروسية في شعر الصعاليك » . ثم لاحظنا بعد ذلك أن شعر الصعاليك قد تخلص أيضاً من التصريح في مطالع نماذج الفنية ، ورأينا أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك . ثم لاحظنا بعد ذلك أن مجموعة شعر الصعاليك التي اصطللحنا على تسميتها « الشعر داخل دائرة الصعلكة » قد تحلل أصحابها من الشخصية القبلية، وحلت محلها ظاهرة أخرى أطلقنا عليها « ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك » ، وأن هذه الظاهرة كانت ظاهرة شاذة في المجتمع الأدبي الجاهلي فأطلقنا على الشعراء الصعاليك « أصحاب المذهب الشاذ في الشعر الجاهلي » . ثم درسنا



ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد استغلوا في شعرهم كل ما يلور في حياتهم الحافلة بالحوادث المثيرة استغلالاً قصصياً رائعاً ، وانتهينا إلى أن شعر امرئ القيس ليس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية ، وإنما تسبق هذا مرحلة أول هي مرحلة الشعراء الصعاليك الذين تميل إلى أن امرأ القيس قد تأثر بهم في قته ، ومن هنا أطلقنا على الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية في الأدب العربي » . ثم وقفنا طويلاً عند الواقعية في شعر الصعاليك ، وبيننا مظاهرها المتعددة . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك يمتاز بالسرعة الفنية ، وأن ميزته الكبرى « خفوت الصنعة الفنية » ، ورأينا أن التشبيه أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك ، ووقفنا طويلاً عند هذه الظاهرة ، فدرسنا المنابع المختلفة التي تكون « صنلوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » ، وكيف استغلوها ، ورأينا إلى جانب التشبيه ألواناً فنية أخرى من ألوان الصنعة الفنية المتهلة ، فدرسنا النماذج الفنية التي رأيناها فيها . ثم وقفنا بعد هذا عند الخصائص اللغوية في شعر الصعاليك ، ورأينا أولاً أن لغتهم هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي ، غير أننا لاحظنا أنها أقرب إلى فطرة اللغة العربية وأصلق تمثيلاً لها ، ولاحظنا كثرة الغريب في شعرهم . ثم وقفنا أخيراً عند الظواهر العروضية في شعرهم ، ورأينا أن أوزان شعرهم وزحافات هي الأوزان والزحافات التي عرفها سائر الشعر الجاهلي ، غير أننا لاحظنا انتشار الرجز في شعرهم الذي قالوه قبيل مصارعهم .

ثم وقفنا بعد ذلك عند شخصيتين متميزتين من الشعراء الصعاليك تميزاً اجتماعياً وفنياً: عروة بن الورد الذي يمثل شخصية الصعلوك صاحب المذهب الإنساني ، أو شخصية الزعيم الذي يدعو الجماهير إلى الإيمان بمذهبه ، والشنفرى الذي يمثل شخصية الصعلوك المتمرد الذي رأى أن يكون تمرده الوسيلة والغاية معاً .

وبعد ، فهذه هي ظاهرة الصعلكة في المجتمع الجاهلي كما رأيناها في شخصيات صعاليكه ، وهذه هي دراستنا الفنية لما بين أيدينا من شعرهم .

والله ولي التوفيق .

## المصادر والمراجع

آثرت الاكتفاء بذكر المصادر والمراجع الأساسية ، أما الفرعية فقد رأيت من التريـد تسجيلها في هذا الثبـت بعد أن وردت في هوامش البحث ، كما آثرت علم ذكر المعجمات اللغوية – على كثرة ما رجعت إليها – لأنها عامل مشترك في كل الأبحاث الأدبية ، وإن كنت أحب أن أشير إلى أن « لسان العرب » لم يكن بالنسبة لي معجماً لغوياً فحسب ، وإنما كان أيضاً – لكثرة ما يضمه من أبيات للشعراء الصعاليك – مصدراً أدبياً كبير الأهمية لشعرهم .

• • •

### ١ – المصادر القديمة

- ١ – الآمدى : المؤلف والمختلف ( القلمى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ ) .
- ٢ – ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ( العثمانية بالقاهرة ١٣١١ هـ ) .
- ٣ – ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ( الوهية بالقاهرة ١٢٨٠ هـ ) .
- ٤ – أسامة بن منقذ : لباب الآداب ( الرحمانية بالقاهرة ١٩٣٥ ) .
- ٥ – الأصفهاني ( أبو الفرج ) : الأغاني :  
من الجزء الأول إلى الجزء التاسع ( طبعة دار الكتب المصرية ) .  
ومن الجزء الرابع عشر إلى الجزء العشرين ( طبعة بولاق ) .  
والجزء الحادى والعشرون ( طبعة لندن ) .  
أما الأجزاء من العاشر إلى الثالث عشر فنظراً لتداخل مواضع التراجع بها بين طبعة دار الكتب وطبعة بولاق رأيت أن أشير إلى الطبعة في هوامش البحث .
- ٦ – الأصمعى : فحولة الشعراء ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٥ بيمورية أدب ) .

- ٧ - ابن الأنباري : شرح المفضليات ( بيروت ١٩٢٠ ) .
- ٨ - ابن الأنباري : نزهة الألبا في طبقات الأدبا ( حجب بالقاهرة ١٢٩٤ هـ ) .
- ٩ - البحتري : كتاب الحماسة ( القاهرة ١٩٢٩ ) .
- ١٠ - البصري ( علي بن الفرغ ) : الحماسة البصرية ( نسختان بدار الكتب المصرية : مخطوطة تحت رقم ٥٢٠ - أدب ، ومصورة تحت رقم ٦٣٠٠ - أدب ) .
- ١١ - البغدادي : خزانة الأدب ( بولاق ) .
- ١٢ - البكري : معجم ما استعجم ( القاهرة ١٩٤٥ )
- ١٣ - البيهقي : المحاسن والمساوي ( الطبعة الأوربية ١٩٠٢ )
- ١٤ - التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ( بولاق ١٢٩٦ هـ ) .
- ١٥ - التبريزي : شرح القصائد العشر ( المنيرية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ )
- ١٦ - أبو تمام : الحماسة الصغرى « الوحشيات » ( نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٧ - أدب ) .
- ١٧ - الثعالبي : كتاب الشعراء ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٨١ - تاريخ ) .
- ١٨ - الجاحظ : الحيوان ( الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأولى ) .
- ١٩ - الجاحظ : البيان والتبيين ( الطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٣٢ ) .
- ٢٠ - الجاحظ : رسائله ( القاهرة ١٩٣٣ ) .
- ٢١ - حاتم الطائي : ديوانه ( لندن ١٨٧٢ )
- ٢٢ - ابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء ( مجلة المقتطف عدد مايو ١٩٤٥ )
- ٢٣ - ابن حبيب : كتاب المغتالين ( نسختان بدار الكتب المصرية : خطية تحت رقم ٥٧ ش أدب ، ومصورة تحت رقم ٢٦٥٦ تاريخ ) .
- ٢٤ - ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ( السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ ) .
- ٢٥ - حسان بن ثابت : ديوانه ( السعادة بالقاهرة ١٣٣١ هـ ) .

- ٢٦- الخالديان : الأشباه والنظائر « حماستهما » (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر) .
- ٢٧- ابن خلدون : المقدمة (التجارية بالقاهرة بدون تاريخ)
- ٢٨- ابن خلدون : تاريخه (القاهرة ١٩٣٦) .
- ٢٩- ابن **دريد** : **جمهرة اللغة** (حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ هـ)
- ٣٠- ابن دريد : الاشتقاق (جوتنجن ١٨٥٤)
- ٣١- الدبلي : الفلاكة والمفلوكون (الشعب بالقاهرة ١٣٢٢ هـ)
- ٣٢- الدميرى : حياة الحيوان الكبرى (الشرفية بالقاهرة ١٣١٣ هـ)
- ٣٣- الزمخشري : أعجب العجب في شرح لامية العرب (الطبعة الأولى بالجواثب ١٣٠٠ هـ)
- ٣٤- الزمخشري : الفاائق في غريب الحديث (حيدر آباد الدكن ١٣٢٤ هـ)
- ٣٥- الزمخشري : الكشاف (الطبعة الثانية بيولاى ١٣١٨ هـ)
- ٣٦- **السجستاني** : **كتاب المعمرين** (ليدن)
- ٣٧- السكرى : شرح أشعار الهذليين (لندن ١٨٥٤)
- ٣٨- السكرى : ديوان الهذليين (دار الكتب المصرية ١٩٤٨)
- ٣٩- ابن السكيت : شرح ديوان عروة بن الورد (الجزائر ١٩٢٦)
- ٤٠- السهيلي : الروض الأنف (الجمالية بالقاهرة ١٩١٤)
- ٤١- السيوطى : **المزهر** (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- ٤٢- ابن الشجرى : كتاب الحماسة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ)
- ٤٣- الشنفرى : ديوانه (نسختان : مطبوعة في مجموعة الطرائف الأدبية بلجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧- ومصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٦٧٦- أدب) .
- ٤٤- الطبرى : تاريخه (الحسينية بالقاهرة) .
- ٤٥- ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر)
- ٤٦- أبو عبيدة : شرح نقائص جوير والفرزدق (ليدن ١٩٠٥) .



- ٤٧ - العيني : شرح الشواهد الكبرى ( على هامش خزانة الأدب للبغدادى بولاق ) .
- ٤٨ - ابن فارس : مقاييس اللغة ( الطبعة الأولى بالقاهرة )
- ٤٩ - الثعالى : الأمالى والنوادر ( دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ) .
- ٥٠ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ( لندن ١٩٠٢ ) .
- ٥١ - ابن قتيبة : المعارف ( الإسلامية بالقاهرة ١٩٣٤ ) .
- ٥٢ - ابن قتيبة : عيون الأخبار ( دار الكتب المصرية ١٩٢٥ ) .
- ٥٣ - القرشى ( أبو زيد ) : جمهرة أشعار العرب ( بولاق ١٣٠٨ هـ ) .
- ٥٤ - ابن الكلبي : كتاب الأصنام ( دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ) .
- ٥٥ - ابن المبارك : منتهى الطلب من أشعار العرب ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ ش ) .
- ٥٦ - المبرد : الكامل ( لينزج ١٨٧٤ ) .
- ٥٧ - المرزبانى : معجم الشعراء ( القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ ) .
- ٥٨ - المسعودى : مروج الذهب ( البية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ ) .
- ٥٩ - المعرى : شرح حماسة أبي تمام ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٠٨ - أدب ) .
- ٦٠ - الميدانى : مجمع الأمثال ( بولاق ١٢٨٤ هـ ) .
- ٦١ - النيسابورى : لطائف المعارف ( مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٢ - أدب ) .
- ٦٢ - الهمداني : صفة جزيرة العرب ( لندن ١٨٨٤ ) .
- ٦٣ - الواقلى : كتاب المغازى ( كلكتة ١٨٥٥ ) .
- ٦٤ - ياقوت : معجم البلدان ( القاهرة ١٩٠٦ )
- ٦٥ - ياقوت : معجم الأدباء ( دار المأمون بالقاهرة ) .
- ٦٦ - اليعقوبى : تاريخه ( لندن ١٨٨٣ ) .

## ٢ - المراجع الحديثة

(أ) العربية :

- ٦٧ - أحمد أمين : فجر الإسلام ( الطبعة الثالثة بلمجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ ) .
- ٦٨ - أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ( الطبعة الأولى بالقاهرة ١٩٤٥ ) .
- ٦٩ - بنتلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ( بيت المقدس ) .
- ٧٠ - جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ( القاهرة ١٩٠٨ ) .
- ٧١ - جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ( القاهرة ) .
- ٧٢ - جرجى زيدان : تاريخ تمدن الإسلامى ( القاهرة ١٩٠٥ ) .
- ٧٣ - سليمان حزين : تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦ ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٣٦ ) .
- ٧٤ - عبد الوهاب حمودة : نظرية الأنساب فى الميزان ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ ) .

(ب) المترجمة إلى العربية :

- ٧٥ - لوبون ( جوستاف ) : حضارة العرب ( ترجمة محمد عادل زعير ، القاهرة ١٩٤٥ ) .
- ٧٦ - ميرز ( ج . ل . ) : المناخ والجغرافيا وأثرهما فى التاريخ ( فى موسوعة تاريخ العالم لحون هامرتن ، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٤٩ ) .
- ٧٧ - ولكن ( ج . ا . ) : الأمم عند العرب ( ترجمة بنتلى صليبا الجوزى - كازان ١٩٠٢ ) .

## (ج) في اللغات الأجنبية :

78. Dermenghem (Emile); *The Life of Mahomet*, (London, 1930)
79. Doughty; *Travels in Arabia Deserta*, (London, 1930.)
80. Fresnel; *Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme*, (Paris, 1836).
81. Groves (Ernest R.); *Personality and Social Adjustment*, (U.S.A., 1931.)
82. Huzayyin (S.); *Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud*, (Bulletin of the Faculty of Arts, Vol. III, Part I, May 1935.)
83. Lammens (Henri); *Le Berceau de l'Islam*, (Rome, 1914).
84. Lammens (Henri); *La Mecque à la veille de l'Hégire*, (Beyrouth, 1927).
85. Mac Iver; *Society*, (New York, 1944).
86. Muir (Sir William); *The Life of Mohammad*, (Edinburg, 1912).
87. Nicholson (Reynold A.); *A Literary History of the Arabs*, (London, 1923).
88. O'Leary (De Lacy); *Arabia before Muhammad*, (London, 1927).
89. Sédillot; *Histoire Générale des Arabes* (Paris, 1877).
90. Semple (Ell-n Churchill); *Influences of Geographic Environment*, (London, 1937).
91. Smith (W. Robertson); *Kinship and Marriage in Early Arabia*, (London, 1903).
92. Zwemer; *Arabia, the Cradle of Islam*, (U.S.A., 1912).

هذا إلى جانب انتفاعي بدائرة المعارف الإسلامية :

*The Encyclopaedia of Islam*

وبكتاب بركلمان :

*Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur.*





## الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي

فوق رمال البادية الحرة الأبية، وفي أعماقها الغامضة الرهيبة، عاش صعاليك العرب في العصر الجاهلي، عصابات من خلعاء القبائل وشذاذها، وأغربتها السود، وفقرائها المتمردين، يجمع بينها الفقر، والتشرد، والتمرد على النظام القبلي، والإيمان بأن الحق للقوة، في محاولة عنيفة ناثرة لتحقيق صورة من العدالة الاجتماعية، والتوازن الاقتصادي.

من هؤلاء الصعاليك نبغ جماعة من الشعراء، اتخذوا من شعرهم وسيلة لإعلان فلسفتهم الاجتماعية والاقتصادية، وتصوير حياتهم بكل ما يدور فيها من بطولة ومغامرة وتمرد، وطلعوا على مجتمعاتهم بلون من الشعر تحللوا فيه من الشخصية القبلية، وأحلوا محلها شخصياتهم الفردية، فجاء شعرهم جديداً في أفكاره ومعانيه وطرائقه في التعبير والتصوير.